

Weghat Nazar - Volume 6 - Issue 61 - February 2004

مجلة شهرية . العدد الحادى والستون . السنة السادسة . فبراير ٢٠٠٤ . الثمن عشرة جنيهات

◆ ◆ ◆

مسلمون .. ولكن أوربيون / طارق رمضان / محمد يوسف عدس / يوسف القرضاوى

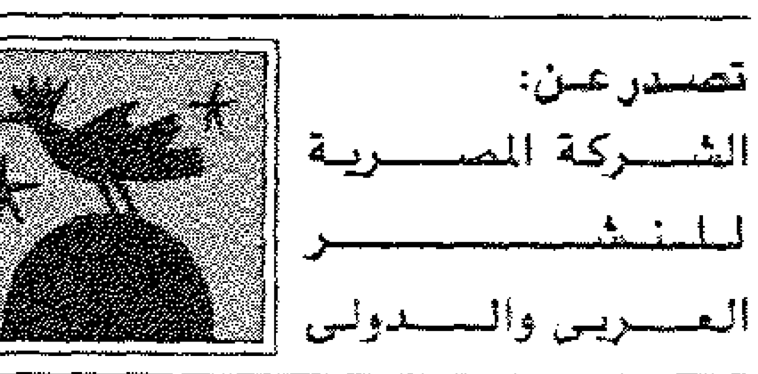
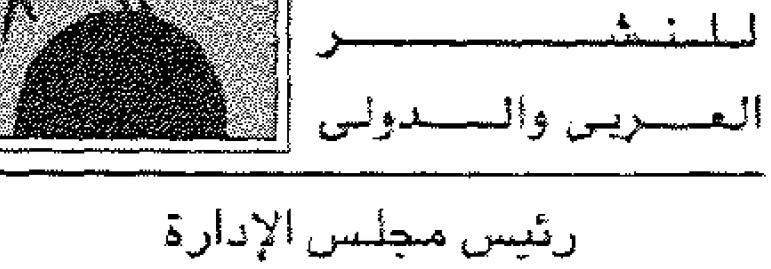
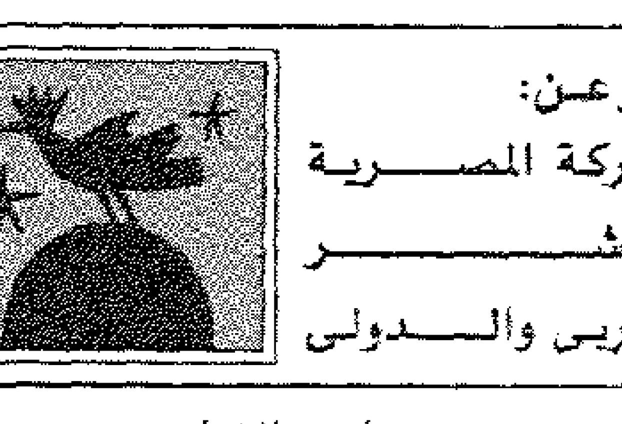
الحاجز .. «شظايا رواية» / عزمى بشارة

بول أونيل : ثمن الولاء للرئيس / صبرى حافظ

إنه عام التفكيك والتركيب / سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة
رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى
مدير التحرير
أيمن الصياد

الكتب
وجهات نظر
في الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:
الشركة المصرية
للنشر
العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

السنة السادسة
العدد الحادى والستون
فبراير ٢٠٠٤

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى
البحوث والمتابعة
هديل غنيم



محتويات العدد :

كتّاب العدد :

- أيمن الصياد .. صحفى.
- حسن حنفى.. أستاذ الفلسفة بجامعة القاهرة.
- خالد عصفور .. أستاذ مساعد بكلية الهندسة، جامعة مصر الدولية.
- رضوى الشافعى .. صحفية.
- سحر خليفة .. أديبة فلسطينية.
- سلامة أحمد سلامة .. صحفى.
- صبرى حافظ .. أستاذ الأدب العربى الحديث بجامعة لندن.
- طارق رمضان .. أستاذ بجامعة فريبورج بسويسرا.
- عزمى بشارة.. سياسى وأكاديمى من عرب إسرائيل.
- فاروق عبدالقادر.. كاتب.
- فتح الله الشيخ .. أستاذ علم الطبيعة بجامعة جنوب الوادى.
- ماثيو إليوت.. باحث فى التاريخ الثقافى للشرق الأوسط.
- محمد يوسف عدس .. باحث فى التاريخ والشئون السياسية مقيم فى إنجلترا.
- نصير شمة .. موسيقار عراقي مقيم في القاهرة.
- وليد محمود عبد الناصر.. دبلوماسى بوزارة الخارجية.
- يوسف الشريف .. صحفى.
- يوسف القرضاوى .. داعية ومفكر إسلامي.

رسوم العدد للفنانين :

عبدالعال. سعد الدين شحاته. أحمد اللباد





المراسلات :

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب ـ القاهرة ـ جمهورية مصر العربية
ت : ٣٩٢٠٤٩٠/ ٣٩٢٠٤٩٢/ ٣٩٢٠٤٩٦ ـ فاكس ٣٩٢٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@alkotob.com
الموقع على الإنترنت: www.weghatnazar.com

الاشتراكات :

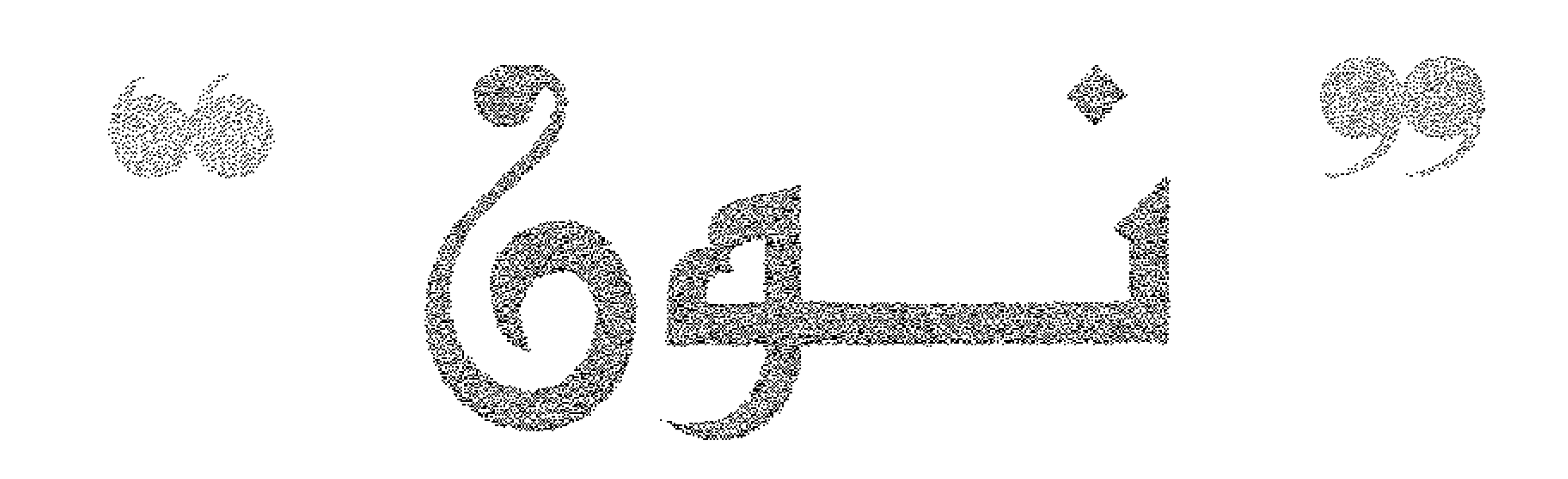
السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد : داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى ـ اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا ـ أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا ـ أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا ـ باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ص . ب : ٣٣ البانوراما ـ مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ ـ e-mail: weghat @alkotob.com

ثمن النسخة :

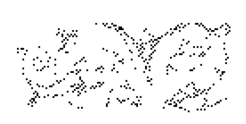
فى مصر ١٠ جنيهات مصرية ـ السعودية ٢٠ ريالاً ـ الكويت ١.٥ دينار ـ الإمارات ٢٠ درهما ـ البحرين ديناران ـ قطر ١٥ ريالا ـ عُمان ريالان ـ لبنان ٥٠٠٠ ليرة ـ سوريا ١٥٠ ليرة ـ الأردن ديناران ونصف ـ ليبيا ديناران ـ الجزائر ٢٠٠ دينار ـ المغرب ٢٠ درهمًا ـ تونس ٤ دنانير ـ اليمن ٣٠٠ ريال ـ فلسطين ٣ دولارات.

Austria , France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة



إنــه عــام التفكيــك والتركــيب



سلامة أحمد سلامة

** لم يكن الزلزال الذى أحال مدينة «بام» التاريخية فى إيران إلى كومة من الأنقاض، راح ضحيته أكثر من ثلاثين ألفًا فى الساعات الأخيرة من العام الماضى، غير إرهاصة غامضة لعام قادم لا يقل وعداً بمفاجآت وتحولات درامية مثيرة، قد تصل فى مفعولها درجة الزلازل.. بعضها فى طريق التحقق بالفعل. والبعض الآخر تتجمع الأعاصير والعوامل المؤثرة لتعمل على إنتاجها وتوليدها بحسابات مسبقة. والبعض الثالث قد يخرج كلية من دائرة الحسابات والتوقعات إلى دائرة الظنون والتكهنات. ولكنها جميعاً تؤذن بالانتقال إلى مرحلة التفكيك والتركيب فى صياغة الشرق الأوسط.

وبعبارة أخرى، فهناك بدايات لعدد من الأحداث انطلقت من عقالها قبل فترة ولم تصل إلى نهايتها المحتومة بعد. وهى تشق طريقها خلال عام ٢٠٠٤ كما تشق سفن الفضاء طريقها عبر وسط سبقت دراسة ظروفه وطبيعته وطبقاته، بحيث يمكن بشىء من الحسابات الدقيقة التنبؤ بنتائجه بدرجة معقولة من الصواب. وهناك تطورات وقعت، واستراتيجيات يجرى رسمها، وعناصر يتم تعبئتها، بهدف تحقيق الشروط التى تؤدى إلى نتائج متوقعة فى إطار خطط وتصورات كونية، وإن بقيت محصورة فى دائرة الاحتمالات. ثم أخيراً يأتى عنصر المفاجآت التى لا يمكن حسابها بالكمبيوتر، والتى تتجاوز إرادة الإنسان وتستعصى عليها، وكأنما تهبط من السماء أو تخرج من الأرض أو تنفجر وتثور كما تنفجر البراكين دون مقدمات.

على أن العامل الحاسم فى كل ما يُنتظر وقوعه من تغيرات، سوف يظل مرتبطاً بدرجة أو بأخرى بما يقع من تحولات، وما يتخذ من قرارات، وما يرتكب من أخطاء داخل الدائرة الحاكمة فى البيت الأبيض.. حيث لم يعد شك فى أن العالم أصبح بإزاء دولة عظمى تهيأت لها فى العصر الحديث أقصى إمكانات القوة الاقتصادية والعسكرية والتكنولوجية. فهى تتصرف وتمشى وتتكلم كإمبراطورية عظمى. وتتخذ منها دول العالم الأخرى أحد مواقف ثلاثة:

إما أن تنحاز إليها وتمالئها وتساندها فى كل تصرفاتها، سعيًا لنيل رضاها وتأمين مصالحها والدفاع عن نفسها.

وإما أن تسعى إلى الحد من اندفاعاتها وكبح جماح تصرفاتها خوفاً من ضياع مصالحها. والفريق الثالث هو الذى لا حيلة له ولا رأى ولا موقف. فلا يملك غير التسليم بكل ما تطالب به القوة العظمى.



ومن هنا فلا حاجة بنا إلى القول بأن عنصر الحسم فى كثير مما سيأتى به المستقبل القريب، سوف يتوقف على انتخابات الرياسة الأمريكية ومن سيجلس فى البيت الأبيض. وخلال أيام قليلة يتحدد اسم المرشح الديمقراطى فى الانتخابات الأولية. ولعدة شهور قادمة سوف يتعين علينا أن نعتمد على استطلاعات الرأى وقياسات اتجاهات الرأى العام التى أظهرت فارقًا يتراوح بين ست وعشر نقاط صعوداً وهبوطًا بين الرئيس بوش الذى سيخوض المعركة مستنداً إلى نفوذه ووجوده فى البيت الأبيض. وبين أحد المرشحين الديمقراطيين: هوارد دين أو كيرى، الذى ترجح المؤشرات اختيار أحدهما لمنافسة بوش.

وبينما تكشف الأرقام الحالية تأييد نحو ٦٠٪ من الشعب الأمريكى لسياسات الرئيس بوش فى العراق، واقتناعهم بوجود صلة ما بين التورط الأمريكى فى الحرب على العراق واستمرار الحرب على الإرهاب، فإن الموقف المائع للتردد الذى اتخذه هوارد دين أقوى المرشحين الديمقراطيين، الذى رفض مبررات الحرب ولكنه لم يستطع إدانتها بشكل قاطع.. لن يكون كافيًا لتغيير كفة الموازين الراجحة إلى جانب بوش.

وسوف يكون من الصعب لفترة قادمة التكهن بما تحمله الظروف من تطورات قبل الانتخابات الرياسية فى نوفمبر المقبل.. قد يقدم بوش على بعض قرارات استعراضية ضد سوريا أو للقبض على بن لادن. ولكن الوجود العسكرى الأمريكى وما تواجهه قوات التحالف فى العراق من عمليات استنزاف بطيئة سوف يظل ذا تأثير نفسى وسياسى بالغ، إلى جانب حملات التخويف والرعب المستمرة من تعرض الأمن القومى الأمريكى داخليًا وخارجيًا لتهديدات جماعات الإرهاب، وذلك أشبه بلعبة الكرات التى يلقيها لاعب السيرك تباعاً إلى أعلى فى وقت واحد ويلتقطها دون أن تسقط منه على الأرض. فإذا أضفنا إليها الأوضاع الاقتصادية والجهود الفائقة لتحقيق تحسن ولو بطىء فى نسبة البطالة، حتى وإن كان على حساب الزيادة الرهيبة فى عجز الميزانية وانخفاض سعر الدولار أمام العملات العالمية، فإن موقف الرئيس بوش سيظل خاضعاً لعوامل لا يملك السيطرة عليها تماماً. وإن كان من السهل على أى رئيس جالس فى البيت الأبيض أن يستغل مكانته ونفوذه والأغلبية الجمهورية التى يسيطر عليها فى الكونجرس، لاستصدار قوانين وانتهاج سياسات تضمن له الفوز فى النهاية، ولم يكن القرار الذى اتخذه بوش أخيراً بالسماح لحوالى ٨ ملايين من المهاجرين غير الشرعيين القادمين من دول أمريكا اللاتينية بالحصول على تراخيص عمل، غير واحدة من هذه الحيل التى يسعى من خلالها إلى كسب أصوات جانب كبير من أصوات الأمريكيين من أصول لاتينية. ومعنى ذلك أنه مالم تحدث كارثة كبرى فى العراق فإن فرص بقاء بوش فى البيت الأبيض تظل راجحة حتى إشعار آخر.



لا يحتاج الأمر إلى جهد كبير لاستنتاج أن الأحداث الرئيسية التى وقعت فى العام الماضى، سوف تصاحبنا صعوداً

«وجهات نظر».. فى عامها السادس

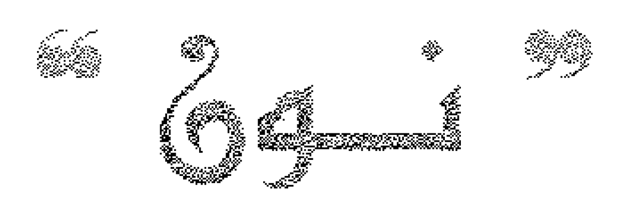
بهذا العدد تكون مجلة «الكتب.. وجهات نظر» قد أكملت عامها الخامس ودلفت إلى عامها السادس. وخمسة أعوام فى عمر مجلة تعنى بشئون الثقافة والفكر والسياسة، يحتضنها قارئها ويسعى إليها، وتتواصل مع دوائر تزداد اتساعاً فى أنحاء الوطن العربى، لهو دليل على قدرتها على مواجهة التحديات والصعاب، فى محيط عربى تتكاثر عليه الهموم والمشكلات التى قد تصرفه عن القراءة بل وعن التفكير!

أن يقع القارئ العربى فى هذه المجلة على ما يروى ظمأه إلى المعرفة التى تقول تقارير التنمية الإنسانية أن العالم العربى وهو يتطلع إلى إقامة «مجتمع المعرفة» لابد أن يسعى إليها، فذلك هو الهدف والغاية التى أخذت هيئة تحرير المجلة نفسها به من أجل تحقيقه، وهى تنفتح على مجالات واسعة من الموضوعات والكتب والأفكار التى تجعل منها جسراً للثقافة والفكر والحوار بين عالمين. ومازال شعارها كما هو دائماً: مجلة مختلفة لقارئ مختلف.

وفى هذه المناسبة فإن «وجهات نظر» ترحب بكل ما يعن لقارئها من ملاحظات وآراء ومقترحات، وقبل كل شىء ما يوجهه من نقد ومساءلة، سعيًا إلى الأفضل والأرقى والأكمل فى نظر القارئ.

(المحرر)

إنه عام التفكيك والتركيب



وهبوطاً خلال هذا العام. ولا حاجة إلى التأكيد على أن حقبة جديدة قد بدأت فى العراق وربما فى المنطقة كلها، وبعد أن سقط العراق فى أيدى قوات التحالف بقيادة القوات الأمريكية وغاصت أمريكا فى تعقيدات الموقف العراقى وتصاعد المقاومة، تبخرت معظم موجات التفاؤل التى سيطرت على الإدارة الأمريكية فى بادئ الأمر وأصبح الأمل هو فى خروج أمريكى مبكر، بشرط ألا تضيع من بين يديها الأهداف الاستراتيجية التى زينت للمحافظين الجدد طريق الحرب على العراق.

ويمكننا أن نرى الآن كيف ينتظر أن يتداعى الموقف على النحو الذى تخطط أمريكا له فى العراق على امتداد الشهور القليلة القادمة.

هناك مجلس حكم انتقالى جرى تشكيله . على عجل . من القوة الرئيسية التى ترى واشنطن أنها قادرة على التأثير فيها لصياغة عراق جديد، أعطت فيها لكل من الأكراد والشيعة تمثيلاً يرضى طموحات الفريقين، ولكنه لا يلبى مطالب الوضع التاريخى التقليدى للسُنة التى أمسكت مقاليد الحكم فى العراق قروناً متعاقبة. ويشعر السُنة بالفعل أن قوة الاحتلال الأمريكية لا تألو جهداً فى تهميشها. كما أن الوضع القوى الذى اكتسبه الأكراد فى ظل الحكم الذاتى الذى مارسوه تحت حماية قرار الحظر الأمريكى البريطانى الذى ظل مطبقاً على العراق أكثر من عشر سنوات، من ناحية.. واقتناع الشيعة بأنهم يمثلون الأغلبية السكانية فى العراق وأنه قد آن الأوان للحصول على نصيب من السلطة يوازى تعدادهم من ناحية أخرى، لا يدع مجالاً للشك فى أن مصير دولة العراق الواحدة يواجه تحديات صعبة.

وما يثير القلق هو أن وحدة العراق لا تبدو بالنسبة لأمريكا أمراً مقدساً أو غير مطروح للنقاش، بل إن العكس صحيح. فقد طرحت فى واشنطن أفكار ومقترحات لبعض الدوائر النافذة فى رسم السياسة الخارجية، تدعو إلى التقسيم: أكراد فى الشمال، شيعة فى الجنوب، مثلث سُنى فى الوسط. ومما يعزز هذه الشكوك أن قوات الاحتلال سعت منذ بداية دخولها للعراق إلى تحطيم الدولة وأجهزتها ومؤسساتها وقدمتها لقمة سائغة لعمليات نهب منظم استمرت أسابيع طويلة. وجرى تطهير جهاز الدولة من عشرات الألوف من الموظفين بحجة انتمائهم لحزب البعث.

ويزداد الموقف تعقيداً إذا لاحظنا أنه رغم الضغوط الدولية، واقتناع أغلبية أعضاء مجلس الحكم بضرورة إشراك الأمم المتحدة فى عملية نقل السلطة حتى لا يظل الوضع بأكمله فى يد قوات الاحتلال، فإن أمريكا لا تريد أن تتخلى بسهولة عن خططها فى العراق.. على أساس إقرار قانون أساسى مؤقت، يتمخض عن تشكيل جمعية تشريعية تنبثق عنها حكومة مؤقتة تتولى وضع الدستور على أن يتم ذلك فى شهر يونيو، على رجاء بأن تهدأ الأوضاع بانتقال السلطة مع بداية العام القادم إلى أيدى العراقيين أنفسهم، وتتهيأ للرئيس بوش ظروف مواتية لخوض معركة انتخابية مضمونة النتائج، بعيداً عن الأخبار المزعجة التى تتدفق على الرأى العام الأمريكى يومياً من العراق.

ولكن هل تأتى رياح المشكلات والخلافات التى بدأت تطفو على السطح بين الأكراد والشيعة، وبين الشيعة والسُنة، بما يشتهى ربان السفينة الأمريكية؟ وهل يبقى العراق وحدة واحدة، أم ينجح الأكراد فى فرض الخيار الفدرالى أو الكونفدرالى؟ وهل تحتفظ قوى الجوار الإقليمى بهدوء أعصابها. وهى ترى انفصال الأكراد، أو هيمنة الشيعة، أو تهميش السُنة؟



لن يستطيع أحد الحيلولة دون تقسيم العراق غير العراقيين أنفسهم. ولكن إلى أى مدى سوف تنجح القوى العراقية على اختلاف أشكالها وتوجهاتها فى الحفاظ على وحدة الدولة وتماسكها؟ هذا هو سؤال عام ٢٠٠٤ الذى لا توجد له إجابات قاطعة. كما لا توجد إجابات واضحة عن الغايات الحقيقية للضغوط الأمريكية على سوريا، وقانون محاسبة سوريا الذى أصدره الكونجرس بقصد تضييق الخناق على النظام البعثى المتمرد الذى يقوده بشار الأسد.. فبعد أن وقَّعت إيران على البروتوكول الإضافى لاتفاقية منع الانتشار النووى، ومن خلال دبلوماسية المساعدات الإنسانية فى مواجهة كارثة الزلزال، تحاول واشنطن إغراء إيران لكى تتخلى عن كثير من سياساتها المتشددة. سواء بالوقوف إلى جانب حزب الله اللبنانى أو مساندة الشيعة فى العراق، أو تشجيع سوريا وتعضيدها.. بحيث لا يبقى أمام سوريا مفر من الاستجابة للمطالب الأمريكية بالتخلى عن الأسلحة المحظورة واقتفاء آثار ليبيا، والانسحاب من لبنان، والتخلى عن تأييد الفصائل الفلسطينية واللبنانية التى تتهمها أمريكا بالإرهاب، تحقيقاً للظروف التى تسمح لإسرائيل بالسلام الذى تريده بشروطها مع الفلسطينيين، وليس بالشروط التى تم التوافق عليها دولياً فيما يسمى بخريطة الطريق.

ويبدو أن مصر انحشرت فى موقف يزداد صعوبة وتعقيداً.

فهى من ناحية تواجه موقفاً ليبياً أقل ما يوصف به أنها لم تكن تتوقعه أو على علم بخفاياه وأسراره وصفقاته وما يمكن أن يتطور إليه. وهى من ناحية أخرى تؤيد الموقف السورى الرافض للتخلى عن الأسلحة المحظورة إلا فى إطار إخلاء كامل لأسلحة الدمار الشامل فى المنطقة كلها بما فى ذلك إسرائيل ببرنامجها النووى غير المُعلن. وعلى الرغم من أن العزلة التى شعرت بها سوريا قد دفعتها إلى محاولة الخروج من طوق تمسك إسرائيل بمقوده، فسارعت إلى عرض الدعوة لاستئناف مفاوضات السلام مع إسرائيل، إرضاءً لأمريكا وللعناصر الموالية لإسرائيل فيها، إلا أن شارون رفض أن يترك فرجة ولو صغيرة فى جدار الغطرسة الإسرائيلية، فأكد أنه حتى مع المفاوضات فلن تحصل سوريا على كل أراضيها فى الجولان.



غير أن أسوأ ما يمكن أن يحدث فى العام الحالى هو وصول الأوضاع الفلسطينية إلى الحضيض، فى ظل كارثة معلقة فوق رءوس الجميع، يكتمل من خلالها إقامة الحاجز العنصرى الإسرائيلى تاركاً خلفه مجموعة من الكيانات الفلسطينية المنفصلة والمعزولة عن بعضها البعض، فيما يشبه معسكرات الاعتقال الفاشية التى تسمح بتحقيق حلم «الترانسفير» اليهودى بالتدريج، أى بخروج الفلسطينيين وهجرتهم بعيداً عن أراضيهم.. فلا يبقى فى هذه المعازل غير مجموعات فلسطينية مستسلمة لمصيرها ومستعدة لقبول الشروط الإسرائيلية، بعد أن يكون قد تم تصفية معظم الكوادر الفلسطينية التى تحمل السلاح أو القادرة على حمل السلاح.

وإذا كانت بعض أطراف عربية مازالت تلعب اللعبة الأمريكية فى انتظار حدوث معجزة، فإن المؤكد أن إدارة بوش قد استقر رأيها على عدم التدخل، ليس فقط بسبب الانتخابات ولكن أيضاً لأن سياسات شارون نجحت فى خفض درجة العنف وحدَّت من العمليات الانتحارية وأصبح الجدار الأمنى وسيلة مقبولة من جانب أمريكا، بل ومن جانب دول الاتحاد الأوروبى، على الرغم من بعض الاعتراضات الشكلية هنا وهناك.

وقد يصعب تصور المتاهة التى يجد العرب أنفسهم فيها، وهم يشعرون بالعجز عن التأثير فى الأوضاع الراهنة فى العراق، وهى تتشكل أو تتفاقم ثم تتدهور تحت أعينهم وتتبخر معالم القضية الفلسطينية وتتطاير أوراقها فى الهواء، بينما لا يكف العرب عن التوسل للأمريكيين تارة وللأوروبيين تارة أخرى بل وللإسرائيليين فى نهاية المطاف من أجل تسوية سلمية ترفض إسرائيل



لن يستطيع أحد الحيلولة دون تقسيم العراق غير العراقيين أنفسهم. ولكن إلى أى مدى سوف تنجح القوى العراقية على اختلاف أشكالها وتوجهاتها فى الحفاظ على وحدة الدولة وتماسكها؟ هذا هو سؤال عام ٢٠٠٤ الذى لا توجد له إجابات قاطعة



إنه عام التفكيك والتركيب

"نوح"

شروطها مسبقاً جملة وتفصيلاً.. وتعجز الفصائل الفلسطينية في الاتفاق على البديل. وكل الشواهد تشير إلى موت «خريطة الطريق» كما كانت «أوسلو» قبلها.. فما الذي يمكن أن يحدث بعد تفكيك الأوضاع الفلسطينية على هذا النحو؟

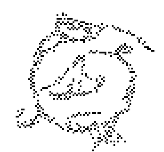
في غياب القدرة على الاتفاق على خيار فلسطيني عربي واحد، فلن يبقى غير ما يفرضه الآخرون من خيارات! ويبقى مصير الجامعة العربية مرتبطاً بمصير القضية الفلسطينية!

فإذا أخذنا في الاعتبار أن العام ٢٠٠٤ حافل باحتمالات التغيير في عدد كبير من الدول الأوروبية بسبب الانتخابات أو بسبب طبيعة العلاقات التي تربطها بالولايات المتحدة، فإن الارتكان إلى ما يمكن أن يمنع أو يخفف الضغوط الأمريكية والإسرائيلية، يظل ضرباً من الوهم.. وسوف ينعكس هذا بصورة واضحة في الانتخابات البرلمانية للاتحاد الأوروبي في يونيو القادم بعد انضمام ١٠ دول أوروبية توسع نطاق عضويته إلى ٢٥ دولة. وتشكل هذه الدول الجديدة طابوراً خامساً لحساب أمريكا داخل الاتحاد الأوروبي. وقد ظهرت إرهاصات هذا الخلل في مواقف عديدة من هذه الدول من مشكلة العراق. وفي تراجع مفوضية الاتحاد الأوروبي عن نتائج الاستطلاع الذي انتهت فيه النتائج إلى اعتبار إسرائيل عدو السلام الأول في العالم. والاستسلام لابتزاز القوى الصهيونية التي اتهمت الاتحاد الأوروبي بالترويج لمعاداة السامية. وقد يضاف إلى ذلك احتمالات التغيير الناجمة عن الانتخابات التي ستجري في إيران والجزائر.. وكلا البلدين يمثلان تجربتين مهمتين في العالم الإسلامي: تدعم كل منهما درجة الاستقرار أو عدمه في محيطهما الإقليمي ويجعلان من الديمقراطية خياراً قابلاً للاستمرار أو الانكسار.

وما يحدث في العراق لا يمكن فصله عما يحدث في السودان أو ما يجري من تحولات مفاجئة في ليبيا.. ثمة خيط تلتئم فيه الأوضاع الداخلية للعالم العربي، ولا يمكن فصلها أو فصمها عن الأخطار والتهديدات الخارجية التي تناوشه وتناوئه. فالتغيير الذي حدث بالحرب في العراق والذي بدأت تداعياته منذ عام مضى، يحدث موازياً له تغيير مشابه وإن بقتال من نوع آخر في السودان، وتغيير ثالث بأسلوب التفاعل الذاتي في ليبيا. والبقية تأتي على امتداد العالم العربي.. الذي تتوالى الضغوط الخارجية وتتكاثر المشروعات والمبادرات لإصلاحه وتأهيله داخلياً وخارجياً ليصبح أكثر قدرة على التكيف مع الاستراتيجيات والمصالح الأمريكية.

ومنذ أحداث سبتمبر أصبح التدخل في الشئون الداخلية للدول الأخرى يكتسب نوعاً من المشروعية الدولية لم تعد تعارضه الأمم المتحدة. تحت غطاء الدفاع عن الأقليات ومنع التطهير العرقي والدفاع عن حقوق الإنسان كما حدث في البلقان. أو لإزاحة نظام متهم بمساندة الإرهاب وحيازة أسلحة الدمار الشامل التي تهدد الجوار الإقليمي كما في أفغانستان ثم في العراق. أو لوقف حرب أهلية وإرغام النظام على تقاسم السلطة كما في السودان. وتبدو المشكلة الأزلية والقاسم المشترك الأعظم بين النظم السياسية في العالم العربي، متركزة في غياب الديمقراطية وإدمان القوى الحاكمة على البقاء في السلطة، وقمع القوى السياسية المعارضة، والعجز عن إصلاح النظم السياسية بما يضمن حرية التعبير والتعددية وتمكين المرأة من حقوقها الاجتماعية والسياسية، وهو ما اعتبر من وجهة نظر المجتمع الدولي أو القسم الأكبر منه المصدر الرئيسي للإرهاب، والتعصب، ونمو الحركات الدينية المتطرفة.

ونتيجة لضغوط أمريكية مكثفة عبرت عن نفسها في مبادرات للشراكة الأمريكية، تقابلها من الناحية الأخرى مبادرات للشراكة الأوروبية، أخذت منذ العام الماضي تحاصر الدول العربية، من الناحيتين. وإن كانت «الشراكة الأمريكية» تبدو أكثر جرأة واقتحاماً للأوضاع العربية والإسلامية. يزداد الضغط على النظم السياسية العربية بأساليب عسكرية واقتصادية، وبحملات فكرية وإعلامية لدفعها إلى اتخاذ خطوات سياسية إصلاحية، وتغيير مناهجها التعليمية والدينية، وترويج الأفكار الليبرالية، وتفكيك التحالفات الإقليمية التي وقفت في وجه المصالح الأمريكية والإسرائيلية وما تعتبره واشنطن شروطاً لتحقيق السلام والتقدم في المنطقة.



وبدرجات متفاوتة أخذت معظم الدول العربية تستجيب لهذه الضغوط والمبادرات.. بعضها بادر سراً أو جهراً إلى تنقية المناهج التعليمية والدينية. وتحديث الخطاب الديني في المساجد وفي أجهزة الإعلام، والتضييق على الأفكار السلفية المتشددة. وإفساح المجال للمطالبات الإصلاحية من جانب المفكرين والمثقفين في محاولة دائبة للتأثير على المجتمع الديني وتسليط الأضواء على الظاهرة الإسلامية وتفكيك العلاقة بينها وبين الدولة أو النظام السياسي.. وفي خط مواز لذلك، أقدمت بعض دول عربية على تشكيل مجالس للشورى أو السماح لأنشطة جماعات حقوق الإنسان والمجتمع المدني بممارسة بعض الفعاليات. ولكن على كثرة ما عقد من مؤتمرات وندوات وما ألقي من محاضرات حول محاسن الديمقراطية وضرورات الإصلاح السياسي وتحسين وضع المرأة.. فمازال السؤال الذي أعيا المجتمعات العربية، ولم تتحول معه بعد من مرحلة التنظير إلى مرحلة التطبيق هو إلى أي مدى يمكن أن تكون الديمقراطية خدمة للمصالح الأمريكية؟ وهل تستطيع المجتمعات العربية استيعاب وهضم الأفكار والمشروعات الأمريكية لدمقرطة العالم العربي، دون أن تفقد النظم القائمة مشروعيتها أو تتعرض لتقويض قوائمها؟

وحتى هذه اللحظة، مازالت الأوضاع الداخلية في معظم الدول العربية عاجزة عن الرد على الأوضاع والتحديات الخارجية. وما حدث في ليبيا جاء امتداداً لما جرى في دول عربية أخرى قايضت استمرار النظام بخدمة المصالح الأمريكية.. ومازالت معادلة الاستبداد التي أفضت إلى ما أفضت إليه في العراق من غزو واحتلال وانهيار يهدد كيان الدولة، هي نفسها وبدرجات متفاوتة تتكرر في أقطار أخرى وتهدد النظام العربي بالتفكيك والانهيار. وكل ما حدث من إصلاحات وتغيرات داخلية في عديد من الدول العربية لا يخرج عن كونه نوعاً من عمليات «شد الوجه» لنظم سياسية مترهلة، لا يكاد يمضي بعض الوقت حتى تعود الوجوه إلى تغضناتها وتجاعيدها السياسية السابقة.

وربما كانت مصر من أهم الدول العربية التي سوف تجد نفسها مع نهاية عام ٢٠٠٤ في مفترق طرق صعب، يتعين عليها أن تحسم أمرها وتحدد خيارها فيه. ولا يبدو في نهاية الأمر أن أمام مصر غير خيار واحد هو خيار الديمقراطية الصحيحة التي تكتسب صدقيتها من استعادة ثقة الشعب بنظامه السياسي، دون اللجوء إلى فنون الترقيع والمسكنات، ودون الاعتماد على ترزية القوانين وترزية السياسات. وهي مشكلة يصعب التنبؤ بمسارها.

صورة العالم العربي كما نراها من حولنا إذن سوف تشهد كثيراً من التغيرات والتحولات الجوهرية خلال هذه السنة. بعضها سيكون مفروضاً عليه من جانب قوى خارجية. والبعض الآخر بفعل عوامل داخلية، ولكن الحال لن يبقى على ما هو عليه. والأمر يتوقف في النهاية على الكيفية التي سيتعامل بها العرب مع العالم أو التي سيتعامل بها العالم مع العرب! ■



إن أسوأ ما يمكن أن يحدث في العام الحالي هو وصول الأوضاع الفلسطينية إلى الحضيض، في ظل كارثة معلقة فوق رءوس الجميع، يكتمل من خلالها إقامة الحاجز العنصري الإسرائيلي تاركاً خلفه مجموعة من الكيانات الفلسطينية المنفصلة والمعزولة عن بعضها البعض



مســـلمــون ولكـــن

حتى سنوات قليلة مضت، لم يكن التواجد الإسلامى فى أوروبا الغربية يمثل مشكلة كبيرة سوى لأفراد هذه الجاليات أنفسهم. فالأوروبيون اعتبروا هؤلاء المهاجرين عمالة رخيصة سرعان ما ستذوب فى المحيط الغربى الكبير بينما نظرت الدول العربية والإسلامية إلى «أبنائها فى الخارج» باعتبارهم رصيداً متقدمًا يضخ الأموال «بالعملة الصعبة» لإنقاذ الوطن الأم من أزماته المتلاحقة.

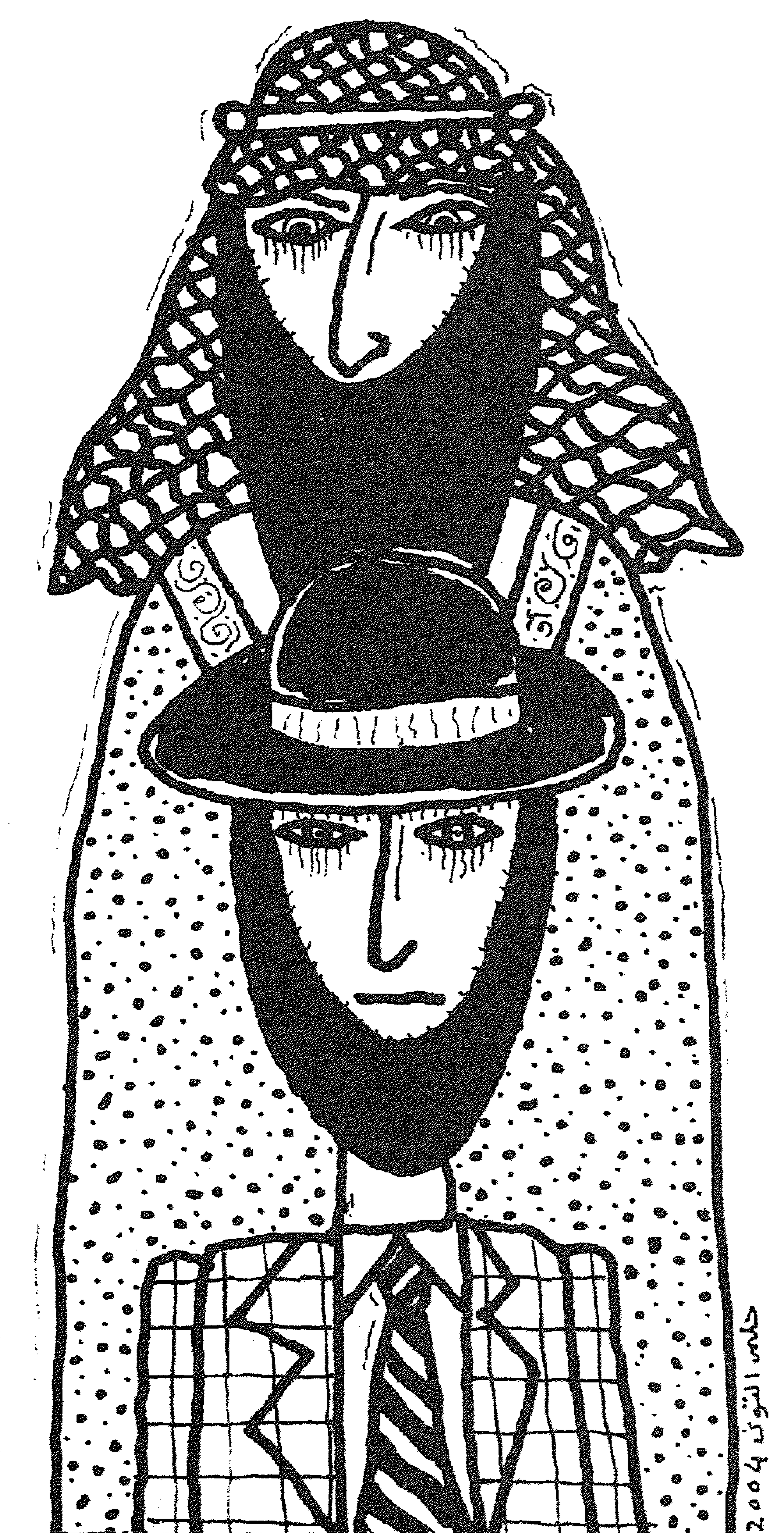
فى الواقع كانت المشاكل من نصيب هؤلاء المسلمين «الأوروبيين» الذين عانوا من التمييز بكافة أشكاله ومن البطالة وعدم القدرة على التكيف مع بيئة مغايرة وقيم أكثر اختلافًا. وكان الأمر أكثر إشكالية بالنسبة للجيل الثانى جيل الأبناء والأحفاد. وعندما كانت تثور مشكلة بين هذه الجاليات والدولة «الأوروبية» لم يكن هناك من يدافع عن هذه الجاليات من دولهم الأم، فالكل يعانى المشاكل وليس فى حاجة إلى المزيد.



إلا أن النهر «الإسلامى» فى أوروبا تدفقت فيه مياه كثيرة خلال عقد التسعينيات من القرن العشرين وجاءت أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ لتحول الأمر من قضية إلى مشكلة ثم فى بعض الأحيان إلى أزمة. فإذا كان الغربيون - الأمريكيون تحديداً - أصبحوا ينظرون إلى المسلمين بشكل عام بنوع من الريبة فإن المسلمين «الأوروبيين» دخلوا فى دائرة الاتهام. وبعد أن كانت الدول العربية والإسلامية لا تهتم سوى بالجانب «المادى» لهذه الأقليات جرى اعتبارها بمثابة معامل لتفريخ التطرف والإرهاب الذى يستهدف أيضًا البلدان الأم.

ثم جاءت مشكلة الحجاب فى فرنسا لتثير المخاوف الأوروبية مجدداً من هذه القوة الصاعدة : تقريبًا ٢٠ مليون نسمة، فالذوبان لم يحدث، والدفاع عن الهوية والدين على أشده، ثم إن الاختلافات بين فقهاء الدول الإسلامية والعربية فاقمت من مشكلة الحجاب ولم تحلها.





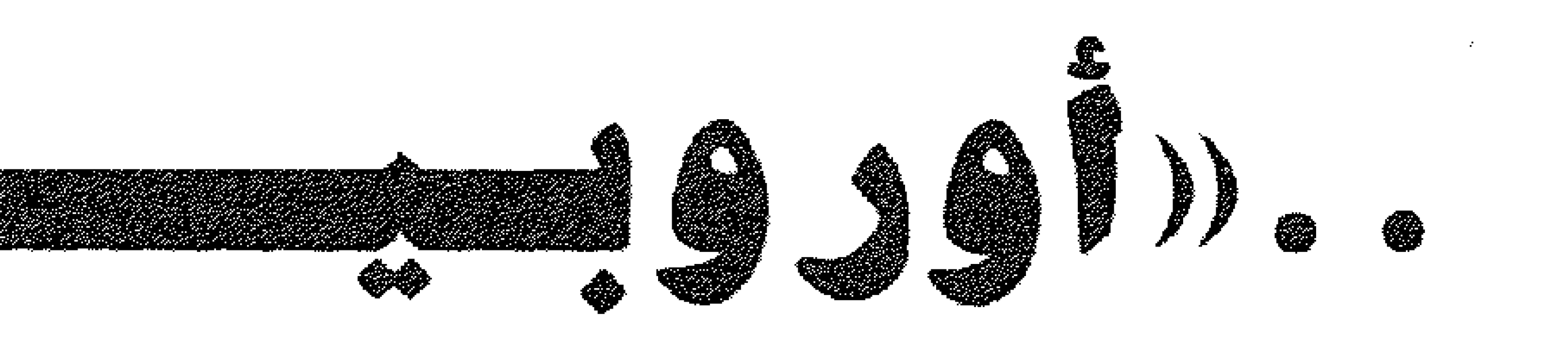
فى خضم هذه الأوضاع، ظهر على الساحة الأوروبية صوت إسلامى جديد أهم مقوماته أنه ولد فى الغرب وتعلم فى مدارسه ومعاهده، وأصبح أستاذًا فى جامعاته. صوت نظر إلى الظاهرة الإسلامية فى أوروبا بمنظور مختلف أثار عليه العلمانيين الأوروبيين خاصة الفرنسيين بينما انبهر به آخرون واعتبروه بمثابة «مارتن لوثر» الإسلام، فيما اختارته مجلة التايم كأحد المجددين المائة فى القرن العشرين فى عددها التذكارى الذى صدر مع نهاية القرن.

فى كل الأحوال تحدث الرجل فخرج بفكر مختلف وألقى بحجر فى بحيرة راكدة لا يريد إلا القليل من الناس أن تعود إليها حيويتها. لقد اتخذ الدكتور طارق رمضان المولود فى سويسرا عام ١٩٦٢ الأستاذ فى جامعة فريبورج فى سويسرا حاليًا وحفيد الإمام حسن البنا مؤسس جماعة الإخوان المسلمين، من مشاكل المسلمين فى أوروبا منطلقًا لإخراج المسلمين جميعًا من عثرتهم. وطرح أفكاراً جديرة بالنقاش والاهتمام داخل بلاد الإسلام ذاتها.



تناقش «وجهات نظر» بعضًا من جوانب القضية فى ملف يشمل مقالاً لطارق رمضان وعرضًا لكتابه الأهم «أن تكون مسلمًا أوروبيًا» ورأيًا للدكتور القرضاوى فى الموضوع.

المحرر



طـــــارق رمضـــــان

الحياة الإسلامية فى أوروبا دخلت طوراً جديداً... اصطبغت بصبغة جديدة... ارتأت فى اختلاط المسلمين مع المجتمعات الأوروبية طريقاً جديداً، سيساعدهم على تنظيم أنفسهم، وتمثيل أنفسهم فى المجالس النيابية، بأسلوب جديد. يكون أكثر فعالية عن ذى قبل. إلا أن هذا وحده لا يكفى... فحتى لو كان الرأى الإسلامى الأصيل فى أوروبا يتبنى ذلك الموقف الجديد. وبدون أدنى تأثير من «الخارج» (الدول الأم). فإنه ما زالت هناك قوى متنافسة ومتصارعة تستشرى فى داخل المجتمعات المسلمة بأوروبا.



شهدت السنوات الخمسة عشر الأخيرة تغيراً ملحوظاً فى حياة المسلمين الأوروبيين. فها هم الأطفال المسلمون ينضجون ويكبرون... فيقفزون إلى الأمام، ويثبون إلى المقدمة، ليحدثوا ثوراناً وهيجاناً فى أوساط آبائهم وأمهاتهم: فإذا بنا نسمع أصواتاً جديدة تتحدث عن المواطنة والمشاركة السياسية، بل وتطالب بحقوق موروثة لها فى الجنسية؛ وإذا بنا نرى توالداً سريعاً للروابط والمؤسسات الإسلامية؛ وإذا بنا نلمس إصراراً واضحاً على محاربة التمييز والعنصرية فى مجالات عدة: فى العمل، فى دور العبادة، فى الدعم الحكومى.. إلى آخره. نعم.. إن كل هذا يحدث فى أنحاء أوروبا الآن، إلا أنه يتفاوت من دولة إلى دولة؛ تبعاً لاختلاف توقيت قدوم المسلمين وهجراتهم؛ أى حسب فترة الوجود الإسلامى فى كل دولة أوروبية. ولكن علينا أن نؤكد، فى النهاية، بأنه لا دخول للمسلمين فى «المصنع الأوروبى» إلا من خلال ثلاثة أبواب أساسية: التمسك، وبإصرار، بحق المواطنة؛ الاندماج والامتزاج فى المجتمع وفى السياسة على كافة المستويات؛ وأخيراً المطالبة باستقلال تمويلى وسياسى.

وأوروبا ليست أرضاً عذراء؛ ومن ثم، فإن عملية الامتزاج والتداخل ليست بعملية صعبة؛ وإنما يمكن تحولها إلى حقيقة... لولا بقاء تلك النظرة التقليدية، التى ما زالت مسيطرة على الدول الأم؛ تلك النظرة التى ما زالت تصور المسلمين الأوروبيين، وكأنهم ملك خاص للدول الأم؛ فتعاملهم بنفس القواعد، وبنفس المناهج، التى تعامل بها مواطنيها.

فى الفترة ما بين ستينيات وثمانينيات القرن العشرين، برزت روابط عديدة، تجمع المغتربين من مختلف أنحاء أوروبا، ذوى الجنسية الواحدة، مع بعضهم البعض: فكانت هناك رابطة الجزائريين؛ ورابطة التونسيين؛ ورابطة الأتراك؛ ورابطة المغاربة. كان الهدف من وراء ذلك، هو إتاحة الفرصة لجمع الشمل، إلا أنه أتاح بالمثل الفرصة للسفارات، لكى تراقب «رعاياها» بسهولة ويسر. كنا نتوقع. فى ظل التغيرات والتطورات الجديدة التى طرأت على أوروبا، والتى ذكرناها سالفاً. تضاؤل أثر هذه الروابط، وانحصار المراقبة فى يد الدول الأوروبية، المضيفة. إلا أن شيئاً لم يحدث من ذلك؛ بل حدث العكس تماماً.

باسم الأمن، تقبع أوروبا كلها تحت عين مخابراتية دقيقة وفاحصة. عين الدول الأم. مستهدفة «المنشقين الوطنيين». تلك العين التى تتخفى وراء القضايا السياسية المنتقاة من قبل أجهزة الإعلام. أمثال قضية المنشق المغربى مؤمن ديورى. وتعتبر أجهزة المخابرات التونسية من أكثر الأجهزة فعالية فى هذا الشأن. وهى تشترك مع نظائرها (المغربية، والجزائرية، والتركية، وحتى السعودية) فى التواصل مباشرة مع السفارات، فى جمع المعلومات، فى اختراق الروابط، فى مراقبة المساجد، وأخيراً فى حضور الندوات والمؤتمرات بغية التأكد والتثبت من أن صوتها مسموع فى النهاية. ولا يكتفى موظفو الاستخبارات بهذه المهام، بل يضيفون إليها «أعمال العلاقات العامة»، ومد الجسور مع موردى المعلومات، بدءاً من الصحفيين وصولاً إلى أعلى وأرقى المستويات فى داخل الحكومة؛ لاعبين. من خلال ذلك. على الوتر الحساس الذى يسمى «الخطر الإسلامى»[1].



إن هذه الوكالات الاستخباراتية، التى تعمل لحساب الدول الأم، تشكل جيشاً عرمرماً فى أنحاء أوروبا؛ وهى تستخدم حجة «اهتمامها بالمشكلة الإسلامية» لكى تمارس تأثيراتها السياسية الضاغطة. وهى لا تكتفى بوضع عينها على منشقيها. لكى تطفئ تعطشها نحو الأمن والأمان. بل إنها تضع عينها أيضاً على المواطنين البريطانيين، والإيطاليين، والفرنسيين، والبلجيكيين.. لمجرد أنهم ذوو أصول مسلمة، ومنتمية للدول الأم. ولا يقف الأمر عند هذا الحد: فإذا ما فكر هؤلاء المواطنون يوماً فى زيارة أوطان آبائهم وأجدادهم (التى لم يعودوا ينتمون إليها من ناحية المواطنة)، فهم يظلون خاضعين لاستجوابات وتحقيقات مطولة، لا نهاية لها، عن أنشطتهم واتصالاتهم[2].

التدخلات المستفزة للسلطات الأمنية على الأراضى الأوروبية ليست المصدر الوحيد للإزعاج؛ وإنما يوجد مصدر آخر، ألا وهو: استمرار سعى الدول الأم وراء الهيمنة الكاملة على المؤسسات الإسلامية المعروفة فى أوروبا



والتدخلات المستفزة للسلطات الأمنية على الأراضى الأوروبية ليست المصدر الوحيد للإزعاج؛ وإنما يوجد مصدر آخر، ألا وهو: استمرار سعى الدول الأم وراء الهيمنة الكاملة على المؤسسات الإسلامية المعروفة فى أوروبا. فبجانب تمويلها للمساجد الكبرى. مثل تلك التى فى روما، مدريد، باريس، ليون، جنيف، ولندن. تصر هذه الدول على أن يكون لها هيمنة سياسية محكمة وواضحة على تلك المساجد. ومن ثم، كان من الطبيعى جداً، أن تصير جميع التعيينات فى تلك المؤسسات، سواء كانت المساجد أو غيرها، نابعة من قرارات الدول الممولة.



وتحتل دول اسلامية معينة أهمية متنامية وتواجداً متصاعداً فى أنحاء أوروبا، من خلال مساجدها[3]، ومن خلال أيضاً مكاتب منظمة المؤتمر الإسلامى: راغبة فى الأخذ بزمام القيادة.. قيادة المسلمين الأوروبيين. وفى ظل السنوات الأخيرة، قامت السعودية بالتعاون مع المغرب فى هذا الصدد، مما ضاعف ووطد من اتصالاتها مع المسلمين الأوروبيين: مستخدمة المسلمين الجدد كركيزة وكقاعدة أساسية لجهودها. وبالرغم من اعتبار السعودية الدولة الرائدة فى «التأثير»، إلا أننا لا نستطيع أن نغفل «الدور» الذى تقوم به الجزائر (وخاصة فى فرنسا)، وكذلك «دور» كل من تونس وتركيا. فهذه الدول الثلاث تسير على نفس الدرب: من تمويل الأماكن المخصصة للعبادة، إلى دفع رواتب أئمة المساجد، إلى بناء المراكز التى تمكن هذه الدول من وضع أحوال المسلمين. وبالأخص وضع «الإسلام الأوروبى». تحت المجهر.

هذا التواجد لايمكن اغفاله، فأنت تلمسه من أول وهلة.. عليك أن تنظر فقط إلى الطريقة التى يمثل من خلالها المسلمون فى أنحاء أوروبا، وستلحظ على الفور ما نقوله. فعبر سفاراتها، تستخدم الدول المسلمة اليد العليا، وبطريقة مباشرة بل وعلى أعلى مستوى؛ فى عملية تنظيم وهيكلة المجتمعات الإسلامية. فقامت المغرب بمراقبة الانتخابات البلجيكية؛ متابعة جميع خطواتها ومراحلها (أنظر مقالة ليونيل باناڤيت). وفى

إيطاليا، قامت المغرب أيضاً، ومن خلال سفارتها، بالتدخل مباشرة مع الحكومة الإيطالية، لمنع توقيع الـ intensa (وهى وثيقة تحتوى على اتفاقية رسمية بين الدولة الإيطالية والمنظمة التى تمثل المسلمين فى داخل إيطاليا)[٤]؛ وذلك ليكون لها وضع مميز فى المناقشات[٥]. أما السعودية ومصر...فكل منهما يدلى بدلوه فى المناقشات التى تتعلق بالمسلمين المتواجدين فى بريطانيا؛ وبالنسبة إلى تركيا، فحدث ولا حرج...فتأثيرها يُشم فى كل أرجاء ألمانيا، من خلال مؤسسة Dyanet، وهى مؤسسة شبه رسمية تابعة للحكومة التركية. وأخيراً فى فرنسا، نجحت كل من الجزائر والمغرب وتركيا والسعودية فى بسط تأثيرها على الحكومة الفرنسية، عندما ألجأت الأخيرة إلى الإشادة والاعتراف بجميع مساجدها ومؤسساتها[٦].

ومن أجل إحكام القبضة الدينية، تقوم الدول المسلمة بتغذية المساجد الأوروبية بأئمتها ومشايخها وعلمائها. فتبعث الأئمة فى أكثر الأوقات ملاءمة ومناسبة لرفع معنويات المسلمين، مثل شهر رمضان، على ألا ينحصر دور هؤلاء الأئمة فى إمامة الصلاة، بل يتطرق أيضاً إلى إلقاء الدروس. فكل عام، تقوم السعودية، مصر، المغرب، وتركيا بإرسال وفود كبيرة من العلماء المسلمين إلى أوروبا، لأسباب مشوشة غير واضحة: فالبعض يذهب لجمع المعلومات؛ ولكن البعض الآخر يذهب حاملاً معه دروساً تقليدية للغاية، لا تستطيع أن تتماشى، بأى حال من الأحوال، مع وقائع الحياة فى الدول الأوروبية.



وفى السنوات الأخيرة، على سبيل المثال، قامت الرياض بتقديم تدريبات وكورسات مجانية لطلاب التخصص الشرعى فى السعودية: فما كان لهؤلاء الطلاب، بعد عودتهم إلى أوروبا، إلا أن انخرطوا فى حياة انعزالية، ذات طابع انفصالى. فقراءتهم الحرفية للنص، بدون وجود رؤية كلية، جعلتهم يرفضون الاندماج مع من حولهم؛ جعلتهم يرفضون فكرة كونهم مواطنين لهم وعليهم حقوق فى المجتمع الذى يعيشون فيه. وكيف لا يرفضون هذه الفكرة، ومعظمهم ينظر إلى أوروبا على أنها عالم معاد بطبيعته للإسلام؛ ومن ثم يجب الابتعاد عنه فى كل أمر من أمور الحياة. وقد يعتبرون أنفسهم الممثلين الوحيدين للسلفية الحقيقية؛ ومن الملاحظ أنهم يعطون جل اهتمامهم للتفاصيل الدقيقة، التى تخص مظهرهم الخارجى (شكل الملبس، إطالة الذقن)؛ بالإضافة إلى تأييدهم للسياسة السعودية، سواء بالسر أو بالعلن.

وبالرغم من أن عدد هذه الفئة يعتبر صغيراً، بالنسبة للفئات الدينية الأخرى، إلا أنها آخذة فى الازدياد؛ خاصة فى تلك المناطق الأكثر رفضاً واستهجاناً لطريقة الحياة الغربية. وهى أكثر المناطق فقراً وبطالة.



نحن نأمل يوماً بأن نرى المواطنين الأوروبيين، الذين اتخذوا الإسلام ديانة لهم، فى موقف المسئولية.. عن أنفسهم.. وعن مستقبلهم... محققين ذاتيتهم السياسية والتمويلية

والسؤال المطروح حالياً هو:

ماذا تفعل أوروبا حيال كل ذلك؟ بلغة أخرى، ما هو موقف الدول الأوروبية تجاه هذا التدخل السافر فى شئونها الداخلية، وتجاه هذه الاستراتيجية المهيمنة التى تنتهجها الدول الأم بهدف التحكم والسيطرة الكاملة على الإسلام الأوروبى؟

وقد يبدو الرد الرسمى واضحاً وضوح الشمس؛ فالدول الأوروبية (مثل بريطانيا، فرنسا، ألمانيا، بلجيكا) ترد قائلة: نحن نعترف الآن بالإسلام كواقع ملموس فى الحياة الأوروبية؛

ونحن نأمل يوماً بأن نرى المواطنين الأوروبيين، الذين اتخذوا الإسلام ديانة لهم، نأمل أن نراهم يوماً فى موقف المسئولية..عن أنفسهم..وعن مستقبلهم...محققين ذاتيتهم السياسية والتمويلية.

إلا أن الوضع الحقيقى قد يبدو غير ذلك؛ فالدول الأم تستخدم الدين فى سبيل إملاء السياسات المناسبة لها؛ التى تذكى من قوتها ومن هيمنتها على «رعاياها».

وبالرغم من أن الحوار، حول أهمية شأن المواطنة بالنسبة للمسلمين الأوروبيين، قد يعلو صوته يوماً بعد يوم من قبل الناشطين السياسيين (المنوطين بالاهتمام بعدد المصوتين المحتملين)، فإن الواقع يشهد، وما زال يشهد، بأن الإسلام الأوروبى واقعٌ فريسةً للولع الأمنى من جانب، ولشهوة السيطرة من جانب آخر.

وليس بخاف على أحد، أن الأجيال المسلمة الجديدة، التى ترعرعت (وما زالت تترعرع) على الأراضى الأوروبية، صارت تشكل رعباً حقيقياً للدول الأوروبية. فهذه الأجيال لديها نمط جديد فى التفكير وفى الرؤية؛ يجعلها تطالب بحقوق المواطنة، وبدور قوى وفعال فى الحياة السياسية.

ومن ثم، فهى تضرب بالحدود القديمة عرض الحائط. فهى لم تعد تركن إلى السكينة والدعة، كما كان يفعل الآباء والأجداد. صحيح أن هذه الأجيال..يمكن اعتبارها أوروبية فى نهاية المطاف: إلا أنها ما زالت مسلمة..وهذا ما يخيف الدول الأوروبية.

وبالرغم من أن تدخل الدول الأم فى الشئون الداخلية للقارة الأوروبية قد يبدو، من أول وهلة، اعتداءً سافراً، إلا أنه بالإمكان أيضاً اعتباره نفعاً عظيماً للدول الأوروبية، ولو حتى على المدى القصير. فالأخيرة يمكنها الانتفاع من أمرين: العمليات الاستخباراتية التى تقوم بها الدول الأم على أراضيها؛ والتحكم غير المباشر للدول المسلمة على المساجد والمؤسسات الكبرى. والأمران يضمنان للدول الأوروبية قسطاً كبيراً من الانضباط الدينى والسياسى على أراضيها. ومن ثم، فكلما قفز موضوع الإسلام إلى الأمام، نجد الدول الأوروبية تهب إلى الوكالات الاستخباراتية المختلفة التابعة للدول الأم، مستنجدة بها، لتحصل منها على أكبر قدر من الاتفاقيات النافعة للطرفين.



ما زالت الدول الأوروبية تنظر إلى الإسلام، ليس فقط على كونه جسداً غريباً، بل أيضاً على كونه مصدراً للقلاقل والاضطرابات، على كافة المستويات، ومن ثم، فهى تلجأ إلى الأنظمة الديكتاتورية فى العالم المسلم، وتفضل التعامل معها فى السر، لكى تحصل منها على الأمن والأمان. فصحيح أنها أنظمة لا تراعى القانون، ولا تلقى بالاً إليه، إلا أنها تستطيع توفير الحماية للمصالح الأوروبية. وباستثناء حالات فريدة، مثل أسبانيا (منذ ١٩٩٢)، النمسا والسويد، فلا توجد دولة أوروبية واحدة تحادث مواطنيها المسلمين مباشرة إلا من خلال هذه الأنظمة الخارجية. إن جميع الحكومات الأوروبية ترغب فى تحقيق السيادة لمسلميها..إلا أنها تتبع سياسة معتمدة على التحالفات والتضامنات مع حكومات الدول الأم!

الحكومات الأوروبية ملزمة، فى ظل السنوات المقبلة، بإعادة النظر والتفكير فى كيفية التعامل مع المسلمين الأوروبيين ومع الإسلام الأوروبى. إن التوجهات والتحركات، التى تقودها

الأجيال المسلمة الصاعدة فى أنحاء أوروبا، أفرزت مواطنين مسلمين واعين بأهمية استقلالهم السياسى، راغبين فى تحقيق استقلالهم التمويلى؛ الأمر الذى يجعلهم يتساءلون فى دهشة حول ماهية وحقيقة تلك العلاقات المريبة بين الأنظمة الأوروبية والأنظمة الديكتاتورية فى داخل العالم المسلم. لقد صارت هذه الأجيال تطالب بحقها فى تنظيم حياتها بنفسها، وفى تحديد شرعية تمثيلها الدينى بدون أية تدخلات أو تطفلات خارجية. وهى ظاهرة آخذة فى التصاعد بسرعة ملحوظة؛ ويساعد على نموها فقدان الدول الأم لركائزها وقواعدها؛ وفقدانها لكينونتها فى وسط الأجيال الثانية والثالثة، التى باتت تشعر بمزيد من التباعد مع الدول التى أتى منها الآباء والأجداد.



كلمة أخيرة... إذا أرادت الدول الأوروبية أن تحقق نجاحاً على صعيد التعددية الدينية والثقافية فى مجتمعاتها، فعليها الابتعاد تماماً عن الرؤية الأمنية، بل التبرؤ والتملص منها بقدر الإمكان، حتى يتسنى لها إيجاد أرضية مشتركة، تفتح المجال للتحاور والتفاوض، وتتيح الفرصة للثقة والنقاش، بينها وبين مواطنيها؛ إن السبيل الديمقراطى الوحيد هو احترام القانون واحترام المواطنين.

هـــــوامـــــش

(١) فى باريس، لندن، روما، وجنيف تنظم السفارات عشاءات صحفية، كما حدث فى أثناء الأزمة الجزائرية (عندما تم تقديم نسخة للجمهور عن الأحداث، وتم «إعلامه» باختراق جماعات سياسية صغيرة فى داخل أوروبا).

(٢) أعداد ضخمة من المسلمين تم إيقافهم على الحدود، مما يعكس لنا إلى أى مدى وصلت العمليات الرقابية، التى تمارسها القوى الخارجية فى داخل أوروبا.

(٣) تم تنظيمها وتجميعها فى داخل مجلس أوروبى للمساجد، يعمل مباشرة تحت سلطة الحكومة السعودية.

(٤) وثيقة تحتوى على الاتفاقية الرسمية بين الحكومة الإيطالية وبين المنظمة التى تمثل المسلمين فى إيطاليا.

(٥) تدخل تم الاعتراف به علناً فى الجريدة اليومية La Republica، فى ٢٢ نوفمبر ١٩٩٨.

(٦) ممثلو السفارات الجزائرية، المغربية، والتونسية، الذين حضروا ندوة «أنوار الإسلام» فى ٢٠، ٢١ نوفمبر ١٩٩٩، عُرفوا بمجرد ترحيبهم بالمبادرة.

طارق رمضان: العالم المسلم بحاجة إلى ثورة فكرية



■ إذا كان الإسلام يبدأ اليوم. ما يُسمى فى الثقافة المسيحية، بعملية أو برحلة «إصلاح»، مما يؤهلك لأخذ دور مارتين لوثر، فهل لديك قائمة لتضعها أمام باب الكنيسة؟

ليس لدى قائمة محددة. ولكنى أعلم وأدرك ماهية الأولويات التى قد يحتاجها المسلمون لإصلاح أوضاعهم، وللنهوض بأنفسهم فى المحيط الإسلامى. وأول ما يحتاجه المسلمون هو معرفة الكيفية التى يقرأون بها النصوص القرآنية. فهناك قدر كبير من سوء الفهم فى داخل مجتمعاتنا الإسلامية. لابد أن نعود إلى فهم النص القرآنى بعمق، وأن ندرك أهميته العظيمة، حيث أنه يأتى من لدن الله رب العالمين. ومن خلال قراءتنا للقرآن، لابد من التفريق بين أمرين مهمين: أن نفرق بين المبادئ ذات البعد الكونى والأبدى، وبين التعاليم التى يجب فهمها فى إطار معين.

كما أنه من الأهمية بمكان، أن نفهم الطريقة التى استخدمها العلماء الأوائل فى عرض الأدوات التى تعيننا على قراءة القرآن. فعلى سبيل المثال، عندما يقول أحد العلماء أنه لا فارق فى الإسلام بين السياسة والدين، فعلينا أن نقول ساعتها بأن المصادر، القرآن والسنة، تصدق على هذا الكلام، إلا أن المنهاجية وأساليب الاقتراب تكون مختلفة. وهذه هى المشكلة التى نواجهها اليوم فى عالمنا الإسلامى: فنحن نعيد ونكرر فى الشعارات، دون إدراك معناها الحقيقى.

هناك فارق كبير بين العبادات وبين المعاملات. فنحن نتعبد كما يقول لنا النص: أما المعاملات، فمجالها مفتوح، باستثناء ما هو محرم بالنص القاطع. وهذا الفارق مهم للغاية.

❖ لقد كتبت فى «كيف تكون مسلماً أوروبياً؟»، أن المسلمين فى حاجة إلى تخطى الرؤية التى تعتمد على فكرة «نحن تجاه الآخر»، وهى التى تمثل المفهوم القديم لدار الإسلام (العالم الإسلامى) الذى يقف مناقضاً لدار الحرب (العالم غير الإسلامى)، ومن ثم اللجوء إلى المفهوم الجديد الذى يمثل دار الشهادة، والذى يجب أن يتواجد حيثما كان المسلمون.

ذلك ما قصدته بالضبط، عندما تحدثت عن الطريقة التى نقرأ بها النص. فبعض المسلمين يقولون: «نحن نكون أكثر التزاماً بالإسلام إذا ما اتخذنا موقفاً مضاداً للغرب، وللقيم الغربية»، وكأن الميزان الذى نقيم به سلوكنا هو مدى بعدنا عن الغرب، أو معارضتنا له. وهم يدعون ويروجون، من خلال ذلك، إلى تلك الرؤية القديمة، المخزونة فى العقول منذ أمد بعيد. علينا التخلص سريعاً من هذا النوع من الفهم: وأن نقدر مدى إسلامية الفعل أو الموقف من خلال ميزان الأخلاقيات والمبادئ الإسلامية، وليس من خلال ميزان العداء للحضارات الأخرى.

إن قيمنا ليست معتمدة على «الآخر». فقيمنا عالمية وكونية. لابد من الوصول إلى درجة من الفهم، تعلمنا أن الأمر لا يتمحور حول نقطة «نحن ضدهم»، وإنما يتمحور حولنا نحن، قياساً بمبادئنا وقيمنا. وهذا يفسر ويوضح المكان الذى أعيش فيه. بلغة أخرى، إن دورى فى هذا العالم هو أن أفهم أننى شاهد على تبليغ دعوة الإسلام أمام البشرية كلها.

نحن بحاجة إلى ثورة فكرية فى داخل العالم المسلم. نحن مسلمون تبعاً لهذه المبادئ العالمية السامية الروحانية؛ ومن ثم، فنحن لسنا ضد الغرب، أو ضد اليهود، أو ضد المسيحيين، أو ضد العلمانيين. إن الطريقة التى أحاول من خلالها إعادة قراءة نصوصنا القرآنية معتمدة أساساً على الوعى بعالمية دعوتنا الإسلامية؛ ولذلك، لا يمكننا أبداً تفسير الهوية المسلمة على كونها منغلقة ضد الآخرين. وآمل، بإذن الله، أن يساهم تفسيرنا الجديد هذا فى إقامة العلاقة مع الآخرين.

إن مفهوم دار الإسلام يقف اليوم عائقاً فى داخل العالم المسلم. حتى عندما نتحدث عن مفهوم دار العهد (الذى يفترض عيش الأقلية المسلمة بسلام فى وسط غير المؤمنين، دون أن يقتضى ذلك بالضرورة الذوبان فيهم)، فالأمر يدعو هنا أيضاً إلى تلك الرؤية المنصبة فى «نحن وهم». وهذه الرؤية لا تسمح لنا بالإحساس أو الشعور بأننا جزء من المجتمعات الغربية؛ لا تسمح لنا بالشعور بأننا نشارك الآخرين فى قيمنا.

«حسناً، أنا معك لكن...» ليست كافية بالنسبة إلى إنها ما زالت تمثل فهماً قديماً جداً لانتمائنا كمسلمين للإسلام. ومن ثم، فحينما أتحدث عن دار الشهادة، فأنا أعنى تخطى واجتياز جميع هذه التوجهات.■

من حوار لمجلة (Salon) فى فبراير ٢٠٠٢

ترجمة: شيرين فهمى

دار الشهادة ودار العهد

■ دار الشهادة مصطلح حديث، لم يرد في الموسوعة الفقهية. ويبدو أنه مستقى من الآية القرآنية: «لتكونوا شهداء على الناس»؛ والمعنى هنا أن يكون للمسلمين فى الدول غير الاسلامية دور ذو ثلاثة أبعاد: البلاغ.. الحسبة (أمر بمعروف ونهى عن المنكر).. الأمة الشاهدة اى أنها تحاجج الأمم الباقية أمام الله عز وجل فى يوم القيامة بأنها أبلغتها الرسالة. وهو مفهوم ذو بعد أخلاقى أكثر من سياسى.

■ «دار العهد» كما ورد فى الموسوعة الفقهية: «هى كل بلد صالح الإمام أهله على أن تظل تلك الأرض لهم؛ وتسمى دار الموادعة، ودار الصلح؛ ودار المعاهدة.» وهو مصطلح قديم بعكس مفهوم دار الشهادة.

ومفهوم العهد معروف منذ عهد النبوة: «إلا الذين عاهدتم من المشركين؛ فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم».■

المترجم

أن تكون مسلما أوروبيا

إن المسلمين ـ وهم يشعرون بأنهم أقلية مرفوضة فى أوروبا ـ اجتهدوا للإجابة عن أسئلة مهمة مثل: كيف يمكن أن نجعل هذه العقيدة أساساً مناسباً وفاعلاً فى تشكيل حياتهم اليومية فى بيئتهم الجديدة

يشهد المسلمون فى عالم اليوم ضغوطاً خارجية هائلة بلغت حد التهديد بالحرب والتدخل بالقوة لتغيير الأنظمة السياسية والثقافية والتعليمية، والحجة فى ذلك هى حرب الإرهاب وتجفيف منابعه. فى غمار هذه الحملة الشرسة على الإسلام والمسلمين أصبح المسلمون فى الغرب يعانون من تضييق واضطهاد وقيود غير مسبوقة، وقد صدرت فى هذا المجال قوانين وإجراءات ضيقت عليهم سبل الحياة والحركة، وأصابت حقوقهم الإنسانية ومؤسساتهم الاجتماعية فى مقتل، وما قانون منع الحجاب المزمع إصداره فى فرنسا إلا واحد من هذه القيود القهرية المفروضة على حياة المسلمين فى الغرب.

وعندما يصل الأمر إلى أن تتدخل الدولة بقوانينها لتفرض على المرأة المسلمة لباساً يخالف أحكام الشريعة وتحرم عليها لباساً اختارته بمحض إرادتها وحريتها. عندما يحدث هذا فى أوروبا فلابد أن يكون هناك خلل فادح فى الثقافة والأخلاق وأن الإسلاموفوبيا قد أصبحت مرضاً سياسياً. ولى فى هذا ملاحظتان:



الأولى: أن هذا القانون المتعارض مع حقوق الإنسان الأساسية لن يكون نهاية لما سيحدث للمسلمين فى أوروبا وإنما هو مجرد بداية لمرحلة جديدة من الصراع على هوية المسلمين وعلى وجودهم نفسه فى أوروبا.

والثانية: أن أوروبا بدساتيرها وديمقراطياتها وقوانينها التى وضعت للحفاظ على حقوق الإنسان وضمان حريته الدينية. كل ذلك لم يعد ضماناً تلقائياً لممارسة المسلمين حياتهم اليومية العادية الآمنة شأنهم فى ذلك شأن قرنائهم المواطنين الأوروبيين الآخرين من غير المسلمين.

يعزز هذا الرأى عاملان أدركتهما بالملاحظة والمعايشة فى بلاد الغرب: الأول يتصل بزيادة إقبال أعداد من المثقفين الأوروبيين على الإسلام فى وقت تشهد الكنائس ذبولاً وتقهقراً ملحوظاً فى عدد المتدينين، وليس للمسلمين. فى حقيقة الأمر. جهد كبير أو تنظيم فى هذا المجال، ومع ذلك فقد اعتبر وجود الإسلام فى أوروبا خطراً يجب مواجهته. العامل الثانى يتصل بالنظرة السائدة فى الإعلام والثقافة الشعبية إلى المسلمين باعتبارهم أقليات غريبة مختلفة موصومة بالبربرية والتعصب والأصولية وحديثاً بالإرهاب.

هذه المشكلة أو بالأحرى هذا المأزق الذى يواجهه المسلمون الآن فى أوروبا هو الذى دفع بعض المفكرين والأكاديميين المسلمين إلى دراسة أبعاد هذا المأزق والبحث عن مخرج منه، وفى هذا الإطار يأتى كتاب الدكتور طارق رمضان الموسوم بعنوان: (To be a European Muslim) (أن تكون مسلماً أوروبياً).

لفت نظرى بشدة تقديم كتبه بروفيسور «يورجين نيلسون» أود أن أشير إلى بعض نقاط مهمة وردت به، ترجع أهميتها إلى أنها تعبير عن وجهة نظر أوروبى فى المشكلة الإسلامية بأوروبا، كما ترجع إلى أهمية صاحبها فى المجالين الفكرى والأكاديمى، فهو مدير مركز دراسات الإسلام والعلاقات الإسلامية المسيحية بجامعة برمنجهام البريطانية، ولهذا المركز نشاط كبير فى مجال الدراسات والنشر وعقد المؤتمرات والندوات حول الشأن الإسلامى فى بريطانيا وأوروبا.. يقول الرجل فى تقديمه: «بدأ الأوروبيون فى العقود الأخيرة يلاحظون وجود مجتمعات مسلمة مستقرة فى مدنهم وبدأوا يتنبهون إلى أن عصر العمالة المهاجرة المؤقتة قد مضى وحل مكانها أسر مسلمة مستقرة وأخذت المساجد الإسلامية تظهر فى كل مكان.. كانت تقديراتنا المبسطة أنه مع مرور الزمن. ربما خلال جيل واحد. سوف تذوب هذه المجموعات المهاجرة ويتم تمثيلها فى الكيان الكبير، على الأقل من ناحية موقفهم من الدين وما تطلبه العقيدة الدينية من الإنسان.. وكان المتوقع أن ينظروا إلى دينهم كما ينظر الأوروبيون إلى دينهم.. وقد رأى البعض أن الزواج المختلط سيكون عاملاً حاسماً فى الإسراع بعملية الإذابة والامتصاص، لكن بعد أن مضى جيلان لا جيل واحد فقط اختلفت الصورة اختلافاً «راديكالياً» عن الصورة أو عن التوقعات المبدئية بحيث نستطيع الآن أن نصفها بأنها كانت توقعات ساذجة».

ينتقل بروفيسور نلسون بعد ذلك إلى شرح أسباب هذا الموقف فيقول بصراحة: «الحقيقة أننا نحن الأوروبيين كنا نرفض قبول أناس مختلفين عنا إلا بشروطنا، وقد أدى هذا إلى إصرار المسلمين على تميزهم فى أوروبا.. وكان التزام المسلمين بتقاليدهم والتصاقهم بدينهم هو الذى دفع المجتمعات الأوروبية والسياسيين والأكاديميين فى أوروبا إلى البدء فى النظر إلى المسلمين وإلى احتياجاتهم ومطالبهم نظرة جادة، وأن يضعوا جانباً السيناريوهات الساذجة عن التذويب والامتصاص».

لم يقتصر رد الفعل عند المسلمين من الرفض الأوروبى عند حدوده السلبية فقط (أقصد الاحتماء بالدين والتقاليد دفاعاً عن الوجود المهدد) وإنما تجاوزه عند المفكرين المسلمين إلى جانبه الإيجابى، وفى هذا يقول بروفيسور نلسون: إن المسلمين ـ وهم يشعرون بأنهم أقلية مرفوضة فى أوروبا ـ وجدوا أنفسهم مضطرين أن يفكروا أكثر عمقاً فى وضعهم كأقلية وفى عقيدتهم وممارساتهم الدينية، فى محاولة للإجابة عن أسئلة مهمة مثل: كيف يمكن أن نجعل هذه العقيدة أساساً مناسباً وفاعلاً فى تشكيل حياتهم اليومية فى بيئتهم الجديدة.. وخرج على الساحة قلة من المفكرين المسلمين رأوا أنه إذا كان المسلمون يريدون أن يتفاعلوا مع الحياة الحديثة بنجاح فعليهم أن يعيدوا النظر فى طبيعة الوحى وفهم نصوصه فى ضوء تأويلات جديدة.. وجاء آخرون من هذه القلة يدعون إلى هجر الفقه كلية كشىء لم يعد صالحاً للعمل به فى الحياة المعاصرة، ذلك إذا كان المسلمون يريدون أن يتفاعلوا مع مجتمعات غريبة عليهم من أبرز سماتها التكنولوجيا المتقدمة والعلمانية السائدة والمتطرفة أحياناً..

أما الذى لم يحدث بطريقة نظامية فى الإطار الأوروبى المعاصر فهو محاولة البحث واستلهام المصادر الأساسية فى الإسلام لاستثمارها فى البيئة الجديدة، ولكنه بدأ بشكل ملحوظ فى العالم المسلم خصوصاً بين المسلمين العرب. يقول بروفيسور نلسون: «الآن يأتى الدكتور طارق رمضان إلينا (هنا فى أوروبا) بأول محاولة رئيسية لتطبيق هذا الاتجاه الجديد على أوضاع المسلمين فى أوروبا.. وهو بذلك يضع نفسه فى إطار تيار عام متميز حديث.. وهو لا ينكر فضل من سبقه فى هذا الاتجاه ومن بينهم أبوه نفسه وهو الدكتور سعيد رمضان. وأبرز ما جاء به الدكتور طارق رمضان. فى نظر نلسون هو منهجه العلمى فى البحث وقد جعل مصادره المرجعية القرآن والسنة الصحيحة، ثم ناقش باستفاضة وتحليل مصطلحات أصول الفقه، وهو بسبيل وضع المبادئ الإسلامية الخالدة فى إطار متغيرات المكان والزمان.



يشتمل كتاب «أن تكون مسلماً أوروبياً» على جزءين أساسيين يتفرع كل جزء منهما إلى فصول: عنوان الجزء الأول هو «فى قلب مصادر العقيدة والممارسة الدينية» وعنوان الجزء الثانى هو «أسئلة حساسة: الانتماء والهوية والمواطنة». ولعل الإشارة إلى عناوين الفصول يعطى القارئ لمحة أو مذاقاً لما تعرض له هذه الفصول من أفكار. فى الجزء الأول فصلان يتناول أولهما تعاليم الإسلام وعلومه مثل علوم القرآن وعلوم الحديث، ويتناول الفصل الثانى بشىء من التفصيل والتحليل القواعد العامة الأساسية لأصول الفقه الإسلامى باعتباره المنهج الذى تُستنبط به الأحكام الشرعية.

أما الجزء الثانى فيه ثلاثة فصول، عنوان الفصل الأول هو: «أين نحن؟» وفيه

To Be a European Muslim: A Survey of Islamic Sources in the European Context
(أن تكون مسلماً أوروبياً)
Tariq Ramadan
The Islamic Foundation,
1998, 228pp

الهـــوية والمواطنـــة

محمد يوسف عدس

وصف تحليلي لطبيعة وخصوصية المجتمعات الأوروبية التي تشكل البيئة الجديدة للوجود المسلم. وعنوان الفصل الثاني هو «من نحن؟» وهو يتناول باستفاضة الهوية والانتماء وكيفية الجمع بين الانتماء للأمة الإسلامية وأن تكون مواطنًا أوروبيًا فاعلاً. ويفرق هنا بين الذوبان والاندماج، ويكشف عن معالم وتشكيل ثقافة إسلامية أوروبية، وفي الفصل الثالث يتحدث عن التعايش المحتمل.

المسلمون كأقلية

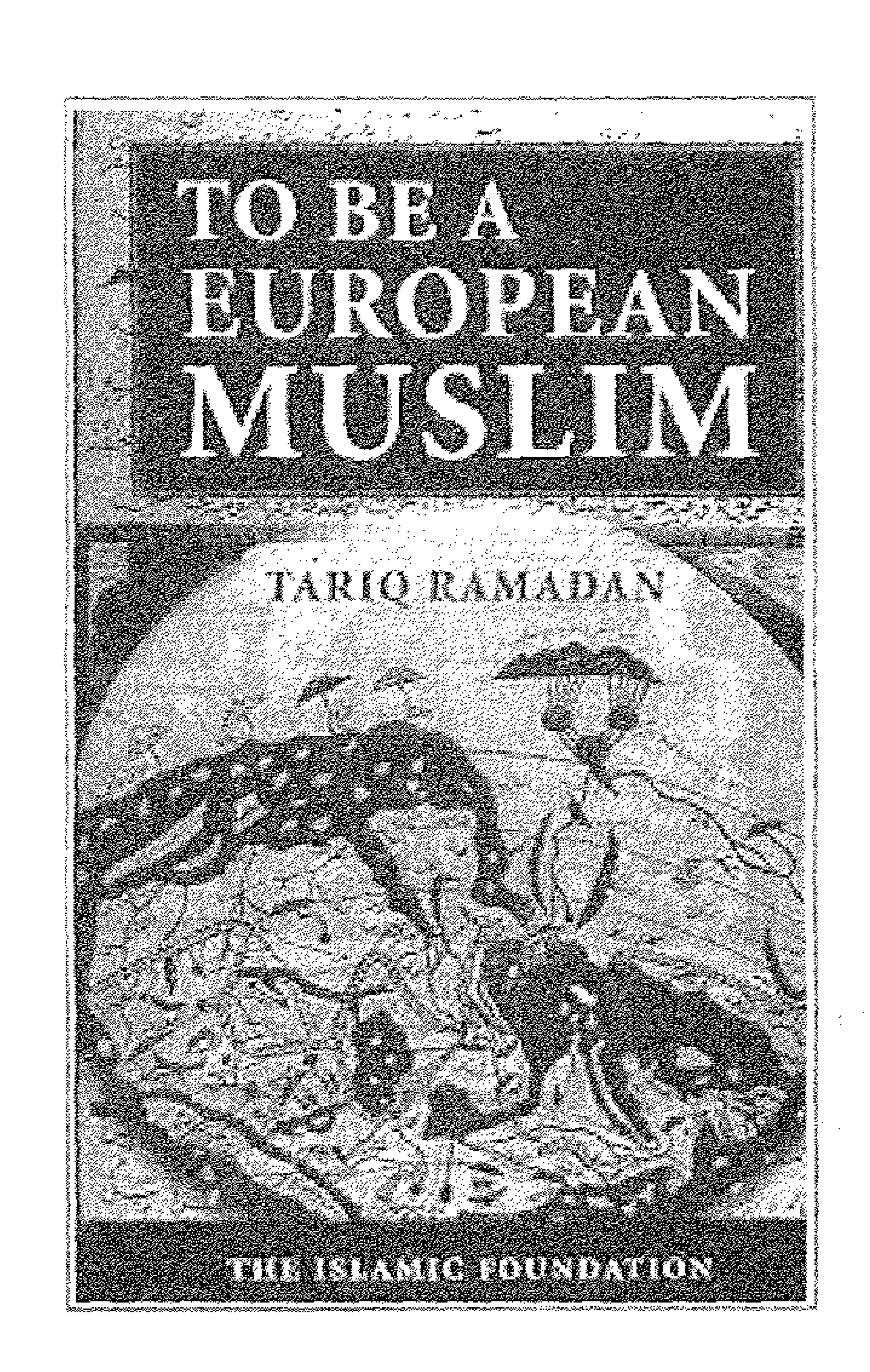
بعد خمسين عامًا من نهاية الحرب العالمية الثانية بلغ عدد المسلمين في أوروبا الغربية خمسة عشر مليونًا وهناك الآن تقديرات تصل بتعدادهم إلى العشرين مليونًا، ويعلق الدكتور طارق على ذلك قائلاً: «إن مجرد ذكر هذا العدد من شأنه أن يشيع الرضا في نفوسنا.. فقد أصبح الوجود المسلم في أوروبا ملحوظًا ومهمًا، وظهرت فيه اتجاهات للتنظيم بشكل أو بآخر وإن ظل الاتجاه العام بين المسلمين موجهًا نحو توفير الاحتياجات الأساسية وتأمين وسائل العيش في الحياة اليومية.. ولكن عندما بدأ المسلمون يمارسون شعائرهم الدينية ويقيمون مساجدهم لأداء شعيرة الصلاة ازداد شعور الأوروبيين بالريبة في هذا الوجود المسلم المتنامي والملتصق بدينه واعتبروه مشكلة بل خطرًا يهدد مجتمعاتهم...».

إزاء هذا الموقف الأوروبي المستريب الرافض للوجود المسلم اتخذت ردود الفعل في أوساط المسلمين صورًا مختلفة تراوحت بين الانسحاب والعزلة عن المجتمع العام تأكيدًا للخصوصية الثقافية واحتماءً بالعقيدة الدينية والتقاليد الموروثة، وبين الانسحاق التام والتخلي عن كل الخصوصيات الثقافية والدينية التي تشي بأصحابها في مجتمع لم يعد يحتمل أي قيود تمنع حريته الشخصية من الانطلاق إلى أقصى المدى.. وقد حرص أصحاب هذا الاتجاه من المسلمين أن يذوبوا في هذا المجتمع بحيث يصبحون غير مرئيين.. حتى أسماؤهم تخلوا عنها وتبنوا أسماء أخرى غربية إمعانًا في التخفي.

وتفسير الدكتور طارق لهذه الظاهرة في طرفيها المتطرفين كما نرى في تشخيص له يقول فيه: «يبدو أن الشعور بأن تكون أقلية وأن تعيش بهذا الاعتبار يولد نوعًا من العرض المرضي في عقل المسلم الأوروبي يحرمه من القدرة على رؤية نفسه إلا من خلال مرآة عالم مرفوض..» ثم يستطرد إلى نقطة مهمة فيقول: «لقد جربنا في تاريخنا الطويل أن نكون أقلية في بقاع كثيرة من الأرض.. ولكن وجودنا الأوروبي المعاصر ليس له مثيل في الماضي.. فهو وجود أكثر تعقيدًا وأكثر حساسية.. ذلك لأن الحضارة الغربية الحديثة مسلحة بوسائل بالغة القوة تجعل من الصعب على أي إنسان أن يحدد لنفسه من هو؟ أو من ليس هو؟.. فالإعلام والثقافة الشعبية والموسيقى والسينما والإعلان. كلها أدوات هائلة لتمييع الأفكار عن الحرية والأخلاق والترفيه وأساليب الاستمتاع بالحياة.. ولترسيخها في عقول الناس وقلوبهم إلى حد الاستيلاء بحيث يصبح من الصعب على الإنسان أن يعرف ما الذي يأتيه بمحض إرادته واختياره وما الذي يرجع إلى التأثيرات الخارجية.. وليس المسلمون ببعيدين عن هذه الحالة العامة ولا عن التوتر الذي يقترن بها.. ولعل أكثر الناس تأثرًا بهذا هم الفتيان والشبان المسلمون من الجيل الثاني والثالث والرابع.

كانت مهمة الجيل الأول من المسلمين المهاجرين إلى أوروبا هي إعادة إعمار أوروبا بعد تخريبها في الحرب العالمية الثانية. وبالتحديد توفير (العمالة) غير الماهرة في الزراعة والصناعة والبناء.. كانت غالبيتهم من الأميين البسطاء.. وكان المتوقع أن يعود هؤلاء العمال إلى أوطانهم الأصلية في آسيا وأفريقيا فلما استوطنوا ولم يعودوا كان التوقع الآخر هو أن تذوب هذه الأقليات في المجتمعات الجديدة وتتلاشى في زمن قصير.

يتناول الدكتور طارق في كتابه بتحليل مستفيض تركيبة الجيل الأول من المسلمين في أوروبا وما صادفه من مشكلات وردود أفعاله تجاه تحديات البيئة الجديدة التي رأى أنها متساهلة أو بالأحرى متسيبة بدرجة مخيفة. بل معادية لدينه وهويته.. ونظرًا لقلة معارفه الدينية عن الإسلام فقهًا وثقافة اعتصم بتقاليده التي حملها معه من وطنه الأصلي متصورًا أنها هي الهوية الإسلامية في حين أنها تقاليد مشوبة بكثير من الخرافات المحلية مقطوعة الصلة بالإسلام بل متناقضة معه في كثير من الأحيان. ويرى الدكتور طارق أن هذا النقص المعرفي بالإسلام مقرونًا بظروف البيئة الجديدة وتحدياتها التي تضع المسلم في دائرة الرفض.. مع شعوره بالغربة وبمصاعب الحياة الاقتصادية والاجتماعية. كل هذا أدى إلى ردود أفعال متشنجة سادت في الجيل الأول من المسلمين. ولكنه يضيف إلى هذه الحقيقة حقيقة أخرى حين يستطرد قائلاً: إننا لا نزال نرى هذه المواقف المتشنجة في مناسبات كثيرة من أجيال لاحقة. تبدو لنا على شكل عاهات مزمنة». وهو يرى أن هذا الموقف يرجع إلى رغبة بعض المسلمين إلى تأكيد ذواتهم مع اقتران هذه الرغبة بنسيان أصولهم وإن ظلوا مخلصين لدين لم يعودوا يفهمون حقيقته ومن ثم يأتي فكرهم وسلوكهم على شكل ردود أفعال رافضة وأحيانًا عدوانية تجاه المجتمع وثقافته.

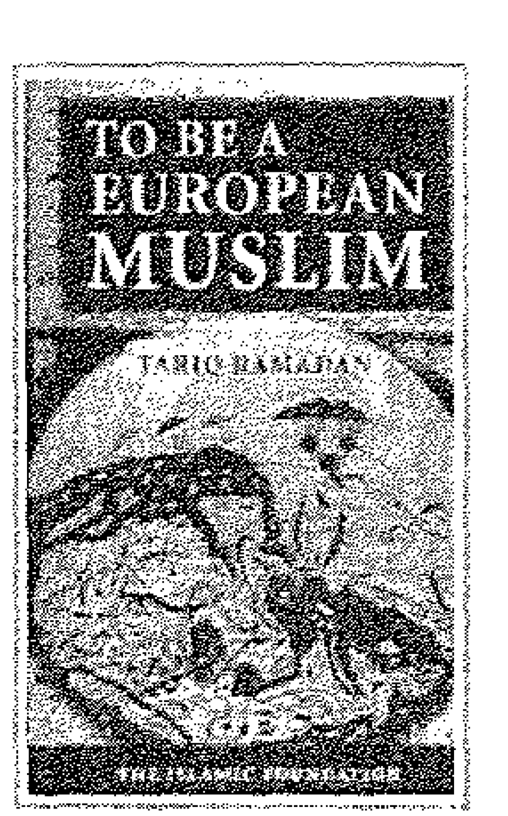


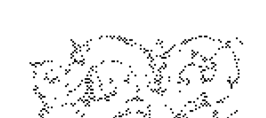
تحرير الهوية:

يرى الدكتور طارق أن علاج أزمة المسلمين في أوروبا يتطلب جهدًا مشتركًا من جانب المسلمين من ناحية والمفكرين الإصلاحيين في أوروبا من ناحية أخرى، وهو يعتقد. من واقع خبرته. أنه يوجد من هؤلاء الإصلاحيين من هم على معرفة بالكثير من أبعاد هذه الأزمة وآثارها السلبية على المسلمين وأوروبا على السواء، ولديهم الرغبة في العمل والمساهمة في علاجها.

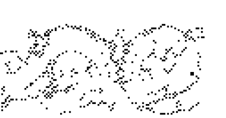
ولكن يبقى العبء الأكبر على عاتق المسلمين لأنهم هم أصحاب الأزمة وضحاياها. وفي هذا الإطار يجد المسلم أنه أمام تحديين عليه مواجهتهما في آن واحد: أن يفهم الإسلام فهمًا صحيحًا يساعده على تحرير هويته الإسلامية من شوائب التقاليد التي لا علاقة لها بالإسلام، وأن يفهم البيئة الأوروبية بأبعادها الاجتماعية والثقافية والقانونية وأن يتفاعل مع هذه البيئة بطريقة إيجابية من خلال الحوار والمشاركة مع الإصلاحيين الأوروبيين بالفكر والعمل لتغيير المجتمع الأوروبي وتطويره لمصلحة الجميع.

فالإسلام قبل أن يكون وسيلة للحماية من الضياع والذوبان هو عقيدة إيمانية تتضمن فهمًا كونيًا للخلق والحياة والموت والإنسانية التي كرمها الله وأسند إليها خلافته في عمارة الأرض وإدارتها، وينبغي أن يكون فهم هذه الحقيقة هو الأساس لقواعد التفكير والسلوك.. فعلى أساس هذا الفهم أقام الإسلام بالفعل العبادات والمعاملات فيما يعرف في تاريخ الإسلام بأصول الفقه والاجتهاد





إن الدكتـــور طـــارق رمضـــان يـــرى أن الإســـلام لا يســـمح فقـــط بل يشـــجع على الاندمـــاج والتفـــاعل وتعريفـــه للهـــوية الإســـلامية يكشـــف عن حقيقـــة أنهـــا ليســـت هوية مغلقـــة بل هى مفتوحـــة على تطور المجتمعات وديناميـاتها



وحدد المرجعية فى هذا كله بالقرآن والسنة الصحيحة.

هذا الإطار النظرى، عند طارق رمضان، لا يمكن تجاوزه أو إلغاؤه ومن ثم كانت عنايته به فى الجزء الأول من كتابه، وقد خصص الفصل الثانى من هذا الجزء لبسط أهم القواعد فى علم أصول الفقه والاجتهاد وأفاض فى تحرير فكرة أن الأصل فى الأشياء هو التحليل وليس التحريم، ولا يكون التحريم إلا بنص صريح غير قابل للتأويل فإن كان النص يحتمل تأويلاً أو انعدم فى مسألة بعينها هنا يأتى دور الاجتهاد والاختلاف المحمود.

بين الذوبان والاندماج:

وفى تناول الدكتور طارق لمفهوم الهوية الإسلامية يميز بين موقفين: موقف الاستسلام والذوبان فى المجتمع وموقف الاندماج الذى يتحقق من خلال التفاعل الإيجابى والعمل المشترك والانخراط مع الآخرين فى العمل والإصلاح، دون التخلى عن الهوية الإسلامية والمرجعية الإسلامية، بل إن الدكتور طارق رمضان يرى أن الإسلام لا يسمح فقط بل يشجع على الاندماج والتفاعل وتعريفه للهوية الإسلامية يكشف عن حقيقة أنها ليست هوية مغلقة بل هى مفتوحة على تطور المجتمعات ودينامياتها. وقد أثبت فى تحليلاته وشروحه أن مسائل الهوية والمواطنة والثقافة مسائل أساسية كما أثبت أن التعايش الذى يرفض الانعزال والذوبان ممكن بل ضرورى لحياة المسلمين فى أوروبا. وهو ينبه المسلمين الأوروبيين ألا يقتصر نضالهم لتحقيق العدالة ورفع الظلم عن أنفسهم فقط، فهناك فئات أخرى من الناس تحتاج إلى من يساعدهم فى رفع الظلم الواقع بهم، ويتطلع الإصلاحيون الأوروبيون أن يروا من المسلمين إسهاماً فعالاً فى هذا المجال، ويؤكد الدكتور طارق أن هذا الإسهام فى تحقيق العدالة ورفع الظلم حيثما وجد هو واجب إسلامى.



يربط الدكتور طارق فى تعريفه للهوية الإسلامية بين عناصر أربعة رئيسية متكاملة فى البناء والتفاعل لا يمكن تفكيكها أو تجزئتها إلا لأغراض الدراسة التحليلية:

العنصر الأول فى هذه التركيبة هو الإيمان بالله وبالوحى، والتوحيد هو المفهوم المركزى فى قلب هذا الإيمان، ويبقى الإيمان مجرد عقيدة نظرية حتى يتحقق فى الممارسة العملية بالسلوك والعبادات، والعبادة هنا مأخوذة بمعناها الضيق المتمثل فى إقامة الواجبات والشعائر الدينية كما تحددها الشريعة، وبمعناها الواسع المتمثل فى أى سلوك اجتماعى يتجه به الإنسان إلى رضاء الله ومحبته، والسلوك أو المعاملات لا تتأكد فى العقيدة إلا بركنيها الروحى والأخلاقى.

ويتمثل العنصر الثانى فى الهوية الإسلامية فى فهم النص (قرآناً كان أو سنة) وفقاً لقواعد أصولية منهجية مستمدة من علوم القرآن والحديث وأصول الفقه، بمقدار ما يتمثل فى فهم الواقع بأبعاده الزمانية والمكانية والحضارية، وهو ما يطلق عليه اصطلاحاً فقه الواقع، فبغير هذا الفقه يستحيل تنزيل أحكام النصوص على الواقع المتغير وحالاته المختلفة. الأمر إذن، فيما يتعلق بالاجتهاد والفتوى لا يقتصر على اتقان العلوم الشرعية فقط، وانما يستلزم إلى جانب هذا ثقافة واسعة وإدراكاً عميقاً لأوضاع المجتمعات الإنسانية وإلماماً بشئونها السياسية والاقتصادية ومشكلاتها الحضارية. وكثيراً ما تصدر أخطاء فاحشة بل كارثية من أصحاب العلم الشرعى فى أعلى درجاتهم بسبب جهلهم وقصورهم فى فقه الواقع!

أما العنصر الثالث فيتعلق بالتعليم والبث والدعوة والتبليغ أو إن شئت (بلغة العصر) النقاش والحوار والتواصل الفكرى مع الآخرين فى المجتمع، بالأسلوب المناسب والخطاب المناسب بطبيعة الموقف وللمستوى الحضارى للأفراد والمجتمعات.

ويؤكد العنصر الرابع فى الهوية الإسلامية على ضرورة الانخراط فى العمل والمشاركة مع المواطنين الآخرين من غير المسلمين فى معالجة مشكلات المجتمع وتحسين أوضاعه وإصلاح حاله وتحقيق العدل والمصلحة ودفع الظلم عن الفئات المستضعفة فى المجتمع.

هذه العناصر الأربعة مجتمعة ومتفاعلة هى التى تشكل جوهر الهوية الإسلامية ولا تتحقق هذه الهوية فى الواقع إلا بها.



من عجائب الصدف فى هذه الحياة أننى سمعت الدكتور سعيد رمضان فى الإذاعة المصرية سنة ١٩٥٢ وكنت آنذاك تلميذاً فى المدرسة الثانوية، كان محدثاً لبقاً وداعية إسلامياً شاباً من طراز فريد فوقع فى نفسى من حديثه المشرق الجذاب شيء فى الذاكرة حملته معى زمناً طويلاً، وبعد واحد وخمسين عاماً يشاء القدر أن ألتقى بابنه فى مؤتمر بلندن يناقش مشكلات المسلمين فى الغرب فألمس فيه روح الداعية الإسلامى مشرق الحديث، مجدداً متمكناً من فكره الإسلامى ومن فهمه لروح الحضارة الغربية فى جوانبها الإيجابية المبدعة وسلبياتها الموجعة، ذلك هو الدكتور سعيد رمضان.



إلى جانب هذه الوجوه المشرقة للوجود الإسلامى فى أوروبا، صادفت وجوهاً كريهة لأعضاء فى جماعات منسوبة إلى الإسلام، جماعات منغلقة على نفسها تتغذى على أفكار متخلفة ناشزة عن التيار الإسلامى العام، وهى تحدث اضطراباً بين المسلمين، وتعوق عملية التواصل والاندماج والتفاعل البناء بين المسلمين وغير المسلمين، وتقدم بفكرها وسلوكها ومظهرها صورة مزرية للإسلام فى عيون الأوروبيين، وهى أمور محسوبة شرحها يطول مما لا مجال له فى هذه المقالة.

وبرغم كل هذا فإن الدكتور طارق يرى أن نهاية القرن العشرين قد شهدت علامات تقدم حقيقى فى أوروبا على طريق التفاهم والتواصل، خصوصاً فى أوساط الإصلاحيين الأوروبيين، فالوعى بالوجود الإسلامى فى أوروبا قد أصبح حقيقة، وهناك تقدمات ملموسة فيما يتعلق باستيعاب حقوق المسلمين ومتطلباتهم من الناحية القانونية، تتفاوت من دولة إلى أخرى، يلاحظ الدكتور طارق أن بريطانيا بين أفضل هذه الدول وأن فرنسا تُعد من أسوئها. كما يلاحظ أن عملية المشاركة والإسهام من جانب المسلمين فى النشاط الاجتماعى العام قد بدأت وهى ماضية فى طريقها، وأن هوية المسلم الأوروبى آخذة فى التشكل بصرف النظر عما يعترضها من عوائق وما تُقذف به من عبارات إعلامية مهينة أو مهيجة ضد الإسلام والمسلمين.

ويؤكد الدكتور طارق أنه لابد من المزاوجة بين الإطار النظرى للتشريع الإسلامى كما طرحه فى كتابه وبين تطبيقاته فى الواقع الأوروبى، ويرى فى هذا تحدياً ذا أهمية قصوى وأن المسئولية فى هذا تقع على أصحاب العقيدة والضمير من كلا الجانبين المسلم وغير المسلم، ولابد لإنجاح هذا الجهد المشترك أن يرتفع الجميع إلى مستوى مبادئهم ولو بدا العالم كله ضدهم، ذلك لأنهم يعلمون أن لكل هدف نبيل يرجى تحقيقه ثمناً يتوازى مع قدرته ونبله وأنه واجب السداد من إخلاصهم لله ولضمائرهم. ■

الأقليات المسلمة ومشكلاتها الفقهية

يوسف القرضاوي

ما المراد بمصطلح (الأقلية) الذي نتحدث عنه هنا؟

لقد راجت هذه الكلمة في عصرنا، نتيجة لكثرة الهجرات وتقارب العالم بعضه مع بعض، ويراد بها: كل مجموعة بشرية في قطر من الأقطار، تتميز عن أكثرية أهله في الدين، أو المذهب أو العرق، أو اللغة، أو نحو ذلك، من الأساسيات التي تتمايز بها المجموعات البشرية بعضها عن بعض.

ومثل ذلك: الأقليات المسلمة في المجتمعات المسيحية في الغرب، أو الهندوسية في الهند، أو البوذية في الصين، فهي تخالف الأكثرية في العقيدة والدين، ومثلها الأقليات المسيحية في مصر وسورية والعراق وغيرها. والأقليات اليهودية في المغرب وإيران وتركيا وغيرها، ومثلها الأقليات الكاثوليكية في كثير من بلدان العالم.

ومن لوازم الأقلية: أنها تكون عادة ضعيفة أمام الأكثرية، فالكثرة تنبئ عن القوة، والقلة تنبئ عن الضعف.

الأقليات المسلمة في الغرب:

هناك الأقليات المسلمة في أوربا الشرقية والغربية.

بعضهم من أهل البلاد الأصليين، مثل الجزء الأوروبي من تركيا، وألبانيا والبوسنة والهرسك وكوسوفو ومقدونيا.وهؤلاء لا يجوز اعتبارهم أقليات، لأن بلادهم في الحقيقة بلاد إسلامية. ومثل مسلمي كرواتيا وصربيا والجبل الأسود، وبلغاريا، وغيرها، فهم من أهل البلاد.

وهناك من دخل الإسلام حديثا من أهل أوروبا الغربية، ومن انضم إليهم من المهاجرين من بلاد المغرب في فرنسا، وفيها أكبر جالية إسلامية. نحو خمسة ملايين. بعضهم يحملون الجنسية الفرنسية، وآخرون يقيمون إقامة مشروعة لها حقوقها.

ولقد بدأ المسلمون في أوروبا منذ مدة يشعرون بذاتيتهم، وأدركتهم الصحوة الإسلامية العامة، فطفقوا ينشئون المؤسسات المختلفة. دينية وثقافية واجتماعية واقتصادية.

صفحات من:
في فقه الأقليات المسلمة
حياة المسلمين وسط المجتمعات الأخرى
د. يوسف القرضاوي
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠١، ٢٠١ صفحة

للحفاظ على كيانهم: المساجد لصلواتهم، والمدارس لتعليم أولادهم، والكليات والجامعات لتخريج المتخصصين منهم. ومن المؤسسات التي تذكر للجالية المسلمة في أوروبا: اتحاد المنظمات الإسلامية، والكلية الأوروبية للدراسات الإسلامية في فرنسا، وقد خرجت عدة دفعات، ومثلها في بريطانيا، والمجلس الأوروبي للإفتاء والبحوث، وقد عقد سبع دورات، وأصدر عددا من الفتاوى والتوصيات المهمة، حلت كثيرا من مشكلات المسلمين في ضوء نصوص الشريعة ومقاصدها.

وهناك المسلمون في الولايات المتحدة الأمريكية وكندا، ويقدر عددهم بأكثر من سبعة ملايين، معظمهم من (المسلمين الأفارقة) الذين استلبوا من أوطانهم استلابا، وسيقوا بسلاسل القهر إلى (الرق) وهم أحرار أبناء أحرار.

ولقد مرت الأقليات المسلمة في صلتها بالإسلام. فكرا وشعورا وسلوكا. بمراحل متفاوتة، وخصوصا فئات المهاجرين من أوطان الإسلام الأصلية.

في المرحلة الأولى كانت(ضياعا) بمعنى الكلمة. لم يكن هناك وعي، ولا حتى إحساس كاف بالانتماء الإسلامي، أو الهوية الإسلامية.

بدأ ذلك من بعد الحرب العالمية الأولى، حيث هزمت دولة الخلافة، وانتصر الحلفاء، وتألق العالم الغربي بحضارته، وانسحب العالم الإسلامي ليدخل تحت سلطان الاستعمار، الذي لم يكن قد دخل بلدانه من قبل.

كانت الأقليات الإسلامية أو قل: ما اعتبر أقليات إسلامية. في ذلك الوقت تمثل صنفين من المسلمين:

١. أهل البلاد الأصليين.

٢. المهاجرين الجدد من العالم الإسلامي.

أما أهل البلاد الأصليون فكان معظمهم في (أوروبا الشرقية) وفي داخل (روسيا) تحت مطارق الحكم الشيوعي، ومنهم: أهل البوسنة والهرسك وكسوفا ومقدونيا وألبانيا وبلغاريا، وغيرها. فهؤلاء قد عزلوا عن الإسلام عقيدة وشريعة وأخلاقا وثقافة، كما عزلوا عن سائر الأمة الإسلامية. فأصبح هؤلاء جاهلين بالإسلام من ناحية الفكر، بعيدين عن الإسلام من ناحية السلوك. فكل ما يربطهم بالإسلام: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، التي يلقنها الآباء والأمهات للأبناء والبنات، دون أن يعرفوا حقيقة مدلولها، وما تقتضيه من قائلها من التزام بفرائض تؤدى، ومحرمات تجتنب، ومع هذه الشهادة عاطفة إسلامية غامضة نحو الإسلام، وشخصية الرسول. صلى الله عليه وسلم .. والقرآن الكريم، أو المصحف الشريف الذي يعرفون اسمه، ويقدسون رسمه، ولا يعرفون حتى تلاوته. ومع هذا لم يكونوا يجدون هذا المصحف إلا بصعوبة. ومن وجده منهم. بطريقة أو بأخرى. فكأنما عثر على كنز عظيم.



وقد أدخل في دائرة (الأقليات المسلمة) في ذلك الوقت المسلمون في (الجمهوريات الإسلامية الأسيوية) في الاتحاد السوفيتي.

على كل حال،كان هذا هو وضع الأقليات المسلمة من أهل البلاد الأصليين.

أما وضع المهاجرين من البلاد العربية والإسلامية، فقد كانوا قليلين في أول الأمر، وكان معظم المهاجرين من أناس لم يكن تدينهم راسخا، وكانوا يبحثون عن الرزق وعن المال، وأما هذا العالم فلم يكونوا يعرفون عنه شيئا. وقد هاجروا من بلاد ضعف شأن الإسلام فيها، فكان وضعهم الخاص، ووضع قومهم العام. مع ظهور العالم الغربي في أوج قوته وانتصاره. يجعل هؤلاء لا يفكرون في هويتهم ومتطلبات دينهم: فكانت النتيجة أن ضاع الجيل الأول والثاني من هؤلاء وخصوصا الجيل الأول، فقد ذاب تماما في المجتمع الجديد: إذ لم يكن له من عقيدته ووعيه عاصم يعصمه من الذوبان، ولا يوجد من حوله أية (محاضن) تحتضنه أو (حراسة) تحميه.

لقد بدأ عصر جديد للأقليات المسلمة، ولا سيما المهاجرة، تطور هذا العصر من مرحلة إلى مرحلة.

ونحن الآن في مرحلة التفاعل الإيجابي مع المجتمع.

فلا مجال في هذه المرحلة للعزلة والانكفاء على الذات، والحذر من مواجهة الآخرين.

فقد غدت الأقليات المسلمة واقفة على أرض صلبة، واثقة من نفسها، معتزة بذاتها، قادرة على التعبير عن هويتها، والدفاع عن كينونتها وإبراز خصائصها، وتقديم ما عندها من رسالة حضارية للبشرية.

وهي في هذه المرحلة تستكمل مؤسساتها العلمية والتربوية والدعوية، فقد كانت في وقت ما معنية أبلغ العناية بإنشاء (المسجد)، وكانت ضرورية: لأنها المؤسسة الأولى في المجتمع المسلم.

ثم تطورت فأصبحت تعنى بإنشاء (المدرسة) ليتعلم فيها أبناء المسلمين أصول دينهم، كما يتعلمون المناهج الدراسية المقررة على أمثالهم.

ثم تطورت أكثر فأصبحت تنشئ المعاهد العليا والجامعات المتخصصة في الدراسات الإسلامية.

المشكلات الفقهية للأقليات:

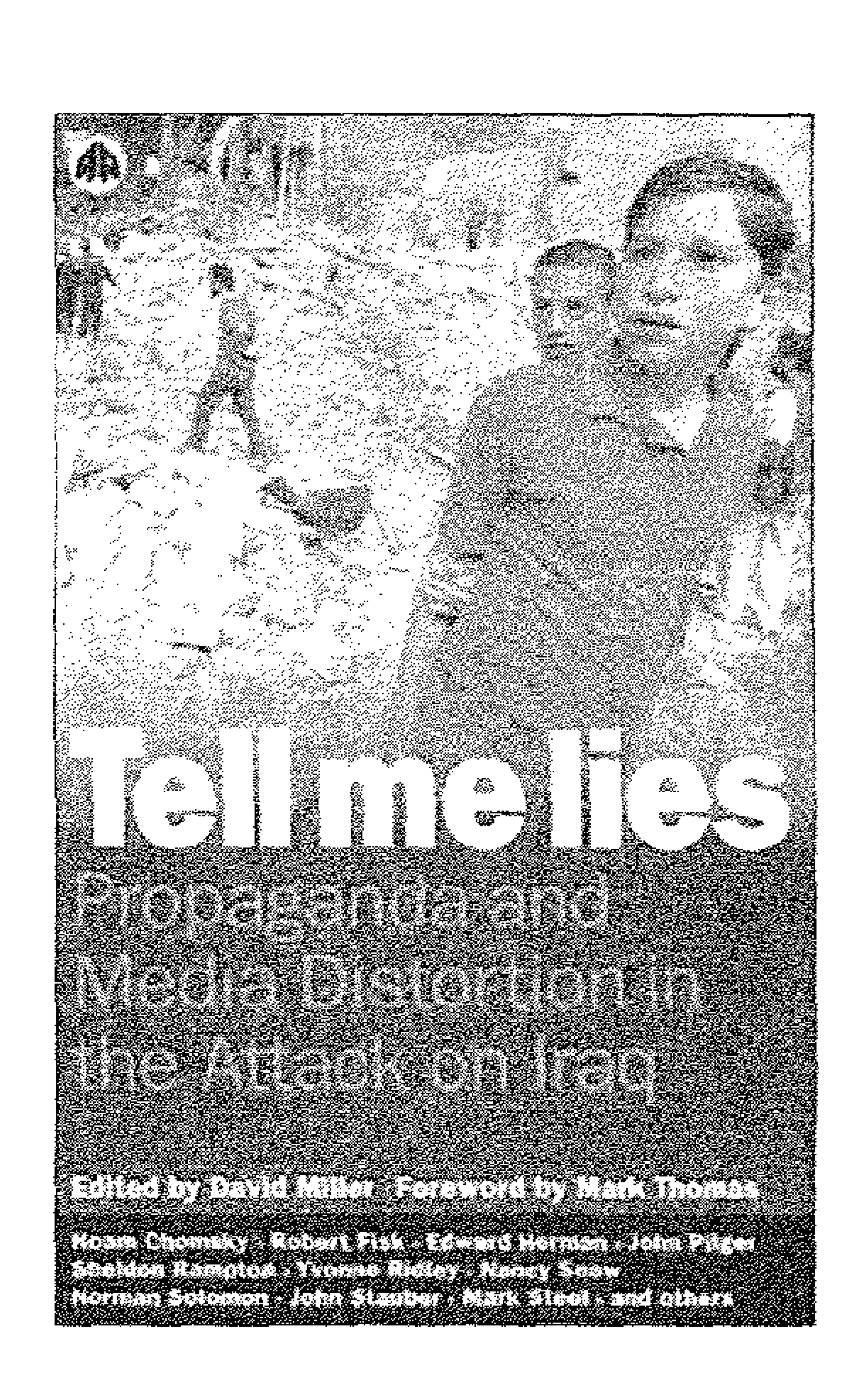
هذه الأقليات. بنوعيها الأصلي والمهاجر. لها مشكلات كثيرة تشكو منها، بعضها سياسي من جراء حيف الأكثرية على حقوقها، وعدم رعايتها لخصوصيتها الدينية.. وبعضها اقتصادي.

وكثير من مشكلات المسلمين لها طابع فقهي: وذلك ناشئ من رغبة الأقليات المسلمة في تلك البلاد في التمسك بهويتها الدينية، وعقائدها الإسلامية، وشعائرها التعبدية، وأحكامها الشرعية في الزواج والطلاق وشئون الأسرة، ومعرفة الحلال والحرام في أمور المطعومات والمشروبات والملبوسات، وسائر المعاملات، وشتى العلاقات بين الناس، وخصوصا غير المسلمين: هل ينعزلون عنهم أو يندمجون فيهم؟ وإلى أي حد يجوز الاندماج؟

الهيمنة الإعلامية الأمريكية

صبري حافظ

هذه دعوة للمعرفة. لأن الحق ينهض على المعرفة، والمعرفة في حد ذاتها قوة تمكننا من الحصول على بعض حقوقنا المهدرة. فقد اهدرت الكثير من حقوقنا، وضاعت علينا فرص الدفاع عن أنفسنا بسبب نقص معرفتنا بما يحاك لنا، وبالتالى عدم القدرة على التصدى له فى أوانه، ودحره وهو لايزال مجرد مخططات مشبوهة تستهدفنا، بدلا من الانتظار حتى «تقع الفأس فى الرأس» كما يقول التعبير المصرى. ثم التخبط فى ردود الفعل. ذلك لأن معرفة الحقائق بعد فوات أوان فاعليتها لاقيمة كبيرة لها. لأنه من باب الدراسات الفقهية أو التاريخية أكثر من أى شىء آخر. فالمعرفة وتحققها كقوة ترتبط بزمن فاعليتها، وليس بعد انصرام هذا الزمن. وفى هذا الباب يدخل التقرير الأخير والخطير الذى أعده أربعة من خبراء انتشار أسلحة الدمار الشامل فى مؤسسة كارنيجى الخيرية للسلام العالمى Carnegie Endowment for International Peace والذى أعلنت نتائجه فى ٧ يناير ٢٠٠٤، وقد استغرق إعداد هذا التقرير ستة أشهر، وجاء نتيجة لمقابلات عديدة مع خبراء الأسلحة والاستخبارات، وفحص دقيق لكل المستندات والتقارير الرسمية فى هذا المجال. وبرهن بدلائل قاطعة على أن حكومة بوش الأمريكية قد قامت بحملة إعلامية معلوماتية منظمة لتضليل الرأى العام الأمريكى، والمبالغة فى التهديدات التى تشكلها أسلحة الدمار الشامل العراقية. ودعا التقرير الذى اتهم إدارة بوش بالقيام بعملية تضليل منظمة Systematic misrepresintation بشأن الخطر الذى تمثله أسلحة الدمار الشامل العراقى إلى



تشكيل لجنة تحقيق فى دعاوى الحكومة ومزاعمها قبل شن الحرب الأمريكية/ البريطانية العدوانية على العراق.

ذلك لأن الحكومة الأمريكية ذاتها وأجهزة استخباراتها المختلفة كانت توقن - كما يقول لنا التقرير - قبل الحرب بأنه لا أساس للقول بأن نظام صدام حسين يشكل خطرا بأسلحته الكيمائية أو النووية على السلام بل كانت تعلم علم اليقين أنه ليس لديه برنامج نووى على الإطلاق، ومع ذلك أعلن ديك تشينى أن العراق استأنف برنامجه النووى. صحيح أنه كانت هناك درجة عالية من عدم اليقين بشأن بعض الأسلحة البيولوجية، ولكن لم تكن هناك أية براهين أو دلائل قوية يمكنها أن تبرر الحرب. ويؤكد التقرير أن واشنطون كانت تدرك قبل الحرب أن الخطر الذى تشكله اسلحة الدمار الشامل العراقية أقل من ذلك الذى تشكله باكستان أو كوريا الشمالية، أو مخزون الأسلحة الروسية المعرض للسرقات السهلة. ويؤكد التقرير أن تصاعد وتيرة التقارير الاستخباراتية الأمريكية عن تهديدات العراق بلغت درجة من الحدة والتوتر فى أكتوبر عام ٢٠٠٢ مع نشر تقرير الاستخبارات الوطنية National Intelligence Estimate الذى ينطوى على عدد كبير من الآراء المتناقضة والمعارضة لمسئولى الاستخبارات المختلفين. ويعدد التقرير أربعين حالة أثار فيها القسم المعلن من تقرير الاستخبارات الوطنية الشك فى المعلومات المتوفرة بشأن العراق. ناهيك عن القسم السرى الذى لم يتح لواضعى تقرير كارنجى الاطلاع عليه. وكيف أن هذه التشكيكات الأربعين قد حذفت من كل التقارير والملفات الإعلامية المختصرة التى نشرتها واشنطون على نطاق واسع فى عملية التضليل المنظمة تلك.

ذلك لأن واضعى السياسة قد أثروا على عدد من خبراء الاستخبارات ودفعوهم لإصدار تقارير تنطوى على تهديدات غير مؤكدة. فقد تكررت زيارات نائب الرئيس الأمريكى «ديك تشينى» لوكالة المخابرات الأمريكية، وطالب عدد من كبار المسئولين فى إدارة بوش بالاطلاع على التقارير غير المؤكدة والمعلومات المشكوك فيها لدى أجهزة الاستخبارات مما خلق مناخا دفع المحللين فى أجهزة الاستخبارات المختلفة إلى طرح عدد من التكهنات والاستقصاءات المثيرة والدامغة بشأن العراق. وسرعان ما استند مسئولو الإدارة الأمريكية على هذه التكهنات وأحالوها إلى معلومات أو حتى تأكيدات موثقة. ويشير التقرير فى هذا المجال إلى تحول عدد من هذه التكهنات أو التخمينات التى صاغتها أجهزة الاستخبارات بطريقة تشكيكية إلى تأكيدات صارمة فى عرض وزير الخارجية الأمريكى كولن باول لها فى مجلس الأمن. وهو العرض الذى سخر منه هانز بليكس مفتش أسلحة الأمم المتحدة فى حينه. لكن اهم ما يؤكده التقرير بطريقة إحصائية دقيقة هو طريقة تغير تغطية الإعلام الأمريكى والمسئولين الأمريكيين لموضوع العراق، وشن حملة منظمة عليه بصورة اعتمدت على التكهنات والاختلاقات فى خلق رأى عام أمريكى مؤيد لشن الحرب على العراق. ويشكك التقرير فى مزاعم واشنطون قبل الحرب بأن العراق سيتيح هذه الأسلحة للإرهابيين ولتنظيم القاعدة. وهى الأسلحة التى لم تعثر لها أمريكا على أثر بعد ثمانية أشهر من احتلالها للعراق، إلى الحد الذى قررت معه سحب فريق البحث عن هذه الأسلحة بقيادة دافيد كاى، وطرح سيناريوهات عديدة عن أنها كانت موجودة على الورق فقط، أو

The Price of Loyalty:
George w. Bush, the white house and the Education of paul O'Neill
(ثمن الولاء .. جورج بوش والبيت الأبيض وتثقيف بول أونيل)
Ron Suskind
Simon, Sahuster, 2004, 348PP,$ 26

Tell Me Lies: Propaganda and Media Distortion in the Attack on Iraq
(الدعاية والتضليل الإعلامى فى الهجوم ضد العراق)
Noam Chomsky, Robert Fisk, and Others .. edited by David Miller

الهيمنة الأمريكية على المعلومات بلغت درجة عالية من الاحكام تهدد استقلال المؤسسة الإعلامية فى المجتمعات الغربية نفسها، وتعصف بالكثير من تقاليدها الراسخة. وقد بدأت الولايات المتحدة تنشر أذرع هذه الهيمنة الأخطبوطية فى مختلف أنحاء العالم



سلاح للتضليل وتبرير الحرب

فى عقل صدام حسين وحده، ولم يجرؤ مساعدوه على إخباره بذلك.



والواقع أن هذا التقرير الخطير، والكتاب الأخطر الذى ظهر هذا الأسبوع فى لندن (أخبرنى الأكاذيب) والذى سأعرض له بعد قليل يؤكدان أن الولايات المتحدة الأمريكية، وضمن نطاق سعيها للهيمنة على العالم، قد أخذت فى التحرر من كل المعايير الإنسانية والأخلاقية التى كانت تحمى ممارسات المؤسسات السياسية والإعلامية فى المجتمعات الديموقراطية. ذلك لأن سعيها للهيمنة يتمثل أول ما يتمثل فى هيمنتها على مصادر المعلومات وهى العملية التى بلغت ذروتها فى الحرب على العراق، ولاتزال تتكشف لنا فصولها فى الواقعين الأمريكى والبريطانى. ومع أن أمر الهيمنة الغربية على مصادر المعلومات وتحكم الغرب فيها من الأمور القديمة التى تحتكر فيها وكالات الإعلام الغربية الكبيرة منذ أيام الحرب الباردة السيطرة على وكالات الأنباء العالمية الأساسية التى تقرر أجندة الأخبار اليومية للعالم. والواقع أن الغرب قد حرص على الانفراد بالسيطرة على مصادر المعلومات، منذ أمد طويل. ومن يتذكر وقائع الهجمة الأمريكية البشعة على مؤسسة اليونسكو أيام أمانة أحمد مختار أمبو لها، بسبب إنشاء اليونسكو لمكتب التدفق الحر للمعلومات، وقيادته لمشروع إنشاء وكالة أنباء عالمية تطرح منظور العالم الثالث وقتها للأخبار وللعالم، على الخريطة الدولية، وكسر احتكار الغرب للهيمنة الإعلامية، فشنت أمريكا حربا عليه، وانسحبت من اليونسكو هى وانجلترا وكندا وأوقفت تمويلها له، ولم تعد إليه إلا بعد إلغاء مكتب التدفق الحر للمعلومات باليونسكو، ووأد مشروع الوكالة. من يتذكر هذا كله يدرك أن وعى أمريكا بأهمية السيطرة على المعلومات يعود إلى أمد غير قصير. وليس وليد هيمنة اليمين الصهيونى أو ما يدعى بالمحافظين الجدد، وهو الاسم الذى يتخفى وراءه عتاة الصهاينة الذين يقودون السياسة الأمريكية من وراء ستار جورج بوش الصغير.

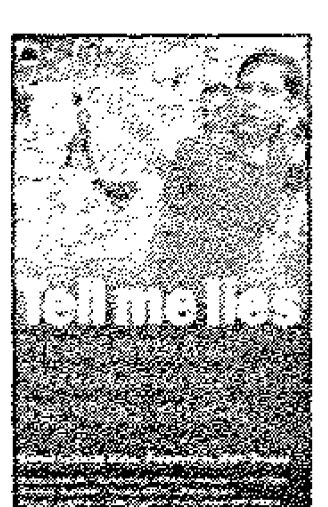
لكن الجديد فى الأمر الآن هو أن أمريكا، ومنذ أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١، تسعى إلى الهيمنة الكاملة والفجة على تدفق المعلومات فى البلدان الصديقة والعدوة على السواء. وتعتبر أن هذه الهيمنة هى معركتها الأساسية للحفاظ على مكانتها باعتبارها الدولة العظمى الوحيدة التى يحق لها أن تفعل ما تريد. لذلك يطرح واضعو استراتيجيات السياسة الأمريكية فى هذا المجال مسألة الهيمنة الإعلامية/المعلوماتية Information Dominance باعتبارها أحد العناصر الأساسية لما تدعوه بالهيمنة الطيفية الكلية Full Spectrum Domination أو التى تشمل كل ألوان الطيف أو النشاط الإعلامى والدعائى، وتدرجها جميعها فى إطار الهيمنة العسكرية. لأن الولايات المتحدة قد أدركت أن عليها أن تكسب الحرب إعلاميا قبل أن تطلق أول طلقة فيها، وأن معركة الحرب الإعلامية تلك تتطلب منها إدارة وسائل الإعلام المختلفة والتحكم فيها. لأن ما يصدر عن هذه الأجهزة الإعلامية من وجهة نظر الهيمنة الأمريكية ليس مجرد معلومات، ولكنها أسلحة فى صورة معلومات Weaponized information لابد من نشرها بحساب، ووفق مخطط عسكرى لايقل دهاء ومراوغة وتنظيما عن نشر الأسلحة نفسها. وكما يقول الخبير العسكرى الكولونيل كينيث آلارد «فإن الحرب على العراق ستدخل التاريخ باعتبارها الصراع الذى لعبت فيه المعلومات دورها الكامل باعتبارها أحد أسلحة الحرب الأساسية وبطريقة غير مسبوقة».



أما فى الساحة العربية فإن المعركة تكتسب طابعا حادا، بل دمويا. فقد قامت القوات العسكرية الأمريكية بقصف مركز تليفزيون «الجزيرة» فى كابول أثناء الحرب الأفغانية، وبرر البنتاجون هذا الفعل بأن منظمة «القاعدة» تمارس نشاطها من خلال مكتب «الجزيرة»



وليس اعتبار الإعلام سلاحا أساسيا فى أى معركة حربية بالأمر الجديد، لأن الخداع الإعلامى كان ولايزال أحد أسلحة الحرب الأساسية. كما أن فى كثير من جيوش العالم إدارات للتوجيه المعنوى، ولرفع روح الجنود القتالية، وتعزيز قناعاتهم بعدالة القضية التى يحاربون عنها. لكن الجديد فى هذا الأمر أن إدارة الإعلام والهيمنة الأمريكية على المعلومات قد بلغت درجة عالية من الإحكام تهدد استقلال المؤسسة الإعلامية فى المجتمعات الغربية الديموقراطية نفسها، وتعصف بالكثير من تقاليدها الراسخة. وأن الولايات المتحدة قد بدأت تنشر أذرع هذه الهيمنة الأخطبوطية فى مختلف انحاء العالم، بما فى ذلك الدول الصديقة لها مثل كثير من البلدان العربية. فوفقا لأحدث تقارير استخبارات الجيش الأمريكى هناك أكثر من خمسة عشر مركزا من مراكز الهيمنة الإعلامية المعلوماتية فى الولايات المتحدة والكويت وبغداد والقاهرة وبيروت وغيرها من البلدان العربية. ويؤكد هذا التقرير أن أهمية الهيمنة الإعلامية لاتقل عن أهمية توفير الحماية الجسدية للجنود. ويكشف عن أن تحقيق هذه الهيمنة يتطلب أولا بناء المعلومات الصديقة وحمايتها، ومحاصرة المعلومات المعادية واستهدافها وإسقاطها والتشكيك فى مصداقيتها فى الوقت نفسه، باعتبارهما وجهى عملة واحدة. ويقول دافيد ميلر ـ الأستاذ بمعهد البحوث الإعلامية بجامعة استرلينج الاسكتلندية ـ فى دراسة له عن هذه الهيمنة الإعلامية/المعلوماتية «أن استخدام الصحفيين المزروعين فى صفوف الجيش فى الحرب العراقية embedded journalists كان إحدى أدوات هذه الهيمنة فى خلق معلومات صديقة، وتوفير

الهيمنة  الأمريكية

إمكانيات ترويجها وخلق المصداقية لها، والرقابة الكاملة على كل كلمة يكتبونها أو يذيعونها بحجة عدم استفادة العدو من أى من المعلومات التى قد يتضمنها تقريرهم. فقد أثبت تقرير تحليلى بتكليف من وزارة الدفاع البريطانية أن تسعين بالمائة من تقارير هؤلاء الصحفيين كانت إيجابية أو محايدة.



وإذا ما انتقلنا إلى الوجه الثانى من العملة وهو القدرة على حجب المعلومات الحساسة عن العدو، ومنع معلوماته المضادة من التدفق، والتشكيك فى مصداقية معلوماته حتى لو كانت حقيقية لصالح المعلومات الصديقة، حتى لو كانت زائفة، ونشر أسلحة أخرى مشابهة لمواجهتها فإن الحرب العراقية كانت هى الأخرى نموذجا بارعا فى هذا المجال. فنحن نعرف الآن ما فعلته واشنطون للحيلولة دون تدفق المعلومات التى كشف عنها تحقيق وكالة المخابرات المركزية فى الوثيقة المزيفة التى روجت لشراء العراق لليورانيوم من النيجر. ونعرف كذلك تفاصيل المعركة الشرسة التى شنها «اليستر كامبل» مدير مكتب تونى بلير للاتصالات والمعلومات ضد الـBBC عندما شكك أحد محرريها فى المعلومات الصديقة الزائفة التى تضمنها ملف الأسلحة العراقية البريطانى الشهير. لكن هذه المعارك المتحضرة تدور فى الساحة الغربية وحدها. أما فى الساحة العربية فإن المعركة تكتسب طابعا حادا، بل دمويا. فقد قامت القوات العسكرية الأمريكية بقصف مركز تليفزيون «الجزيرة» فى كابول أثناء الحرب الأفغانية، وبرر البنتاجون هذا الفعل بأن منظمة «القاعدة» تمارس نشاطها من خلال مكتب «الجزيرة»، وذلك لأن المحطة كانت تتيح لمسئولى حكومة طالبان الرد على بعض الادعاءات والمغالطات الأمريكية.

وقد تصاعدت حدة هذه الهجمات فى الحرب الأمريكية البريطانية ضد العراق، خاصة حينما قامت محطتا «الجزيرة» و«العربية» بتقديم الجانب الآخر من الصورة، وكشف زيف المعلومات والبيانات العسكرية الأنجلو أمريكية فى الأيام الأولى للحرب. فتم قتل مصور أو مراسل «الجزيرة» فى البصرة، وقذف مكتبيها ومكتب تليفزيون «العربية» فى بغداد، واتهم ما تطرحه المحطتان من تقارير ونشرات ومعلومات بأنها معلومات عدوة. بل تدخلت الحكومة الأمريكية لدى الحكومة القطرية للجم عنان «الجزيرة» وتكبيل معلوماتها. وقد بلغ استهداف المعلومات التى تعتبرها الإدارة العسكرية الأمريكية عدوة، بل وحتى المعلومات المحايدة ذروته فى حرب احتلال العراق بقصف الفندق الذى يقيم فيه الصحافيين الأجانب، وعدد كبير منهم من مراسلى الصحف الغربية، إبان ليلة تسليم بغداد غيلة وغدرا فى الثامن من أبريل ٢٠٠٣، والتى لعبت فيها مجموعة من القيادات العسكرية العراقية، بما فى ذلك قائد الحرس الجمهورى دورا مشبوها كان لابد من التعتيم عليه. وقد استمرت عملية استهداف أجهزة الإعلام المستقلة فى التصاعد بعد الحرب للنيل من مصداقية ما تتعرض له كل من الإدارتين الأمريكية والبريطانية من انتقادات، وللحد من تدفق المعلومات التى تثير الرأى العام ضدهما. وحاصرت الإدارة الأمريكية فى العراق أى معلومات بشأن عدد القتلى العراقيين منذ بداية الحرب وحتى الآن والذين يزيد عددهم عن المائة ألف قتيل، أو حتى عدد المعتقلين العراقيين دون محاكمة فى السجون العراقية، وأشهرها سجن أبى غريب السيئ السمعة، والذين يبلغ عددهم عشرات الآلاف.



وقد نظم البنتاجون منذ الحملة الأمريكية على العراق وحتى اليوم ما يدعوه بـ«خريطة طريق معلوماتية» رسمها مسئول العمليات بمكتب رئيس أركان الحرب الأمريكى. وهى خريطة موجهة للمعلومات العدوة بهدف تشويهها وعرقلتها أو حتى اغتصابها، وقد أضاف مكتب وزير الدفاع الأمريكى لهذه الخريطة ضرورة عرقلة أى قرارات معادية لسياسة الحرب الأمريكية فى أى مكان فى العالم عامة والشرق الأوسط خاصة. ويقول الكولونيل الأمريكى المتقاعد «سام جاردنر» إننا قد نستهدف حتى الأصدقاء لو تصدوا لما نفعله أو حتى لما نريد أن نفعله. ذلك لأن المحللين العسكريين الأمريكيين والبريطانيين يدركون أهمية استهداف المعلومات المعادية وشن حرب إعلامية ونفسية عليها لأنها كما يقولون تعرقل عملية الهيمنة على العراق بعد الاحتلال. لذلك ليس غريبا أن نعلم أن محطة التليفزيون العراقية الجديدة، والمؤسسة الإعلامية الرسمية العراقية الراهنة «شبكة الإعلام العراقى IMN» قد دفع البنتاجون تكاليفها بالكامل. وضمن نطاق الهيمنة العسكرية على الإعلام فإن منشئ محطة التليفزيون العراقى الحالية ليست هيئة مقاولات مدنية، وإنما عسكرية هى Scientific Applications International Corporation (SAIC) من مقاولى وزارة الدفاع الأمريكية المعتمدين، متخصصة فى العمليات الإعلامية كما يقول موقعها على الإنترنت. وقد بدأت هذه الهيئة تعانى من بعض الصعوبات بسبب توهم العاملين العراقيين فيها «والذين يكلفون الشركة عشرين مليون دولار كل ثلاثة أشهر» بأنهم يعملون فى محطة تليفزيونية حرة، ومطالبتهم بقدر من الاستقلال.

لكن بول بريمر الحاكم الأمريكى العسكرى للعراق لم يسمح لهم بأى قدر من الاستقلال، وأغلق عددا من المنابر الصحفية والإذاعية والتليفزيونية المستقلة والتى انبثقت فى الواقع العراقى عقب الاحتلال متوهمة أن أمريكا حقا حررت العراق، وأنها تريد إنشاء نظام ديموقراطى فيه. وكما تكشف لنا مجلة «Index on Censorship» الانجليزية الشهيرة، فقد طالبت إدارة الاحتلال الأمريكى شبكة الإعلام العراقية بحذف فقرات القرآن، وحذف كل ما تتصور أنه معاد للولايات المتحدة، أو للاحتلال الأمريكى للعراق، وطالبت مديرى التليفزيون العراقى بعرض المواد المذاعة قبل إذاعتها على زوجة أحد القادة الأكراد المنحازين للولايات المتحدة لإجازتها، وهو الأمر الذى اعترض عليه مديرو المحطة دون جدوى. هذا فضلا عن قائمة بول بريمر بالمواد المحظور إذاعتها والموضوعات المحظور الاقتراب منها والتى أصدرها فى يونيو ٢٠٠٣. وهى قائمة مدعومة بسلطاته المطلقة فى تعيين أو فصل أى موظف فى «شبكة الإعلام العراقى IMN». ويبدو أن بول بريمر لا يكتفى بإحكام قبضته على الإعلام العراقى وعلى «شبكة الإعلام العراقى» التى يمولها الاحتلال الأمريكى، ولكنه يريد مد هذه السيطرة على كل ما يشاهده العراقيون. فقد أصدر لمجلس الحكم العراقى أمرا بالتصويت لمنع تقارير محطتى «الجزيرة» و«العربية» بحجة أنهما تحرضان على العنف، ففعل المجلس ذلك فى سبتمبر ٢٠٠٣ وأغلق مكاتبهما. بحجة أن تقاريرهما تصف العمليات التى تقوم بها المقاومة العراقية ضد الاحتلال بأنها عمليات مقاومة، بينما يريد بريمر وصفها بعمليات التخريب والإرهاب.

لكن يبدو أن الشعب العراقى نفسه لا تفوت عليه هذه الأكاذيب ولا يتفق مع قرارات مجلس الحكم العراقى الخاضع للحاكم الأمريكى العسكرى. لأن كل من لديه طبق استقبال القنوات الفضائية «دش» فى العراق لا يستقبل «الجزيرة» و«العربية» فحسب، ولكنه يثق فيما تقدمانه له من تقارير وأخبار أكثر من ثقته فى تليفزيون الاحتلال الأمريكى للعراق IMN. لأن أرقام المشاهدة التى أجرتها هيئة الأبحاث العراقية تشير إلى أن ٥٩٪ ممن ليس لديهم «دش» يشاهدون تليفزيون IMN بينما تنخفض هذه النسبة لمن لديهم طبق استقبال القنوات

التفاعل بين الآلة الإعلامية والآلة العسكرية بلغ درجة من التكامل والتناغم غير مسبوقة. ذلك لأن أجهزة الإعلام وتقنياتها الفضائية العصرية وسرعة نقل المعلومات والتحكم فيها بلغت هى الأخرى درجة غير مسبوقة وغير متاحة للإنسان من قبل



الهيمنة الأمريكية

الفضائية إلى ١٢٪ فقط. حيث يشاهد ٦٣٪ منهم محطتي «الجزيرة» ٣٧٪، و«العربية» ٢٦٪. وفيما يتعلق في مدى ثقة المشاهد في الأخبار والتقارير التي تذيعها هذه المحطات، فإن الأمر سرعان ما يكشف عن مزيد من إخفاق الاحتلال الأمريكي للعراق في انتزاع ثقة الشعب العراقي واحترامه لإعلامه. حيث ينخفض عدد من يثقون في IMN ممن ليس لديهم طبق استقبال فضائي إلى ٣٠٪، وبين من لديهم هذا الطبق إلى ٦٪ فحسب. بينما تبلغ ثقتهم في مصداقية «الجزيرة» ١٥٪ و«العربية» ٢٩٪ مما يؤكد أن الهيمنة الإعلامية الأمريكية في العراق المحتل ليست كاملة بأي حال من الأحوال. بل إن هذه الهيمنة تتلقى كل يوم الضربات حتى في قلب الخطاب الغربي ذاته، وهذا ما يكشف عنه كتابان صدرا هذا الأسبوع أحدهما في بريطانيا هو (أخبرني أكاذيب: الدعاية والتضليل الإعلامي في الحرب على العراق Tell Me Lies: Propaganda and Media Distortion in the Attack on Iraq) والثاني في الولايات المتحدة الأمريكية بعنوان (ثمن الولاء The Price of Loyalty).



وكتاب (أخبرني أكاذيب) أو «أكذب عليّ» الذي حرره دافيد ميلر الأستاذ بمعهد البحوث الإعلامية بجامعة ستيرلنج الاسكتلندية كتاب يستحق أن نترجمه إلى اللغة العربية وأن نتأمل دروسه وكشوفه واستقصاءاته بكل دقة. وهو كتاب شارك فيه عدد كبير من الكتاب والباحثين المعنيين بالظاهرة الإعلامية في بريطانيا خاصة، وبدور الإعلام المتزايد في إحكام قبضة هيمنة الغرب على العالم، من خلال تحكمه في طبيعة المعلومات المتاحة، وتدفقها أو عرقلة هذا التدفق والتعتيم عليه. كما أنه ينطلق من التصور الأوروبي باستقلال أجهزة الإعلام ونزاهتها، ومن الضيق بتأثير الهيمنة الأمريكية على هذا الاستقلال، والنيل من نزاهة الإعلام الغربي ومصداقيته معا. وهو كتاب يتناول ضمن ما يتناول آليات عمليات «الدعاية، أو البروباجندا» المنظمة، وإدارة كل من أمريكا وبريطانيا للمعلومات بنفس طريقة إدارة الحرب العسكرية ذاتها، كي تقنع الرأي العام ـ المحلي والدولي على السواء ـ بالتهديد الذي تشكله أسلحة الدمار الشامل العراقية التي لاوجود لها. ويكشف هذا الكتاب عن طريقة خداع الرأي العام الدولي المنهجية والمنظمة كي يتيح لحكومتي الولايات المتحدة وبريطانيا شن حرب نعيش الآن آثارها الإنسانية المدمرة على الشعب العراقي وعلى المنطقة العربية برمتها. وهي الحرب التي نتج عنها دون شك تزايد حدة النقمة الشعبية في المنطقة العربية، بل وفي مناطق أخرى من ورائها. على كل من أمريكا وبريطانيا. مما أدى إلى المزيد من القلاقل الأمنية فيهما، وتفشي حالة من التوتر الأمني والرعب النفسي بين مواطنيهما.

ويكشف لنا الكتاب الذي شارك فيه عدد من الصحفيين والجامعيين والمفكرين اللامعين من أمثال روبرت فيسك، وجون بيرجر، ومارك ستيل، وناعوم تشومسكي وجوليان بيتلي وجرنفيل وليامز وداڤيد كرومويل وتيم لويلين وغيرهم كيف استطاعت حكومتي الولايات المتحدة وبريطانيا التلاعب بالإعلام ـ الذي يتوهم أنه حر ونزيه ـ وجعلته أداة طيعة في أيدي مخططها العسكري الجهنمي بطريقة غير مسبوقة منذ الحرب العالمية الثانية. كما يكشف لنا أن التفاعل بين الآلة الإعلامية والآلة العسكرية بلغ درجة من التكامل والتناغم غير مسبوقة وحتى غير معروفة في التاريخ الحديث. ذلك لأن أجهزة الإعلام وتقنياتها الفضائية العصرية وسرعة نقل المعلومات والتحكم فيها بلغت هي الأخرى درجة غير مسبوقة وغير متاحة للإنسان من قبل. حيث مكنت الجمهور من متابعة الأحداث أثناء وقوعها تقريبا، وقلصت الزمن المنصرم بين وقوع الحدث وتقديمه إعلاميا. ومن هنا كان من الضروري إدارة عملية تدفق المعلومات والتحكم فيها بقدر أكبر من الدقة والسيطرة، بصورة انمحت فيها المسافة بين إدارة المعركة العسكرية والمعركة الإعلامية. ويحب المخططون الأمريكيون أن يدعو القوة الإعلامية بالقوة اللينة soft power تمييزا لها عن القوة العسكرية ذاتها. والتعامل معها باعتبارها أداة عسكرية. مما أثر على الشعرة الدقيقة الفاصلة بين الدعاية والإعلام. بل يؤكد الكتاب في أكثر من موضع أن الإعلام الغربي قد تحول بالتدريج إلى دعاية، وبنفس الأساليب والاستراتيجيات التي كان الغرب يعيبها في الماضي على حكومات الكتلة الاشتراكية البائدة، أو على نظام ألمانيا النازية.



وينقسم الكتاب إلى أربعة أقسام أساسية تضم اثنين وثلاثين فصلا أو مقالة، فضلا عن مقدمته التحليلية الضافية التي كتبها محرره دافيد ميلر. ويكشف لنا القسم الأول بعنوان «الحرب الإعلامية Media War» عن أن الحرب قد بدأت فعلا قبل انطلاق أول طائرة وأول قذيفة بعامين، وأن إدارة المعركة الإعلامية وما تضمنته من أكاذيب واختلاقات تهيئ المناخ الذي يتيح للحرب أن تقع كانت عملية طويلة بدأت مع صعود المحافظين أو الصهاينة الجدد في أمريكا مع بداية ولاية جورج بوش. وإذا كان كتاب دافيد ميلر يكشف عن هذه العملية من خلال رصد دور الإعلام، فإن كتاب رون سوزكند (ثمن الولاء) يقدم لنا الوثائق التي تدعم الكثير من افتراضات (أخبرني أكاذيب) وطروحاته المنهجية كما سنرى بعد قليل. أما القسم الثاني بعنوان «الحرب الدعائية Propaganda War» فإنه يقدم جانبين مهمين في طبيعة التغير في التعامل مع الإعلام من اعتباره تغطية محايدة للأخبار إلى تحويله إلى أداة دعائية تستفيد من دروس النازي الأساسية في ترويج الأكاذيب على أوسع نطاق وبكفاءة عالية. وفي شن حرب نفسية على جمهورها المحلي نفسه ـ أي الرأي العام الأمريكي والبريطاني ـ قبل الرأي العام العالمي. أولهما هو الجانب الفكري والفلسفي والتقني الذي أتاح إمكانية حدوث هذا التحول بطريقة تعصف بكل تقاليد النزاهة الإعلامية الغربية بل تستفيد من المجتمع الديموقراطي المفتوح في تحقيق مآربها المشبوهة. لأن بعض مقالاته تكشف لنا عن آليات تخليق هذه الآلة الدعائية الجديدة التي أخذت تحل بشكل كامل محل الآلة الإعلامية القديمة بمنطقها الإنساني والديموقراطي القديم.

أما القسم الثالث بعنوان «التلفيق في تغطية الحرب Misreporting War» وهو أطول أقسام الكتاب جميعا، لأن به نصف عدد فصوله تقريبا، فإنه أقرب ما يكون إلى دراسة الحالة، أو مجموعة الحالات التي تثبت افتراضات الكتاب من تغطية الشرق الأوسط عامة. ويلفت الكتاب نظر القراء وخاصة في الفصل الذي كتبه توم لويلين، والذي كان مراسلا للإذاعة البريطانية في العالم العربي لسنوات طويلة، أن لهذا النشاط التضليلي الجديد تاريخا قديما وإن كان أقل خفوتا ومراوغة. لأنه يكشف لنا عن آليات تجنب هيئة الإذاعة البريطانية BBC كل ما يدمغ المؤسسة الصهيونية في تغطية القضية الفلسطينية طوال سنوات عديدة، وعن أن هذا التراث الطويل من التحيز المتخفي تحت رداء الحياد المزعوم في مؤسسات الإعلام البريطاني العريقة لاينفصل بأي حال من الأحوال عن عملية إدارة الإعلام وتدفق المعلومات الجديد. أما بقية فصول هذا الكتاب فإن كلا منها يقدم درسا في فهم آليات عملية التضليل الإعلامي الضخمة تلك، من تناول تقنيات استخدام الصورة في الاستحواذ على المشاهد



كيف استخدم الخداع في هذا كله؟
لأن آلة الإعلام الغربية تفترض مسبقا أن تصريحات حكوماتها الرسمية تنهض على حسن النية والصدق، فقد تخطئ أو تصيب، وقد يجانبها التوفيق في بعض الحالات، ولكنها لا تكذب عمدا، ولا تسعى بالقطع لخداع مواطنيها



وشل قدرته على التفكير المستقل، بل وتوجيهه إلى اعتناق وجهة النظر المطلوبة وتصديق الأكاذيب، بل الدفاع عنها. إلى التلاعب بمشاعر المشاهد من خلال استخدام مشاهد الرعب وتعويد المتفرج عليها أو تعريضه للقصف اليومى بصورها حتى يقبل ما لايمكن قبوله فى المنطق العادى. إلى تحويل العدوان على الآخر إلى شىء عادى ومألوف، بل وتزويده بالوجه الإنسانى المطلوب الذى يريح ضمير المشاهد من خلال التركيز على حالات أطفال مصابين وتوفير الرعاية الطبية الغربية لهم، كما حدث فى حالة الطفل «على» أثناء الحرب على العراق.



ويقدم لنا هذا القسم الكثير من تجليات عمليات التضليل الإعلامى أثناء الحرب، ويرصد عددا من الأكاذيب التى تم ترويجها بإتقان، ثم كشفت لنا المعلومات بعد الحرب عن أنها عارية من الحقيقة. واستخدام القصص الإعلامية القادرة على التعامل مع عصر الصورة مثل اختلاق الأكاذيب حول قصة العريفة «لينش» الجندية الأمريكية البيضاء التى وقعت فى أسر القوات العراقية البربرية وحررها رفاقها الجنود الأمريكيون الشجعان. وتبين أن هذا كله اختلاق وتزوير فاضح. إلى تجهيز الونش العملاق، واستدعاء أجهزة الإعلام الدولية وحتى توقيت عملية هدم تمثال صدام، أى التحكم فى شكل الرسالة، وتوقيتها وإخراجها، وتوزيعها. إلى كيفية استئناس الآراء المعارضة فى الإعلام واحتوائها من خلال تقديم إغراءات عديدة كالأسرار والسبق الصحفى لتعزيز مكانتهم مقابل استئناسهم. إلى عمليات إرهاف ذاكرة الجمهور التاريخية بشكل انتقائى، بالصورة التى لابد من تسميتها بالذاكرة الانتقائية التى تعيد تذكيره باستمرار بمساوئ العرب، وتحاول أن تنسيه مساوئ الصهاينة أو بشاعاتهم. وغير ذلك من آليات عمليات التضليل التى مكنت الإدارة الأمريكية والبريطانية معا من ترويج الأكاذيب بشأن أسلحة الدمار الشامل العراقية وما تشكله من خطر على الغرب نفسه. وكيف أن هذه الذاكرة الانتقائية نسيت أن العراق الذى يشكل خطرا على القوة العظمى الوحيدة فى العالم هو العراق الذى أعيته منظمة الأمم المتحدة تفتيشا وتدميرا لأسلحته عقب عاصفة العار المسماة بعاصفة الصحراء، ثم أضعفته أكثر من عشر سنوات من الحصار الاقتصادى الخانق، وآلاف الطلعات الجوية الأمريكية البريطانية من القواعد السعودية والكويتية والخليجية وحتى التركية على مناطق الحظر طوال سنوات الحصار المريرة. وقد حدث هذا كله قبل الحرب وأثناءها كى يتم التجهيز المراوغ للرأى العام لخلق نوع من القبول أو فبركة الإذعان كما يدعوها تشوميسكى.

أما القسم الرابع والأخير من الكتاب بعنوان «البدائل Alternatives» فإنه يقدم لنا كما يقول عنوانه مجموعة من البدائل، مثل عدم الاكتفاء بالإعلام الغربى وضرورة الاطلاع على وجهة نظر الضحية، وعلى الإعلام العربى والفلسطينى فى حالة أى تغطية متزنة للقضية الفلسطينية. ووضع وسائل الإعلام المختلفة من صحافة وإذاعة وتليفزيون تحت التمحيص وطرح الأسئلة المحرجة والحادة حول مصادرها. وضرورة العمل داخل المؤسسة وضدها فى الوقت نفسه حتى يمكن باستمرار فضح محاولات التضليل المختلفة وهى لاتزال أجنة لم تتبرعم نتائجها الوخيمة بعد. وكذلك التعامل مع الوسائل البديلة وخاصة شبكة المعلومات وقدرتها على طرح أصوات بديلة ومصادر معلومات مغايرة، حتى ولو كانت جزئية. ويكرس الفصل الأخير والذى كتبه ناعوم تشومسكى نفسه لدور الحركة المناهضة للحرب، فكرها وتنظيمها وحركتها باعتبارها المؤسسة البديلة القادرة على التصدى لمؤسسة الأكاذيب الرسمية.

ولأنها استطاعت فى هذه الحالة أن تحرك الملايين على اتساع الكرة الأرضية ضد الحرب، وأن تفضح دعاوى تعبير المؤسسة الأمريكية والبريطانية عن الرأى العام العالمى وديموقراطيتها. وينادى بأهمية تركيز الإعلام الحر والنزيه على نشاطات هذه الحركات البديلة، لمنحها قدرا أكبر من الذيوع والشعبية والمصداقية والتأثير.



بعد هذا العرض الموجز للكتاب سأتوقف قليلا عند مقدمته التى كتبها محرره دافيد ميلر بعنوان: «أكاذيب كبيرة وصغيرة عن العراق». لأنها تبدأ بعملية تدوير الآلة الإعلامية الأمريكية والبريطانية خاصة منذ احداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ الشهيرة بحدة ومهارة وتكثيف غير مسبوقين منذ سنوات الحرب العالمية الثانية. ذلك لأن الإدارة الأمريكية/البريطانية استخدمت مجموعة من الأدوات الإعلامية من استمالة عدد من الصحفيين المؤثرين وتزويدهم بالمعلومات أو الملفات «السرية» التى تتيح لهم تحقيق «سبق صحفى» مهنى، وإن كان قائما على الكذب، إلى تجميع الملفات السرية وإتاحتها للجميع، إلى خلق مناسبات دولية كبرى فى مجلس الأمن والأمم المتحدة يشاهدها العالم برمته، وتمكن الحكومتين من طرح دعاياتهما على أوسع ساحة دولية. وكيف استخدم الخداع فى هذا كله. لأن آلة الإعلام الغربية تفترض مسبقا أن تصريحات حكوماتها الرسمية تنهض على حسن النية والصدق، فقد تخطئ أو تصيب، وقد يجانبها التوفيق فى بعض الحالات، ولكنها لا تكذب عمدا، ولا تسعى بالقطع لخداع مواطنيها. كما أن العلاقة بين المؤسسة الحكومية والإعلام، وهى علاقة دائمة خارج ظروف الحرب تنهض على الثقة والاحترام المتبادل. وهذا هو السبب فى افتقاد الإعلام الغربى لأى مناقشة جادة لموضوع استراتيجيات الدعاية والتضليل، ولأى شك أصيل فى تصريحات المسئولين أو وثائقهم الرسمية. ذلك لأن الإعلام الغربى، وهذا هو سر أزمته فى التعامل مع عواقب الحرب الأمريكية البريطانية على العراق، ينزه حكوماته حتى الآن على الأقل عن الكذب. لأن الكذب فى هذا التعريف هو اختلاقات فاسدة يعى مروجها أنها عارية من الحقيقة، ومع ذلك يطرحها وكأنها حقائق.

وإذا كان من العسير البت فى هذا الأمر بالنسبة للشخص الذى يكذب على آخر، فإن الأمر يكون فى غاية الصعوبة بالنسبة للمؤسسة الحكومية التى يمكن الزعم فيها أن من قدم هذه الأكاذيب حصل عليها بحسن نية ممن يعملون معه، أو من جهاز المخابرات، أو حتى من المعارضة العراقية، كما تستطيع الحكومة التضحية بكبش فداء ما وتبرئة ساحتها إذا ما تأزم الموقف. لكن المؤسسة الرسمية قد استطاعت من خلال آليات علاقتها التقليدية مع الإعلام تطوير مجموعة من الوسائل التى يسرت لها عملية الاختلاق والكذب، وأهمها ما يدعى فى بريطانيا بتقديم المعلومات مع الالتزام بحجب المصدر Off the Record، وهو الأمر الذى يتيح للحكومة نشر ما تريد من الأكاذيب، مع الاحتفاظ بحق التنصل من المسئولية عنها. وهذا ما استخدمته الحكومتان البريطانية والأمريكية بكثافة فى مرحلة الإعداد للحرب على العراق. هذا فضلا عن التمييز بين الأكاذيب الصغيرة التى يمكن غفرانها، والأكاذيب الكبيرة التى تدخل فى مناطق المحظورات أو الكذب الصريح على الجمهور. وقد عدد الكاتب أكثر من عشرين نموذجا من الأكاذيب الصغيرة التى استخدمتها المؤسسة الرسمية أثناء الحرب. لكن أهم ما أبرزه فى هذا المجال هو أن تراكم هذه الأكاذيب الصغيرة ينسج شبكة من الاختلاقات التى تساهم فى دعم الأكاذيب الكبيرة أو منحها قدرا من المصداقية.

وأهم هذه الأكاذيب الكبيرة هو ما

صاغ المؤلف شهادة بول أونيل وزير الخزانة فى إدارة جورج بوش وعضو مجلس الأمن القومى حتى ديسمبر ٢٠٠٢ حينما تمكن المحافظون الجدد من التخلص منه، لأنه كان أحد الأصوات الثلاثة المناوئة لمخططهم الشرير للزج بأمريكا فى العراق



الهيمنة الأمريكية

تدعوه هيئة الاستخبارات البريطانية MI6 بالعملية الإعلامية والتى بدأت منذ عام ١٩٩٧، وهى خلق تيار من المعلومات التى تكرس لدى الرأى العام أن العراق يشكل تهديدا مستمرا للسلام العالمى. وذلك من خلال تراكمات محسوبة للأخبار والمعلومات التى تنحو إلى التركيز على بعض المعلومات الجزئية، أو توجيه هذه المعلومات الوجهة التى تساهم فى تخليق الانطباع النهائى، وهو أن العراق يشكل تهديدا محتملا لبريطانيا وأمريكا فى نهاية المطاف. وهذا هو ما أخذ يتكشف الآن بالنسبة لمسلك الحكومتين الأمريكية والبريطانية بشأن تهيئة الرأى العام السياسى والمؤسسة القومية برمتها لشن هذه الحرب بناء على مجموعة من الاختلاقات والأكاذيب، كانت الحكومتان واعيتين بأنها عارية من الصحة.



ويقدم لنا الكتاب الثانى الذى صدر هو الآخر هذا الأسبوع فى أمريكا: (ثمن الولاء: جورج بوش والبيت الأبيض وتثقيف بول أونيل) البراهين على ما يطرحه الكتاب الأول برغم صدورهما على مبعدة آلاف الكيلومترات كل من الآخر، وبرغم اختلاف منطلق كل منهما وطبيعته. وكتاب (ثمن الولاء) هو كتاب كتبه صحفى أمريكى لامع وحائز على جائزة بوليتزير الأمريكية المرموقة هو رون سوزكند Ron Suskind، وصاغ فيه شهادة بول أونيل وزير الخزانة الأمريكى فى إدارة جورج بوش وعضو مجلس الأمن القومى الأمريكى حتى ديسمبر ٢٠٠٢ حينما تمكن المحافظون الجدد من التخلص منه، لأنه كان أحد الأصوات الثلاثة المناوئة لمخططهم الصهيونى الشرير للزج بأمريكا فى العراق، الأمر الذى يفيد الدولة الصهيونية فى أكثر من مجال. وهذه الأصوات الثلاثة، كلها لجمهوريين عريقين هم بول أونيل، وكريستين تود ويتمان رئيسة وكالة حماية البيئة، وكولن باول وزير الخارجية. ولم يبق من هؤلاء الثلاثة إلا الأخير الذى أعلن عن عزمه عدم الاشتراك فى حكومة بوش فى الدورة الثانية، إذا ما قيض لبوش أن ينجح فى الانتخابات القادمة. وقد قرر أونيل أن يكتب هذا الكتاب انطلاقا من إحساسه بالخطر الذى يشكله المحافظون الجدد وأيديولوجيتهم البشعة على أمريكا نفسها، وتنبيها للرأى العام الأمريكى بعواقب هذه السياسة، وبمدى سيطرة المحافظين الجدد على جورج بوش نفسه الذى يتسم بمحدودية ذكائه، وبالسيطرة السهلة عليه من قبل هؤلاء الصهاينة الدهاة. وحينما قرر أونيل أن يتكلم، بعدما نجح المحافظون أو الصهاينة الجدد، فى التخلص منه لجأ إلى هذا الصحفى اللامع ليكتب القصة كاملة، وزوده بالمعلومات والوثائق التى تمكنه من كتابتها بشكل يلقى اهتماما واسعا من الرأى العام.

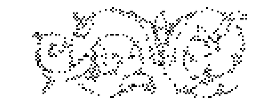


ويؤكد لنا رون سوزكند أنه اعتمد فى كتابته لهذا الكتاب الشهادة على ١٩ ألف وثيقة وفرها له بول أونيل، تكشف لنا أن حكومة جورج بوش الحالية وضعت ضمن برنامجها منذ الأيام الأولى لتوليها السلطة، وقبل أحداث ١١ سبتمبر الشهيرة بأكثر من تسعة أشهر، مسألة التخلص من نظام صدام حسين، واحتلال العراق أو السيطرة ثروته النفطية بأى طريقة ممكنة. وأنه طلب من مجلس الأمن القومى أن يبحث عن طريقة تمكنه من تحقيق ذلك، وأن يخلق الظروف والمبررات التى تتيح له تحقيق هذا الأمر. وينطوى الكتاب على مقتطفات من مذكرات أعدت فى الأيام الأولى لإدارة بوش تتناول هذا الموضوع. ويقرر بول أونيل أنه حضر عدة اجتماعات لمجلس الأمن القومى نوقشت فيها هذه السياسة وأقرت بأغلبية كبيرة، ولم يكن هناك فى مجلس الأمن القومى إلا صوتان معارضان لها هما بول أونيل وكولين باول. ويكشف لنا الكتاب عن أن القوة المهيمنة على الرئيس جورج بوش الصغير، وصاحبة الشأن فى رسم السياسة هى نائب الرئيس ديك تشينى والمستشار السياسى كارل روف ووزير الدفاع دونالد رامزفيلد ونائبه الصهيونى وولفوتز الذى كان مستشارا سابقا لنتانياهو وبقية أعضاء اللوبى الصهيونى المعروف باسم المحافظين الجدد. ويصف الكتاب جورج بوش وموقفه الغريب فى هذه الاجتماعات التى تقرر فيها سياسة الولايات المتحدة باسمه، وعليه هو أن يتبنى نتائجها أنه «مثل أعمى فى غرفة مليئة بالصم». فهم لايسمعونه، وهو لا يكلمهم لأنه يدرك أنهم لن يسمعوه، وبالتالى فإن اجتماعات مجلس الأمن القومى والحكومة الأمريكية معا تتسم بافتقادها للحوار السياسى الجاد. لكنهم فى النهاية يقودونه إلى الوجهة التى يبتغونها والغاية التى يستهدفون تحقيقها.

لكن أخطر ما يقدمه فى هذا المجال أن مجلس الأمن القومى وطوال الثلاثة والعشرين شهرا التى حضر فيها اجتماعاته لم يتمكن من الحصول على دليل دامغ واحد يؤكد أن لدى العراق أسلحة للدمار الشامل. كما أن الكتاب يقدم لنا عددا من وثائق البنتاجون التى تناقش عملية تقسيم نفط العراق بين الشركات النفطية الغربية الكبرى، وكيفية توزيع هذه الثروة بطريقة تخرس معارضى السياسة الأمريكية وتضمن لأمريكا الهيمنة عليه فى الوقت نفسه. لأن الكتاب من هذه الناحية يؤكد بشكل توثيقى وبما لايدع أى مجال للشك كل الافتراضات والنتائج التى توصل إليها الكتاب الأول من حيث آليات عملية التضليل والهيمنة الإعلامية المعلوماتية الطويلة. لكن الكتاب ليس كتابا عن التضليل الإعلامى الأمريكى لتسريع الحرب فحسب، ولكنه كتاب عن تجربة بول أونيل فى حكومة جورج بوش وشهادته من الداخل عليها. وهى شهادة من الداخل تكشف لنا عن أن جورج بوش ليس سياسيا بالمعنى الدقيق للكلمة، ولكنه شخص تدفعه رؤيته الدينية للوقوع فى أيدى أيديولوجية اليمين الصهيونى أو اللوبى الصهيونى الجديد المتخفى تحت عباءة هذه التسمية المراوغة والملتبسة معا «المحافظون الجدد». فعدد كبير من هؤلاء «المحافظين الجدد» لم يكن محافظا، بل خدم فى حكومات ديموقراطية سابقة. ولكن لأنهم جميعا صهاينة فى المحل الأول، فإنهم يتلونون بأى لون يتيح لهم دفع السياسة الأمريكية فى الاتجاه الذى يخدم مصالح الدولة العبرية.



ولأن الكتاب صادر عن وزير الخزانة السابق فإنه مشغول بمدى غفلة بوش عن الوضع الاقتصادى، ذلك لأن مستشارى السوء من المحافظين الجدد أقنعوه بأن العجز الرهيب فى الميزانية لم يؤثر على فرص رونالد ريجان من قبله فى النجاح، وفى دخول التاريخ الأمريكى كواحد من أنجح الرؤساء. وينتقد الكتاب بشدة حكومة جورج بوش فى سعيها لتخفيض الضرائب فى وقت يعانى فيه الاقتصاد من عجز شديد. ذلك لأن هذا التخفيض سيجعل الأغنياء أكثر غنى، ولكنه لن يساعد الفقراء بأى حال من الأحوال بل سيوسع الهوة بينهم وبين الأغنياء. لكن هذا موضوع آخر لا سبيل إلى التفصيل فيه هنا. لأن ما يهمنا فى هذا المقال هو معرفة آليات التضليل الإعلامى الأمريكى والهيمنة كى نستفيد من هذه المعرفة فى وضع سياسات إعلامية إن لم تتصد لتأثيرها الضار علينا، فإنها قد تعرقل على الأقل عسف هذه السياسات المستمر بأحلامنا وحقوقنا المشروعة. وتمكننا من التعامل معها بحكمة أكبر، بدلا من الاستسلام لمخططاتها ثم التأسى على ما يجرى لنا فى هذا الزمن العربى الردىء. ■



يصف الكتاب جورج بوش وموقفه الغريب فى هذه الاجتماعات التى تقرر فيها سياسة الولايات المتحدة باسمه، وعليه هو أن يتبنى نتائجها أنه «مثل أعمى فى غرفة مليئة بالصم». فهم لايسمعونه، وهو لا يكلمهم لأنه يدرك أنهم لن يسمعوه





عزمي بشارة

■ الجزء الأول: وجد في بلاد الحواجز «المحتوم»

في تلك الأيام أتقنت ابنتي الكلام بشكل يثير الإعجاب. وتفعل كلمات الطفولة الأولى والجمل المركبة البكر فعل السحر في الأشياء التي يسميها الكلام فتصبح جميلة. وكلام الأطفال عصا سحرية ما إن تمس الأشياء حتى تتطاير النجوم الذهبية في أرجاء حياتنا المثقلة هنيهات قليلة، لنعود الى حالة ترقب في انتظار كلمة جديدة. وإذا طال الانتظار يبدأ الإلحاح ثم التوسل: «شو هدا؟» نكرر السؤال برجاء أن تنطلق الأسماء لتبعث الحياة في المسميات وتصبح الأشياء العادية استثنائية وموضوع كلام. و«قوليلهم شو قلتيلي مبارح»، وكأنها تدرك إدماننا الجديد على السحر فتعذبنا بنظرات تومئ إلينا بمزيد من التوسل، تتلوه ابتسامة تقلب التضرع والرجاء ضماً وتقبيلاً وركضاً في أرجاء البيت: «يا بابا شو هالضحكة». ويزحف وراءنا ابننا الذي لم يتقن الكلام بعد منفعلاً من الضوضاء، فأحمله هو الآخر راكضاً لاهثاً لاعناً التدخين.

ويبعدنا كلامها عن السياسة، فحديث الوالدين اندهاش من مصدر الكلام، وإعجاب بالتمييز بين الصفات وبين الحاضر والماضي، وانفعال من تألق ابنتهم وتساؤل: هل هو عادي يكبر في حب الأهل أم استثنائي يمنعنا الانفعال من إدراكه؟

وما كدت اقتنع أن ابنتنا قد ختمت الكلام ولم يبق أمامها إلا النثر والشعر والفقه وعلم الكلام حتى جاءتني من الحضانة: «وين كنت يا بابا؟»، «كنت على المحتوم». شردت هنيهة: «المحتوم» بالتاء المخففة لفظ طفولي ملائكي للكلمة العبرية «محسوم» ومصدرها «حسام» أي سد الشارع، قطع الطريق، منع المرور، أوقف التدفق، منع الحركة. وتعني الكلمة الحاجز، ومنها الحواجز التي تقيمها قوات الاحتلال فتسد على الناس في فلسطين المحتلة دروب الحياة. وقد أصر أهلنا في الضفة والقطاع على إبقاء الكلمة عبرية فهم يلفظون «محسوم» للمفرد ويجمعونها بالعربية «محاسيم»!! وتمكث ابنتي يوميا على الحاجز من الوقت ما ينسيها الحضانة. فهي تذهب صباحاً إلى الحضانة، وهي تعدد «المس فلانة والمس فلانة»، ولكنها تعود إلينا من «المحتوم».



«شو عملتي يا بابا عالمحسوم؟»، «غنيت»، «شو غنيتي؟» وانطلقت فوراً بالغناء ترافقه نغمات صوتها العذب الذي يذيب الأشياء فتنساب جداول رقراقة تحيط بنا وحدنا واقفين على قطعة الجنة الخاصة بنا بين المحاسيم: «سنة حولة (حلوة) يا جميل». والجيم المصرية تؤكد أن الحضانة شهدت اليوم احتفالا بعيد ميلاد أحد الأطفال.

وبعد أربعة شهور متساوية الطول ومتفاوتة العرض من عمرنا لم يعد الحاجز متوقعاً أو مألوفا، فمنذ الاجتياح أصبح الحاجز إعلان الوجود الطاغي لمن وضعه. الحاجز هو الفاصل، وهو الواصل بين العالمين. هو الحدود وهو المعبر. هو الألم وهو الأمل بالخروج. بات الحاجز يأخذ ذاته بجدية، فازدادت بين مركباته كمية الحديد والمواد الصلبة، كما ارتفع عدد الجنود وعبست ملامحهم. أصبحت له بنية. لم يعد مشكلاً من بقايا معدات الجيش: براميل، مكعبات أسمنت، قطع صخرية منوعة. وانتشرت حوله غرف أسمنتية أو حديدية زجاجية مركبة وتجهيزات خاصة بها، حتى اللون بات بنياً. رمادياً أحادياً، زالت زركشة البهدلة، وبات الحاجز عديم التعابير.

وطال الانتظار على الحاجز، ولكن في الوقت ذاته قلت شكوى المنتظرين، زادت معاناتهم وزاد صبرهم عليها، زاد جلدهم لا لأن جلدهم قد ازداد سماكة، بل لأن الحاجز بات سريع الانفعال لا يحتمل الشكوى، والخوف لا يسمح بالتذمر. الحاجز في مرحلة ما بعد الاجتياح «ما بينمزح معو»، لأن يده ترتج على الزناد خفيفة، ولأنه أيضاً خائف.

ولكن توازن الرعب على الحاجز لا يغير من هوية القامع وهوية المقموع، هوية المسيطر والمسيطر عليه، هوية الآذن وهوية متوسل الإذن. لم يعد الواقع إلا حاجزاً ولا يوجد في الواقع توازن في الرعب، يوجد في الواقع رعبان لا توازن بينهما، خوفان لا تكافؤ بينهما.

بات الحاجز شمولياً لا يكتفي بأقل من وقت الانسان كله، جهده كله، أعصابه كلها. حتى النهار قد يمضي وقته أمام الحاجز. الزمن ذاته ينتظر في المكان. رام الله أصبحت تبعد يوم سفر مثل كل شيء، يوم السفر يوم، و«يوم الطاحونة يوم»، كما قالوا. وقد ينتهي بغبار على الملابس ولكن دون طحين.

تعيش الناس في ظل الحاجز، سافرت أم لم تسافر، غادرت أم لم تغادر. وجوده طاغ على كل شيء، يتخلل كل تفاصيل الحياة، يصبغ كل شيء بلونه. نفسية الناس مرتبطة بالخبر الوارد عن الحاجز، خططهم، مشاريعهم، لقمة العيش، القرار حول مكان السكن ومدرسة الأولاد ومكان العمل متعلقة بموقع كل شيء «أمام» الحاجز أم «خلفه». كل الاعتبارات تبدأ بالحاجز، وكل الغايات يجب أن تبرر ذاتها بمنطقه، أن تشرح نفسها أمام عرشه.

انتهى الدوام في الحضانة. وفي الشهور الأخيرة تعلمت ابنتنا النظافة إلى درجة أنها تختار ملابسها بعناية، وتسأل إذا «لابسه حلو ولا لأ؟» لتنتقل بغض النظر عن إجابتك لتسألك «بتعرف مين جبلي إياه؟». وقد اعتادت اخيراً أن تقضي حاجاتها الطبيعية في مكان أطلقنا عليه كل يوم أسماً إلى أن استقر لساننا، ولا أدرى لماذا، على اشتقاق إبداعي: «البوتا (الباء مخففه)» من البوت pot بالانجليزية أي الوعاء، ثم انتقلنا إلى «التواليت» الفرنسي. وصعدت ابنتنا درجة معنوية مع ارتفاعها عن الأرض على مقعد التواليت لتعير أخاها أنه فقط عندما يكبر سيحق له الجلوس على ذلك العرش، ولو بجهد بالغ وبدون ارتياح. انتهى الدوام وابنتي في طريقها إلى البيت على الحاجز. اتصلت قبل ساعتين وسمعتها تغني، وأخوها يلحن بصوته لحناً لا علاقة له بما تغني، ولكنه لا يقصد الإزعاج. كلٌ يغني مواله، فقط واحد بكلمات والثاني بدون كلمات.

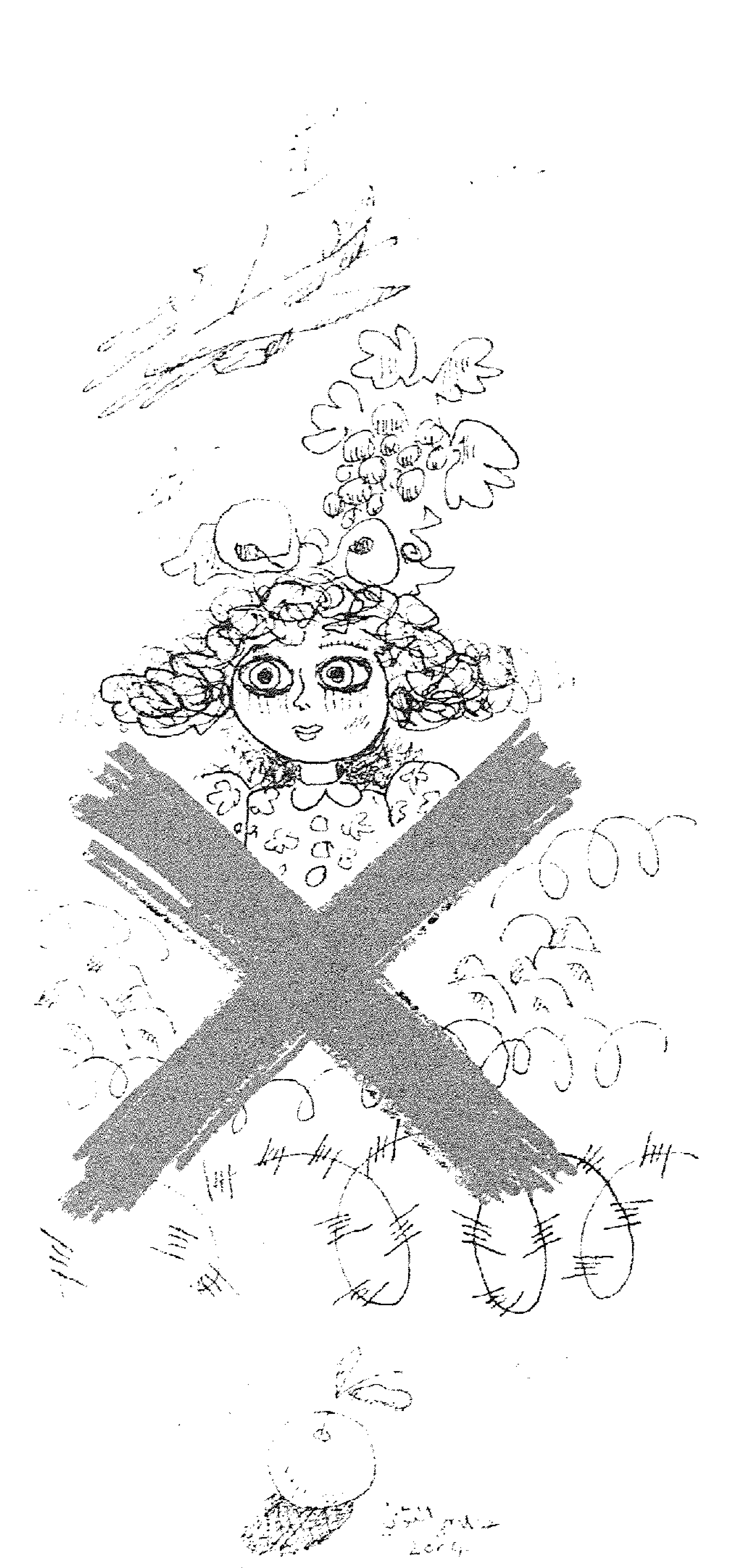
اتصلت بعد ساعتين. ما زالوا على الحاجز،ولكن العويل احتل مكان الغناء، أما اللحن فقد تحول إلى صراخ عصبي متقطع يتبعه «نق» من النوع المتكرر« هأ هأ»، تتبعها « بدي أروح» مكررة عشرات المرات، ومثلها «وين البيت؟». «وجد بدها تحكي معك» قالت أمها، لا أملا بالمساعدة الهاتفية اللاسلكية، وإنما لتقطع وتيرة «النق» لتلتقط أنفاسها أو تريح أذنها قليلا. انتهى النق على التليفون وتحولت «وجد» إلى الكلام يرافقه البكاء، كأنها إنسانة بالغة انهارت دفعة واحدة « بابا في بيبي بدي أروح عالبيت». تأبى أن تقضي حاجتها في ملابسها والحاجز يحول بينها وبين البيت. وتوسلاتنا ان تنهي الموضوع في السيارة، وأينما شاءت، لا تجدي، وقد بدأت تتألم، ولكنها لا تستطيع. وبدأنا نتابع الموضوع، ونعرف جيداً كم مضى من الوقت، فكل خمس دقائق نعود للاتصال. «كم سيارة بعد؟»، «كيف بيفتشوا سيارة سيارة؟» إلى أن وصلت وجد إلى البيت. وعندما دخلت بوابة عمارة الشقق الخارجية، «عملتها» في السيارة، ربما لأنها شعرت بالراحة أو الاسترخاء لأنها وصلت أخيراً فلم تصبر حتى التواليت. غاب الحاجز.



لم نحتج إطلاقًا للمكابرة لنفكر: ماذا يفعل المريض أو الحامل التي تعاني آلام المخاض على الحاجز؟ لم نتخيل.

لسنا بحاجة للتخيل، والشعر مؤخراً لا يزيدنا خيالاً. والإبداع والفن يصور الواقع ليستفيد منه لا ليغيره. وقد أقلعنا عنه منذ فترة إذ تجاوزه الواقع إبداعاً وصدقاً. جاءت أشباح المعاناة بذاتها متمشية على الحاجز، إنها دائما هناك. في كل سيارة رجل وامرأة وأطفال وقصة، ألف قصة وحكاية. بعضها يصرخ طلبا للمساعدة من المارة من الجنود، يستغيث، بعضها يتفتش بالسيارة التي تقف أمامه أو بالزوجة التي تجلس إلى جانبه أو بالأولاد على المقعد الخلفي لتطلع الرجولة والكرامة عليهم بعد أن انسحبت من أمام الجنود، أو انسحقت على الحاجز، أو قمعت ذاتيا قبل أن تصله. بعضها يهمس، وبعضها يعاني بصمت، وبعضها يقص بـ«الطوش»، المشاجرات، التي يفتعلها على الحاجز القصة الأكثر مأساوية قصة غياب الإحساس وانعدام الحساسية للذل.

في اليوم التالي قالت وجد على طاولة الفطور فجأة « في بيبي». « ايه عال منيح، شو منعمل لما في بيبي؟». وقفت وعملتها أمامنا في ملابسها الداخلية، قبل ان تلبس والحمد لله. « البيت بعيد» قالت، وضحكت. هل ضحكت لتصالحنا قبل التوبيخ، أم ضحكت منا، أم أنها فعلاً تضحك من شيء ما يبدو لها مضحكاً، تعابير وجوهنا المندهشة، مثلاً.



حارة الحاجز:

مع مرور الزمن قامت في فلك المدينة أحياء زادت من هشاشة وسط البلد الذي بات ينوء تحت الحمل وتمزقه القوة الطاردة عن المركز. لقد اصبحت المدينة ممراً لسكان هذه الأحياء في طريقهم وقد حُسبت هذه الأحياء مجازاً على القدس وأصبحت «غير قابلة للتفاوض» بلغة «العملية السلمية» الجارية أو بلغة «العملية السياسية» أو بلغة « العملية» كما اصبحت المفاوضات تكنى في تلك البلاد. وكل ما يمسه اسم القدس حتى لو لم يكن له علاقة بها لأنه لم يكن ببساطة قائماً في الماضي المقدس البعيد، أو لأنه كان قرية بعيدة عنها حتى الماضي القريب، يصبح بقدرة قادر وبفضل استخدام الدين في السياسة العلمانية مقدساً. حتى انتشر في تلك الديار اعتقاد مفاده أن المقدس هو كل ما أُطلق عليه اسم القدس، أو العكس. ومن بين هذه الأحياء ما خطط له بعناية، شوارع واسعة، أرصفة، حدائق، بيوتها مبنية من حجارة مقدسية بيضاء ومسقوفة بقرميد أحمر.. في القدس وحدها يبدو الحجر الذي استخرج ودق من صخر الجبال غريباً عن الجبال ذاتها. تبدو الأحياء أكثر شبهاً بـ«حدائق على الأرض» منها بحارات: «فيه أكومبليه»، «عوقدوت بشيطح»، كما في لغة سياسيي تلك دولة الحاجز. يندر أن يرى الإنسان السياسة مهندسة ومجسمة أسمنتياً بثلاثة أبعاد وبدون حلقات وسطية أو جمل اعتراضية أو أقنعة، كما يراها في بلاد الاستيطان خلف الحواجز. ويستفاد من هذه التجربة أنه إذا ما جسمت السياسة وهي في عجلة من أمرها وأمر صناعها، ينتج مجسما قبيحا للغاية.

وكأنها وجه الأحياء المخططة الآخر قامت، وفي الحقيقة تكومت أو تكدست، حارات عفوية عشوائية، هي النقيض المجرد للتخطيط. «بناء القرصنة»، تسمي هذه الظاهرة العربية بالعبرية. إنه البناء غير المخطط في بلد لا يخطط فيه لسكانه الأصليين إلا الرحيل، ولا يبقى فيه السكان الأصليين إلا عكس التخطيط.

لم تشق هنا الطرق وترسى البنى التحتية لتتلوها الحدائق ثم البيوت، كأن الخاص يشتق من العام ويتبعه. هنا بنيت بيوت للسكن على الشارع الرئيسي بين المدينتين، ثم بدأت بالتراجع عنه تدريجياً بعدما هدم أصحاب الحاجز بعض البيوت. قامت البنايات ثم تحولت الفسحات بينها إلى شوارع. لم تقم حارة، ولم يقم حيز عام بل تجمع من البيوت لا يربطها رابط سوى الحاجة إلى المنزل. سلسلة من البنى السكنية على الطريق بين مدينتين لا تترك بينهما مجالاً لقطع أو تمييز، إلا حيث سيقطع الحاجز الاستمرارية عشوائياً وبدون سبب ظاهر. في أسفل المباني حوانيت مشرعة أبوابها نحو الشارع الرئيسي، وكلما خوت بطونها فغرت أفواهها نحو المارة.

لم تحظ الشوارع المتفرعة بأسماء ولا أرقام. لم تجتمع هيئة لتسميتها خلافاً للأحياء التي خططها أصحاب الحواجز والتي يندمج في عملية استنراخها وتتريخها استقراء التاريخ المحلي. يسمى الشارع على اسم أحد قادة الحركة التي أقامت دولة الحاجز أو على اسم أو تاريخ «معركة من معارك أصحاب الحاجز»، خاصة تلك التي دارت رحاها لتحرير المدينة من سكانها.

ليس للحارة الجديدة بؤرة أو مركز ولا حيز عام تنسج فيه علاقات بين الناس، إنه شارع ممتد على طول سبعة كيلومترات. خطر عبوره إلى الناحية الأخرى خطر الموت لأن السيارات تتعامل معه كأنه شارع سريع بين مدينتين. إنه يصل بين الأحياء ولكنه يفصل جنبيه إلى حيين منفصلين. ولا ينتج الشارع حيزا عاما، وانما خطرا عاما. وأبرز ما في الشارع هو حوانيت البقالة. وهي الجواب لأبرز حاجيات الناس في ظل الحواجز، تستقبل السيارات على أرصفتها للتزود بالطعام كما تتزود بالوقود في محطات الوقود. وتستخدم البقالة أيضاً للتأشير إلى مكان السكن: « بعد سوبرماركت فلان في دخلة حادة ع اليمين، انتبه لا تأتيها مسرعا من الشارع لأنها قد تفوتك، بعد السوبرماركت هدئ السرعة ثم بعد مائة متر عند حاوية النفايات



شظايا رواية

المحروقة. يعنى لونها أسود على أخضر. خذ يمين ثم بعد أول دكان خضار اسمه الفردوس خذ يمين مرة أخرى، انتبه لأول شارع ترابى، انتبه! لأن البعض يفيض مياها آسنة. هناك فى هيك أربع بنايات لصق بعض، كل واحدة منها أربع طبقات، اسأل فى محل معارض غرناطة أو فينيسيا، أو لا، معرض أريزونا لان ابنه يا سيدي بتعلم هناك انشالله يكون فالح مثل أبوه، اسأل أى منها عمارة أبو فلان..» وهكذا. لا يصل البريد هنا بالطبع فالبيت مكان سكن، البيت مكان للمبيت وليس عنوانا. ولا توجد خدمات بلدية ولا شرطة مدنية. هنا يمكنك جيب حرس الحدود باستمرار باحثاً عمن تسربوا بين البيوت ملتفين على الحواجز قاصدين القدس لضربهم واعتقالهم أو لضربهم دون اعتقالهم، وقلما يعتقلون دون ضرب. الاعتقال دون ضرب هذه قضية قانون، والبلاد خلف الحواجز وبين الحواجز هى بلاد دون قانون. وقانون دولة الحاجز يخضع بعيداً عنها لاجتهادات الجنود الإبداعية بين البيوت وفى ساحاتها الخلفية المعتمة.



لم يقم فى هذه الأحياء مجتمع أهلى على أنقاض القرى التى حلت محلها، ولم تقم علاقة جيرة ثابتة بين الناس المستأجرين عند سكان القرى الأصلية التى باتت أحياء فى مدينة وبات سكانها مؤجرى بيوت فى القدس. وإنما تشبه العلاقة إلى حد بعيد فى حالتها المتطورة اللقاء فى السوبرماركت، واللقاء عند الحاجز فى حالتها المتردية. كما تشبه العلاقة بين الملتقين فى المطار أو فى محطة القطارات المركزية، اللقاء عابر كما الناس عابرون فى الطريق إلى مكان آخر.

اللقاء فى المطار أو المحطة يكون أقل حميمية حتى لو جمعت أطراف اللقاء معرفة سابقة، فمدته مقررة سلفاً ترافقه عصبية انتظار الطائرة أو القطار أو الباص، أو عصبية انتظار مواصلة السير بعد انتهاء الحديث.

تفلت اللحظة من اللقاء لأن الهدف هو اللحظة التى تليها. ويفلت الزمان من قبضة المكان باستمرار فى غفلة المكان عن اللحظة الحاضرة وهو يترقب اللحظة الآتية.

وكما فى كل مكان أقيمت حواجز على الشوارع الرئيسية التى تربط المدينة شمالها وجنوبها برام الله وبيت لحم على الخط المسمى «كاف هتيفر». إنه بلغة أصحاب حواجز تلك البلاد خط التماس، مستعار من الخيط الذى يرتق الثوب، إنه الخط الذى يشير إلى الرتق أو الفتق أو إلى الرقعة فى الثوب يصلحها ويؤكد وجودها فى آن، إنه الوصلة بين قطعتى القماش أو الجلد الآدمى عند خياطة الجرح بعد عملية جراحية .

قام الحاجز فى البداية بمعونة علب معدنية فارغة كبيرة لحفظ الأطعمة للبيع بالجملة، وضعت فيها حجارة، وفى بعضها أشعل فى الليل فتيل مبلول بالمحروقات. وبمرور الزمن احتلت البراميل الفارغة المملوءة بالأسمنت محل معلبات الحجارة، ثم ما لبثت البراميل أن استبدلت بقواطع بيضاء وحمراء من البلاستيك المقوى الذى تستخدمه عادة دائرة الأشغال العامة فى تلك البلاد لتغيير مسار السيارات للابتعاد عن ورشة تصليح الشارع. وما لبثت أن أصبحت أسمنتية مضافاً إليها مكعبات أسمنتية وقواطع حديدية تقطع الشارع إلى مسارين للتفتيش وصخور من كافة الأحجام.

فى البداية وقف الجنود فى العراء ثم ارتفع إلى جانبهم برج حديدى يحمل حاوى ماء من البلاستيك الأسود، وفى أسفله خيمة ميدانية ما لبثت أن احتلت مكانها غرفة أسمنتية جاهزة محجوبة عن الشارع بحواجز جاهزة من الباطون المسلح العارى القبيح. ومن حين لآخر تستخدم الصخور أو حاويات النفايات كمتمم إبداعى للحاجز لإغلاق منافذ على جنبى الشارع تحتجب عن نظر الجنود وقد تشكل منافذ للتسلل. وتؤدى أيضاً وظيفة منع سيارة من الالتفاف إلى الاتجاه المعاكس والعودة على أعقابها من حيث أتت. إذا علق من علق على الحاجز فلن يستطيع العودة بسبب الملل أو النرفزة مثلاً إلا بعد أن يتم فحصه، أو تمريره دون فحص. عليه أن ينتظر بصبر أو بدون صبر، الأمر سيان بنظر الحاجز. الصفيح والصخور والبراميل المملوءة بالأسمنت أو الحجارة تقطع الشارع طولاً وتمنعه من تغيير رأيه والعودة من حيث أتى. انعدام خط الرجعة، أو جسر العودة، إضافة للانتظار ذاته يجعل الانتظار واجماً وعصبياً محتقناً منفذه الوحيد هو حاجزه.

بداية الحاجز عشوائية مثل الأحياء المحيطة به تفتقر إلى نظام ونظافة وهيبة الحدود، ولذلك يجب أن تفرض قسوة السلوك البشرى الهيبة فى عملية تعويض عن غيابها البنيوى وعن غياب القواعد المكتوبة. الحاجز يحجز الحركة ويقسم الفضاء، إلى «ما قبل الحاجز» و«ما بعد الحاجز»، أما الزمان فلا معنى لتقسيمه لأن ما قبل الحاجز فى الزمان ذاكرة. وأصبح الانسان يسكن إما «قبل الحاجز» أو «بعده»، «أمام الحاجز» أو «خلف الحاجز» على نفس الشارع الممتد. وطبعا يتذوت بعض القاطنين «قبله» أو «بعده» هذا التقسيم فيصر أنه يسكن فى القدس لأنه «قبل الحاجز» فى حين يسكن جاره فى رام الله لأنه يسكن «بعد الحاجز».

. ياخى انتو قدس واللا رام الله؟

. لا احنا قدس وبالعلامة نمرة السيارة صفرا.

وفى ذلك إشارة للون لوحة رقم السيارة.

. لا النمرا مش مهمة، يعنى قصدى ساكنين قبل الحاجز واللا بعده، هلأ إذا ساكنين بعده نمرة السيارة ما راح يخلولكو إياها صفرا، وكمان هوية القدس الزرقا رح يسحبوها منك، راح تخسرها، مثل ما بتخسر الجرينكارد إذا ما سكنت فى أميركا. ولأنك سكنت بعد الحاجز يعنى بالعبرانى «نقلت مركز حياتك خارج القدس»، ما بصحلك إقامة دائمة فى القدس، وشو هى بطاقة الهوية غير حق الإقامة الدائمة؟

. شو أميركا؟ شو أنا هاجرت لهون؟ هلأ أنا اللى نقلت مركز حياتى واللا هم، مين اللى آجا لعند مين؟ مين بعطى حق الإقامة لمين؟ بعدين مين قرر يحط الحاجز؟ شو أنا حطيته؟ يعنى لو قربه مترين كان صرت قدس. بعدين ليش هى هاى قدس؟ هادى قرى منطقة القدس، وإسرائيل ضمتها للقدس وصارت أحياء: يعنى بيت حنينيا، شعفاط، أبو ديس، العيزرية، الزعيم، التورى، المكبر. كلكو أحسن منى، كلكو صرتو قدس، وأنا مش قدس لأن الحاجز هيك قرر؟

. هلأ مش مهم، البلاد كلها احتلوها إذا هيك بدك تناقش، واجو عليها كمان إذا بدك. أنت المهم ما عدت قدس. مش قدس بس طالب إجار البيت بأسعار القدس. مش معقول، لازم عندك يكون الإجار أرخص، هذا بيت ضفة مش قدس.

. ما دمت هيك بتحكى لو قدس أنا ما كنت أجرتلك، لأن الأجانب واقفين بالدور بدهم بيوت فى القدس، وهدول بيدفعوا وخفيفين دم وما عندهم ولاد، كمان ما عندهم عزوة وعشيرة. وما راح يجيبولى رجال كل ما اختلفنا، وما فى حدا «يلبس قميصهم» وما بدهم جاهة وتعويض كل ما صرخت على ولد من ولادهم، الأجانب بدى أترجاهم ليلبسوا قميص عادى.

. هلأ الأجانب بالذات ما لازم يخافوا من الحاجز. شو يعنى بدهم يعملوا معهم عالحاجز؟ واحنا اللى لازم أصحاب البيوت يتضمانوا معنا ويأجرونا فى القدس.



. كيف يعنى يتضامنوا ما فهمت؟

. يبدو أنك فعلا مش أجنبى. لو أجنبى كنت تضامنت، بس أنت القضية قضيتك مثل ما البيت بيتك، كيف بدك تتضامن والقضية قضيتك.. أنت صاحب القضية، وصحاب القضية غير ضحاياها، المفروض يربحوا منها مش يتضامنوا، صحيح والله نسيت، كيف نسيت ليش نسيت؟ فيه أعداء القضية وضحايا القضية وفى المتضامنين مع القضية وفى المتضامنين مع ضحايا القضية وفى كمان صحاب القضية اللى بيحافظوا عليها وفى المتضامنين مع صحاب القضية. وين رحت أنا؟ ما بديأسكن فى هالبلد، بعدين فى حدا بعقل وبسكن فى بلد كل حجر فيها معتبر حاله مقدس، وماكل بحاله مقلب لأنه فى مجانين بأميركا بدهم يشتروه، بلد مجدوب ويجذب كل مجاذيب الدنيا.



قبل أن يصبح وجود الحاجز طاغياً أو شمولياً فى المراحل التى تسمى «سيجر» بلغة أصحابه أو إغلاق، بمعنى حصار، بالعربية مرت سنوات من الإغلاقات المتقطعة يتبعها تخفيف بموجب أسلوب بافلوف أو سكينر البدائى فى تحديد ردود فعل كلب أو قرد التجارب على المؤثرات وسلوكه المشروط بردود الفعل المذكورة. وهكذا توفر الوقت لنشوء أسلوب حياة وثقافة الحاجز فى هذه المرحلة. لأن الحاجز صمد فترة تميزه عن «الحاجز الطيار» الذى ينصب لساعات، يوم أو نصف يوم، ويعد للمارة مفاجأة غير سارة فى مكان غير معهود، ولكنه لا يلبث أن يختفى تاركًا وراءه ركب ومفاصل متألمة بعد أن أجبرت على الجثو إلى جانبه بانتظار فحص الهويات وأرقامها باللاسلكى، وسائقين يشتمون بعد أن اضطروا حتى إلى فك دولاب الاحتياط ناهيك عما فوقه أثناء التفتيش الدقيق. ويذكر طلبة الجامعة كيف ترك «الحاجز الطيار» وراءه شهيدين من الطلبة وستة أشهر من الإغلاق، قبل الانتفاضة المسماة أولى تشاؤمًا باستمرار الاحتلال وتفاؤلاً باستمرار الانتفاضات. وبحكم تعريفه كحاجز طيار يستفز الحاجز المفاجئ ردود الفعل عفوية وغاضبة، ومفاجئة بدورها حتى لأصحابها، وغير مقررة سلفًا. لأن الإنسان لا يدخله وهو مستعد نفسيًا حاسبًا تصرفاته خطوتين إلى الأمام ليحدد تصرفاته وردود فعله.

يمثل الحاجز «نقطة تحول» فى الحيز العام. إنه ليس مكاناً بل حافة، تخوم، ونقطة عبور، نهاية، وبداية فى نفس النقطة فى الحيز العام، إنه شفا الانتقال. وإذا لم يتقن الإنسان المشى بتوازن قد يتحول إلى منحدر أو منزلق نحو الهاوية. فقد يصل المرء منه إلى الاعتقال بدل الوصول إلى العمل أو إلى البهدلة الجسدية المباشرة بدلاً من البيت.

عند نقطة الحاجز ينتهى حيز عام واحد ويبدأ حيز عام آخر. ليس الحاجز النظرى مكاناً إذاً بل نقطة فى المكان. ولكن الحاجز الفعلى هو مكان، وهو مكان متوسع باستمرار ليصبح هو بذاته حيزاً عاماً. يخلق الحيز العام المكان ويعيد إنتاجه على صورته ومثاله. هكذا تتحول مفارق الطرق والأحياء المتاخمة للحاجز إلى محيطه، إلى هامش له مطبوع بطابعه. هنا ينتظر الناس بعضهم وينتظر الناس دورهم. هناك يقوم موقف سيارات، وتباع بضائع وتنتقل من شاحنة إلى أخرى، هنا تنزل أمتعة وتجر العربات. هناك محطات ركاب، قلايات فلافل كدليل فلسطينى أصيل على وجود ازدحام. وللازدحام فى بلاد الحواجز رائحة سجائر وفلافل وكباب مشوى وصوت علب مشروبات غازية فارغة تتدحرج بين الأرجل. موقف لسيارات العمال الذين ذهبوا إلى أعمالهم مشياً على الأقدام قبل طلوع الشمس ولم يتبق خلفهم من دليل على وجودهم إلا موقف سيارات بعضهم العتيقة وبعضهم الآخر الذى لم يسعفه الحظ ومازال على الحاجز. إنه ينتظر من لديه واسطة ليأخذه لعمل، أماكن للاختباء الفورى من الجنود، وأماكن للانفراد بالناس يجرهم إليها الجنود لتفتيشهم وضربهم بحرية بعيداً عن أعين الناس.

الحاجز هو حالة الوضع، حال الحالة. الحاجز ليس مكانًا حتى بالنسبة للجنود. إنه موضع يوضعون فيه بحكم علاقتهم بالدولة، ينصبون عليه، يعينون ويرسلون إليه، إنه موقع للسيطرة والاستبداد. إنه موقع وتحصين. الموقع. التحصين الذى يشرف على الحاجز يرى من الخارج فقط. رؤيته ممكنة ودخوله مثل مسه محظور، إنه ليس حيزاً عاماً، إنه موقع يسيطر على الحيز العام.■



أحمد لطفى السيد

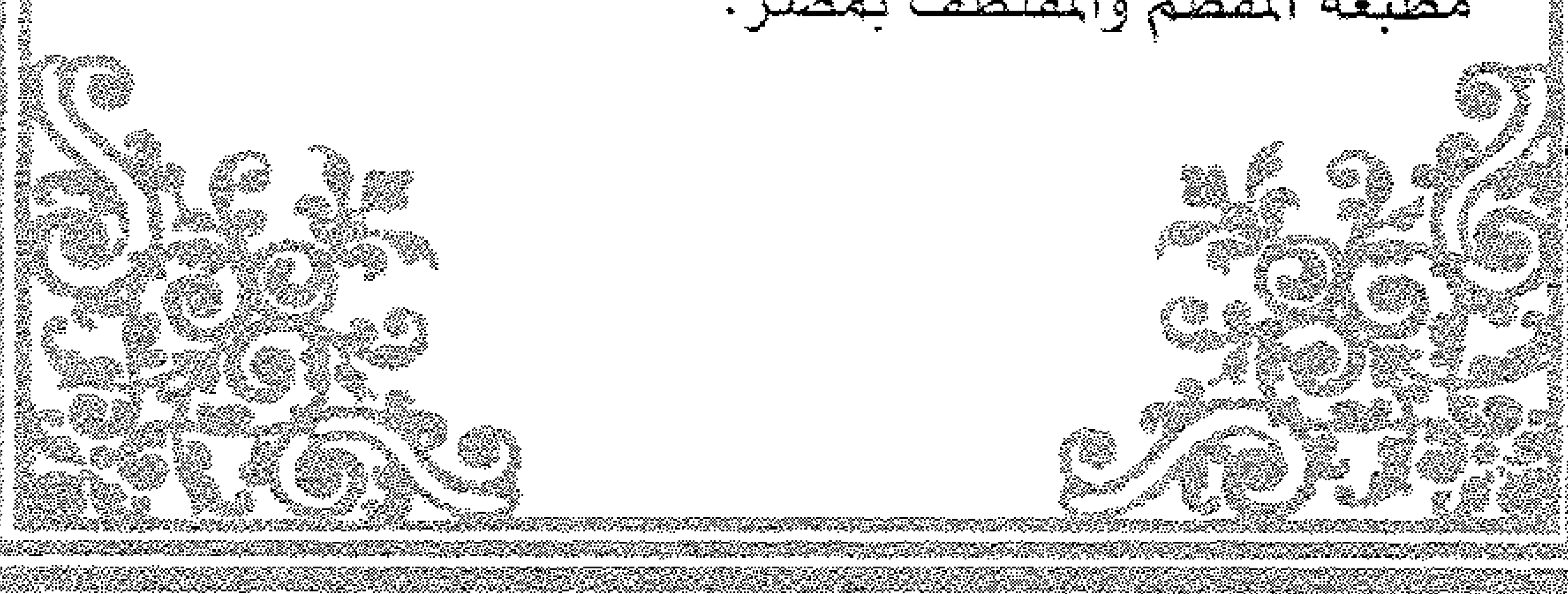
يعد أحمد لطفى السيد الأب الروحى للمذهب الليبرالى فى مصر أو مذهب الحريين كما كان يطلق عليه. وقد أمضى سنوات طويلة من عمره المديد (٩١ عامًا) فى الترويج والدعوة لهذا المذهب فكتب فى الليبرالية بمفهومها السياسى والاقتصادى وفى الديمقراطية ومذاهب الحكم والإصلاح السياسى.

ولد أحمد لطفى السيد عام ١٨٧٢ فى «برقين» إحدى قرى مركز السنبلاوين فى محافظة الدقهلية، لأسرة موسرة وحصل على إجازة الحقوق.وتتلمذ على يد الشيخ محمد عبده. بدأ حياته العملية كاتبًا فى النيابة عام ١٨٩٤، ثم أصبح وكيلاً للنيابة عام ١٨٩٦ إلى أن استقال عام ١٩٠٥.

رأس تحرير صحيفة «الجريدة» لسان حال حزب «الأمة» المصرى من عام ١٩٠٧ حتى ١٩١٤، وقد كتب آلاف المقالات التى يدعو فيها لأفكاره ودخل فى معترك السياسة. ومعظم إنتاجه الثقافى والفكرى عبارة عن تجميع لهذه المقالات بالإضافة إلى ترجمات لبعض عيون الفكر اليونانى وكتاب «قصة حياتى» وهو ترجمة ذاتية.

شارك لطفى السيد مع سعد زغلول وآخرين فى تشكيل نواة الوفد المصرى لكنه خرج على الوفد وسعد زغلول عام ١٩٢١ ليتولى بعد ذلك رئاسة دار الكتب والجامعة المصرية ولينخرط فى السياسة مع حزب الأحرار الدستوريين ويتولى وزارة الداخلية عام ١٩٣٨.

وقد اختارت «وجهات نظر» بعض المقالات التى نشرها لطفى السيد فى سنواته الأخيرة بـ«الجريدة» وجرى تجميعها فى كتاب صدر عام ١٩٤٥ تحت عنوان «المنتخبات» عن مطبعة المقطم والمقتطف بمصر.



الإمام موسى الصدر.. ربع قرن

حسن حنفى

١ - من التقليد إلى التجديد

من الصعب دراسة فكر الإمام موسى الصدر خاصة منهج التفسير لديه من مجرد أحاديث إذاعية أو محاضرات ثقافية عامة دون متون أصلية أو تفاسير كاملة كما هو الحال عند القدماء والمحدثين. ومع ذلك يمكن التعرف على بعض ملامح هذا المنهج بما هو متاح حاليا من نشر الأحاديث الإذاعية الرمضانية وتجميع محاضرات الندوات الثقافية ما نشر فيها وما لم ينشر.

وبهذه المناسبة، مرور ربع قرن على اختفاء الإمام، ليس المطلوب تقريظه ومدحه وتعظيمه وإجلاله وتقديسه بل استئناف رسالته وتحقيق أهدافه بل وتطوير أساليبه وطرقه. فالزمان يتغير وربع قرن زمن طويل، أطول من زمن الرسالة، من البداية إلى النهاية.

المدح ليس سنة المسلمين. والتقريظ ليس منهجهم. والدفاع أقل قدرا من البرهان. ﴿قتل الخراصون﴾. وعيبنا هو المدح والتعظيم الذى يصل إلى حد التقديس والتأليه. ولو عظم أرسطو وأفلاطون لمات كلاهما. ولو مدح ماركس هيجل لطوى كليهما النسيان. ولو قدس فلاسفة الوجود هوسرل مؤسس المنهج الظاهرياتى لتوقف أثر هوسرل فى التاريخ، ولما ظهرت فلسفات الوجود بعده التى تتبنى منهجه.

وكلنا علماء الأمة تحمل أمانة فكرها. لا فرق بين شيعى وسنى، بين مرجع ومجتهد، بين آية وفقيه. بل إن التراتب فى العلم وتحوله إلى مراتب فى السلطة قد يضر بالعلم فيتحول إلى حجة سلطة بعد أن كان حجة عقل. صحيح أن الاحترام واجب بين العلماء ولكن دون أن يصل إلى درجة التقليد. والتقليد ليس مصدرا من مصادر العلم. وإيمان المقلد لا يجوز. ولا عصمة لأحد. الكل راد والكل مردود عليه.

وحق الاختلاف يكفله الشرع، والتعددية فى الرأى أساس الاجتهاد. ولا يوجد رأى صائب والآخر خاطئ. الكل صائب بفعل الاجتهاد، صدق النية ورعاية المصالح العامة.

وهذا هو منهج الإمام، الجمع بين القديم والجديد، لا تأسيا بالقديم وحده، ولا اعتزازا بالجديد وحده نظرا لتغير الظروف. يبدأ من القديم ولا ينتهى إليه. يبدأ بالتغيرات الجزئية المتناثرة عند القدماء، ويضمها فى رؤية شاملة واسعة.

ويعود إلى الغزوات الأولى فى بدر وأحد ليشحذ مشاعر المسلمين الآن فى النصر والهزيمة.

ويصعب جمع منهج التفسير عند الإمام فى قواعد محددة أسوة بالمناهج الفلسفية لأنه لم يترك مؤلفا نظريا فى الموضوع. يمكن فقط تلمس اتجاهات أو «طرق التفسير» من مجموعة التفسيرات لبعض السور خاصة القصار منها كما يبدو ذلك فى «معالم التربية القرآنية» بجزءيه: «دراسات للحياة» و«أحاديث السحر». أما «أبجدية الحوار» فهو أقرب إلى الثقافة السياسية وشروط النهضة منه إلى علم التفسير.

٢ - النص تجربة حية

وأول قاعدة فى منهج التفسير عند الإمام هى أن «النص تجربة حية». إذ لا يكفى أن يكون شرطا الفهم المعرفة بالنحو وقواعد اللغة أولا ثم مستوى ثقافة السامع ومدى معرفة المتكلم. إذ يضاف أيضا المعرفة بمصالح المسلمين. كما تحتاج رمزية التعبير إلى فهم وتأويل. والمسافة بين ثقافة المتكلم والسامع وبين الأوضاع الحالية ليست بعيدة. فالمتكلم والسامع يعيشان فى هذا العصر وليسا فى عصر النبوة. فمعانى الألفاظ والمصطلحات تتغير من عصر إلى عصر مثل معنى الإنفاق قديما الذى يركز على الجانب الأخلاقى، ومعناه حديثا الذى يركز على بعده الاجتماعى، وكذلك معنى الظلم الذى لم يكن عند القدماء بهذه الحدة التى لدى المحدثين.

لذلك تبرز أهمية المعنى العرفى للألفاظ والمصطلحات القرآنية. وهى بين المعانى الاشتقاقية والمعانى الاصطلاحية. هو المعنى للاستعمال فى الحياة اليومية. هكذا تفهم الحروف فى أوائل السور.



وبالرغم من أن البداية بالسور القصار أو ببعض من الطوال أو الآيات إلا أن التفسير يخرج من النص عن طريق قواعد النحو ومبادئ اللغة كما هو الحال فى بعض التفسيرات القديمة والحديثة. المعنى ليس موجودا فى النص ومستنبطا منه بل هو مباطن للتجربة البشرية حال فيها وصاعد منها. وصحة النص فى مدى تطابقه مع التجربة البشرية وليس صحة فى ذاتها، خارجة عن النص. التجربة البشرية جزء من الواقع الإنسانى. والنص ما هو إلا مجرد صياغة له. فالأولوية للواقع على النص، وللتجربة على اللغة. النص موجود فى مرحلة ما قبل الصياغة فى النفس وفى الواقع، فى التجربة الفردية والجماعية وفى خبرات الشعوب مثل الأمثال العامية والحكايات الشعبية.

لذلك يلجأ التفسير إلى التجربة الشعرية. فالشعر ديوان العرب قبل الإسلام كما أن القرآن وحى العرب بعده. كلاهما مركز الحضارة قبل وبعد لذلك قال عمر «عليكم بديوان جاهليتكم فإن فيه تفسير كتابكم». فالتجربة الشعرية تفيد نفس معنى الآى فيما يتعلق بالدارين، والجبر والاختيار، والحسد، والجنة والنار. كما جاء فى شعر أبى الحسن التهامى فى رثاء ابنه:

حكم المنية بالبرية جارى
ما هذه الدنيا بدار قرار
الموت نوم، والمنية يقظة
والمرء بينهما خيال جار
يوماً يرى الإنسان فيها مخيراً
حتى يرى خبراً من الأخبار
جاورت أعدائى، وجاور ربه
شتان بين جواره وجوارى

وكما تذكر التجربة الشعرية لحب الناس والمال وحبهم لمن عنده المال والميل إليه:

رأيت الناس قد مالوا إلى من عنده مال
ومن ما عنده مال فعنه الناس قد مالوا

ويبين الشعر كيف أدرك الأمويون الملك ولم يدركوا النبوة. وقول أبى سفيان للعباس «يا عباس لقد علا ملك ابن أخيك» كما قال فى عهد الخليفة عثمان على قبر حمزة «قم يا أبا عمارة فالذى كنت تحاربنا عليه قد أصبح لعبة بيد صبياننا». والنموذج، نموذج الإنسان. والزمان والمكان تجربة شعرية. الشعر والوحى إذن صنوان، كلاهما تجربة حية قبل الصياغة الشعرية وقبل تدوين الوحى ويصبح كلاما.

وهو فى نفس الوقت تفسير عقلانى مقنع، يفسر عالم الغيب بعالم الشهادة مثل فهم «النفاثات فى العقد» ليس بأنهن الساحرات كما هو الحال فى بعض التفسيرات القديمة بل هم المغتابون والكذابون، والناقلون من الكلام، والمنافقون، والنمامون الذين يحلون عقد الناس وصلاتهم الاجتماعية. فالتاريخ والسؤال عنها ليس المقصود والموضوع وزمن الحدوث بل دلالتها فى الحياة الإنسانية، الجزاء على الأعمال. ويسير فى طريق الأستاذ الإمام محمد عبده، ويحيل إليه فى ضرورة إعمال العقل فى التفسير. فالعقل والتجربة صنوان. العقل بديهى والتجربة كذلك. لذلك اعتمد الوحى عليهما فى تأسيسه فأصبح الوحى والعقل والواقع شيئا واحدا.

وهذا هو معنى ﴿إنا نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ لا يعنى الحفظ حفظ





حق الاختلاف يكفله الشرع، والتعددية فى الرأى أساس الاجتهاد. ولا يوجد رأى صائب والآخر خاطئ. الكل صائب بفعل الاجتهاد، صدق النية ورعاية المصالح العامة. وهذا هو منهج الإمام



علي اختفائه.. من النص إلى الواقع

النص في التاريخ حماية له من التحريف. فذاك موضوع علم النقد التاريخي للنصوص وعلوم النقل المتواتر. إنما الحفظ في النفس وفي التجربة البشرية، الحفظ في العقل وفي الواقع، وفي النفس وفي العالم. لذلك دعا القرآن إلى النظر فيهما ﴿وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾. مهمة النص ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾.

٣. التجربة الحية في الزمان

وتتم التجربة الحية في الزمان. ونظرا لأهمية الزمان يتم الحلف به. الحلف بالعصر، والفجر والضحى، والليل، والنهار، والساعة، واليوم، والآن، والشهر... الخ. وهو إيقاع الحياة اليومية. والزمان هو زمان الفعل كما بين الأصوليون. والهدف من كثرة اليمين زيادة القيمة. والزمان لحظات متميزة مثل ليلة القدر. والحلف بالزمان الوقتي من أجل نيل الزمان الأبدي. فعلى الإنسان أن يختار بين المال أو الخلود، بين الدنيا أو الآخرة ﴿أيحسب أن ماله أخلده﴾.

والزمان هو الحركة. لذلك يقوم منهج التفسير على تصور حركي للحياة. فلا شيء ثابت فيها (كل يوم هو في شأن). فالثبات لا ينفي الحركة، والخلود لا يتناقض مع التطور. فالقرآن يصف الحياة في تطورها وارتقائها. والوحي يتطور ويتغير طبقا لمراحل التاريخ. ولا يعني التطور فقط التطور الكوني الطبيعي بل التطور الإنساني الفردي والاجتماعي. الوحي نفسه تطور وساعد على تطور البشرية، وطورها بتطوره. فمراحل تطور الوحي هي نفسها مراحل تطور الوعي الإنساني.

«أما الآن فقد حاولنا أن نخضع نهائيًا للتطور الاجتماعي العالمي. وإذا استسلمنا دون أن نطور حياتنا ومفاهيمنا عن «ديننا» ومقاييسنا الإسلامية حسب الأوضاع الحياتية التي حصلت وتكون بمعزل عن توجيه القرآن الكريم، إذا حاولنا ذلك واستسلمنا فقد خنا أمانتنا، وديننا، وفقدنا كل شيء. ليس المطلوب رفض التطور والاستفادة من المكاسب الإنسانية القائمة ولكن المطلوب ألا نفقد ذاتيتنا وأصالتنا وأن نجعل الإنتاجات البشرية الحديثة في إطارنا الأصيل، وأن نزنها بمقاييسنا



فنرفض ونختار ونبني من جديد أمة أصيلة بما لكلمة الأصيل من أبعاد فكرية وتاريخية وعملية. إن القرآن صانع التطور. وقد جربته البشرية قرونًا عديدة. إنه مطور. أما التطور المفروض من الخارج من قبل الأوضاع التي صنعت من الآخرين، فهذا استسلام مرفوض وليس كمالاً. إنه فناء وأي فناء» (دراسات ص ١٩، ٢٠).



لا يعني التطور أن الإنسان جزء من التطور الطبيعي فحسب لأن له إرادة مستقلة حرة كما هو الحال في نظرية التطور في الغرب. فهو يتفاعل مع الكون، يؤثر فيه ويتأثر به. فهو تطور حر خلاق كما هو الحال عند برجسون، هو تطور حر من الداخل وليس تطورا مفروضا من الخارج، تطور ذاتي وليس تطورا مستلبا مفروضا من الآخر. وهو تطور يؤكد الذات ولا ينفيها، يثبتها ولا يذوبها في مظاهر الطبيعة. هو تطور من أجل البقاء وليس الفناء، تطور يجذر الأصالة ولا ينزعها من جذورها باسم المعاصرة أو الحداثة، تطور فعال يأخذ ويعطي، يقبل ويختار.

وكان يمكن تأويل بعض السور التي القصد منها الحركة والانتباه مثل سورة العاديات. القصد منها الحركة وليس المتحرك، الإثارة في النفس، وليس المعنى في الذهن، الإيحاء وليس الإقناع.

وهو تفسير «جهادي» يقوم على الكد والكدح في الدنيا والنضال في سبيل قضية. كل إنسان بعمله. وهو الطريق إلى الخلود. والعمل بالمعنى الواسع الذي يشمل عمل الباطن أي التقوى أو عمل العقل أي العلم أو العمل الشاق أي الجهاد. فالخلود يأتي عن طريق العمل وليس عن طريق المال. والعمل الصالح المعبر الوحيد عن الإيمان. قيمة الإنسان في العمل، والعمل وحده مصدر القيمة. والإنسان بحسب ذاته طموح، وطموحه لانهائي. يسمع نداء البطل، كما يقول برجسون أو نداء الضمير كما يقول كانط. لذلك كانت الحياة امتحانًا واختبارًا بل بلاء ومحن. لا عبث فيها ولا خوض بل تحقيق غاية ومقاصد.

وتنشأ الحياة والحركة من الأضداد في الطبيعة كالحياة والموت، الأخضر واليابس، والحيوان والجماد، والصلب والسائل... الخ. كما ينشأ في الحياة الإنسانية، الذكر والأنثى، الأنا والآخر، العقل والانفعال، النفس والبدن، الحسن والقبح... الخ. والجدل بين الأضداد مثل الحق والباطل لا يقبل المساومة ولا الحلول الوسط. بل انتصار الحق على الباطل، والعفو عن الباطل بعد انتصار الحق.

والغاية من الأضداد هو العمل والجد والكفاح والمنافسة والسبق إلى الخير ﴿فاستبقوا الخيرات﴾، ﴿فالسابقون السابقون﴾.

ويهدف التفسير إلى تحرر الإنسان من القهر والطغيان. فالتفسير عملية تحرر وليس قيدا على الحرية بالنص بدعوى الأحكام الشرعية. ليس التفسير بحثا عن المعنى وفهم النص بل الهدف منه تحويل النص إلى باعث على الحركة، ودافع على النشاط، وحركة في التاريخ. فغاية الوحي ليست نظرية بل عملية. العقل مقدمة للفعل. لذلك وجب الجهاد لدرء العدوان.

وحياة الشعوب مثل حياة الأفراد، ولادة وتطور وبلوغ ثم شيخوخة وموت، فهو قانون التطور الذي ينتظم الأفراد والأمم. ﴿وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾. وللكلمة أيضا موت وحياة. فاللغة هي التي تربط بين الأفراد والجماعات. وهي الكلمة الصادقة التي تعبر عما في النفس، وتطابق ما في الواقع. والخلود ينبع من الحياة وبما يتم فيها من أعمال وما يحققه الفرد فيه من إنجازات.

والحياة فيها بهجة وإشراق، ومتعة وفرح، وليست حياة الخطيئة والسوداوية والتشاؤم. فالزينة عند كل مسجد، وزينة المسلم سلاحه. هناك فرق بين لذة الحياة من أجل اللذة ولذة الحياة من أجل الفعل وتحقيق الغاية. لذلك يتحمل المجاهد النصب والتعب والإرهاق بل وينال الشهادة عن طيب خاطر.

ويبرز المنهج الكيف دون الكم. فقد ألهى الأمة تكاثرها فزاروا أمواتهم في المقابر، وتركوا الأحياء. وكما قال السيد المسيح «دعوا الأموات تكفن الأموات». وهذا أيضا درس



غزوة حنين. فالأقلية المؤمنة الصابرة المجاهدة خير من الأغلبية الغائرة اللامبالية، وهو ما لاحظه الأفغاني والكواكبي من قبل.

٤. الإنسان مركز الكون

وهو تفسير إنساني يجعل الإنسان مركز الكون. وهو حر مختار مسئول مثل الأنبياء. والإنسان مسئول عن المجتمع، بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دون الجهر بالسوء من القول، ودون أن يأتي بمنكر أعظم مما ينهى عنه أو أن يغتاب، ويلوك عيوب الناس.

الحفاظ على الإنسان هو جوهر الديانات، الإنسان الحر الكريم. دعوة الله خدمة الإنسان. والوحي مقصد الله إلى الإنسان. الله واحد، والأديان واحدة لأن الغاية واحدة وهو الإنسان. ومن يعذب الإنسان يعذبه الله. الإيمان يعطي الإنسان اللانهائية في الحس والعقل والوجدان، في الإمكان وفي الطموح. الإيمان يوحد طاقات الإنسان الداخلية مثل الفكر والوجدان، والخارجية مثل القول والعمل ضد النفاق والرياء والغرور والكبرياء.

والتفسير هو اكتشاف للفطرة والطبيعة وليس فرضا عليها قواعد من الخارج. يكشف القيم الأخلاقية التي تقوم عليها والتي يؤكدها الوحي.

وهو تفسير أخلاقي يهدف إلى بناء الإنسان الأخلاقي قبل بناء المجتمع العادل. لذلك تتصدر آيات الأخلاق، خاصة الأخلاق السلبية مثل الرياء. والتربية هي التربية الذاتية. فقد هب الإسلام لإتمام مكارم الأخلاق. وتكون التربية الخلقية بتجنب السوء، الظاهر والباطن، الخارجي والداخلي. والوسواس الخناس هو النفاق والرياء في الصدور. والأخلاق هي أخلاق الاعتدال. وهي الحالة الطبيعية إلا في حالة الأزمات القصوى الفردية والاجتماعية التي تستدعي بعض الجدل حتى يمكن أن يتعادل الطرفان في الأزمة حتى تصل الأمور بعد ذلك إلى ميزان الاعتدال. فغنى الأثرياء على حساب الفقراء يتطلب حق الفقراء في أموال الأغنياء. وتسلط الحكام يستدعي ثورة المحكومين.

وتتضمن أساليب التربية الإسلامية الأسلوب القرآني في الود والتعاطف والمحبة وليس أسلوب القهر والأمر والنهي، واستنباط النتائج من المقدمات وإقامة ميزان العدل والالتزام بالعهود. ومن ثم يخلد الوطن، ويواكب حداثة العصر، ويجمع طاقات الأفراد والجماعات. كما تتوحد الثقافة دون تقسيمها إلى فروع وعلوم، والدخول في مشاكل العصر مثل حوار الأديان، واحترام المؤسسات الدينية، والدفاع عن التعددية السياسية، واحترام حقوق الأقليات. وذلك يتطلب الاهتمام بالتثقيف الروحي، وتحرير المظلومين من استبداد الظالمين، وتحديث المصطلحات والقضايا وزوايا الرؤية.

لذلك كان الهدف من الشعائر التربية. التشهد لإعلان تحرير الوجدان الإنساني من كل مظاهر القهر وولائه لمبدأ عام واحد يتساوى أمامه الجميع. والصلاة تربية للبدن وللنفس. والزكاة تطهير للنفس وحق الآخر وتنمية المجتمع. والصوم إحساس بفقر الفقراء وجوع الجوعى وحرمان المحرومين. والحج وحدة الأمة والمصير وطرح ما تعم به البلوى من احتلال وقهر وفقر وتجزئة وتبعية واغتراب ولامبالاة.



والتفسير يتجه نحو المجتمع كما يتجه نحو الفرد. فالإسلام نظام اجتماعي كما أنه نسق أخلاقي. وأهم قضية في المجتمع هي العدل والحرية. العدل يمنع من وجود تفاوت شديد بين الطبقات، أغنياء وفقراء، والحرية تمنع من وجود نظام تسلطي. قهر من الحاكم إلى المحكوم. وكل ما يحدث في المجتمع من فقر وقهر وتخلف إنما هي من صنع البشر أنفسهم.



أهم قضية اجتماعية هي الفقر وربما يضاف القهر. فالقهر فقر في الحرية، والفقر قهر في الرزق. وأهم مظهر من مظاهر التوحيد هو رعاية الفقراء



وهكذا بالنسبة للحالات والأنظمة: شعب فقير، شعب متأخر، شعب جاهل، شعب منتصر. هل أراد الله لهم الانتصار؟ هل خصص الله الشرق دون الغرب؟ هل أراد لفئة التأخر دون فئة؟.. فإن السعادة الاجتماعية والشقاء الاجتماعي، الفقر والمرض والجهل والهزيمة والانتصار والعلم والثقافة، كل حالة في المجتمع من نتيجة عملنا المباشر، ولا يفرض علينا شيء أبداً إذا نحن أردنا ذلك». دراسات ص ٧٣.

التكذيب بالدين ليس نظريا بل تكذيب عملي، دع اليتيم وعدم الحض على طعام المسكين. فالإيمان بالله هو الاهتمام بشئون الناس، إيمان تجريبي عملي، وليس إيمانا نظريا. ومن أصبح ولم يهتم بأمور المسلمين فليس منهم. فكيف تكون الآبار معطلة وبها مصالح الناس وفوقها قصر مشيد؟ رب البيت هو الذي يطعم من جوع ويؤمن من خوف. يعطي الخبز والحرية بتعبير المعاصرين، «ما آمن بالله واليوم الآخر من مات شبعانا وجاره جائع».

فالصور القرآنية كلها عن الإنسان والحياة والمجتمع والكون إنما تهدف إلى تكوين المجتمع الفاضل. لذلك كان الله إله المستضعفين والمحرومين. وكانت أسوأ لحظات في تاريخ البشرية هي لحظات الطغيان.

وأهم قضية اجتماعية هي الفقر وربما يضاف القهر. فالقهر فقر في الحرية، والفقر قهر في الرزق. وأهم مظهر من مظاهر التوحيد هو رعاية الفقراء. ومن هنا أتت فضيلة التعاون بين الناس. لذلك كان الإنفاق قيمة. وهي تزيد على الصدقات والزكاة. فللفقراء حق في أموال الأغنياء. ويكون الإنفاق بالعلم أو الخبرة وليس فقط بالمال. فآثار الرزق تتجلى في الإنفاق. ودوران فائض رأس المال في المجتمع والعلاقات الاقتصادية في المجتمع تقوم على العدل وليس على أكل أموال الناس بالباطل.

«الفقير يموت من الجوع، والفقير يموت من المرض، والفقير يموت من الجهل. الفقير يموت من قلة التغذية، الفقير يموت من عدم توفير وسائل السكن، وعدم وجود النور والهواء الكافي في المساكن، الفقير يموت من عدم وجود الصحة في القرية، الفقير يموت من عدم وجود طبيب في القرية. الفقير يموت من عدم سلامة المياه. الفقير يموت من كثير من هذه المسائل وليس فقط لأجل الجوع. كل هذا موت، موت الناس لأجل الفقير» دراسات ص ١٠١، ١٠٢.

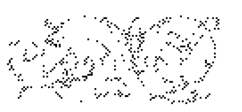
ويتم استنباط الطبقات الاجتماعية من النص. وهي الطبقات الاجتماعية المحرومة، الضعفاء، والمرضى، والذين لا يجدون ما ينفقون أي الفقراء.

والله موجود للمضطهدين والمستضعفين والمنبوذين والمعذبين في الأرض. لذلك كانت رسالات الأنبياء ثورة على الظلم الاجتماعي والقهر السياسي والاستعباد الثقافي.

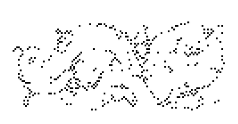
وقد نزل الوحي تدريجيا على مستوى تطور الوعي الإنساني ومساهما في تطويره في آن واحد. فالغاية من الوحي عملية تربوية تدريجية. لذلك نزل الوحي منجما، مفرقا على مهل ﴿وقرآنا فرقناه على مهل﴾ حتى يأخذ الواقع الوقت الكافي للتغيير الاجتماعي ﴿وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة﴾ حتى يكون الوحي السابق مجرد إعلان دون إحداث أي أثر في الواقع. نزل على ثلاث وعشرين سنة، ثلاث عشرة سنة في مكة لتربية الأفراد، وعشر سنين في المدينة لتأسيس المجتمع. وتدل أسباب النزول على أولوية الواقع على الفكر، كما يدل الناسخ والمنسوخ على أولوية الزمان والتطور. الواقع يسأل والوحي يجيب. لذلك بدأت كثير من الآيات بلفظ «ويسألونك... قل». والنسخ يعني مواكبة الحكم للتطور في الزمان، وتغير بتغير الواقع، من الأخف إلى الأثقل أو من الأثقل إلى الأخف طبقا للقدرات الإنسانية وعدم جواز تكليف ما لا يطاق.

ومع ذلك النص وحدة واحدة، جوهره واحد، رسالته واحدة، قصده واحد تحرير الشعور الإنساني من كل مظاهر القهر المعرفي والسلوكي وإعلان كمال العقل وقدرته على التمييز بين الحسن





يكون الحوار أولا مع الشيعة ومرجعياتهم العليا. فالحوار مع النفس له الأولوية على الحوار مع الآخر. فالشيعة ليسوا فرقا متخاصمة ولا مرجعيات متنافسة. تجمعهم وحدة العقائد والهدف



والقبيح، واستقلال الإرادة وقدرتها على اختيار الحسن دون القبيح. وخصوص السبب لا يعنى خصوص الحكم لأن السبب نمط مثالى يتكرر وبالتالى يتكرر معه الحكم والا تحول النص إلى مجرد تاريخ.

٥. التفسير والعلوم الاجتماعية

لما كان الوحى موجها إلى الإنسان والمجتمع فإنه يتم تفسير الظاهرة الدينية بالعلوم الإنسانية والاجتماعية مثل علم النفس الدينى الذى يقرر أن معرفة الله واللجوء إليه واستمداد العون منه فى حالات الضعف والعجز والامتحان.

وفى علم انثروبولوجيا الدين يتصور البشر الله كما يظنونه. وتطور هذا التصور من التجسيم إلى التشبيه حتى وصل إلى أعلى درجات التنزيه فى الإسلام. وفى التحليل النفسى هواجس النفس هى «الوسواس الخناس» والعجز الجنسى له أسبابه النفسية.

وفى علم تاريخ الأديان تتم المقارنة مع باقى الظواهر فى المسيحية واليهودية بل والديانات الشرقية مما يجعل التفسير علميا تاريخيا وليس مجرد دفاع عن دين معين. فالقوانين التى تحكم الظواهر الدينية واحدة. فقد تشعبت المسيحية واليهودية إلى عدة فرق. كما يصنف القرآن الملل والنحل والديانات مثل المشركين واليهود والنصارى ويحدد علاقتها بالأمة. ويستشهد بآيات من رسائل بولس وهى خارج الأناجيل الأربعة، ولها أهدافها الخاصة، وتتوقف على كون بولس صحابيا أم رسولا.

وفى علم تاريخ الحضارات والثقافات المقارنة عرف اليونان واليهود والطبقات الاجتماعية والدينية ونفى الإسلام الطبقات طبقا للون أو العرف أو الدين أو الثروة وجعل الناس جميعا متساوين بفعل الخلق.

وفى الحضارات المقارنة الآن يظهر التفسير ليبرز التحدى بين العرب والغرب خاصة قوة العلم. ثم أتت أمريكا أخيرا للسيطرة على العالم، وآسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية وتشاركها روسيا. فالحياة صراع. والصراع بين الإسلام وغير الإسلام قائم ومستمر فى جدل بين الأنا واللاأنا، بين الذات والموضوع.

ومع ذلك التفسير عالمى النزعة لأنه موضوع إنسانى عام، لا فرق بين الأجناس والألوان. وتبدأ النزعة الإنسانية العامة بالتضامن مع المسلمين كما هو الحال فى سورة الروم وفرح المسلمين بانتصار الروم على الفرس. إن آلام المسلمين فى الفلبين وإرتريا والحبشة وتايلاند وسيام والمجر تستلزم يقظة الأمة وتجديد مذاهبها بما يتفق وطبيعة العصر من خلال تجديد المؤسسات الدينية وفى مقدمتها الأزهر بما له من حضور إسلامى واسع فى آسيا وأفريقيا، ومجلس البعوث الإسلامية وهيئات كبار العلماء من أجل تجديد موضوعات البحث ومناهجها ومخاطبة العالم بلغاته والتحول من القول إلى الفعل. فالشهادة لا تعنى تمتمة بالشفتين بل شهادة فعلية على الأمر الواقع من أجل تغييره.

والعلوم الطبيعية هى أيضا علوم إنسانية باعتبارها نظرة إلى الطبيعة. فالتفسير الكونى يتجه نحو العالم لأن العالم متجه نحو الإنسان. فالكون خلق من أجل الإنسان، والإنسان خلق فى الكون. الإنسان موجود فى العالم بتعبير الوجوديين المعاصرين فى الغرب. الكون قصيدة شعرية. كما أن القرآن يعكسه كصورة فنية فى الماء والزرع والنبات والحيوان والجبال والأنهار والمياه والشمس والقمر والكواكب والنجوم. تهدف الآيات الكونية إلى غايات تربوية لا إلى أغراض علمية. الهدف منها التأثر فى النفس ودفعها نحو الخير.

«إن القرآن الكريم يستعرض هذه الآيات الكونية وغيرها لغايات تربوية لا أغراض علمية. فالقرآن كتاب هداية ودين وتربية، وليس كتاباً للفيزياء أو الكيمياء أو علوم الطبيعة». (دراسات ص١٧).

بل إن علم التوحيد أيضا علم إنسانى لأنه من تصورات البشر واجتهاداتهم. والتفسير قائم على التوحيد. ولا يعنى التوحيد الخروج عن العالم وتجاوزه والهروب منه بل الدخول فيه والالتحام به. فالتوحيد يقوى روح الواقعية فى الإنسان، ويدفعه إلى حرية الاختيار، وتحمل المسئولية. وهذه دلالة «أسباب النزول»، أولوية الواقع على الفكر، والسؤال على الجواب، والإشكال على الحل. والواقع هو الواقع الاجتماعى الفردى والعائلى والجماعى من أجل تغيير الواقع مثل وأد البنات. فرسالة السماء موجهة إلى الأرض، والوحى قصد من الله إلى الإنسان فالأولوية للدنيا على الآخرة. وشرط النجاة فى الآخرة الفرح فى الدنيا. كل شىء فى الوحى يتفق مع مصالح الإنسان، الفرد والجماعة.



ليست الألوهية هدفا بعيد المنال بل هى حالة فى الحياة الفردية والاجتماعية وفى قوانين التاريخ، وهو ما يقارب مفاهيم الصوفية فى الوحدة، وحدة الشهود ووحدة الوجود.

«فعل شىء ينسجم انسجاماً واقعياً مع الإنسان ومع مصالح الإنسان، يبقى ببقاء الإنسان، ويخلد بخلود الإنسان. وكل شىء لا ينسجم مع الإنسان انسجاماً واقعياً يطلع مدة ثم يموت». (دراسات ص ٩٥).

٦. الحوار الوطنى والتحديث الفكرى

وينعكس التوحيد فى وحدة الأمة والوطن، والحوار بين تياراته المختلفة. فالتوحيد، وحدة فى تنوع ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة﴾، ﴿ولكل جعلنا شرعة ومنهاجا﴾. فلبنان وطن واحد، لكل اللبنانيين بصرف النظر عن الطائفة والعرق والمذهب. فالتعددية هى الأساس. لبنان تجربة نموذجية للتعددية والاختلاف داخل الوطن الواحد. لبنان وطن المضطهدين فى كل مكان ومأمن الخائفين. ثروته فى الإنسان وفى المجتمع وفى التاريخ. بلد الإنسان والإنسانية. الوطنية من أشرف الأحاسيس ولكنها إذا تحولت إلى عنصرية أصبحت بغيضة. وحدة الأمة أمانة الله. وحدة لبنان يوم استشهاد الحسين فى عاشوراء واستشهاد المسيح، يوم البطولة والشهادة والفداء. فالحرب غريبة على ثقافة لبنان وتعايش أبنائه. وهى وفلسطين وطن واحد عاصمته القدس.

ويكون الحوار أولا مع الشيعة ومرجعياتهم العليا. فالحوار مع النفس له الأولوية على الحوار مع الآخر. فالشيعة ليسوا فرقا متخاصمة ولا مرجعيات متنافسة. تجمعهم وحدة العقائد والهدف والمصير.

ثم يكون الحوار ثانيا مع السنة وعلمائهم للتأكيد على وحدة الأمة وتعددها فى آن واحد. والخلاف بينها فى المواقف السياسية التى انعكست بعد ذلك فى فهم العقائد مثل الإمامة. الخلافة سلطة زمنية لا تهدف إلى الحكم بل إلى خلق مجتمع سليم، ولاية عن الرسول. هى التى تحقق المصالح العامة التى نزل بها الشرع فى الزمان والمكان. ويتم الحفاظ على وحدة المسلمين عن طريق توحيد الفقه، والمساعى المشتركة، والمحافظة على الأهداف الشرعية المحضة والأهداف الاجتماعية والأهداف الوطنية.

ويكون الحوار ثالثا مع نصارى لبنان. فالوطن للجميع. لقد ساهم النصارى فى بلورة الثقافة العربية كما ساهم الإسلام فى بلورة الثقافة اللبنانية منذ انتشار الإسلام وحتى الآن. ازدهرت اللغة العربية، وظهر رواد النهضة العربية لإحياء اللغة والحفاظ على نقائها دون الألفاظ المعربة، وتدوين القواميس والمعاجم وسير الأدباء. حرص لبنان على أصالة

الإسلام وتفاعل معها أخذا وعطاء. كما حدث تفاعل بين الروحية والمادية، جمعا بين المسيحية واليهودية. كما صب الدين فى شئون المجتمع وأصبح جزءا من تاريخ العرب والمسلمين، وتكيفت الشريعة مع البلدان والأقطار والأمصار.

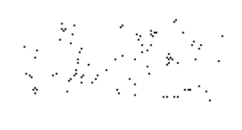


وبعد الحوار الوطنى يأتى التحديث الثقافى. بل إن الحوار نفسه أحد مظاهر التحديث الثقافى، والتحديث الثقافى إحدى نتائج الفكر والحوار الفكرى. ومن ثم كان التحدى كيف يمكن إعادة صياغة الإسلام وفهمه ضمن روح القرن العشرين. فبصرف النظر عن التحديد الدقيق لمعنى الثقافة فإن الإسلام الثقافة هو المخزون النفسى الذى ترسب فى وعى الناس يحدد لهم تصوراتهم للعالم ومعاييرهم للسلوك، وجود الله، وخلق العالم، وخلود النفس ومحاسبة على الأفعال. وهى تصورات ثابتة فى جوهرها وإن كانت متغيرة فى صورها. تتسم بالثبات والشمول والحركية (الدينامية)، تجمع بين الأصالة والتحديث أى بين الثابت والمتحول. وكلها ثقافة واحدة تتم من منظور الوحدة، وحدة المعرفة الإنسانية. وإذا كان القدماء قد برعوا فى العلوم الرياضية كالحساب والهندسة والفلك والموسيقى وفى العلوم الطبيعية كالطب والصيدلة والكيمياء والفيزياء والمعادن، وفى العلوم الإنسانية، الأدب والفلسفة والشريعة وغيرها فنحن المحدثين قادرون على استئناف الشوط بتجاوز الثقافة الغربية كما تجاوز القدماء الثقافات القديمة، اليونانية والرومانية غربا، والفارسية والهندية شرقا.

ولا يوجد تحديث ثقافى أو نهضة معاصرة إلا بعد مراجعة الاستشراق، وتحرير صورة العرب والمسلمين من أسر الذهن الغربى لها، مثال ذلك كتاب هنرى كوربان «تاريخ الفلسفة الإسلامية». وبالرغم من الاحترام الكامل للمستشرقين كبشر وتقديرا لجهودهم ومعرفتهم بالأصول الإسلامية، ولقائهم مع علماء المسلمين إلا أن الصواب يجانبهم أحيانا نظرا لأنهم يرون الأمور من الخارج ويحكمون عليها ولا يعيشونها مثل تصور كوربان مثلا لعلاقة الظاهر والباطن وإيغاله فى الباطنية وفى تأويل للسبعة أحرف، وفواتح السور، ولتصوره للإمام، وتواصل النبوة فى توازٍ مع التاريخ الإنسانى وفى حكمه على الولاية وخروجها عن النص ومصدرها الواقع النفسى والاجتماعى لإحدى فرق المعارضة السياسية، وفى المقارنة بين التصوف والتشيع، والتوحيد شبه الكامل بينهما، ومفاهيم القطب والإمام الغائب، وجر ذلك كله إلى مبدأ الباطنية.



إن أعظم تحية للإمام موسى الصدر هى تطوير فكره وتحديثه وتجاوز بعض جوانب فكره المرتبطة بالظروف الوقتية والبيئية



ولا تنشأ النهضة الجديدة إلا بانتشار مؤسسات علمية بحثية جديدة، ومعاهد عليا لدراسة الثقافة الإسلامية لتجاوز النشاط الثقافى إلى البحث العلمى.

٧. هل يمكن تطوير منهج التفسير؟

لما كان التطور سنة الحياة ﴿ولن تجد لسنة الله تبديلا﴾، وكانت روح الإمام مازالت سارية فى التاريخ فإن منهج التفسير لديه هو البداية وليس النهاية. هو الإعلان عن الطريق وليس السير فيه إلا خطوات بقدر الاسترشاد. إن مهمة جيل قادم هو تطوير منهج الإمام فى التفسير من داخله وليس من خارجه، بدفع روحه إلى الأمام، خطوات أبعد حتى يزدهر العلم ولا يتحول إلى تقليد، تقليد الخلف للسلف بل إلى تجديد، تجديد الخلف للسلف. بل إن تلك أيضا سنة الأنبياء، أصحاب الرسالات. الجوهر واحد، التوحيد، وصياغاته وتجلياته متعددة، وحدة القصد والهدف وتعدد المراحل والتحققات العينية.

ويمكن تطوير فكر الإمام السيد موسى الصدر من أجيال تالية له وبنفس الروح حتى لا يتكرر فكر الإمام ويتوقف والزمن يتطور ويمر. إن أعظم تحية للإمام هى تطوير فكره وتحديثه وتجاوز بعض جوانب فكره المرتبطة بالظروف الوقتية والبيئية. ومنها:

١. معرفة الحقيقة مسبقا دون البحث عنها. وهو الفرق بين المؤمن والفيلسوف، بين المتكلم والحكيم. المؤمن يعرف الحقيقة ويعبر عنها ويبلغها للناس. أما الفيلسوف فيبحث عنها بالفعل حتى يصل إلى ما وصل إليه النقل. لذلك كتب الفلاسفة «حى بن يقظان» للدلالة على تطابق العقل والوحى. ومن ذلك الدفاع عن الرسول فى حادثة زيد وزينب. ولا ضير فى أن يشعر الرسول كإنسان بما يشعر به سائر البشر. وأمور القلب لا سيطرة للإنسان عليها «سبحان الله مغير القلوب». وعقائد الشيعة جاهزة، حقائق مطلقة لا خلاف حولها.

٢. يختلف أسلوب الداعية عن أسلوب الفيلسوف، ومنهج الداعية عن منهج الفيلسوف. الداعية يريد الإقناع، إقناع الآخرين بما يحمل من حق. والفيلسوف يريد البرهان وإثبات أن ما وصل إليه يطابق العقل والواقع. وقد يرجع السبب فى ذلك إلى نوعية الجمهور ونوعية المنبر. فالجمهور من العامة. لا يتحمل إلا تقوية الإيمان. والمنبر هو الإذاعة أو المنتدى الثقافى أى المنبر العام وليس المنبر الخاص، الجامعة أو مراكز البحث. والداعية هو صاحب الرسالة، وحامل الأمانة، ومبلغها للناس.

٣. وهو مازال تفسيرا طوليا يأخذ السور والآيات واحدة تلو الأخرى حتى لو تفرقت الموضوعات، لم يصل بعد إلى «التفسير الموضوعى» للقرآن كما حاول الشهيد محمد باقر الصدر. ليست القسمة السور الطوال والسور القصار، أو المدنية والمكية بل وحدة الموضوعات حول الإنسان والمجتمع والحياة.

٤. وبالرغم من الإحالة بين الحين والآخر إلى التحليل الاجتماعى إلا أن التفسير الاجتماعى ليس حاضرا حضورا غامرا. وتظهر الإيمانيات أكثر كما هو الحال عند الصوفية. صحيح أن «أحاديث السحر» حديث الروح فى رمضان، ولكن رمضان يعنى البعد الاجتماعى بالإضافة إلى البعد الروحى. العلاقة الأفقية بين الإنسان والإنسان مثل العلاقة الروحية بين الإنسان والله. فالتصوف العملى أنفع للناس من التصوف النظرى. لذلك لم تظهر أيديولوجية إسلامية كاملة تتضمن برامج سياسية واجتماعية وثقافية شاملة كى تتحاور مع باقى الأيديولوجيات السياسية، القومية والليبرالية والماركسية.

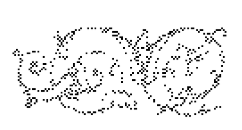
٥. مازال يغلب على فكر الإمام بعض البراهين الخارجية مثل المعجزة على صدق الرسول. الإعجاز الأدبى والتشريعى نعم، جماليات الصورة وموسيقى الخطاب والتشريع الفطرى والشريعة الطبيعية تبرهن على صدق الرسالة أى تطابقها مع الواقع، والرسول مجرد مبلغ لها ومعلن عنها. لا يهم إذا كان موسى قد غرق أم أن جسده لم يغرق. إذ لا يمكن التحقق من ذلك إلا ببحث تاريخى صارم لا يمكن القيام به لصعوبة الرواية عن الواقعة أو التجريب عليها. يكفى دلالته نجاة المؤمنين وهلاك الكافرين. وكذلك موضوع الإسراء والمعراج الذى اختلف فيه القدماء، بالجسد أم بالروح. دلالتها التأمل فيما وراء الحس للعودة إلى العالم. ففى ليلة الإسراء فرضت الصلاة وتم تكييفها طبقا للقدرة الإنسانية طبقا لمبدأ عدم جواز تكليف ما لا يطاق. وكذلك قصة خلق الإنسان لا يمكن معرفتها من النص الدينى الذى لا يهدف إلى الكشف عن حقائق علمية بل يصور الكون طبقا لرسالة الإنسان فيه، خلافة الإنسان فى الأرض وتعميره لها وإصلاحه فيها. وتحمله المسئولية وأدائه الأمانة وممارسة اختياراته.

٦. مازال يغلب على فكر الإمام بعض الجوانب الغيبية مثل أمور المعاد. فهى من السمعيات التى يعتمد يقينها على مجرد الخبر وليست من العقليات التى يعتمد





إن اختفاء الإمام كشخص لا يعني اختفاءه كفكر. وقد يعود الإمام إن لم يكن بشخصه بل بمنهجه ورؤيته وأثره على أجيال قادمة



يقينها على البرهان. مثال ذلك تفسير الجن فى مقابل الإنس، والحديث عن الجن وابليس والملائكة رواية وليس مشاهدة بالحس أو برهانا بالعقل. وكذلك أمور السحر لتفسير الوسواس الخناس، والنفاثات فى العقد. والكوثر فى الجنة لا سبيل إلى معرفته إلا بالسماع. وكل أمور المعاد تقوم على قياس الغائب على الشاهد. وظيفة المعاد مد آفاق النفس إلى المستقبل وذلك مثل تفسير سورة الفيل. وكذلك قصة الخلق موضوعها العلم الطبيعى وطبقات الأرض ونشأة الكون وليس النص.

بل إن الإيمان بالغيب يصبح أحد موجهات التفسير ومقاصده، والإيمان بمقاصد الشريعة أولى. الإيمان بالغيب ليس إيمانا بشىء بل هو مد آفاق فى الشعور الإنسانى للبحث عن المجهول وعدم التوقف على المعلوم والوقوع فى القطعية بالانتهاء إلى الحقيقة دون التجاوز المستمر. والصلاة لا تهدف إلى الإيمان بالغيب بل إلى الحفاظ على الوقت وأداء كل فعل فى وقته، وتربية الجسد بالحركات الجسدية والروح بالتأمل الباطنى، وتقوية روح الجماعة، وعرض أموال المسلمين فى خطب الجمعة والعيدين.

٧. مازال يغلب على فكر الإمام بعض الجوانب الإلهية. صحيح أن الإلهيات تنعكس فى الإنسانيات، ولكنها أحيانا تبدو مستقلة، عالما بذاته، حقائقه فى ذاتها وليست صورا تعكس واقعا إنسانيا، وتجارب بشرية معاشة، فردية واجتماعية. يبدو فكر الإمام أقرب إلى علم أصول الدين منه إلى علم أصول الفقه، ومن العقيدة أكثر منه إلى الشريعة. والقدسية لا تأتى من المكان ولا من الزمان. إنما هما حاملان للوحى وميدانان لتحققه. كل الأماكن متساوية فى القيمة أى فى القدسية لا فرق بين المسجد وخارجه فقد جعلت الأرض كلها مسجدا. ولا فرق بين شهر وشهر أو عام وعام فكل الأزمنة أوقات للفعل. فمكة والمدينة مكانان للبعثة وليس لهما قدسية خاصة. والشعر هو الجامع بين الألوهية والأرض.

٨. ويمكن تجاوز الطائفية من أجل وحدة الرؤية للأمة. فلا توجد عقائد للتشيع وأخرى لأهل السنة. فالاجتهاد ليس مقصورا على التشيع بل عرف عنهم عصمة الإمام وقول الإمام المعصوم مصدرا من مصادر التشريع. والمرجعيات قد تتحول إلى طبقات علمية متتالية يقلد بعضها بعضا. والحج ليس خاصا بالشيعة ولا مكة والكعبة. ويمكن تصحيح مواقف المستشرقين فى دراساتهم عن الشيعة وليس شبهاتهم كلها حول الإسلام.

٩. وربط التفسير بالعلم يبدو فى الظاهر أنه يجعل التفسير عصرياً، فهم الآيات طبقاً لآخر مكتشفات العلم الحديث. وفى الحقيقة أنه يربط الحقائق الأبدية بالتغيرات فى فهم الطبيعة. حقائق العصر ثابتة فى حين أن حقائق العلم متغيرة. فكيف يتم تفسير الثابت بالمتحول؟ لا يهم الدين إن كان يتنافى مع العلم الحديث أم لا. فالعلم متغير والدين ثابت. إن كل الأدبيات التى تسمى التفسير العلمى للقرآن تبدو فى الظاهر تحديثاً ولكنها فى الحقيقة تأخير لأنها أولاً توحى للمسلمين بأن القرآن حوى كل العلم ومن ثم فلا داعى للتعلم مادام القرآن قد قدم العلم قبل جهود العلماء المحدثين. وتعنى ثانياً أن الغرب هو مكتشف الحقائق وأن مهمة المسلمين فقط تبرير العلم الغربى بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية. الغرب يبدع العلم، وعلماء الغرب يجتهدون فى اكتشاف قوانين الطبيعة ونحن ننقل العلم الغربى دون جهد. يقتصر عملنا على التوفيق. وننال الحسنيين، ونسجل هدفين: الدنيا والآخرة، العلم من الغرب، والإيمان من لدنا. فى حين أن الغرب كسب جولة واحدة، العلم والدنيا ولكنه أضاع الشق الثانى، الإيمان. فنحن أفضل من الغرب جمعنا الدين والدنيا، والغرب عكف على الدنيا وحدها وترك الدين. وكانت النتيجة أنه خسر الدين والدنيا معاً.

العلم موضوع محايد لا يدعو إلى الإيمان ولا ينفر منه. والأوكسجين والجبال كلها موضوعات علمية وإن استعملها القرآن استعمالاً شعريا لتقريب الإنسان من الطبيعة والطبيعة من الإنسان.

الدين والعلم ليسا نسقين معرفيين متمايزين، الدين للأخلاق والسيطرة على انفعالات النفس والعلم للمنفعة والسيطرة على قوانين الطبيعة. قد ينشأ الدين من فوارق اجتماعية عسيرة فيكون تعويضاً عن أوضاع القهر والحرمان. كما ينشأ فى ظروف عجز المعرفة البشرية على السيطرة على قوانين الطبيعة كقيم اللجوء إلى الآلهة واستدعاء الأرواح. العلم والدين ليسا توأمين منذ خلق الإنسان بل هما على التبادل يقوم الدين بدور العلم ثم يرث العلم الدين. ثم يصبح العلم هو الوسيلة لدراسة الدين فى جوانبه النظرية والتشريعية. لقد تطور الدين نفسه من الدين إلى الميتافيزيقا إلى العلم، ومن دور الطفولة إلى دور الصبا إلى دور الرجولة حتى استقلت الإنسانية وأصبح العقل قادراً على فهم قوانين الطبيعة والسيطرة عليها وتسخيرها لصالحه. يبدد العلم الأوهام القديمة. ولا يوجد تقسيم عمل بين الدين والعلم وتوزيع الصلاحيات حتى لا يعيش الإنسان فى ازدواجية معرفية: الدين للنفس والعلم للطبيعة. فالعلم قادر على معرفة خبايا النفس وأسرار الطبيعة. الدين طريق سهل ومباشر للعامة كى تعيش حياة فاضلة. أما الخاصة فيحتاجون إلى برهان العلم ﴿قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى﴾. يستطيع العلم أيضاً سبر المجهول. فى حين أن العلم هو الانتقال من المجهول إلى المعلوم وإعطاء البرهان عليه. ولا يكفى فيه قياس الغائب على الشاهد كما يفعل الدين فى قياس الشبه. ثنائية العلم والدين تقتضى التوفيق بينهما فى حالة التعارض، توفيق الدين على العلم وإلحاق الثابت بالمتحول فيقضى على الدين ويصبح تابعاً للعلم كما يفعل أنصار الاتجاه العلمى المادى المعاصرون، أو توفيق العلم على الدين، وإلحاق المتحول بالثابت مما يقضى على العلم ويجعل برهانه خارجه فى القطع والإيمان وليس فى البحث والبرهان كما يفعل أنصار التفسير العلمى للقرآن.

١٠. ويمكن تجاوز تقليد القدماء من المفسرين والفقهاء والأئمة الأطهار إلى تجديد المحدثين. فلا يوجد شىء تم إلا ويمكن أن يتم ما هو أكمل منه. ولا يتحقق شىء إلا ويمكن أن يتحقق أفضل منه. فالسعى نحو مزيد من الكمال سنة كونية. التفسير لا حدود له طالما أن تطور الزمان لا نهاية له. لذلك كان يمكن إعادة بناء التراث كله وليس فقط إعادة تأويل مصدر الأول. فقد تحجر التراث وتكلس وتقدس وفى حاجة أيضاً إلى إعادة بنائه على وجه آخر بحيث يكون دافعاً على التقدم وليس معوقاً للتخلف. صحيح أن التفسير يذكر جلال الدين الرومى وابن سينا ولكنه لا يعيد بناء الأنساق الموروثة فى الكلام أو الفلسفة أو التصوف أو الأصول. صحيح أنه يشار إلى التراث العلمى نظراً لحاجة الأمة إلى العلم ولكن التراث أعم وأشمل؛ يضم التراث الكلامى والفلسفى والأصولى والصوفى والأدبى.

إن اختفاء الإمام كشخص لا يعنى اختفاءه كفكر. وقد يعود الإمام إن لم يكن بشخصه بل بمنهجه ورؤيته وأثره على أجيال قادمة. ■

هامش:

صدرت حتى الآن ثلاث مجموعات عن مركز الإمام الصدر للأبحاث والدراسات بفضل جهود الأستاذ حسين شرف الدين وهى:

١ - أبجدية الحوار: محاضرات وأبحاث، بيروت ١٩٩٧.

٢ - دراسات للحياة (معالم التربية القرآنية١)، بيروت ١٩٩٩.

٣ - أحاديث السحر (معالم التربية القرآنية٢)، بيروت ١٩٩٩. دراسات الحياة ص٦ - ٩

جئت هنا، إلى جامعة بيرزيت حيث تعلمت، أبحث عن معنى لما يحدث. فبيرزيت بالنسبة لي، ولألوف الطلبة والخريجين والمثقفين والقادة في كل مجال، هي المحور. فقد كانت لأكثر من نصف قرن مضى هي ثيرمومتر التقدم والتغيير وبوصلة التحرك والثورة.

جئت هنا أبحث عن معنى لما يحدث. لماذا يحدث؟ وماذا خلفنا لهذا الجيل؟ أين المستقبل ومن سيقود؟ إن كنا فشلنا نحن الكبار فهل سيجيء جيل أفضل؟ لكن الوعي والعمليات وازدياد العنف والنقمة وأجيال ولدت في الاحتلال وباتت مثله، بل صورة عنه: فوضى وتكسير وابتذال الحياة. أيكون الموت هو الغاية؟ ولماذا صارت العمليات مثل الحصبة أو جدري الماء؟ لماذا انتشرت بين الشباب من هذا الجيل؟ لماذا الشباب في هذه السن، في عمر الحب والأحاسيس وجمال الطلعة والصورة وحب المرأة؟ أينا لم يمر بذاك الهوس مع بدء الشباب حين كان الجسد هو المحور، حين كان الحب هو المحور، حين الطبيعة تتوثب بالهرمونات والعواطف وتقديس الذات! أينا لم يحلم بعنفوان الشباب؟

لكن شباب هذا الموسم، زمن الاحتلال والعمليات صار لعنة! لعنة منا، لعنة عليهم، وكذا علينا، وعلى الحياة بكاملها لأن الحياة صارت نقمة، صارت تعذيبا وحشيا وضياع الطريق. كيف بدأت؟ لماذا ازدادت وصارت ايقاعا مألوفا نخاف منه ونتوقعه ونتمناه بعض الأحيان. حين تزداد مرارتنا وكآبتنا ويزداد الحصار.

في الخمسينيات، كنا نبدأ يومنا في كل صباح بهذا المطلع من نشيد بسيط جميل:

معهد العلم المفدى دم بعز وسلام

أنت بالأرواح تفدى أيها السامي المقام

كنا نغني. نصطف في رواق البناء العتيق على بلاط حجري أملس نستمع لنوتات البيانو منبعثة من أنامل شاب أو شابة من آل ناصر، ولكلمات لاذعة متسامحة فطنة مسز فارس، وهي سيدة قصيرة القامة ممتلئة القوام وبكعب عال يساعدها على أن تصفع أطول طالب يتطاول على حدود الأدب واللياقة ويخل بنظام معهد العلم المفدى. على اعتبار ما سيكون. حتى يظل بعزه وسلامه وسمو قدره. فقد كان العلم كما كانت تقول وظلت تقول حتى آخر يوم في حياتها هو الطريق إلى الرفعة والتقدم ووعي الإنسان. ليس هذا فقط، بل هو الطريق إلى فلسطين. وفلسطين كانت في ذاك الوقت هي الساحل. حيفا ويافا والبيارات، وبحر ما عدنا نراه سوى في الصور والروزنامات. وكانت يوميا تذكرنا. في كل صباح: العلم الطريق إلى القوة وإلى فلسطين وبدون العلم تضيع الطريق.

حين رجعت إلى بيرزيت في السبعينيات، كانت بيرزيت قد انتقلت، كما انتقلت انا، من عهد الطفولة لعهد الشباب. كانت أجمل، أنضج، أوسع، أغنى وأعلى، وكانت قد أضحت في عرف الجميع، بؤرة إشعاع لفلسطين. الاحتلال لم يطفئها، بل أشعلها، واستفز طاقات الإبداع والقيادة، وصارت الشعلة والإلهام. عاد الشباب المتعلم والمتقدم من الخارج وانضوى تحت مظلتها. حنان وريتا ورمزي وسليم وجورج وليزا ومنير وخليل، وعشرات المواهب والأعلام، وهؤلاء كانوا القادة في الفكر والعلم والوطنية. وأنا أدين، وجيل بأكمله يدين، لهؤلاء النوابغ، بالكثير الكثير. فقد تعلمنا منهم، كما تعلمنا سابقا من مسز فارس ومسز ناصر، أكاديميا، وفكريا، ووطنيا، وصرنا ما صرنا عليه الآن، أنا ومئات ممن صاروا . إن صح القول ..



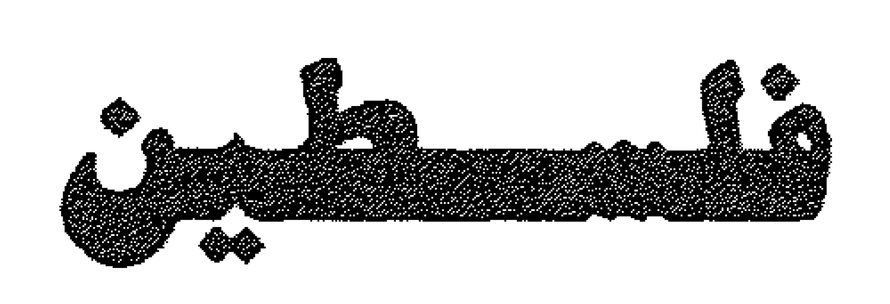
وحين عدت بعد الألفين، أي بعد الحصار والاجتياحات أصبت بإحباط لم أذق مثله حتى في أشد لحظات البؤس والتعاسة، فقبل ٦٧ كان هناك الأمل وعبد الناصر وأحلام الوحدة والانتصار. و٧٣ كان فيها العبور واجتياز القنال وحلم بإكمال مسيرتنا نحو التحرير. والتسعينيات وانحدار العراق وتفككنا كعرب وأنظمة وقيادات كانت ما زالت في وعينا، وبعض الأحلام. مرحلة مشؤومة آنية ستمر سريعا حين نفيق بعد أشهر، أو بضع سنين. أما الآن، في هذا الصيف من سنة ٢٠٠٣، وأنا أرى التفكك والانهيار في كل مكان، في كل مؤسسة ووزارة، في كل مجال أو ميدان، في كل جيل من الأجيال، وبالذات شباب الجامعات، أي من سيكونون ورثتنا وقادتنا وساستنا بعد سنوات، فقد أصبت بصدمة كبرى آمل أن أنقلها لمن يقرأني ويشاركني بعض همومي. فوضع الإصبع على الجرح لمعاينته أفضل من التغابي وإهمال المصاب. وتخبئة العفن تحت السجاد لن ينفعنا، فلنا أنوف، ومن لا يرى حتما سيشم.

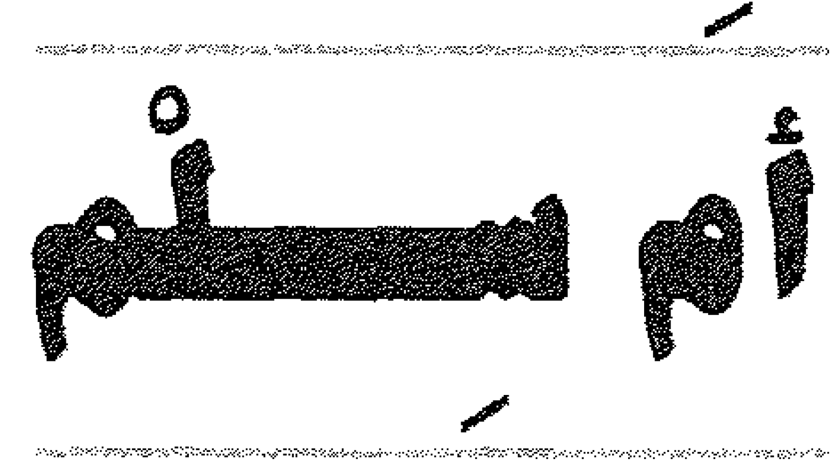
إذن فلنبدأ بالرحلة، رحلة الكشف تحت السجاد، وفوق السجاد. وما فوق السجاد ليس غريبا وليس جديدا، لكني سأذكره للتذكير، لأن الغلاف، وكذا العنوان، هو خير دليل على المضمون. وهذا ما كان.

بدأت الرحلة بالحاجز. والحاجز يعني أن مدينة رام الله من حيث خرجت هي كالدولة، لها حدود ومعابر ونقاط تفتيش وهويات! ورام الله لمن يعرف أو لا يعرف، كانت منتجعا للسواح قبل الضربة، ثم الضربات. كانت مشهورة برونقها وصنوبرها وعبير السرو والطيون وأصص الأزهار في النوافذ والبلكونات وبيوت تنتشر كبيوت اللعب على الهضاب والمنحنيات وتلون سماء حانية في عز الصيف بلون القرميد والصنوبر واحمرار الغروب. كانت جنة. أما ما صار بعد النكسة، ثم النكسات، فقد ماتت أزهار البلكونات واختنق الأفق وصارت رام الله كالحسبة. وسقوف البيوت والقرميد ضاعت في التيه ما بين بناية وبناية وأعمدة الحديد وصحون الدش والانتينات. والبنايات، تلك البنايات بمجملها، أشكال شاهقة مرفوعة بحجارة واسمنت وذوق هابط، وشوارع ضيقة وزبالة في كل مكان، والبلاعات، والمواسير، وحفر وأرصفة مطحونة وشوارع تضيق بأهاليها والسيارات والحاويات وبسطات الباعة والعربات وعنب وتين وفلافل. كله ماشي، كله يدفش، كله يصرخ، وكأن الدنيا تتسابق نحو هدفها. والهدف القرش، الهدف الرزق، والهدف الوصول الى الغاية قبل الآخر. فالأمر خطير، إن أنت تلكأت ولم تسبق طار الموعد. والموعد ليس مع الساعة وليس مع الناس، بل هو إحساس بالكرباج فوق رأسك: فهناك نذير تعتاده ويصبح إحساساً مألوفا كنظام الجسم والإفرازات. شيء لا تقوى على منعه. بل لا تمنعه، لأنه يحميك من الآتي وما لا تحسبه. والآتي أحيانا دبابات أو اشتباكات أو طيارة تسقط صاروخا لتتصيد شابا نشطا في سيارة أو في مكتب. وفي الطريق نحو هدفها تأخذ أرواحا بريئة وتصيب الهدف وعدة أهداف قبل هدفها. وهذا بالذات ما يرعبنا، أن نصبح هدفا لم يقصد قبل الوصول الى المقصود.

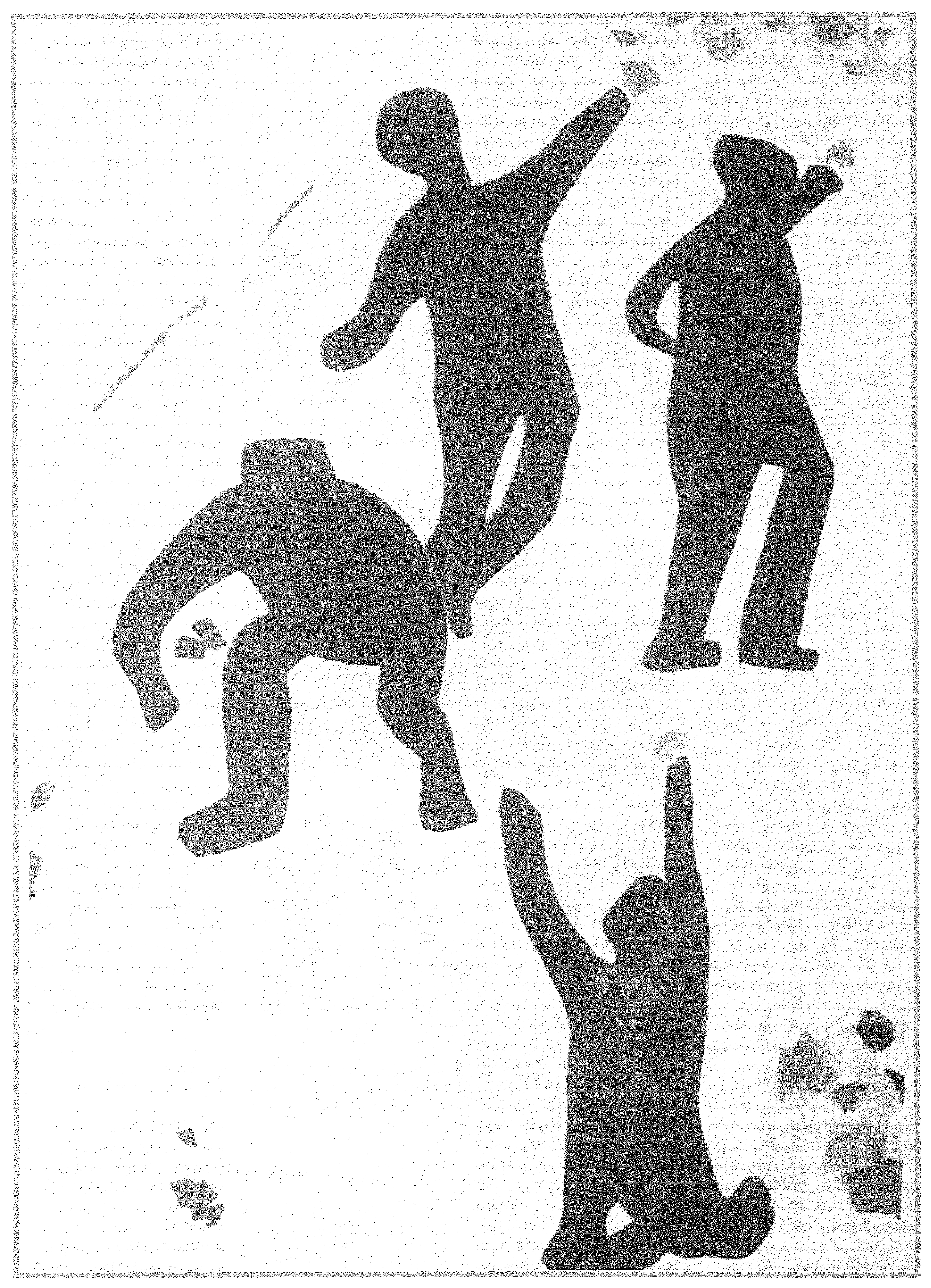
إذن تخرج من رام الله من بين الزحام في سيارة تكتظ بطلبة وقرويين وتصل الحاجز، أول حاجز، وترى من بعد السيارات، كلها صفراء، أي سرفيس، مرسيدس وفورد وحناطير، ومئات الباعة والسواقين وجحافل مشاة وبني آدمين يحملون الكتب، يحملون الخبز، يحملون الخضار، يمشون بصمت وكآبة، يقطعون الطريق، ما بين الحاجز والحاجز مسافة كيلومتر أو خمسة، حسب مزاج كولونيل فلان في ذاك اليوم، أو ذاك الشهر. والناس يمشون الكيلومترات على الأرجل، بصمت بليغ، وصوت الباعة ينخفض وينأى مع الخطوات نحو الحاجز، ثاني حاجز، في أبعد نقطة من الشارع فوق الهضبة، ثم الحاجز: تلال تراب وحجارة ومكعبات من الإسمنت تزن قناطير. وهناك ترى ما كنت رأيت أثناء المشي، عشرات ومئات السيارات، وأيضا صفراء، وأيضا عربات وحناطير، وشماسي الصيف فوق البسطات وعنب وخوخ وجرابات وطناجر، وصنادل وبضائع صغيرة بشيكل ونصف كل قطعة، وساندويشات، ونش على الفحم وطحالات.

هذا الطريق إلى المعهد، ذاك السامي، ذاك العالي، ذاك المعتز! وفي الطريق تذوق الذل وخوف الطلاب والأهالي من قرى منتشرة ومرشوشة فوق قمم الجبال: سردا وأبو قش وعطارة وأخرى وأخرى تصل الثلاثين. وما بين القرية والقرية جزر الغربة والاستيطان تقطع ما بين شوارعنا وأراضينا وتمزق أوصال توحدنا وتجزئنا قطعا قطعا ولهذا تقام الحواجز وتعلو الجدران حتى تحفظ أمن الدولة، دولة شارون







والاستيطان. ونظل نلوك مرارتنا عبر الحاجز والكيلومترات ونهبط من خانة الى خانة، من فوق لتحت، مع كل ضربة تلاحقنا وتهددنا بعقاب جديد، وحصار جديد، وبهذا تزداد العمليات.



ما العمليات؟

يقول أستاذ:

. دعنا نشرح، ويتسلسل، حتى نفهم. فى الثمانينيات، فى أولها، كنا نسمع عن مقتل شاب أو مشروع للاستيطان فنركب باصات بالمئات، طلبة، أساتذة وصبايا بالبلوجينزات، وكان الحجاب فى أوله، لم يطغ بعد. ونصل القرية خلال ساعات ونتوحد بالقرويين. ويكون اللقاء مثل الزفة وهزيج العرس. ونمشى بالساعة والساعتين حتى نصل سياج المشروع والجرافات ونبدأ بالرشق والحجارة وقنانى الكولا وحرق العجلات ونقيم القيامة ونقعدها ونحدث طوشات واشتباكات وتعلو الأصوات فى السماعات والصحافة والأجانب وبعض اليهود. حتى اليهود كانوا معنا، بعض اليهود، والسلام الآن وماتسبن وراكح ونساء نشطات من جانبهم، ومن جانبنا، وحركة واحساس وتجاوب. كنا جبهة، شبه جبهة، وكانت سنوات ذهبية، وكنا نحلم بالسلام الآن والتعايش قبل انهيار زمن الأحلام.

كان ذلك فى الثمانينيات، فى أولها، وكنا ننعم بنقاء تام. صبايا وشباب ينطلقون نحو هدفهم. والهدف كان تحرير الأرض والانسان. مفهوم الحرية كان أوسع، بل كان القاعدة لكل نشاط. وبير زيت كانت شعلة، بؤرة اشعاع وقيادة، والقلب النابض لفلسطين حيث الشباب فى الكافتيريا وقاعات الدرس يزخر بالثورة ويتأجج، والجو العام، رقص وغناء وموسيقى بجوار العلم والثقافة والانفتاح على العالم فى كل مكان. وكنت تراهم فى مجموعات، صبايا وشبابا وأساتذة شباب، وأيضا كهول، عادوا للتو من الخارج ليلتحموا بجذور الأرض والهوية ، وكانوا هنا بين الشباب وسط الأنغام وعزف الجيتار ودخان سجائر ونقاشات كلها تزخر بما هو معلوم: أى معنى الحب والثورة وتحرير الأرض والانسان. أما الآن، انظرى حولك، ماذا ترين؟

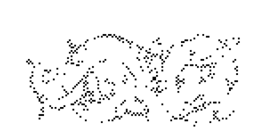


فتحت عينى ودرت اتسكع هنا وهناك أسمع وأناقش وأتلمس معنى الأشياء، وهذا ما رأيت:

شباب لا يقرأ أو يحلم. لا يتأمل. سنوات أوسلو أوقعته بحب الموبايل والسيارة والاستهلاك. ضاع الاهتمام بقضايا الوطن والثقافة وانقسم الجسم الى قسمين، بل ثلاثة. قسم بلحى، وقسم

شباب فلسطين

بعد النكسة، ثم النكسات، ماتت أزهار البلكونات واختنق الأفق وصارت رام الله كالحسبة. وسقوف البيوت والقرميد ضاعت فى التيه ما بين بناية وبناية وأعمدة الحديد وصحون الدش والانتينات



بشعار، والأغلبية لا تعبأ أو لا تهتم. فالتلفزيون رسم الخارطة الثقافية وما عاد الكتاب هو المصدر، ولا مجلس الطلبة والأستاذ. انقطع الخيط، انقطع الخط والتواصل وبات الطالب جزيرة نائية معزولة عن الواقع ووقع الأحداث. ما عاد يتظاهر أو يرشق بالحجارة. ما عاد يردد شعارات تزخر بالغضب والانفعالات. لكنه ابدا غاضب، أبدا حزين متخوف. يعانى الوحشة فهو وحيد لأن الحاجز، والحواجز ابعدته عن حب الأهل وحمايتهم، وعطف الأستاذ ورعايته لأن الأستاذ أيضًا مضروب ويعانى الذل على الحاجز، وكذا السلطة وأعلى السلطة، فلا أهل ولا قائد ولا استاذ، كله بعيد، كله محجوز، فهو وحده أمام الجندى على الحاجز، والحواجز، وان سقط سهوا بين ايدى الجند فمن المنقذ؟ إن كان القائد (عرفات) فى سجنه، والوالد يرزح تحت هم الرزق وهم العيلة، وكذا الأستاذ ذليل مهان، فمن الأولى ان يشعر هو بانعدام الأمان فهو مراهق . ولهذا انكفأ على نفسه وبات يعانى الغضب المكبوت والنقمة. فالحاضر خوف متواصل، والمستقبل يبدو بلا أمل ولا منفذ. فلم التعليم؟ للوظيفة؟ لكن الوظائف عزيزة وباتت ندرة. معظم الشركات والمصارف وكذا الجامعات والمؤسسات باتت تستغنى عن الخدمات. وكذا السلطة. والسلطة لها مقياس غريب فى التوظيف. فهذا ابن فلان، وذاك ابن فصيل وذاك ابن وزير ولن اسهب. فهذا معلوم. وعليه، بهذه الخلفية والمرجع، بات الطلاب، معظمهم، شبه اشباح. وبات المستقبل كالحاضر، ضباب بضباب.

قال الأستاذ:

. لم أكمل بعد. ماذا حدث منذ ذلك الوقت، أى وقت الثورة والتثوير وتحرير الأرض والانسان؟ كيف رجعنا وكيف خرجنا عن دورتنا؟ كيف تخلينا عن موقعنا كقيادة جيل وبؤرة اشعاع وتفاؤل والقلب النابض لفلسطين؟ جاءت السلطة وقالت للطلبة ما معناه: كتر خيركم، يعطيكم العافية فقد قمتم بما هو مطلوب. انتهى دوركم، ونحن الآن نقود الركب، نحن الربان. فصدقنا، بل أمنا ان كوادرهم ذات كفاءة. وتركنا الركب لقيادتهم. ولن اصف هنا بؤس الواقع وما جاء لنا بعد اوسلو.

وهنا تدخلت وقلت: أعرف، دعنا من ذاك فقد خضناه حتى شبعنا. ماذا عن الجيل؟ ماذا عن العلم؟ ماذا عن الطلبة والاستاذ؟ أين وصلنا؟

قال الاستاذ:

. قبل اوسلو والأمل الكاذب بوجود حل شهدنا ظاهرة المنظمات غير الحكومية وما يسمى بالمجتمع المدنى وما شابه. فى بلاد أخرى غير بلدنا يكون للمجتمع المدنى دور لا يستهان به فى التنمية والدفاع عن الحريات، أما ما حدث فى بيرزيت فهو خسارة، بل جريمة. معظم الاساتذة المبدعين المهنيين ذوى الكفاءة والروح المتوقدة والانفتاح على العالم ذهبوا عنا، التقطتهم المؤسسات الأهلية وسحبتهم. حرمتنا منهم وحرمتهم. فهم ايضا خسروا مثلنا. صاروا مديرين لهم وزنهم، لكن بلا طلبة ولا قاعدة، فأين التأثير؟ وآخرون سحبتهم وزارات الحكومة، فهذا وزير وذاك نائب ووكيل وزارة ومدير عام. من بقى إذن؟ انظرى حولك.

ونظرت حولى فى الكافتيريا، ولم أجد حلقة واحدة فيها استاذ. وكذلك لم أجد اعدادا كبيرة من الطالبات. فالغالبية من الذكور، والعديد منهم بلحى وشوارب، ونسبة قليلة من الطالبات، وأقل القليل من غير المحجبات. أما الظاهرة الغريبة فهى ذلك الرنين المتنوع والذى يصدر من كل مكان لأحدث انواع الموبايلات، وكذلك افتتان ابناء الجيل بنوع الموسيقى والأغنية التى يطلقها كل موبايل. ورأيت الكثيرين يستمعون لرنين البعض ويتبادلون النقاش حول المدة والنوعية وجمال الصوت لذاك الرنين وحجم الموبايل وماركته. هذا بالاضافة لأحاديث أخرى لم أسمعها لكنى سمعت عنها الكثير من أكثر من مصدر وأكثر من رأى، أن الأحاديث معظمها يدور حول قصات الشعر والموضة، والسيارات، والحب والجنس والانترنت والتلفزيون.



سألت مجموعة من الطلاب: وماذا عن الاحتلال والاستقلال؟ أين الطلبة والحركة الطلابية وقد كانوا بوز الحربة فى هذا الصراع لعدة أجيال؟

قال أحدهم:

. أنا أتظاهر وأنسجن من أجل من؟ من أجل السلطة وفشلها؟ أم من أجل حماس وتزمتها؟ أم من أجل المنظمات الأهلية وتخمتها؟ أنا مش قلقان.

قال هذا فهز الآخرون رؤوسهم بالموافقة والتأييد.

وقال آخر:

.أنا أموت من أجل قيام دولة كالجزائر؟ نحن مفعول بنا فلماذا نفعل ونتفاعل؟ لم يستشرنا أحد ،فتح وحماس والفصائل هى من تقود وليس الطلبة. الانتفاضة أحبطت الحركة الطلابية. الطالب يكتفى بما تقوم به الفصائل. نحن بلا قيادة طلابية. هل تعلمين إننا بدون مجلس طلبة منذ ٣ سنوات؟

ولخص أحد الأساتذة الوضع بقوله:

. قبل أسابيع تنادى بعض الطلبة للتظاهر ضد حاجز أقيم أمام باب الجامعة، فرفعوا الأعلام وعلقوا البوسترات وصاحوا طويلا فى السماعات ولم يستطيعوا تجميع أكثر من عشرين طالبًا على الأكثر. وحين جاء وقت الرشق بالحجارة وقف طالبان خلف إحدى الزوايا وأخذا يرشقان الدبابة من مسافة كيلومتر على الأقل ويختبئان .

أترك تفسير مؤشرات هذا المشهد

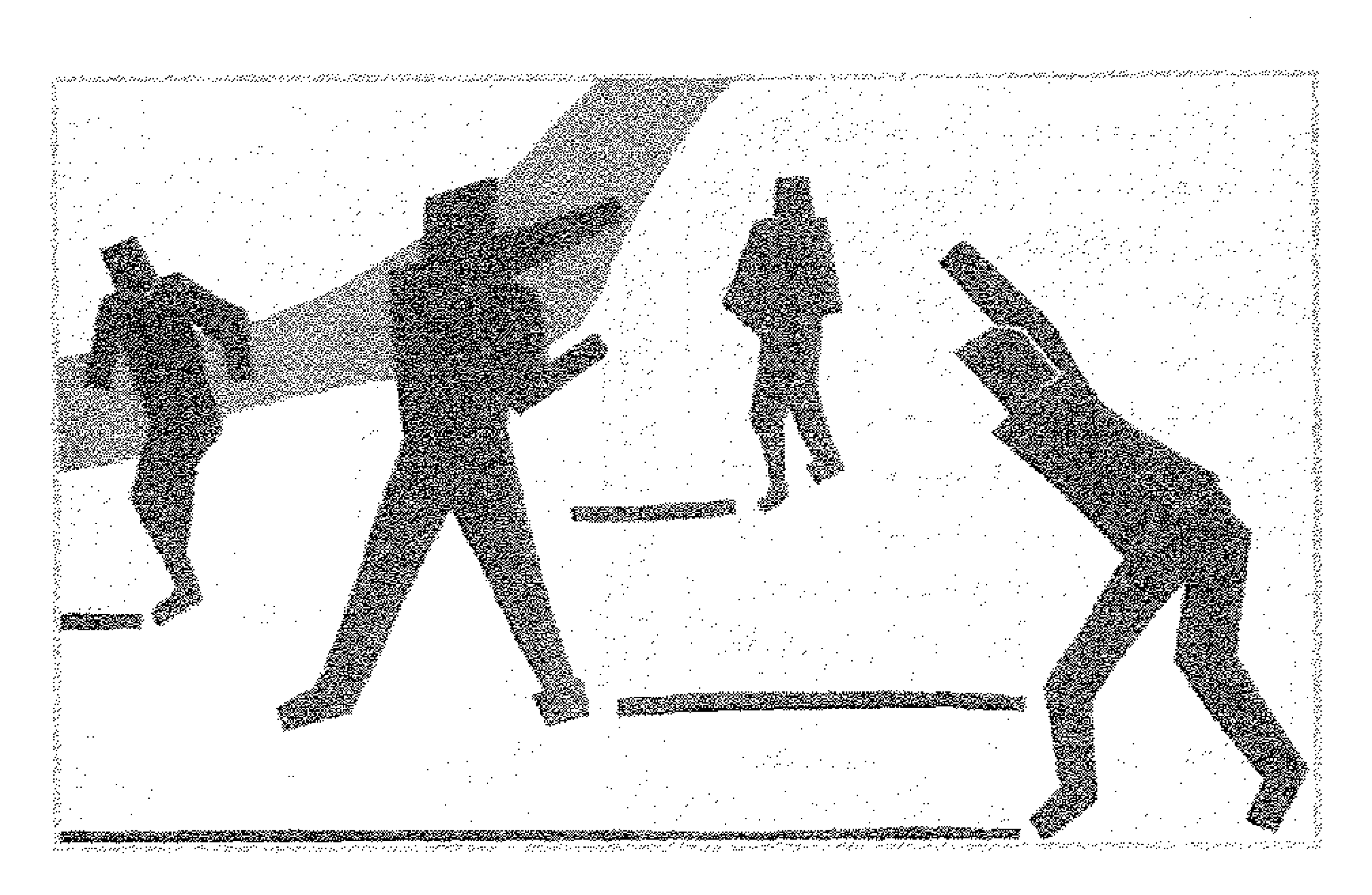
للقارئ، فله الحرية أن يفهم أو لا يفهم ما قد أفهمه. لكن السؤال البليغ الأهم هو ما يلي: ما دامت هذه هي هموم الشباب ووضع الطلبة، فما هو تفسير العمليات؟

قال أستاذ:

ـ هذا جيل نشأ وتربى في الاحتلال وبات مثله: عنف وفوضى وضياع الطريق. والعمليات هي ردة فعل للندرة. تخيلي طالباً حساساً يرى أباه جائعاً رازحاً تحت همّ اللقمة وتوفير الخبز، ويرى أستاذه يُضرب ويُركل أمام عينيه على الحاجز، ويرى قائده الرمز في معتقله، ويرى العرب تخلوا عنا، وهيئة الأمم تهملنا، والمجتمع الدولي ينكرنا، ويرى حركات التضامن العالمي والسلام الآن ذهبت عنا بعد أن طردتهم إسرائيل ومنعتهم، ويبقى الطالب وحده يرى ويذوق كل هذا الذل. تخيلي شاباً حساساً يرى كل هذا البطش وهذا السلاح والطيارات والدبابات ونسف البيوت وتدمير المدن ولا يستطيع القيام بشيء ذي مفعول لأنه تظاهر طويلاً ورمى الحجارة ولم ينجح في إيقاف القمع أو تخفيفه. بل زاد القمع، وزاد القهر، وزاد الإذلال. وإسرائيل. رغم كل جرائمها. تحقق انتصاراً تلو انتصار على كل صعيد، وتطور أسلحتها وقمعها مع كل يوم جديد. كانت تستخدم الرصاص المطاطي فصارت تستخدم القنابل. والقنابل الصوتية والغازات صارت قذائف وصواريخ. والطيارات صارت أباشي وإف. ١٦ استخدموا ضدنا نحن العُزّل وقوات السلطة الفقيرة أسلحة لم تُستخدم حتى في الحروب، وكذلك تكنولوجيا المعلومات. زاد البطش فلجأ الشباب للعمليات كتنفيس عن النقمة وضعف الحيلة والإمكانيات. التنظيمات ما زالت مفككة بدائية تعاني القصور والفوضى وضعف التخطيط. كما أنها مخترقة من قبل الشين بت والعملاء. كل هذا جعل القيام بعمليات مقاومة جماعية بشكل مدروس مهمة صعبة لعدم توفر السرية والمهنية. فبات الاستشهاد للشاب المهان، الشاب المضروب في أعماقه، أسهل تنفيذاً وبوقت أقل. هذا للبعض، للقلة، أما الغالبية. كما قلنا. اختباء وهروب وتراجع، مثل كل الفئات بما فيها النقابات، والحركة النسائية والتنظيمات. انحدر الجميع وتراجع، فماذا نتوقع من هؤلاء الشباب؟ هم جزء من كل، وهم أيضاً نتاج احتلال دام ٣٦ سنة. أهناك احتلال في العالم دام كل تلك السنين؟

وحتى لا يظن القراء ان هذا الوضع مقصور على طلبة جامعة بيرزيت وحدها أرى من المناسب استعارة ما قاله بعض أساتذة جامعة النجاح بهذا الخصوص. يقول الدكتور ناجح جرار استاذ علم الإجتماع في الجامعة:

ـ هذا التيه أو الضياع ناتج عن الضياع السياسي والاجتماعي والاقتصادي. هذا الإحساس لدى الجيل، والذي يمكن وصفه بالكارثة، ناتج عن شخصية مأزومة تتسم باللامبالاة وعدم الإحساس بالمسؤولية والهروب من كل شيء يعد وطناً.







ويقول الدكتور عبد الستار قاسم، أستاذ العلوم السياسية في الجامعة:

ـ نحن بصورة عامة نفتقر للشخصية العميقة والقوية والمقنعة. ما لدينا في الغالب هو شخصيات مهزومة، وهذا ناتج عن القمع والنظام الإداري وواقع الاحتلال. أسألوا الشباب عن آمالهم وطموحاتهم ودورهم الذي يفترض ان يقوموا به. ماذا يفعلون بوجه الدقة؟ لا شيء غير كلام بلا قيمة وأحاديث سهر وسماع الأغاني وساعات تهدر بلا أي ثمن. نحن للأسف لم نطور أي برنامج يستثمر طاقات الشباب، لم نصل بعد للوعي الذي يحتم علينا استغلال الطاقات.

أما الطالب نزار خلدون فيقول:

ـ نحن كشباب غير راضين عن الواقع الذي نعيش فيه. نحن في خوف دائم، فبالإضافة إلى الوضع السياسي، هناك الخوف الذي نشأ عن التربية التي تقيدنا. فنحن نخاف من مناقشة أساتذتنا، نخاف من مصارحة زملائنا وانتقادهم خوفاً من أن نصبح في عزلة اجتماعية. نحن لم نتعلم التفكير المنطقي الذي يقود إلى التعلم الحقيقي وحساب الأمور بدقة. بصراحة، أحاول أن أبحث عن نفسي وسط هذا الركام من الدمار، وهذا يبدأ بالسؤال الصعب: ماذا أريد؟

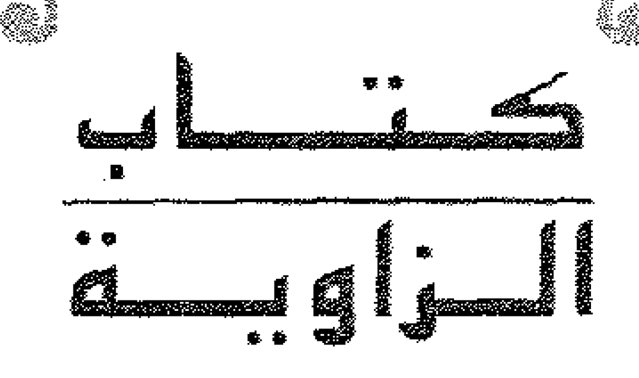
أكتفي بهذا القدر من تعليقات استقيتها من جامعة النجاح على أن أعود للكتابة عن الوضع هناك بالتفصيل.



والآن أُلخص في نقاط مجمل ما وصلت إليه حتى الآن والاستنتاج:

أولاً: ضياع الجيل سببه تخلي قيادتنا، وبالذات اليسار والمنفتحين، عن قيم حساسة تشكل العماد لمبادئنا وسلوك المجتمع والبيئة واهتمام الشباب. هجوم اليمين المتزمت وضع اليسار والمنفتحين في موقع الدفاع عن النفس بشكل سلبي. فبدل التشبث بمثلهم حاولوا المزايدة على طروحات اليمين وارتضوا بالنفاق حتى ينالوا رضا الشارع فصاروا كالزاغ بين الطيور: لا هم حمام ولا عصافير.

ثانياً: انفصام العلاقة بين الأستاذ والطالب، وسببها التراجع في قيم التحديث والتقدم والانبهار بالمنصب والاستعلاء على الأضعف. وهذا بالطبع ناتج عن انحدار القيم والتراجع وجنوح المجتمع بغالبيته نحو اليمين. أضف إلى ذلك ظروف الحياة القاسية على الأستاذ من حيث الإهانة اليومية على الحواجز وارتفاع الغلاء. فالرواتب قلت قيمتها وأحياناً تنقطع بسبب الهزات. وحين تعود قد يصل النصف، والنصف الآخر على دفعات، أي أن الراتب على أجزاء. وهذا يعني أن على الاستاذ أن يتدبر أمره ويعيش حياته بالتقسيط، ويوزع عطاءه بالتقسيط. وفي محاولته اليائسة لتعويض النقص يقوم بأعمال أخرى: يسوق تاكسي، يعلم دروساً خصوصية أو يعمل بحثاً





أحمد لطفى السيد

الحرية ومذاهب الحكم

مذهب الحرية، أو مذهب الحريين، يقضى فى أصله بأن لا يسمح للمجموع، فى البلاد الحرة أو للحكومة فى (بلاد مصر) أن تضحى حرية الأفراد ومنافعهم لحرية المجموع أو الحكومة فى التصرف فى الشئون العامة. هذا المذهب يقضى فى أصل وضعه بأن لا يكون للحكومة سلطان إلا على ما ولتها الضرورة إياه، وهو ثلاث ولايات. ولاية البوليس، وولاية القضاء، وولاية الدفاع عن الوطن. وفيما عدا ذلك من المرافق والمنافع، فالولاية فيه للأفراد والمجاميع الحرة.

الحكومة بأصل نظامها، مهما كان شكلها، ليس لوجودها علة، إلا الضرورة. فيجب أن يقف سلطانها داخل حدود الضرورة، ولا يتعداه إلى غيره من سلطة الأفراد فى دائرة أعمالهم. لأن كل حق تضيفه الحكومة إلى ذاتها، إنما تأخذه من حقوق الأفراد. وكل سلطة تسندها إليها، ضغط على حرية الأفراد.

ليس ما نقول من هذا القول، وما نقرر من هذا المذهب، نظريات مجردة، لا دليل عليها إلا بالفروض المنطقية. كلا. إن الحس قد أثبت بالأمثلة اليومية، أن الحكومة فى كل أمة، ما وليت عملاً خارجًا عن دائرة الولايات الثلاث التى ذكرناها، إلا أساءت فيه تصرفًا، وفشلت نتيجته. وعندنا فى مصر نصبت الحكومة نفسها مزارعًا كبيرًا، فوضعت يدها على الأرض وتصدت لاستغلالها، وجاءت لنا بالبذور وبالماشية وآلات الزراعة لنزرع على حسابها مرابعين، ففشلت فى مقصدها وساءت زراعتها، ولم تؤتها الأرض من أكلها شيئًا مذكورًا.

لإحدى المنظمات غير الحكومية، وهذا يعنى انه فى بحثه المستمر عن مصادر تعويض، لا وقت لديه لمجالسة الطلبة ومشاركتهم فى أى نشاط أو نقاش.

ثالثًا: جناح اليمين صار الغالب، والمحافظون صاروا الكثرة وصاروا الزعماء فى البيت والشارع والمدرسة وكذا الجامعات. وحل بجهاز التعليم فى المدارس، ما حل باليسار والمستقلين، إذ مالوا أيضا نحو اليمين. وعلينا ألا ننسى أن الجامعات ما هى إلا امتداد لثمار المدرسة. وبهذا تمدرست الجامعة، وصار التلقين والوعظ والحشو والاستطراد هو الغالب.

رابعًا: التمدرس لم يصب التلاميذ فقط، بل والأستاذ، فهو أيضًا نتاج البيئة، وهو بالتالى تمدرس وبات يلقن الأفكار ويبسطها ويلخصها فى نقاط. فبدلا من أن يطلب من الطلاب قراءة غرامشى او توينبى او غيره، صار يعطى الطلبة افكارا ملخصة فى نقاط مطبوعة فى صفحات، كما فى المدرسة، وبهذا يضيع زخم الموضوع ولا يبقى من الأفكار إلا المسطح والتسطيح.

خامسًا: ازدياد عدد الطلبة الاسلاميين غير المثقفين حتى بالثقافة الاسلامية. فهؤلاء من الضيق والانغلاق بحيث إنهم يجهلون ما جاء به الإسلام من اجتهاد وانفتاح وفلسفات. هم لا يعرفون أن الإسلام، والمجتمعات الإسلامية فى يوم ما، جاءت بحركات ثورية كالخوارج والقرامطة والمعتزلة، ولا ما جاء به الشيخ جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده فى بداية القرن الماضى من مقولات حداثية حول المرأة والمجتمع والانفتاح على ثقافات العالم. هم لا يعرفون أيا من هذا، بل يعتقدون أن الانغلاق على الذات وتحجيم المرأة والارتداد إلى الماضى هو سمة الدين. هم لا يعرفون، ومن يلقنونهم لا يعرفون أو ينكرون، ومن يعرفون ولا ينكرون لا يجرؤون على التعريف. فمن أين تجىء المعرفة إذن؟

سادسًا: العلاقات العاطفية التى كانت سائدة بين الطلبة الجامعيين فى السبعينيات والثمانينيات وكانت تشكل مفترقا عن العلاقات التقليدية والارتباطات الاسرية وباتت مدخلا للتفاهم قبل الزواج صارت ندرة. بل ان مدير شؤون الطلبة فى جامعة بيرزيت قال بالحرف انه لم يتلق من الحراس طوال السنتين الماضيتين اية شكوى بخصوص طالبين يمسكان بالايدى تحت شجرة أو خلف جدار. والسبب كما فسر وما فسروا يعود لعنصرين:

الأول: تفاقم النزعة المحافظة لدى الطلبة حتى ولو كانوا من غير الإسلاميين.

الثانى: تناقص أعداد المدنيات من القدس ونابلس وغزة والجليل وحتى الخليل، بسبب الحواجز، وتزايد اعداد القرويات من القرى القريبة والمحيط. فالقرويات فى العادة منغلقات ولا يجرؤن على البوح والمصارحة والاكتشاف، ويرتضين بالحب الصامت والمكبوت، من بعيد لبعيد، مثل الطلبة، وبهذا تزداد الكبوتات والعودة إلى الشائع والتقليد.

أما ما بقى من العلاقات، وهى ندرة، فما عادت تقوم على التوافق وانسجام الشخصيات والأفكار والقناعات، بل صارت مبنية على المصلحة، والمادية، ونوع الموبايل والسيارة، واسم العيلة أو موقعها فى الحكومة وما تملكه من مقتنيات.



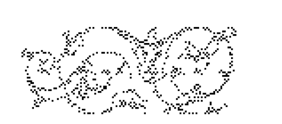
هذا ما شهدت، هذا ما سمعت، وما اجتهدت فى تفسيره. فإن لم أصب فلتجتهدوا، وإن أصبت فلنجد الحلول ونطبقها، فالخطر شديد والكارثة أكبر بكثير مما نتصور. فأن نهزم سياسيا وعسكريا هذا أمر مفهوم ومقدور عليه لأن لا ثبات فى الهزائم والانتصارات، والزمن كفيل بالتغيير إن تغيرت القوى ورفع الميزان. أما أن نهزم فى الداخل، فى أنفسنا، فى صورتنا ومن سيحمل قضيتنا وآمال الغد، فهذا خطر لا نقدر عليه. فهؤلاء هم القادة للمستقبل، هم الورثة لما خلفناه، وهم الامتداد لحاضرنا وامتداد الطريق. وإلا من يحمل حين نشيخ؟ من يقوى على التركة وهذا الركام؟

وهكذا انتهت الرحلة. رجعت من بيرزيت وأنا أجر الأقدام وأتذكر أيامًا خلت والطفولة وذكريات الصبا واحتدام الشباب. هل شاخت بيرزيت كما شخنا؟ أم أن المرحلة هى من شاخت وأشاختنا؟ وهل من عودة إلى ما كان؟

ركبت السرفيس، وبقيت صامتة كالآخرين حتى الحاجز، أول حاجز. ونزلت ومشيت بين الباعة والسيارات والعربات والحناطير وبسطات الفاكهة والخضار والطناجر. وسمعت الأصوات تتدافع، أصوات الباعة والزوامير والنداءات وبعض المسبات واللعنات. ثم الطريق المعفر المسدود بمكعبات الإسمنت وأكوام التراب والأوساخ والحجارة. ومشينا طويلا بسكوت تام. حين تبتعد الأصوات عن الحاجز والسيارات تسمع خطواتك من تحتك ولهاث الناس. وتظل تسير بصمت وجمود لأن الماضى بات بعيداً، والنشيد الجميل لعهد كان وما زال هنا ليس بعيداً، فى عمق الذاكرة والأحلام، ونظل نذكره مهما تغير، ومهما تباطأ وتعثر، نذكره ونتذكر أن الوطن هو فى الأجزاء، وأن الأجزاء هى النتاج لهذا الواقع ووقع الأحداث. لكن الجزء المتحرك يؤثر بالكل وبالأحداث. ■

قراءة موسيقية لأدونيس

يمكن زهرة من الكلام أن تخفى غابة من القتلى



■■ «لا يراد الخيال لنفسه، بل لبروزه إلى الوجود الحسى فى عينه كى يظهر حكمه فى الحس. والإخبار عن الخيال هو نقله أو العبور به إلى خيال آخر، حيث يتخيله السامع على قدر فهمه».

هذا ما كتبه الشاعر أدونيس فى كتابه «الصوفية والسوريالية» مستنداً على قراءاته لابن عربى فى فتوحاته المكية.

ولعل هذه المقدمة تصلح لقراءة أدونيس موسيقياً.

وأدونيس لديه براعة كبيرة فى تجسيد الخيال بالكلمات، فهو يخبر عنه، ويعبر به ومن خلاله إلى الآخر القارئ، وربما كانت هذه هى الأسباب التى دفعتنى للوقوف على شعر أدونيس فى محاولة لقراءته موسيقياً، وهى محاولة أيضاً لنقل الخيال المجسد بالكلام إلى خيال مجسد بالموسيقى.

فى تجربتى مع شعر أدونيس وجدت مفتتحاً لخيال يعبر عن نفسه بالفكر، فالشعر عنده أعطانى كموسيقى أداة جديدة تقف بين عالم من الشعر الخالص وعالم آخر مواز من الفكر الخالص أيضاً، ومن هنا كان علىّ أن أحاول عبر الموسيقى أن أنقل عالمين متقاربين ومتباعدين فى آن.

وبالرغم من أن عالم الفكر يبدو أحياناً كموج موسيقىّ عالماً جامداً فإن أدونيس الشاعر استطاع أن يمزج بين عالم الجمود وعالم الحركة والحياة الداخلية ليسكب شعراً خالصاً يستطيع من خلاله أن يطرق الرأس فى نفس الوقت الذى يطرق فيه الروح والقلب.

ما حرضنى فى شعر أدونيس على التأليف الموسيقى هو إحساسى من خلال قراءته بالتتابع الزمنى، فقراءتى له تجعلنى أشعر بأزمان متناقضة تتصارع فيما بينها، فالثوب المعاصر للقصيدة يضم أزماناً مختلفة، قد تبدأ من ماض سحيق وتنتقل إلى ذاكرة الطفل لنراها فى ذاكرة الشاعر الآن ولحظته المعاصرة.

حركة الأزمان هذه أعطتنى حرية التحرك بين مقامات موسيقية مختلفة، ومن هنا كنت أدندن عند قراءتى للقصيدة متنقلاً من مقام لآخر ملاحقاً نبض القصيدة وهى تعبر من الحاضر إلى الذاكرة، ومن الذاكرة إلى المستقبل، وبالعكس.

فى مفتتحه لكتابه «الكتاب.. أمس المكان الآن» الصادر عن دار الساقى عام ١٩٩٥ كتب أدونيس:

«فى ذاكرة تلد الكلمات وتولد فيها
تلد الأشياء وتولد فيها
لا تعرف حداً
بين الماضى والحاضر،
ولد الشاعر»

هكذا تبدو لى أيضاً ولادة أدونيس الشاعر، وهكذا أيضاً قراءة شعره، فبين أمس والآن يقف المكان كذاكرة تحول الخيال إلى كائن موجود، ولكنه هنا كائن متحرك كونه يستطيع التنقل بين أزمنة مختلفة، وهو لهذا لا يكتفى بكونه جماداً بل يؤنسن بفعل الحركة فهو «أمس المكان الآن» أى أنه يقف كشاهد بين الأمس والآن.

قراءة موسيقية وإحلال

«أتخيل أنى أكتسى ظله،
النخيل كلام
وأنا طفله.
والنحول الذى بيننا
ليس وصفاً ولا صورة:
شغفُ شاعر
يتقاسم أعضاءنا»

هنا يتمثل أدونيس الشاعر المتنبى، يقيم عملية إحلال لذاكرة شاعر من الماضى وذاكرة شاعر من الحاضر، وفى الوقت نفسه أستعير أنا هذه الأبيات كقارئ وكموسيقى لأقوم بعملية إحلال للشاعر أدونيس وذاكرته فى ذاكرتى كى أستطيع مقاربة كلامه بموسيقاى.

ليس من وصف، ولا من صورة وحدها تستطيع أن تقوم بهذا العمل، أيضاً ليست قصيدة واحدة هى التى ألحنها وأضعها جانباً لأنساها أو لأتذكرها وأعيد عزفها مراراً، إنما هى حالة متكاملة من قراءة لشاعر فى شعره وفى شخصه، فى محاولة أيضاً للذهاب فى فكره: وربما استجلاء طقوسه التى يكتب بها، كل هذا لأستطيع أن أعبر من الكلمة إلى الموسيقى ومن الموسيقى إلى الكلمة.

فى شعر أدونيس أجد كموسيقى أرضاً خصبة لتعدد الميلوديات، (اعتمد هنا إلى حد كبير على قراءاتى لمجموعة الكتاب) ففى شعره يسير اللحن عبر أكثر من خط شعرى وهذا ما نسميه موسيقياً (كونتربوينت) أى مسيرة متوازية لأكثر من لحن مع بعضه البعض، وربما كانت هذه خاصية لافتة فى إبداع هذا الشاعر.

كما أن الجملة الشعرية لديه تتوالد عبر خطوط كثيرة متشابكة أو غير متشابكة، فالجملة الكبيرة قد تتوالد مراراً إلى جمل صغيرة ناسجة عائلة متكاملة ومتوحدة من شعر يؤلف القصيدة، وهذا أيضاً ما نسميه موسيقياً بالميجور الكبير الذى يخرج منه سلم صغير، وتتوالد السلالم وتتوالى مانحة الموسيقى القدرة على التجاوب مع المقامات المختلفة بين الكلمات والألحان.

قد لا أعرف إن كان هذا عملاً مقصوداً فى شعر أدونيس أو أنه يبنيه بحسه الشعرى من غير قصد، ولكننى أعرف أن هذا الانتقال بين درجات الميجور وبين الميلوديات المختلفة يمنحنى القدرة على الاستسلام الكامل للكلام الذى أجد أنه يجر لحنه، أو يجده فى ذاكرتى، فما أن أمسك بعودى محاولاً أن أقارب أدونيس شعرياً حتى أجد نفسى وقد أقمت علاقة مباشرة بين الكلمة والموسيقى، فلا يقف شعره كثيراً فى ميزان الموسيقى، بل إن الموسيقى نفسها تستسيغ الكلام، حتى وإن كان مفردة مجردة فأدونيس لديه قدرة على منح المفردة حياة مستقلة وكاملة ومعبرة.

يقول جوليوس بورتنوى فى كتابه «الفيلسوف وفن الموسيقى»: «لما كان الكثير من المؤلفات الموسيقية الجديدة يتجاوز نطاق قدرتنا على الإدراك والفهم، فلا بد لنا من بذل الجهد والتذرع بالصبر والانتظار ردحاً من الزمان حتى نستطيع الوصول إلى حكم صحيح على قيمة المشاعر والأحوال فى القطعة الموسيقية، كما تجسدت فى أفكار إيقاعية ولحنية مجددة. ومن جهة أخرى فهناك نوع آخر من الموسيقى يجذبنا كثيراً أول ما نسمعه، لكنه سرعان ما يفقد قيمته لأنه لا يعود يمدنا بالحافز على تكون تجربة جمالية».

ولو طبقنا النظرة نفسها على قراءة الشعر، فإننا نجد أن شعر أدونيس ينتمى إلى الحالة الأولى بامتياز، فهو شعر يحتاج أمداً طويلاً وصبراً حتى يكتشف اكتشافاً صحيحاً كاملاً، وذلك لأن أدونيس فى شعره يقف على تجارب جمالية فيها الكثير من التجديد، وأيضاً حتى عندما يتحرك ضمن بحور شعرية معينة فإنه ينوع داخل هذه البحور ونشعر بذلك من خلال الحركة الإيقاعية التى نتلقاها بإحساسنا. وأنا هنا لا أتحدث عن كسر الوزن أو عدمه، إنما أتحدث تحديداً عن الحالة الشعورية التى يقدمها لنا هذا الشعر عبر إحساسات إيقاعية متناغمة ومتناقضة ليست بالضرورة هى الإيحاءات نفسها التى يقدمها البحر الشعرى.

«انتبه! يمكن زهرة من الكلام أن تخفى غابة من القتلى» هكذا يقول أدونيس، وهذا ما يقوله شعراً، وهذا أيضاً ما يلزمنا أن نبحث عنه فى شعر أدونيس.

تجربة شخصية

من خلال جلسات كثيرة فى أوقات متقاربة ومتباعدة وفى أمكنة أيضاً متقاربة ومتباعدة جمعتنى والشاعر أدونيس لاحظت أنه حينما يكون الحديث عن الموسيقى فإن الشاعر يميل إلى أنواع من الإيقاعات وضروب من المقامات أشبهها أنا بالشعر الذى أنتجه الشعراء فى عصور الجاهلية، غير أنه فى نفس الوقت وبنفس الميل كان يحب الجديد فى الموسيقى والتجديد بها، كما هو الحال فى شعره، إذ أنه يستقى من موروث تراثى حقيقى وكبير وهو الذى ألف «ديوان الشعر العربى» فى مجلداته الثلاثة، كما أنه يعمد دائماً إلى التجديد ويلاحق كل جديد.

ولأن كما يقول جوليوس بورتنوى أيضاً «كان المؤلف الموسيقى يصبو دائماً إلى أن ينقل بموسيقاه إلى الأذهان الأخرى إحساساً بالأصوات النغمية والانطباعات الموجودة فى العالم المحيط به. وما أشبهه بشخصية جان كريستوف عند رومان رولان تلك الشخصية التى ترجمت كل تجربة إلى لغة الموسيقى. فمؤلف الموسيقى لا يخلقها لكى يخاطب بها العقل أساساً، ولا يكتبها لكى يهيب بالحاسة الخلقية، ولا يؤلف موسيقاه لكى يرشد ويعظ، وإنما يخلق موسيقاه لكى يوقظ الانفعالات». فإننى لهذه الأسباب كلها حاولت أن أنقل عبر الموسيقى إحساساً موازياً لما يقدمه شعر أدونيس. وفى نفس الوقت، حاولت أن أتتبع إيقاع الكلمة كمفردة مستقلة فى عمله، مبتعداً عن التلحين كمجرد موسيقى مرافقة للكلام.■

نصير شمه

أرض الجولف الحديثة - دريم لاند

أوروبـــا الخضـــراء

خـــالـد عـصـفـور

فى منتصف التسعينيات من القرن الماضى، اكتشف مستثمرون مصريون أن أحسن طريقة للإعلان عن مجمعات سكنية جديدة هى إظهار مساحات خضراء تغطى الموقع بأكمله. وبدأ أصحاب هذه المشروعات فى تحويل الصحراء إلى بساط أخضر من الحشيش اعتماداً على الجاذبية الهائلة للبساط الأخضر فى إقناع الناس بشراء بيوت لم يتم بناؤها بعد!

وكان أول مشروع اعتمد على استراتيجية «البساط الأخضر» فى استقطاب الناس للشراء هو «دريم لاند» الذى بدأ بحملة تسويقية ذكية تعتمد على بانوراما ملاعب الجولف وحفنة قليلة من النخيل مزروعة على مسطحات كبيرة من الحشيش. وكانت النتيجة مذهلة فقد تهافت الناس على حجز وحدات سكنية كما لو أنها مواد تموينية نادرة ظهرت فجأة فى جمعية استهلاكية. ومنذ ذلك الوقت توالت المشروعات المبنية على ملاعب الجولف فى الظهور وكبر حجمها حتى وصلت مساحة مسطحات الحشائش منها إلى ٨٠٠ هكتار (٨ ملايين متر مربع).

إن ما دفع المستثمرين إلى تغطية هذه المسطحات الهائلة بالحشائش وليس بأى نوع آخر من النباتات الخضراء هو سهولة وسرعة تغطية الأرض الصحراوية بالحشائش. فبساط الحشيش الأخضر يعلو ويهبط مع تضاريس الأرض يتخلله بعض النخيل والبحيرات هنا وهناك. وكلما تأمل الإنسان هذا المنظر تساءل فى تعجب: هل هبط جزء من الريف الأوروبى على الصحراء الغربية فى مصر، بل إن بعض المستثمرين يفتخرون لدى تسويق مشروعاتهم بأنها «الريف الأوروبى» فعلاً.



ومع تزايد الاهتمام بهذا البساط الأخضر تزايد استهلاك المياه بطريقة لم يسبق لها مثيل. ويكفى أن نعلم أن متراً مربعاً من الحشيش يحتاج إلى ١٢ لتراً من المياه يومياً، كما أن هكتاراً واحداً يستهلك ١٠٠ متر مكعب من المياه فى اليوم الواحد. ولو أن لدينا ٨٠٠ هكتار (٢٠٠٠ فدان) من الحشيش فى ملعب جولف لاحتجنا إلى ٨٠ ألف متر مكعب من المياه يومياً أى ٢٤ مليون متر مكعب مستخرجة من الآبار الجوفية فى السنة.

ومن واقع هذه الأرقام يتبين مدى الاستنزاف للموارد الطبيعية. وعلى الفور يثور التساؤل..إلى متى تظل تلك الموارد قادرة على العطاء لإحياء هذه المساحات الشاسعة من الجولف؟ ١٠ أم ١٥ عاماً؟ وماذا سيحدث بعد ذلك؟ أليس هذا استثماراً فى صميم عملية التصحر وماذا يعنى وجود ثلاثة ملاعب جولف فى منطقة واحدة ويبعد كل ملعب عن الآخر بضعة كيلو مترات فقط.

لقد أصبح مفهوم تنسيق الساحات الخارجية Landscupe فى مصر يؤدى إلى التصحر أكثر منه إلى استمرار الخضرة.

إن «التصحر» معناه أن تعود الأرض بعد زراعتها إلى سيرتها الأولى وهى الصحراء. وبخلاف الشريط الضيق الزراعى المتركز حول مجرى نهر النيل نرى أن طبيعة الأرض فى مصر صحراوية. ويعمل المستثمرون بطرق شتى بتحويلها إلى أرض خضراء. لكن هذه الطرق أو الوسائل تستنزف الموارد الطبيعية للبيئة المحيطة بأسلوب يفوق الإمكانيات المنطقية لهذه البيئة. الأمر الذى سيحول هذه الأرض الخضراء إلى صحراء جرداء مرة أخرى.

وفى مقابل مفهوم التصحر هناك مفهوم آخر وهو الاستدامة. وهو يعنى أن من الضرورى أن تحافظ على الطرق المتبعة لزراعة الأرض على قدرة البيئة المحيطة على إدارة مواردها فى توازن طبيعى بين الجزء المفقود فى عملية تحويل الصحراء إلى خضار والجزء المخزون المتنامى مع الزمن.

مسألة التصحر أو الاستدامة تعتمد إذن على أسلوب التعامل مع مواردها الطبيعية فى البيئة المحيطة.

إن هناك أمثلة كثيرة تؤكد الاستنتاج السابق، ففى شرم الشيخ مثلاً يباع المتر الواحد المكعب من مياه النيل بـ ١٢ جنيهاً. ويستهلك الفندق الحديث البناء (٥ نجوم) فى المدينة ١٢٠٠ متر مكعب من المياه لرى ١٣ هكتاراً من الحدائق يومياً. وتصل التكلفة السنوية لرى هذه المساحة إلى ٥ ملايين جنيه، بصرف النظر عن درجة استعمال غرف الفندق.

منظر من جنوب ألمانيا

فى مصر الصحراء!!!

إن هذا الأسلوب المتبع فى إقامة مشروعات البناء التى تعتمد على مسطحات الحشيش وبشكل خاص ملاعب الجولف متوسطة الحجم يسهم فى إهدار الموارد المائية، ثم إنه يفترض أن العائلة المصرية تحب لعبة الجولف ومستعدة لدفع مبالغ كبيرة لكى تطل مساكنها على هذه الملاعب الخضراء والحقيقة غير ذلك بطبيعة الحال.

إن مشكلة الخضرة غير المستدامة ليست مقصورة على أراضى الجولف. فهى موجودة فى الكثير من الساحات العامة داخل عمران المدن. حيث يفضل القائمون على الحفاظ على الحدائق العامة غلقها فى وجه المواطن المصرى لأن تنسيق المواقع المعتمد على مساحات الحشيش الكبيرة مكلف وكثير الصيانة إذا ما فُتحَت أبواب هذه الحدائق لعامة الشعب. إنها غير مستخدمة وفى نفس الوقت غير مستدامة لأنها تهدر الكثير من الموارد المائية الطبيعية وليس لها أى أثر بيئى يُذكر.

إن المشكلة فى الحقيقة هى التركيبة الذهنية لهؤلاء المتخصصين والمستثمرين والتى تتطلب التغيير، بحيث يمكن أن يتم التوافق على تصميم مبهر لتنسيق المواقع مع استهلاك معقول لموارد المياه، وفى نفس الوقت إضافة جودة معيشية للمواطن المصرى والارتقاء ببيئته المحيطة؟

ولو رجعنا إلى الوراء ١٠٠ عام لوجدنا أن إبهار النفس فى عمليات تنسيق المواقع كانت لها حلول أكثر منطقية. فتصميم الساحات كان يعنى شجراً فى المقام الأول. فالشجرة مركز صحى بما تقدمه من راحة للعين والنفس من خلال تدرج لونها الأخضر والحركة الهادئة لأغصانها. والشجرة هيئة اقتصادية تدير عملية نموها ومعدل استهلاكها للمياه بناء على إمكانات التربة والجو المحيط. بعكس الحشيش الذى هو كالطفل المدلل يصرخ فى وجه أمه إذا لم يجد كفايته من الطعام. فيموت الحشيش فى أقل من ٢٤ ساعة إذا لم تُلبَّ احتياجاته من المياه فى فصل الصيف.

والتاريخ يُظهر لنا أن تصميم الساحات يستوجب الكثير من الشجر مما يساعد على اجتذاب الناس. والساحة داخل عمران المدن تمثل ذاكرة المجتمع الذى يذهب أفراده كل يوم للتقابل والتنزه والتسالى. وتصميم الساحة كما رواها لنا التاريخ بسيط يعتمد على أرضيات من الحجر أو الأسمنت لتتحمل كثرة المرور عليها، ويتوسط الساحة نافورة لتتطاير قطرات مائها وترطب حرارة الصيف، وقد توجد مساحة محددة من الحشيش والزهور لإضفاء البهجة فى المكان. ولا ننسى طبعاً صفوفاً من الشجر المتلاصق يحف الميدان أو ينتشر بداخله.



هذا التصميم شائع فى مجتمعات البحر الأبيض المتوسط. فهو تصميم بسيط ومنطقى جداً ويستهلك مياهاً قليلة. فشجرة الظل تستهلك من ٥٠ إلى ٨٠ لتراً فى اليوم. ولو أن هناك ساحة عامة (٥٠×٣٠متراً) مغطاة بالحشيش فهى تستهلك حوالى ١٥ متراً مكعباً فى اليوم. ولو غطينا هذه الساحة بالشجر على مسافات منظمة (٥×٥أمتار) سنجد أن معدل استهلاك الشجر للمياه أقل من ٦٠٪ إذا ما قورن بالحشيش. هذه الوصفة البسيطة للساحات العامة يعرفها القليل من مهندسى تنسيق المواقع فى مصر اليوم.

وحديقة الأزهر التى صممها ماهر إستينو مثال حى على ذلك. فالمحور الرئيسى للحديقة يحتوى على مجرى مائى يحفه من كل جانب صف من النخيل، وخلف النخيل نجد نسيجاً كثيفاً من الشجر مطَعَّم بساحات مكشوفة. يستظل الناس فى تلك الساحات بالشجر الكثيف مستمتعين بمنظر النخيل المتراص ومستأنسين بالأنشطة الواقعة على طول المحور الرئيسى.

فى موقع آخر للمحور يوجد صفان من الشجر على كل جانب. خلف هذه الأشجار ساحات مكشوفة بها نافورات وغطاء الأرضيات. ويحف هذه الساحات نسيج كثيف من الشجر أيضاً، والناس فى هذه الحديقة لهم الحرية فى التجمع فى ظل الشجر فى فصل الصيف أو الجلوس فى الساحات المكشوفة فى فصل الشتاء.

والحديقة تبلغ ٣٠ هكتاراً قام المهندس بزراعة ثلثى مساحتها المنحدرة التضاريس بغطاء الأرضيات والشجيرات اللذين يستهلكان من ٤٠٪ إلى ٥٠٪ من الماء المستهلك مقارنة بالحشيش. والثلث الأخير من الحديقة على أرض مستوية وقام بتغطيتها بـ٣٠٠٠ شجرة و٥٠٠ نخلة. لهذا الثلث من الحديقة قُدِّر استهلاك المياه بـ٣٠٠ متر

مكعب من المياه فى اليوم. ولو كان هذا الجزء مزروعاً بالحشيش كما هو شائع فى سائر حدائق مصر العامة لارتفع معدل الاستهلاك إلى ألف متر مكعب فى اليوم.

المشروع بهذه الطريقة ليس فقط منطقياً فى استعمالاته بالنسبة لطبقات المجتمع المختلفة فى هذه المنطقة الأثرية بل يعطينا درساً مثالياً فى مفهوم الاستدامة.



وبالرغم من هذا العمل الجيد إلا أن هذا الدرس لا يحتذى به. فهناك اعتقاد راسخ بين مهندسى تنسيق المواقع والمستثمرين فى مصر أن تنسيق موقع منتجع سياحى راقٍ لابد أن يكون أكثر فخامة وإبهاراً من الساحات العامة. وبالتالى لابد أن يستهلك مياهاً أكثر. وفى إطار هذا التفكير نتساءل: ماذا لو تم استنفاد الموارد المائية أليس من المتوقع أن تنضب الخضرة فى كلا المكانين؟! إن سياسة استهلاك المياه لابد أن تظل ثابتة فى جميع الأحوال للمنتجعات الخاصة والساحات العامة على حد سواء. وبالتالى يجب أن نستعمل بكثرة الشجر والشجيرات وغطاء الأرضيات وتكسيات الحجر وكسر الزلط. فهذه هى أدوات تنسيق المواقع المناسبة لبيئتنا. ولكن يمكن التفرقة بين مكان عام وخاص عن طريق استخدام مواد وخضرة أكثر رقة وندرة وثمناً فى المشاريع الخاصة، فبدلاً من تكسية الزلط والحجر يمكن إبدالها بالرخام والبازلت، وبدلاً من استخدام نباتات سميكة الأوراق تتحمل خشونة الاستعمال فى الأماكن العامة مثل Cariso Grandi Fiora يمكن استبدالها بأخرى رقيقة ذات زهور جذابة مثل الودليا والبوجنفيليا.

بين الفنادق الحديثة هناك أيضاً أمثلة جيدة فى مراعاتها للمعطيات المائية البيئية من شرم الشيخ جمع مصممو «هيات ريجنسى» بين المنظر المبهر والتصميم المستدام. المنتجع يحتوى على ٢٠ هكتاراً من تنسيق المواقع، ويستهلك أقل من ١٠٠٠متر مكعب من الماء فى اليوم. الساحات الخارجية مصممة على منحدرات بها ويفصل كل مستوى منها عن الآخر حفنة من الشجيرات والحجر حول نباتات صحراوية وبحيرات وشلالات. والمياه مصدرها البحر ويتم نزع ملوحتها ومعالجتها بداخل المنتجع ثم استعمالها فى الرى. إن تكلفة صيانة الخضرة وريها بهذه الطريقة قليلة وفى نفس الوقت يتم المحافظة على الموارد المائية العذبة.

هناك أفكار أخرى تدور حول تنسيق المواقع بصورة جميلة مع التوفير فى المياه. إذ يمكن استعمال الشجر المثمر مكان شجر الزينة. فشجر الموالح مثلاً يعطى رائحة زكية فى فصل الربيع. أما شجر المانجو فهو أحسن اختيار للمنتجعات الصيفية. فالمانجو أكثر الفواكه شهرة فى مصر. تخيلوا معى منتجعاً يعلن «احجز حجرة عندنا وستأكل مانجو من حدائقنا كما تريد» من الناحية التسويقية ربما كان هذا أكثر تأثيراً عند الأوروبيين عن الحديث عن ملاعب جولف أو «ريف أوروبى» أما عن معدلات استهلاك المياه فهى لاتزال أقل من الحشيش. هكتار يحتوى على ٢٥٠ شجرة مانجو. يستهلك ٣٥ متراً مكعباً من الماء بدلاً من ١٠٠ متر مكعب يستهلكها الحشيش.

ولو قرر المنتجع بيع المحصول بسعر الجملة سيربح ١٥٠ ألف جنيه للهكتار الواحد فقط وهو ما يعادل تأجير ٣٠٠ غرفة فى يوم واحد فى موسم الذروة. هذه الفكرة ليست ببعيدة. فحديقة الأزهر وحرم الجامعة الأمريكية الجديد يتشاركان فى تنفيذ هذه الفكرة التى من الضرورى تعميمها لما لها من فوائد بيئية وتسويقية واجتماعية هائلة.

يتبين من هذا التحليل أن عملية الاستدامة من الممكن تحقيقها بسهولة فى تنسيق الميادين العامة والحدائق والساحات الخارجية لدى المشاريع. فالإكثار من الشجر يضع مصمم هذه الأماكن على الطريق الصحيح. ولكن لكى نضع هذا التحليل فى إطار تنفيذى سهل تطبيقه. فلا يجب تحت أى ظرف أن يتعدى معدل استهلاك المياه فى رى المسطحات الخضراء أكثر من ٥ لترات لكل متر مربع أى حوالى نصف استهلاك الحشيش. ولكى نصل إلى هذا المعدل يجب نشر كتيبات عن معدل استهلاك النبات.

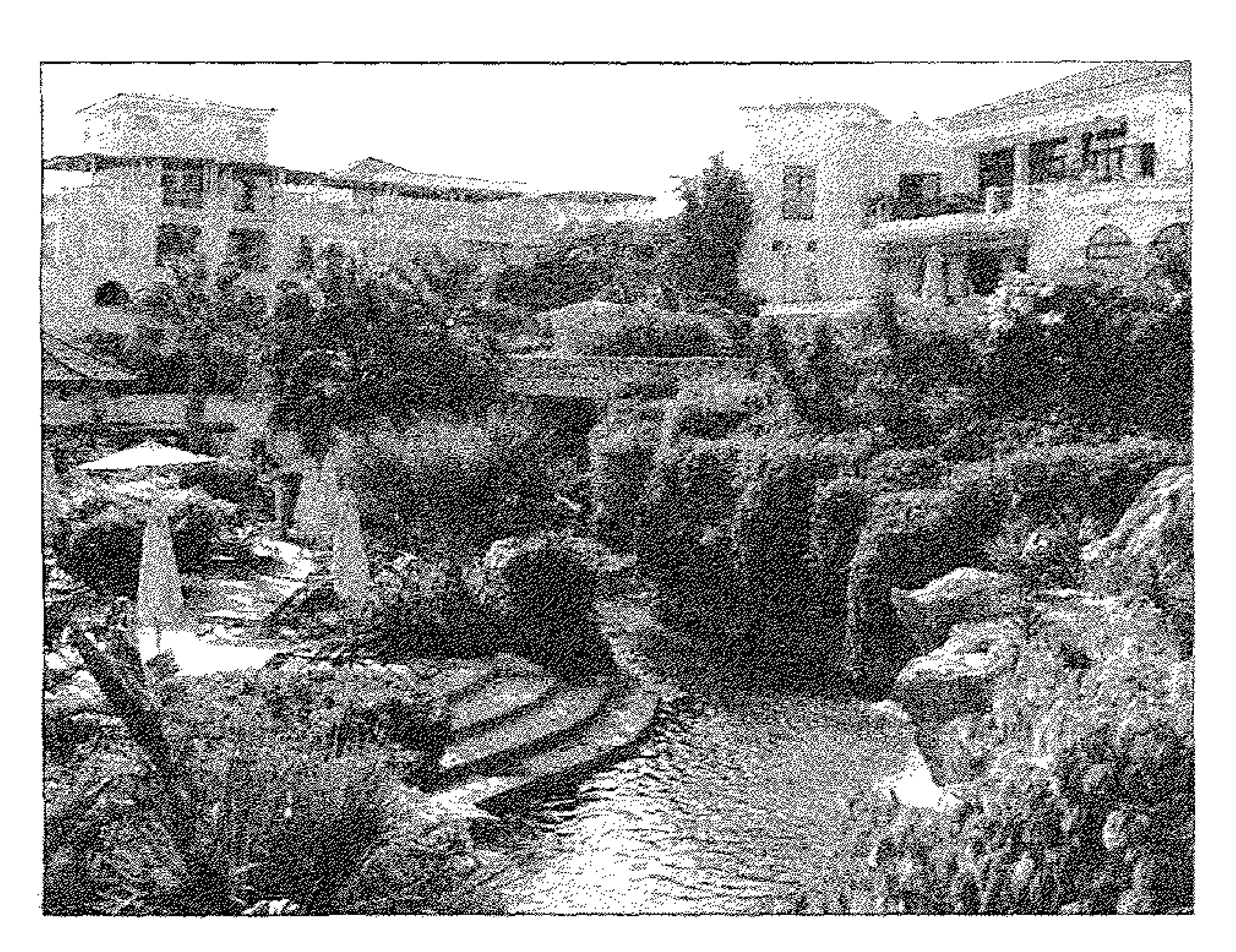


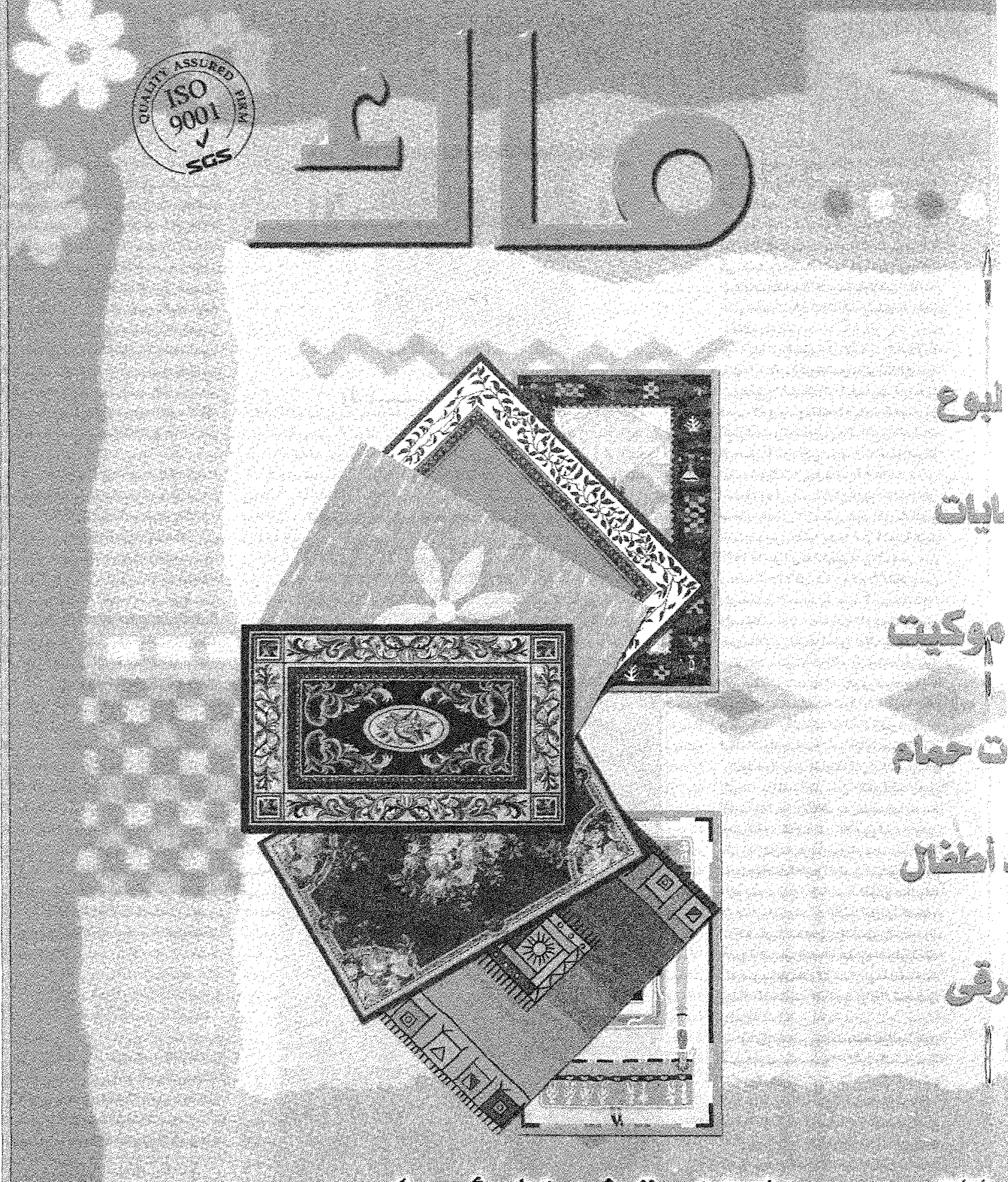
ويقوم المصمم لهذه الساحات بعمل توليفة من النباتات بما فيها الحشيش لزراعتها فى تلك الأماكن. ويحسب المساحة الكلية ومعدل استهلاكها لو تمت تغطيتها بالحشيش كلياً. ثم يأخذ نصف هذا المعدل ليكون هو الرقم الفعلى لهذه المساحة. وبعد ذلك يبدأ فى توزيع النباتات فى المساحة مع حساب معدل استهلاك كل نوع بالكمية التى اختارها بحيث يكون المجموع لا يتعدى الرقم الفعلى. ويصاحب هذه الحسابات هيئة لها صفة الرقابة على المسطحات الخضراء واستهلاكها للمياه. كما هو موجود فى بعض الدول الغربية. بحيث إذا ارتفع استهلاك مشروع للمياه تقوم هذه السلطة الرقابية بالإنذار ثم تحرير المخالفة وقطع المياه عن حدائق هذا المشروع إذا تمادى فى المخالفة. والرقابة لا تكون فقط على المشاريع الخاصة ولكن على الساحات العامة والحدائق والمتنزهات الموجودة داخل المدينة المعتنى بها من طرف السلطات المحلية فلابد أن تكون هى القدوة.

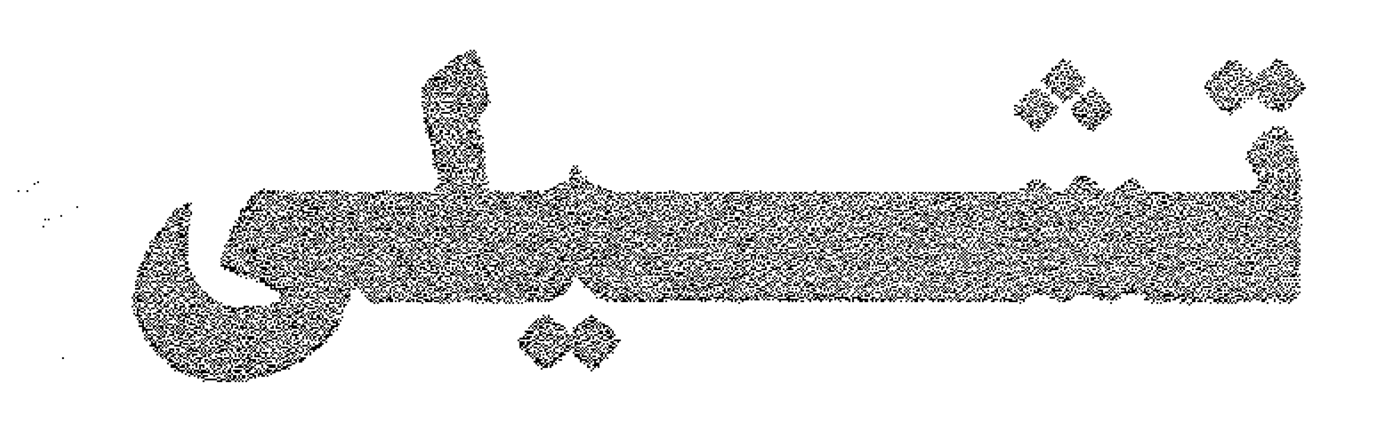
وقبل أن توجد مثل هذه السلطات الرقابية لابد من توعية قومية فى هذا الشأن. إذ أن كثيراً من المهندسين المعماريين المشتغلين فى تنسيق الحدائق والساحات الخارجية يجهلون معدلات استهلاك النبات للمياه. فيصممون على مدن دون إدراك لعواقب هذا التصميم وعلى سبيل المثال فإن ٨٥ هكتاراً من الحشيش تستهلك مياهاً تكفى احتياج أكثر من نصف مليون مواطن، فما بالك بالـ ٨٠٠ هكتار!

أليس من الحكمة أن نعيد ترشيد كل هذه الكمية الضائعة للمياه فى زراعة المحاصيل التى تنقصنا مثلاً أو نستعملها فى زيادة الرقعة الزراعية للبلاد. إذا استطعنا ارجاع كل هذه الساحات الخارجية إلى مفهوم الاستدامة بدلاً من التصحر فإننا نكون قد نجحنا أيضاً فى التقليل من التلوث البيئى وتلطيف طقس الصيف الحار والإكثار من المتنزهات العامة المفتوحة أمام عامة الشعب. ونكون أيضاً قد تخلصنا من عقدة الخواجة. وبدلاً من أن نعلن عن منتجعاتنا على أنها ريف أوروبى نعلن عنها على أنها ريف مصرى أصيل. ■

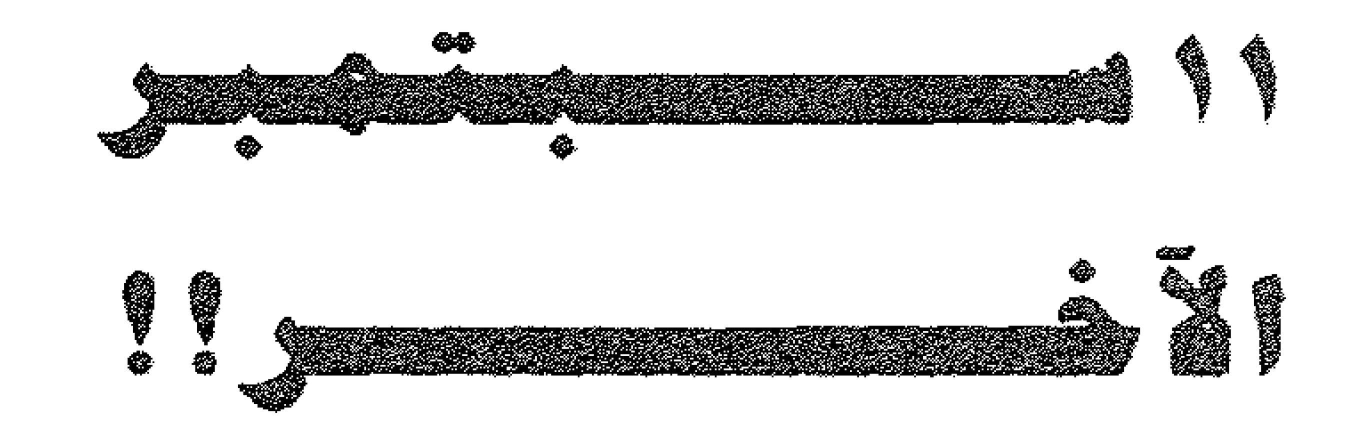





ISO 9001
QUALITY ASSURED FIRM
SGS
لبوع
ايات
موكيت
ت حمام
أطفال
رقى
التصدير المنتشرة فى كل أرجاء مصر



تشيلى



١١ سبتمبر الآخر!!



وليد عبدالناصر



قليل من البشر خارج حدود تشيلى يتذكرون - بل ويعرفون تحديداً وبالتفصيل - ما حدث فى تشيلى فى ١١ سبتمبر ١٩٧٣ وما تلاه



■■ فى شهر سبتمبر الماضى، وتحديداً فى يوم ١١ منه، مرت ثلاثون عاماً على انقلاب الجنرال «أوجستو بينوشيه» العسكرى فى تشيلى، والذى أطاح بحكم الرئيس «سلفادور الليندى» المنتخب ديمقراطياً، وذلك فى واحد من أكثر الانقلابات دموية فى تاريخ أمريكا اللاتينية المبتلية أصلاً بهذه الانقلابات، وهو انقلاب أدى إلى مقتل الرئيس المنتخب ومعاونيه الذين كانوا يدافعون عن مقر الرئاسة الشهير بقصر «لامونيدا». وفى ٢٦ نوفمبر ٢٠٠٣ التقى المئات من ضحايا نظام «بينوشيه» لتذكر الانقلاب بعد أكثر من ثلاثين عاماً على وقوعه.

وفى هذه المناسبة، صدر كتاب هام فى نيويورك بالولايات المتحدة عن دار نشر OCEAN PRESS بعنوان «تشيلى: ١١ سبتمبر الآخر» وحرر الكتاب كل من «بيلار أجويليرا» و«ريكاردو فريديس» وهما تشيليان مقيمان بالولايات المتحدة، وساهم فى الكتاب أيضاً «أريل دورفمان» وهو تشيلى آخر مقيم بالولايات المتحدة، و«جوان جارا»، وهى بريطانية وأرملة الفنان التشيلى الراحل «فكتور جارا»، بالإضافة إلى إسهامات مترجمة عن الأسبانية لـ «بياتريس الليندى» إحدى كريمتى الليندى، وترجمة لنص آخر كلمة وجهها «الليندى» للشعب التشيلى خلال مقاومة الانقلاب فى ١١سبتمبر ١٩٧٣، وترجمة لكلمة رثاء لـ «الليندى» ألقاها الرئيس الكوبى «فيدل كاسترو» بعد الانقلاب بأيام. بالإضافة إلى ترجمة أشعار للشاعر التشيلى «بابلو نيرودا» الذى حاز جائزة نوبل فى الأداب وتوفى بعد الانقلاب بأيام بسبب عدم توفير العناية الصحية اللازمة له عقاباً له من الانقلابيين على مواقفه المؤيدة لـ «الليندى».

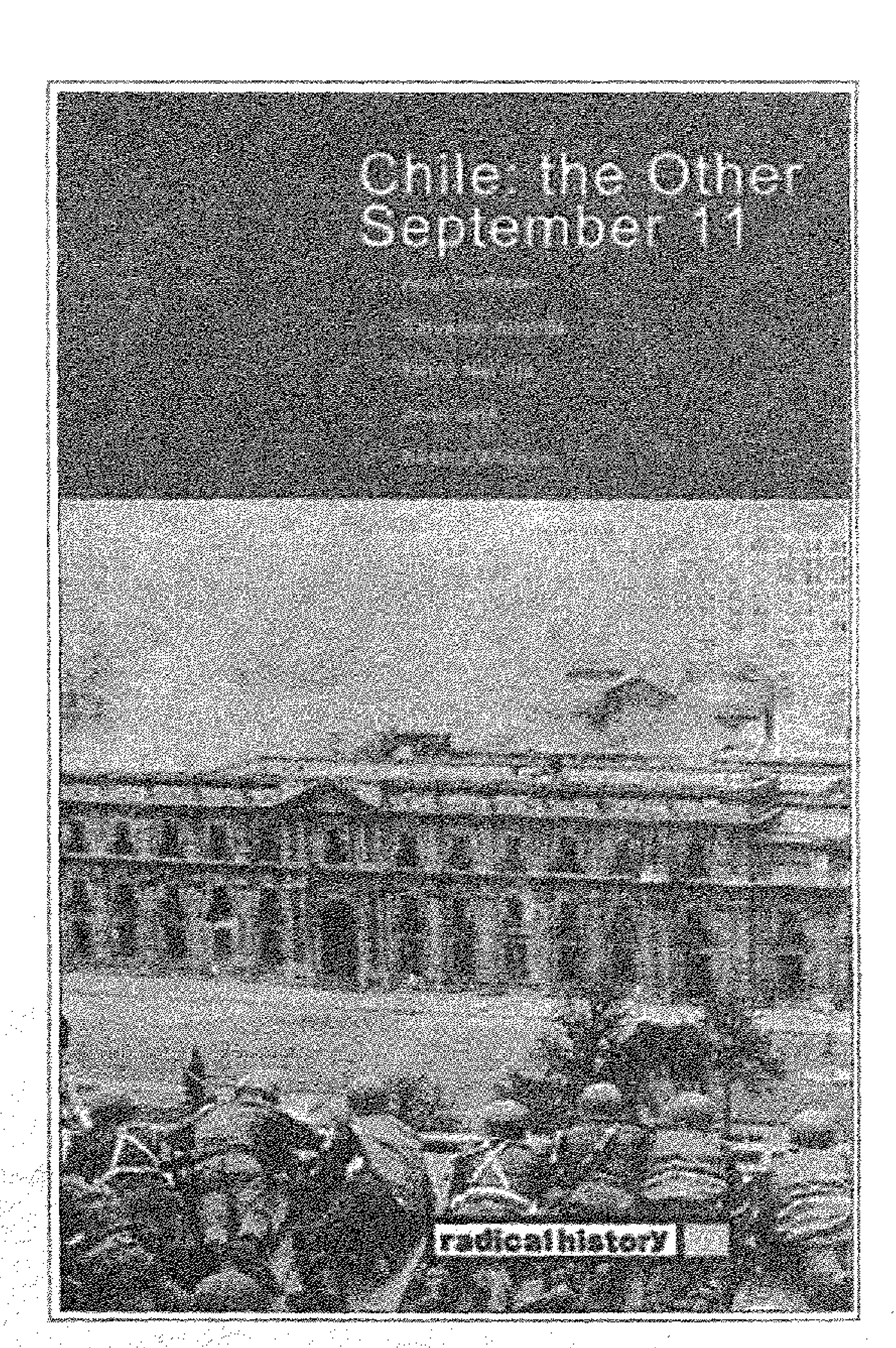


وتأتى أهمية الكتاب ليس فقط من كونه يستحضر أحداث الانقلاب العسكرى والتطورات التى أدت اليه فى تشيلى أو فى العلاقات الأمريكية/ التشيلية، أو فى مواقف الإدارة الأمريكية تجاه الرئيس «الليندى» منذ انتخابه وحتى وقوع الانقلاب ضده، وإنما أيضاً لأن اللافت والأبرز هو ما يحاوله الكتاب من إجراء مقارنة لأوجه التشابه والاختلاف بين أحداث ١١سبتمبر ١٩٧٣ فى تشيلى واعتداءات ١١سبتمبر ٢٠٠١ فى الولايات المتحدة الأمريكية، وهى المقارنه التى سنبدأ بها مقالنا التحليلى عن هذا الكتاب المهم.

فالمقارنة تتناول الأبعاد الشكلية والإجرائية بنفس القدر الذى تتناول فيه الموضوع. فهناك المشابهة بين قصر «لامونيدا» وتدميره وإحراقه بنيران الطائرات والصواريخ والمدافع والدبابات فى سنتياجو وبين برجى تدمير مركز التجارة الدولى بواسطة طائرتين اختطفهما إرهابيون فى نيويورك. وعلى صعيد المدى الزمنى، فإن المواطنين التشيليين عانوا بدءاً من ١١سبتمبر ١٩٧٣ ولحوالى عقدين من الزمان من إرهاب الدولة فى ظل حكم الانقلابيين وقبضتهم الحديدية بقيادة «بينوشيه». ولسنوات طويلة مثل يوم ١١سبتمبر يوم حزن لملايين التشيليين. ولا نعرف إلى متى سيظل الأمريكيون يذكرون يوم ١١سبتمبر احياءاً لذكرى ضحايا ما حدث من هجمات إرهابية تمت عام ٢٠٠١، ولكن ذلك بالتأكيد سيستمر طويلا لعائلات وأصدقاء الضحايا وهم بالآلاف.

ودخولاً إلى المقارنة، فإن الكتاب يشير إلى أنه بالنسبة لملايين التشيليين من أقارب عشرات الآلاف من ضحايا حكم «بينوشيه»، فإن صورة الأمريكيين وهم يسيرون فى شوارع نيويورك يحملون صور ذويهم وأصدقائهم الذين فقدوهم يوم ١١سبتمبر ٢٠٠١ كان مظهراً مألوفاً لأولئك التشيليين الذين تعودوا لعقود البحث عن المفقودين والتشوق إليهم دون معرفة مصيرهم، أو عند معرفة ذلك المصير يكون هو الإعدام او الموت تحت وطأة التعذيب أو النفى أوالتخفى والهرب.

وفى الحالتين، بالنسبة للتشيليين فى ١١سبتمبر ١٩٧٣ وبالنسبة للأمريكيين فى ١١سبتمبر ٢٠٠١، فإن الدرس المستفاد من الأحداث والرسالة العامة المفهومة منها كانت واحدة: أن العالم لن يعود كما كان، وأن الكثير من العناصر مشتركة بين التاريخين، فالمشترك هو الاحساس بالرعب وغياب اليقين والوقوع ضحية الإرهاب. واستغرق الأمر وقتاً طويلاً للشعبين التشيلى والأمريكى لإدراك أن ما حدث كان واقعاً وليس كابوساً. وكما ذكرنا آنفاً



Chile: The Other September 11
(تشيلى: ١١ سبتمبر الآخر)
Pilar Aguilera, Ricardo Fredes
NewYork, Ocean Press.
2002, $ 7.95

اللافت والأبرز هو ما يحاوله الكتاب من إجراء مقارنة لأوجه التشابه والاختلاف بين أحداث ١١سبتمبر١٩٧٣ فى تشيلى واعتداءات ١١سبتمبر٢٠٠١ فى الولايات المتحدة الأمريكية

فقد استمر هذا الكابوس/الواقع حوالى عقدين من الزمان فى تشيلى ولا نعرف كم سيستمر فى الولايات المتحدة وفى العالم بأسره.

ومن المفارقات الشكلية أنه فى المرتين ،أى فى ١١سبتمبر ١٩٧٣ و١١سبتمبر ٢٠٠١ ،كان اليوم هو ثلاثاء وكأن القدر بشكل انتقائى بدا عشوائيا فى اختياره فرض على بلد آخر نفس التاريخ واليوم مليئاً بالدم. إلا أن الفارق بين التاريخين له مغزاه: فالهجوم الإرهابى على أقوى دولة على الأرض سيكون له نتائج تؤثر على البشرية جمعاء، وقد يمثل إرهاصات حرب عالمية ثالثة قد تغير تاريخ الإنسانية بأكمله. وبالمقابل، فإن قليلاً من البشر خارج حدود تشيلى يتذكرون ،بل ويعرفون تحديداً وبالتفصيل ،ما حدث فى تشيلى فى ١١سبتمبر ١٩٧٣ وما تلاه.



ويتضمن الكتاب اسهامات لتشيليين عاشوا فى نيويورك كلاجئين عقب هروبهم من جحيم الانقلاب وحكمه فى تشيلى، ويبدا لهؤلاء أن هناك تشابها مثيرا للرعب بين ما واجهه التشيليون فى ظل حكم الانقلاب وبين ما واجهه الأمريكيون فى ١١سبتمبر ٢٠٠١، فالتشابه من الناحية الموضوعية كان عميقاً، ففى الحالتين جاء الرعب من السماء، وتحديداً من صواريخ سلاح الجو فى حالة تشيلى عندما قصفت قصر «لامونيدا» الرئاسى ودار سكن أسرة الرئيس الليندى، ومن طائرات مدنية اختطفها وقادها ارهابيون واقتحموا بها مركز التجارة الدولى فى نيويورك فى حالة الولايات المتحدة الأمريكية. وكان هذا الرعب موجهاً لتدمير رموز للهوية الوطنية. كما ان التشابه عميق فى الاحساس بالألم وغياب القدرة على التركيز أو التوجه الواضح، فكما ذكرنا من قبل، فإن الآلاف الذين جابوا شوارع نيويورك وقبلها بثمانية وعشرين عاماً شوارع سنتياجو ومدن تشيلى الأخرى كانوا يحملون صور ذويهم بحثاً عن معلومات عنهم سواء كانوا أحياء أو أمواتاً، وبدأ الأمريكيون يعرفون مجدداً معنى فقدان أعزاء لديهم لا خبر عنهم ولا يقين عن مصيرهم، ولكن هذه المرة ليس فى فيتنام أو غيرها من بلدان الهند الصينية البعيدة جغرافياً ولكن فى قلب مراكز «الحضارة» الأمريكية.

وفى الحالتين أيضاً صاحب الكارثة إحساس متأصل بظلم الانسان لأخيه الانسان بشكل يزيد من مرارة وقع الحدث مقارنة بوقع كارثة طبيعية قد توقع خسائر بشرية أضخم ولكنها ليست من صنع بشر آخرين، سواء من نفس الجنسية والديانة أو من أبناء جنسية أو ديانة أخرى.



سلفادور الليندى

كذلك كان رد فعل البشر مماثلاً فى الحالتين: فكل شعب ضحية ١١سبتمبر الخاص به انتابه تساؤل ينم عن الصدمة: إن ما حدث لا يمكن أن يحدث لنا، فهو يعبر عن احساس بعدم التصديق. ويرتبط هذا الشعور بدرجة وحجم العنف المبالغ فيه الذى يتحول معه كل مانراه فى قاعات دور العرض السينمائى من عنف إلى واقع وكابوس معاش. ويشعر كل شعب ضحية لهذه الأحداث بفقدان الإحساس بالبراءة ويتأكد رد الفعل هذا فى حالة ١١سبتمبر٢٠٠١ حيث كان الأمريكيون يتصرفون دائماً باعتبار أن بلادهم تمثل حالة استثنائية، وبالتالى يتخيلون أنهم شعب مستثنى من الأحزان والآلام والكوارث التى يمكن أن تلم بغيرهم من الشعوب «الأقل حظاً». كما أن حروب القرن العشرين جميعا لم تلامس الارض الأمريكية، وحتى حادثة «بيرل هاربور» الشهيرة خلال الحرب العالمية الثانية فإنها وقعت بعيداً عن التراب الأمريكى. أما عقب اعتداءات ١١سبتمبر ٢٠٠١، فقد شارك الأمريكيون غالبية سكان الأرض فى حالة عدم التيقن من المستقبل.

وفى رأى المشاركين فى الكتاب من التشيليين المقيمين بالولايات المتحدة، فقد وجدوا جانباً واحداً مضيئاً فيما حدث فى الولايات المتحدة فى ١١ سبتمبر ٢٠٠١، وهو أنه مثل فرصة لبعض الأمريكيين لإعادة النظر فى أمور كثيرة والتوجه نحو السلام والخير والمصالحة والعدالة ونحو إضفاء طابع إنسانى على المجتمع الأمريكى. ورأى هؤلاء التشيليون أن إحدى وسائل الشعب الأمريكى لتجاوز أحزانه ومخاوفه والحياة وسط غياب الأمن هو الإقرار بأن المعاناة ليست مقصورة عليهم وأنهم مثلهم فى ذلك مثل بقية البشر، والإقرار المترتب على ذلك بأن هناك بشراً آخرين فى مناطق أخرى من العالم ،مثل شعب تشيلى ،يعانون من مواقف مماثلة من الجراح والغضب. وربما تكون هذه هى حكمة القدر فى أن يكون أول عدوان تتعرض له أراضى الولايات المتحدة فى نفس يوم الانقلاب العسكرى على الديمقراطية فى تشيلى، وهو انقلاب دعمته وغذته الإدارة الأمريكية حينذاك باسم الشعب الأمريكى وقيمه ومبادئه ومثله العليا، وهو أمر سنتعرض له لاحقاً بقدر من التفصيل فى الجزء الثانى من هذا المقال التحليلى. وقد يكون ١١ سبتمبر ٢٠٠١ مدخلاً للأمريكيين ،حسب المساهمين فى كتاب «تشيلى: ١١ سبتمبر الآخر» ،خاصة الشباب منهم ليدركوا معنى الشعور بأنهم ضحايا وليحاولوا أن يتخيلوا أنفسهم كمتعاطفين مع شعب آخر مر بما يشبه «جهنم إنسانية جماعية» أصبح بموجبها كل أحبابهم «مفقودين» بدون أجساد تدفن، ويقتربون بالتالى من فهم تنويعات أخرى لأحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ عبر العالم، وفى مقدمتها معاناة شعب تشيلى فى ١١ سبتمبر ١٩٧٣ والسنوات التى تلته.



ويؤكد التشيليون المشاركون فى الكتاب محل العرض والتحليل هنا أنه بالرغم من أن الارهابيين المسئولين عن هجمات ١١ سبتمبر٢٠٠١ فى الولايات المتحدة اعتبروا الأخيرة دولة شيطانية تجسد الشر فى العالم، فإن الحزن ساد عبر العالم نظراً لهذه الأحداث، وانتشرت دعوات المساعدة وإعلان التضامن واعتبار ضحايا ١١سبتمبر٢٠٠١ ضحايا للبشرية فى حربها ضد التطرف والإرهاب وليس فقط ضحايا للشعب الأمريكى. وجاءت هذه المواقف المتضامنة من شعوب كثيرة، بما فيها شعوب كانت ضحية لتدخلات أمريكية سابقة ضدها مثل الشعب التشيلى، إلا أن الأخير رفض وصف المجتمع الأمريكى ككل بالشيطانى أو وصمه بـ«الشر». وبالمقابل، ودائماً حسب المساهمين فى تحرير كتاب «تشيلى: ١١سبتمبر الآخر» ،فإن الشعوب الأخرى ،وفى مقدمتها الشعب التشيلى ،تنتظر وتتوقع رد الجميل من الشعب الأمريكى مقابل تضامن هذه الشعوب معها بعد أحداث ١١سبتمبر٢٠٠١، باعتباره شعب أقوى دولة على الأرض، إلا أنهم يعتبرون الوقت مبكراً للحكم على ما إذا كان الشعب الأمريكى ،المكون أصلاً وإلى حد كبير من بشر فروا إلى الولايات المتحدة من دول عانت مجاعات وكوارث أو قمع وديكتاتوريات، والمليء عادة بقيم الأمل والتسامح ،سيستطيع أن يشارك بقية الإنسانية فى التعاطف الفعال والإيجابى تجاه ما يواجهه بقية البشر من محن طبيعية أو إنسانية المصدر، والمشاركة فى إصلاح ما يعوق مسيرة الإنسانية التى تعانى من مآس وتحديات وأضرار كثيرة، وذلك بهدف تجنب وجود عالم يسمح بتكرار ما حدث فى ١١سبتمبر مرة أخرى، سواء ١١سبتمبر١٩٧٣ أو ١١سبتمبر ٢٠٠١.

إلا أن وجهاً آخر للاختلاف بين الحدثين هو أن الحشود التى كانت تتجمع حول موقع مركز التجارة الدولى المدمر فى نيويورك كانت تستفسر عن ذويها من قوات شرطة ودفاع وطنى وجيش متعاطفة معها، أما الجموع المحتشدة حول استاد تشيلى وفى معسكرات الاعتقال الأخرى فى تشيلى للاستفسار عن مصير ذويها فكانت تواجه قوات الانقلاب التى تلوح بالتهديد للحشود من المدنيين بدلاً من الرد على توسلاتهم، وكانت أعداد المختفين تتزايد فى تشيلى بمرور الوقت بينما كانت فى تناقص فى حالة نيويورك، وزاد هذا المسلك من جانب الانقلابيين على تصاعد إحساس الحشود بالعجز عن فعل أى شىء أياً كان نوعه لسد حاجتهم الإنسانية المعنوية والنفسية للاطمئنان على ذويهم.

وآخر وجه للتشابه بين الحالتين هو معاداة المسئولين عن الحدثين للعلم والحضارة و«التنوير»، وقد يكون هذا واضحاً فى حالة ١١

تشيلي

١١ سبتمبر الآخر!!

سبتمبر الأمريكى . كما يذكر محررو الكتاب الذى بين أيدينا . ولكنهم يوضحونه أيضاً فى حالة ١١ سبتمبر التشيلى مشيرين إلى تحريم «بينوشيه» ونظامه الانقلابى لتدريس مواد كاملة فى المدارس والجامعات مثل «علم الاجتماع» باعتبارها مواد تحض على اعتناق الشيوعية (!!!) وإغلاق لأقسام كاملة بالجامعات تدرس هذه المواد. كما تجدر الإشارة فى ختام هذا الجزء إلى أن الرئيس الراحل «الليندى» أسمى العسكريين الذين قاموا بانقلاب ١١ سبتمبر ١٩٧٣ قبل أن يلقى مصرعه وفى آخر خطاب له للشعب التشيلى بـ «الإرهابيين» الذين يدمرون مظاهر الحضارة الإنسانية: الكبارى والجسور وخطوط السكك الحديدية وخطوط إمدادات النفط والغاز، كما اعتبر أن هدفهم هو إعادة عقارب الساعة إلى الوراء ونشر الظلام، وهى نفس الاتهامات التى واجهها مدبرو ومنفذو اعتداءات ١١ سبتمبر ٢٠٠١ فى الولايات المتحدة الأمريكية.



بعيداً عن المقارنات والتى قد يكون فيها بعض من العسف، يتعرض الكتاب لعلاقة الولايات المتحدة بالانقلاب فى تشيلى وما سبق ذلك من محاولات جهات أمريكية لزعزعة استقرار حكم الرئيس سلفادور الليندى خلال الفترة منذ توليه الحكم عام ١٩٧٠ وحتى انقلاب ١١ سبتمبر ١٩٧٣.

فالكتاب يذكر أن الرعب الذى أصاب الشعب التشيلى خلال وبعد انقلاب ١١ سبتمبر ١٩٧٣ كان . إلى حد كبير . نتيجة للتدخلات الأمريكية المتواصلة فى شئون تشيلى الداخلية، وهى تدخلات تضاعفت خلال حكم حكومة الوحدة الشعبية بزعامة الليندى ما بين عامى ١٩٧٠ و١٩٧٣. إلا أن هذه التدخلات سابقة على تاريخ تولى هذه الحكومة لمقاليد السلطة، خاصة طوال عقد الستينيات من القرن العشرين وتوج بانقلاب ١١ سبتمبر١٩٧٣، وكان الدور الرئيسى فى هذه التدخلات . طبقا للكتاب . من نصيب المخابرات المركزية الأمريكية، وركز المساهمون فى هذا الكتاب على كون المخابرات المركزية قد دعمت فى واقع الأمر انقلاباً ذا طبيعة فاشية مناهضة لأبسط مبادئ الديمقراطية وحقوق الإنسان، بما يتناقض مع منظومة القيم التى من المفترض أن الولايات المتحدة تبشر بها على الصعيد العالمى. ويسرد الكتاب أدلة كثيرة على تمويل ودعم الولايات المتحدة لانقلاب ١١ سبتمبر وتقديم النصح لقادته. ويسرد أيضاً التسلسل التاريخى لأنشطة واشنطن ضد حكومة الليندى المنتخبة منذ انتصار الليندى فى انتخابات الرئاسة عام ١٩٧٠ حين ذكر وزير الخارجية الأمريكى حينذاك هنرى كيسنجر بصراحة أنه «لا يرى سبباً للانتظار ومتابعة دولة تتجه للشيوعية لأن شعبها يفتقد الإحساس بالمسئولية»، وذلك فى موقف يعبر عن عدم ثقة فى نتيجة الديمقراطية عما يأتى للحكم بقوى مناهضة للمصالح الأمريكية. فعندما تولى الليندى الحكم عام ١٩٧٠ كانت هناك العشرات من الشركات الأمريكية العاملة فى تشيلى منها شركات أمريكية عبر وطنية فى مجالات النفط و صناعات السيارات وقطاع الموانئ وغيرها بإجمالى استثمارات تصل إلى مليار دولار، وكان فى مقدمتها شركة ITT للهاتف والتلغراف بقيمة استثمارات تصل إلى ٢٠٠ مليون دولار.

وقد فسر البعض عبارة كيسنجر المشار إليها آنفا بأنها كانت فى واقع الأمر تعنى أن الولايات المتحدة لا تستطيع الاكتفاء بموقع المتفرج وترك دولة من دول أمريكا اللاتينية تقرر مصيرها بنفسها، وتحديدا عدم السماح لدولة بأن تنتهج «الطريق السلمى نحو الاشتراكية» حسب تعبير الليندى الشهير، وقد توقع الليندى بكلماته هو نفسه: «أن رأس المال الأجنبى والإمبريالية اتحدا مع العناصر الرجعية لإيجاد البيئة الملائمة للجيش التشيلى للخروج عن تقاليده الخاصة باحترام الضمانات الدستورية». وقد سخر الليندى من الإدارة الأمريكية التى تدعى الديمقراطية ثم تحرض على تمرد عسكرى لإسقاط الديمقراطية. كما تضمن الكتاب اشعارا للشاعر التشيلى العالمى الراحل بابلو نيرودا موجهة ضد الرئيس الأمريكى الأسبق ريتشارد نيكسون عام ١٩٧١ تتهمه بالإرهاب وبارتكاب جرائم إبادة للجنس البشرى GENOCIDE وبأنه أسقط صورة إبراهام لنكولن محرر العبيد و داعية الحرية.

وعندما أعلن الليندى تأميم مناجم النحاس تحركت الولايات المتحدة لإيقاف قروض المؤسسات التمويلية الدولية وفى مقدمتها البنك الدولى للحكومة فى تشيلى. وعلى الصعيد السياسى، كان هناك التحريض المستمر للجيش فى تشيلى للقيام بعمل ما ضد السلطة المنتخبة لا لليندى، بالإضافة إلى العمل على إعاقة عمل الحكومة من جانب الأحزاب اليمينية، وكذلك حبك المؤامرة تلو الأخرى ضد حكومة الوحدة الشعبية المنتخبة، مثل التحريض على الإضرابات وتشجيعها وغير ذلك. وبينما كانت الإدارة الأمريكية قد أوقفت قروضها المقدمة لحكومة تشيلى، فإنها استمرت فى تقديم قروض للجيش التشيلى بغرض شراء أسلحة تضمنت قرضاً بقيمة ٥ ملايين دولار فى يونيو ١٩٧١، ثم تقديم ١٠ ملايين دولار أخرى كقرض للجيش قبل انقلاب ١١ سبتمبر ١٩٧٣ بفترة وجيزة، بل كانت الولايات المتحدة تنظم مناورات مشتركة بين البحرية الأمريكية ونظيرتها التشيلية . حتى بدون الحصول على موافقة حكومة الوحدة الشعبية، وتزامنت آخر مناورات مشتركة مع موعد الانقلاب فى ١١ سبتمبر حيث كانت المناورات تدور على شواطئ تشيلى بهدف توفير الدعم والحماية للانقلابيين، وكان هذا التقارب مع الجيش يهدف إلى توظيف الصلات الأمريكية مع الجيش لتوسيع الهوة بين الجيش والحكومة المنتخبة. وقد تزامن هذا الدور الأمريكى مع دور مماثل للولايات المتحدة فى تنظيم ودعم انقلابات عسكرية فى بوليفيا وأوروجواى هدفت إلى إسقاط الدساتير وحل البرلمانات المنتخبة فى هذه الدول.

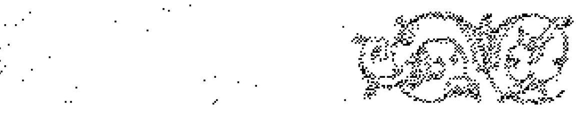
والمتابع للحملة الأمريكية ضد الليندى عليه أن يذكر أن اليسار التشيلى انتصر فى الانتخابات عام ١٩٧٠ بالرغم من حشد الموارد الأمريكية للحيلولة دون حدوث هذا الانتصار. وبالرغم من هذا النصر الانتخابى؛ فإن المخابرات المركزية الأمريكية والمؤسسات الأمريكية عبر الوطنية حاولت إعاقة تولى «الليندى» مقاليد السلطة من خلال عدة خطوات تضمنت تدبير اغتيال قائد الجيش ثم تحريض الرئيس السابق على «الليندى» على عدم تسليم السلطة للرئيس المنتخب. ولكن فشلت هذه الجهود وتولى «الليندى» الحكم فى ظل اقتصاد مفلس، حيث انهار سعر النحاس وارتفعت معدلات البطالة، بلغت قيمة الديون الخارجية أربعة مليارات من الدولارات. كذلك تولى «الليندى» السلطة فى ظل صحافة وإعلام وقضاء وبرلمان واقعين تحت سيطرة اليمين، وجيش أعلن رسمياً عن حياده السياسى ولكن لم يستمر هذا الوضع طويلاً. وجاءت هذه الديون نتيجة قروض أمريكية تم توجيهها لأغراض استهلاكية وليست إنتاجية، كما نشرت الولايات المتحدة نمط حياة استهلاكياً فى صفوف الشعب التشيلى.



ومن صور التدخل الأمريكى قبل تولى الليندى مقاليد السلطة، يروى كتاب «تشيلى: ١١ سبتمبر الآخر» ما حدث يوم ٢٧ يونيو ١٩٧٠ عندما أقرت لجنة الأربعين التابعة لمجلس الأمن القومى برئاسة هنرى كيسنجر تخصيص مبلغ وقدره ٣٠٠ ألف دولار أمريكى لدعم الدعاية ضد الليندى. وبعد مرور شهر على هذا التاريخ خصصت شركة ITT الأمريكية عبر الوطنية مبلغ ٣٥٠ ألف دولار لدعم خصوم الليندى السياسيين. وفى ١٥ سبتمبر من نفس العام: وجه الرئيس الأمريكى حينذاك ريتشارد نيكسون رئيس المخابرات المركزية فى عهده ريتشارد هولمز للحيلولة دون تولى الليندى الرئاسة. وأعرب كيسنجر حينذاك عن اعتقاده بأن الليندى أكثر خطورة على مصالح الولايات المتحدة من فيدل كاسترو زعيم كوبا لأن الأول منتخب ديمقراطياً مما قد يؤدى بدول أخرى فى أمريكا اللاتينية إلى اتباع نهجه اليسارى الديمقراطى. وبحلول أكتوبر ١٩٧٠،كانت المخابرات المركزية الأمريكية قد أكدت فى تقرير لها ضرورة اللجوء لتنظيم انقلاب عسكرى لإسقاط حكم الليندى. وفى أغسطس من العام التالى، رفض بنك الاستيراد والتصدير الأمريكى تقديم قرض لتشيلى



أعلن الانقلابيون حل البرلمان المنتخب، وتم إلغاء كافة أنواع الانتخابات، وإلغاء الأحزاب السياسية وحظر قيامها، والإعلان عن حظر شامل للإضرابات، بل وللنقابات المهنية ذاتها



تشيلي

١١ سبتمبر الآخر!!

بقيمة ٢١ مليون دولار لشراء طائرات مدنية، وفي الشهر التالي فرضت واشنطن حصاراً اقتصادياً على تشيلي، كما رفض البنك الأمريكي للتنمية تقديم أي قروض لتشيلي منذ تولى الليندي الحكم. وفي أبريل ١٩٧٣ خصص مجلس الأمن القومي الأمريكي مبلغ ٥٠ ألف دولار لإثارة قلاقل داخل حكومة الوحدة الشعبية في تشيلي. والمفارقة المثيرة للدهشة، أنه عقب نجاح انقلاب ١١ سبتمبر ١٩٧٣ واحتكار العسكريين للسلطة وإلغاء المؤسسات الديمقراطية، استأنفت الولايات المتحدة ومؤسسات بريتون وودز القروض للحكومة الجديدة في تشيلي.



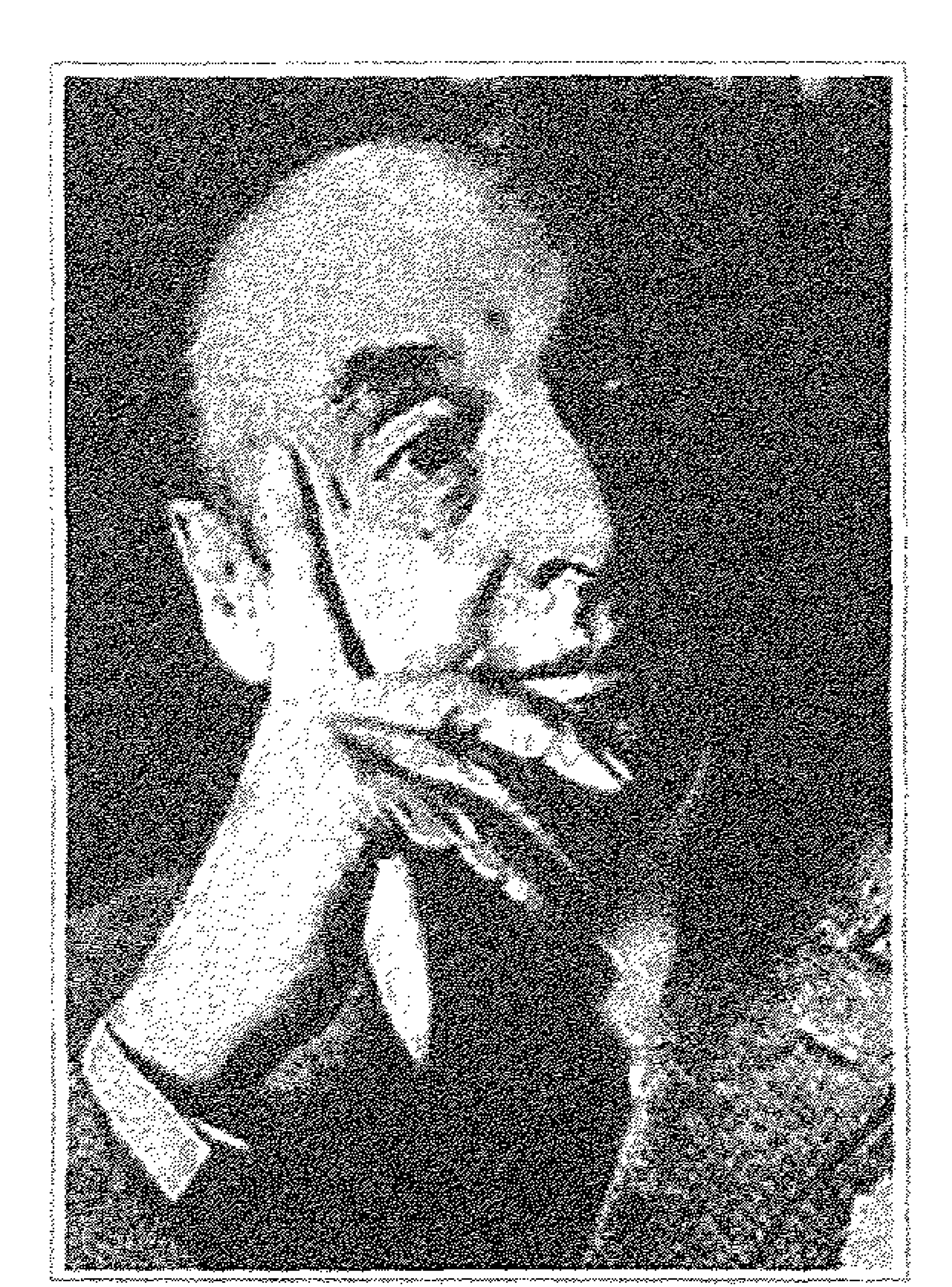
ويجمع الكتاب المشاركون في كتاب «تشيلي:١١ سبتمبر الآخر» على أن ما شهده يوم ١١ سبتمبر ١٩٧٣ في تشيلي دمر آلاف الأحلام الجميلة لدى شعب تشيلي، رغم أنه كان من المتوقع أن يتحرك الجيش في انقلاب عسكري لإسقاط الرئيس الليندي المنتخب ديمقراطياً. ففي ذلك اليوم بدأت الموسيقات والبيانات العسكرية تذاع في الإذاعة التشيلية التي سيطر عليها الجيش، ومنذ نفس ذلك اليوم بدأت حملات واسعة لمداهمة المنازل في سنتياجو والمدن التشيلية الأخرى بحجة البحث عن السلاح، وعندما لم يجد الجنود السلاح انتزعوا الآباء والأمهات والبنات والأبناء والزوجات والأزواج والإخوة والأخوات من أسرهم، كما تمت مصادرة أعداد ضخمة من الكتب. سواء من البيوت أو من المكتبات العامة أو من مكتبات الجامعات. وتم تجميع هذه الكتب وإحراقها في مشاهد تنم عن عداء متأصل للثقافة والفكر والحرية والإبداع والديمقراطية. وقد استكملت هذه المداهمات بحملة واسعة من الاعتقالات والقتل والتعذيب والنفي لعشرات الآلاف .بل لمئات الآلاف .من خيرة أبناء الشعب التشيلي، وفرار مئات الألوف الآخرين هرباً من تلك الحملات المتواصلة واختيارهم المنفى الاختياري والاغتراب بعيداً عن وطنهم. وتتكرر الإشارة في مواضع عديدة من الكتاب إلى أن معسكرات الاعتقال والاحتجاز التي ضمت شعراء وملحنين وفنانين ومبدعين في مختلف الميادين ومن اتجاهات فكرية وسياسية متنوعة وليس فقط من المنتمين لليسار.

بحسب المشاركين في كتاب «تشيلي:١١ سبتمبر الآخر». فانعكاسات الانقلاب وتداعياته مازالت محسوسة حتى الآن وتشيلي بشكل عام لم تواجه ماضيها أو تلعق جراحها بصورة كاملة. وقد حاول «بينوشيه» و نظامه إزالة ماضي تشيلي ومحو تاريخها من ذاكرة الشباب. وقد ظل الكثير من الشهود لفترة طويلة خائفين من الإدلاء بشهاداتهم أو التحدث عن تجاربهم، وربما كانوا لا يرغبون في تذكر ما جرى. ولسنوات طويلة، كان اعتماد التشيليين والعالم بأسره هو على شهادات من تمكنوا من الفرار والعيش في الغربة، فهؤلاء . وبالرغم من الضغوط والمعاناة .هم الذين سعوا لجمع الأدلة لإدانة الانقلاب الفاشي وفضح طبيعته المعادية للإنسانية. وفي عام ١٩٩٧، ولأول مرة، شاهد طلاب الجامعة في سنتياجو صوراً لآثار الهجوم العسكري الشامل على قصر«لامونيدو» الرئاسي يوم الانقلاب و الذي كان بداخله رئيس الدولة الشرعي وأربعون من معاونيه، وهو الأمر الذي دفع بهؤلاء الشباب إلى حالة من الغضب والهلع وعدم تصديق ما لقنوه عن تاريخهم في مناهج المدارس والجامعات بعد الانقلاب بعد أن علموا بتاريخهم الحقيقي «المقموع». وفي صفوف الشعب التشيلي نجد من لا يريد أن يعيش الرعب من جديد، وهناك من اختار أن يبقى في حالة من اللامبالاة، وهناك أيضا من اختار أن ينسى أو يتناسى ما جرى. ولكن فشلت محاولات التعتيم على ما جرى من أحداث بسبب شهادة الشهود الذين عاشوا تلك الأحداث وفروا من تشيلي. والكتاب الذي بين أيدينا يدعو لمواجهة هذا الماضي واستخلاص الدروس منه والسعي لمعرفة الحقيقة كاملة مهما كانت مؤلمة. كما يدعو إلى تجاوز اللحظة التاريخية التي فرضت فيها الخيانة نفسها، وأيضا يدعو إلى استحضار حلم الليندي وتحويله إلى حقيقة، وهو الحلم الذي جسده في عبارة ذكرها في خطابه الأخير إلى الشعب التشيلي في ١١ سبتمبر ١٩٧٣ بأن: «التاريخ لنا والشعب سيحققه».



حلم الليندي لم يتحقق. بل سقط الرجل الحالم نفسه وهو يدافع عن قصر «لامونيدا»، وعندها تحدث الجنرالات بزهو عن «استئصال سرطان الماركسية من تشيلي» وأعربوا عن سعادتهم بوفاة الليندي وعرضوا أفلاماً حينذاك لما تبقى من قصر «لامونيدا» ومقر سكن الليندي . وإن امتنعوا عن تكرار عرضها بعد ذلك لما ولدته من مشاعر غضب ضد الانقلاب وتعاطف مع الليندي .مما عكس طبيعة النظام الجديد الذي يفخر بإلحاق الدمار بالمنشآت المدنية والمباني التاريخية دون أي إحساس بالخزي من استخدام أعتى الأسلحة لتدمير قصر الرئاسة ومقر سكن الليندي. وبحلول نهاية يوم الانقلاب، كان قادته قد أعلنوا اعتبار يوم ١١ سبتمبر عيداً للاستقلال لتشيلي، وهو الأمر الذي زاد من شعور الشعب التشيلي بالمذلة والمهانة. وأعلن الانقلابيون حل البرلمان المنتخب بأغلبيته والمعارضة الموجودة بداخله، وتم إلغاء كافة أنواع الانتخابات، وإلغاء الأحزاب السياسية وحظر قيامها، والإعلان عن حظر شامل للإضرابات، بل وللنقابات المهنية ذاتها، وتم فرض رقابة مشددة على الكتب والصحف وكافة أنواع المطبوعات، وأخيراً، وليس آخراً، تم إغلاق الجامعات حتى إشعار آخر.

ومن المفارقات أن الرئيس «الليندي» كان ينوي في نفس يوم وقوع الانقلاب توجيه خطاب إلى الشعب يعلن فيه اللجوء إلى تنظيم استفتاء شعبي لحسم نزاعه المتفاقم مع قيادات الجيش . خاصة بعد تولي «بينوشيه» قيادة الجيش في ٢٣ أغسطس ١٩٧٣ . بالطرق السلمية والديمقراطية بدلاً من تحويله إلى صراع يهدد تشيلي واستقرارها. والواقع أن مأزق «الليندي» كمن في أنه كان رئيساً منتخباً شعبياً ودستورياً التزم بالقيود الديمقراطية والقانونية. ولكنه كان يحتاج أيضاً لمواجهة تجاوزات الجيش المتمثلة في اقتحام المصانع ومواقع العمل وقمع الطبقة العاملة، وكان الجيش يستند في تبرير تلك الممارسات إلى قانون «سيطرة الجيش» ARMS CONTROL ACT . إلا أن قيادة الجيش التشيلي كان لها رأي آخر. وكان لهذا الرأي خلفياته: ففي ٢٨ و٢٩ يونيو ١٩٧٣ جرت أول محاولة انقلاب عسكري ضد حكومة منتخبة في تشيلي منذ ٤٢ عاماً، حيث استولى الانقلابيون على وسط سنتياجو وهاجموا مبنى وزارة الدفاع وقصر الرئاسة قبل أن تتمكن قوات مؤيدة للحكومة من محاصرتهم. وأعقب ذلك اتهام المعارضة الديمقراطية المسيحية لحكومة الوحدة الشعبية بأنها تنفذ «مؤامرة شيوعية يهودية»، ودعوة تلك المعارضة الجيش للقيام بانقلاب عسكري (١)، وتلى ذلك اغتيال المستشار البحري لـ «الليندي» وعمليات تخريب مجهولة المصدر ضد خطوط السكك الحديدية والأنابيب والجسور، بل وضد المدارس والمستشفيات، ثم وقوع اشتباكات بين القوات الجوية وعمال عدد من المصانع. وأخيراً، جاءت استقالة قائد الجيش ووزير الدفاع



بابلو نيرودا .. تركوه ليموت



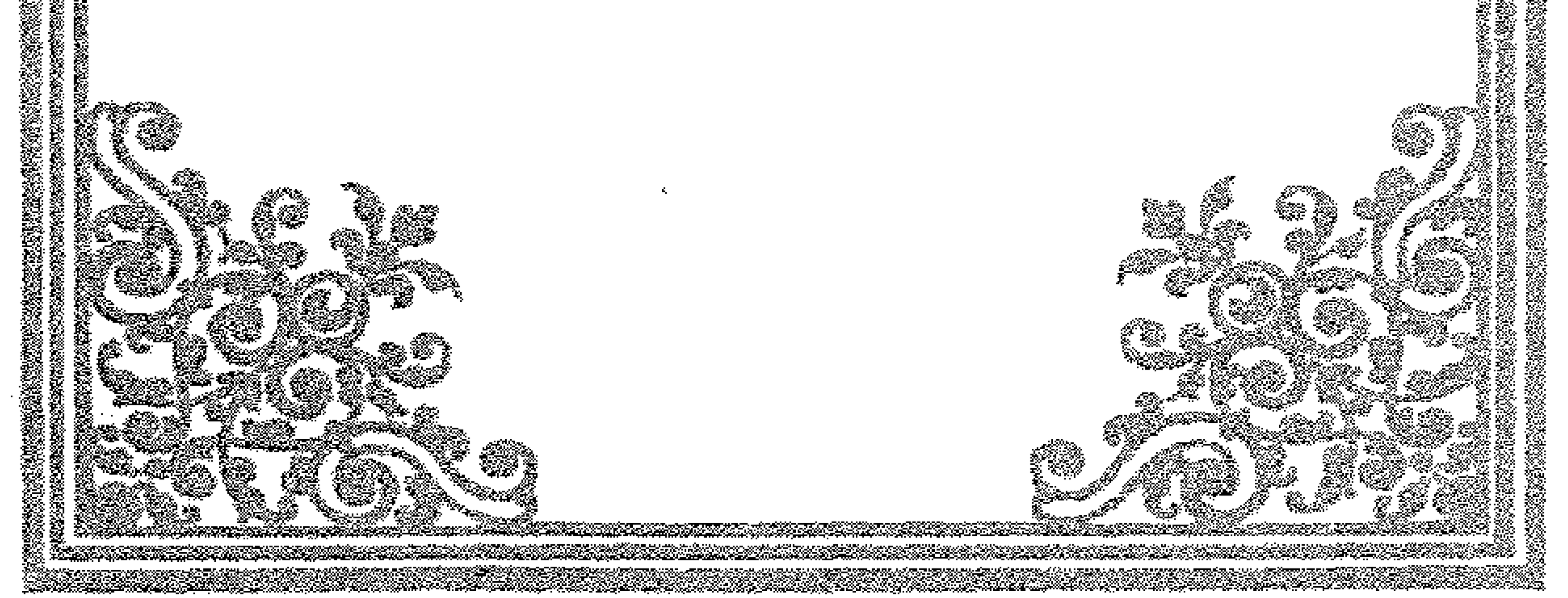
أحمد لطفى السيد

الأحزاب والحكومة والمعارضة

إذا جلس نوابنا فى مقاعدهم وجاءهم مشروع من قبل الحكومة أو من قبل أحد النواب، كان من الضرورى أن تختلف آراؤهم. وللناس بعدد رءوسهم آراء. هذا الاختلاف نتيجة لازمة لاختلاف المذاهب السياسية أو لاختلاف تفاوت النواب فى مراتب العلم. أو على الأقل لاختلاف أمزجتهم، إذا فرض أن ليس لأحدهم مذهب سياسى يعتنقه. ومن ذلك الاختلاف تحدث الأحزاب بضرورة الحال. ففكرة ترقى الحزبية فكرة مستحيلة أولى بها أن لا تكون.

على أن الحقيقة بنت البحث والمناقشة والأخذ والرد. فإذا كانت الحكومة لا تريد المعارضة فإنها إذن تريد نوابًا يقرونها على الخطأ وعلى الصواب جميعًا. ولو أرادت ذلك لما كان هناك معنى لإيجاد الجمعية التشريعية. ولكان أولى بها، وهى صاحبة الحول والطول، أن تتصرف فى شئون الأمة من غير استشارة ولا إعلان.

إننا لو أردنا نوابنا على أن ينفوا عنهم فكرة الحزبية لأردناهم على أن تكون آراؤهم فى التشريع آراء غير مستندة إلى مذهب بعينه من مذاهب الحكم. ويترتب على ذلك أن يكون تشريعنا تشريعًا ميتًا لا روح له ولا اتصال بين أجزائه. بعيدًا عليه أن يكون ذا أثر محمود فى البلاد، وأنهم إذا صدروا فى التشريع عن مذهب معلوم كانت النتيجة انقسامهم حزبين أو أكثر من حزبين.



«كارلوس براتس» صاحب التوجهات المعتدلة والمؤيد للديمقراطية تحت ضغوط قطاع من ضباط الجيش ولتجنب انقسام الجيش بين اليمين واليسار. كما ذكر فى خطاب استقالته. وتولى «أوجستو بينوشيه» صاحب التوجهات اليمينية والفاشية المعادية لليسار وللديمقراطية قيادة الجيش.



ومن اللافت للنظر أيضاً فى كتاب «تشيلى: ١١ سبتمبر الآخر» أن الرئيس «الليندى» فى آخر خطاب له لشعب تشيلى يوم الانقلاب. وبعد حدوثه. أكد أنه لا حاجة لما أسماه بـ «تضحيات غير ضرورية» فى صفوف الشعب فى إطار مقاومة الانقلاب لأنها. بحسب رأيه. ستكون بلا فائدة أو مقابل، ودعا بالمقابل إلى الاستعداد لمعركة صعبة ونضال متواصل توقع أن يستمر طويلاً. وصدق توقعه. بهدف مقاومة الفاشية وإلحاق الهزيمة بها حتى تعود تشيلى دولة حرة ذات سيادة محبة للسلام وملك لشعبها، ودعا «الليندى» بالتالى إلى وحدة الشعب وقواه الثورية. وقد تنبأ «الليندى» يومها أيضاً بأن شعب تشيلى وشعوب الأمريكتين ستواجه الانقلاب الفاشى وستسقطه وتسقط إرثه يوماً ما.

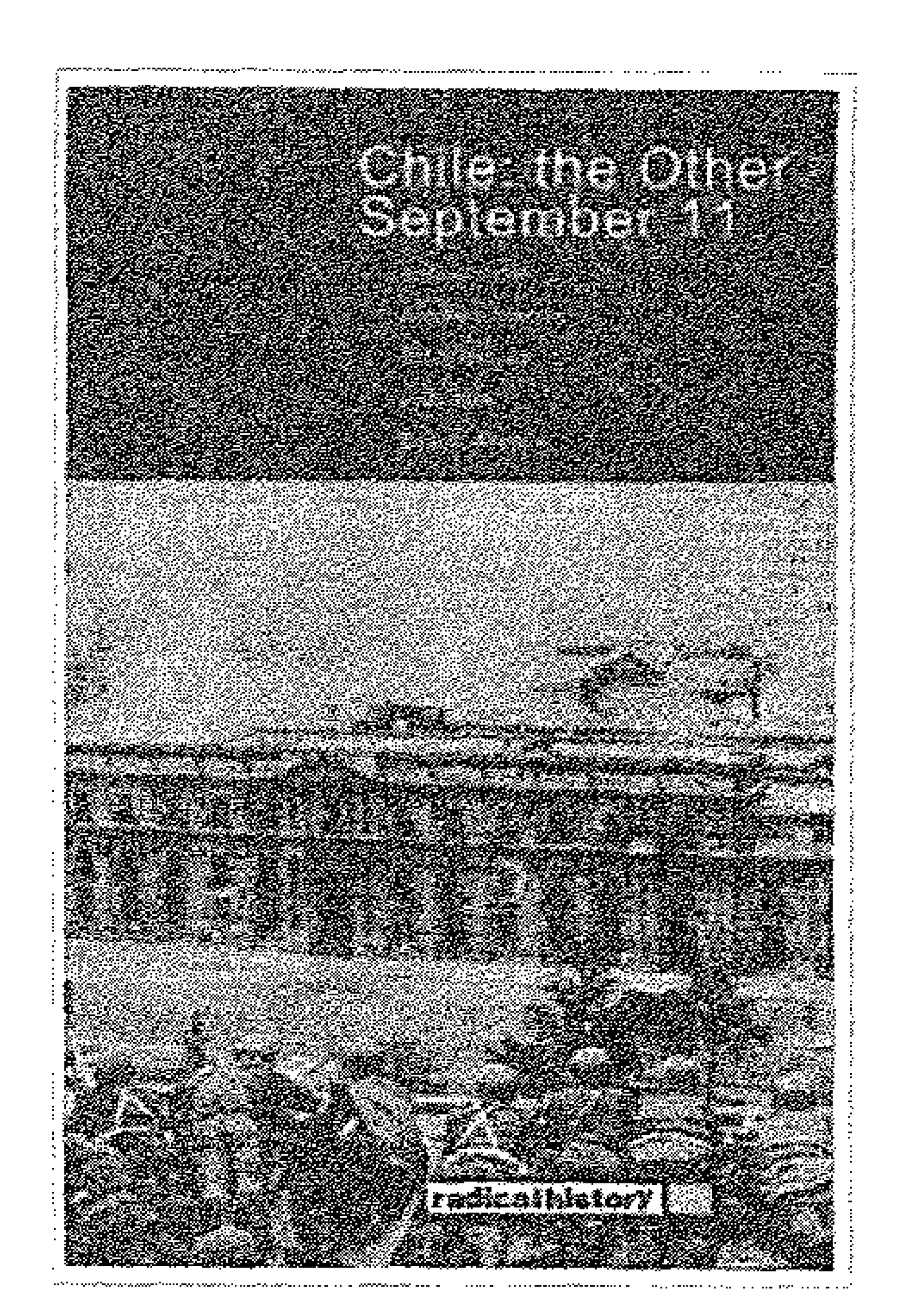
وقد انضمت ميليشيات فاشية محلية فى بعض أحياء الأثرياء بسنتياجو إلى الانقلاب بزيها المدنى وبأسلحتها. ونجد فى الكتاب صورة بالكلمات لجنود الانقلاب وهم يقفون فى شوارع سنتياجو والمدن التشيلية الأخرى لإجبار المواطنين على الاصطفاف فى طوابير طويلة أمام المخابز للحصول على حصص محددة من الخبز ويتوعدون من يتذمر على ذلك، وتم تهديد الجماهير بأن عليها ضرورة الاختفاء من الشوارع وإلا تعرضوا للقتل فى ظل حظر للتجول. ويروى الكتاب أيام الخوف التى عاشها التشيليون وهم لا يعرفون حقيقة ما حدث لمن اختفى أو اعتقل من أهلهم أو رفاقهم فى الدراسة والعمل. كما نشاهد فى موضع آخر بالكتاب مشهد آخر لاقتحام الدبابات للحرم الجامعى فى سنتياجو وتحويله إلى حمام دم وتدمير معامل ومكتبات الجامعة واعتقال أساتذة وطلاب الجامعة بتهمة «التطرف» وضربهم بالنعال والإلقاء بهم على الأرض والزج بهم إلى معسكرات الاعتقال وغرف التعذيب. وفى تلك اللحظة، كان الانقلابيون قد استولوا على كافة محطات الإرسال المستقلة التابعة للجامعات وقاموا بتدميرها. وتحول استاد سنتياجو إلى معسكر اعتقال كبير ارتكبت فيه فظائع بحق المحتجزين هناك وغابت المعلومات وانتشرت الشائعات مما زاد من حالة الغموض والهلع والفزع. ونقرأ فى كتاب «تشيلى: ١١ سبتمبر الآخر» شهادات هامة حول ما كان يحدث فى استاد سنتياجو من جرائم قبل السماح لممثلى الصليب الأحمر ومنظمة العفو الدولية والسفارات الأجنبية بزيارة المكان. فكان هناك ضرب الطلقات الحية فوق رءوس المحتجزين، ثم فى صدور من جرؤوا على ترديد الأغانى المؤيدة لحكومة الوحدة الشعبية، ودفع ذلك البعض هناك للانتحار والبعض الآخر لمحاولة الهرب وهو يعلم أن مصيره هو القتل برصاص جنود الانقلاب. ونجد أيضاً مشهد اقتحام منزل الشاعر الكبير «بابلو نيرودا» الذى كان يعانى من المرض، وتم تدمير وإحراق مكتبة الشاعر الكبير، ثم إحراق المنزل بأكمله. ولكن ذلك لم يمنع الشاعر الراحل من كتابة آخر أوراقه قبل وفاته التى اتهم فيها الرئيس الأمريكى الأسبق «ريتشارد نيكسون» بالمسئولية عما حدث لشعب تشيلى.

ومن ناحية أخرى، يروى لنا الكتاب قيام الانقلابيين بوضع آلاف الجثث لضحاياهم فى مقابر جماعية غير معروف من بداخلها بعد إعدامات سريعة بالجملة، وتراصت طوابير من الجثث العارية التى غطت مشرحة سنتياجو، بعضها مقيد اليدين أو القدمين من الأمام أو من الخلف، وبعض الجثث تعرض للركل بأقدام جنود الانقلاب قبل الموت أو بعده، والكثير منها يظهر عليها آثار واضحة للتعذيب. وكانت القوائم المنشورة أمام مشرحة سنتياجو تحدد أرقاماً للبشر ومناطق مقتلهم وما إذا كانوا رجالاً أو نساء دون ذكر أسمائهم. ويصف الكتاب مشهد طوابير البشر الذين يودون الاطمئنان على ذويهم وهم يشاهدون سيارات الجيش وهى تأتى بالمزيد من الجثث وتلقى بها فى المشرحة وتذهب للإتيان بالمزيد منها. وقد تكرر هذا المشهد كثيراً فى تشيلى تحت حكم «بينوشيه».

وفى الختام نقول أنه لئن كانت ظاهرة الانقلابات العسكرية هى ظاهرة شديدة الانتشار فى تاريخ بلدان أمريكا الوسطى والجنوبية منذ حققت هذه البلدان استقلالها السياسى فى أوقات مختلفة من القرنين التاسع عشر والعشرين، فإن التساؤل يطرح نفسه: لماذا إذاً هذا الاهتمام بانقلاب «بينوشيه» فى

تشيلي

١١ سبتمبر الآخر!!

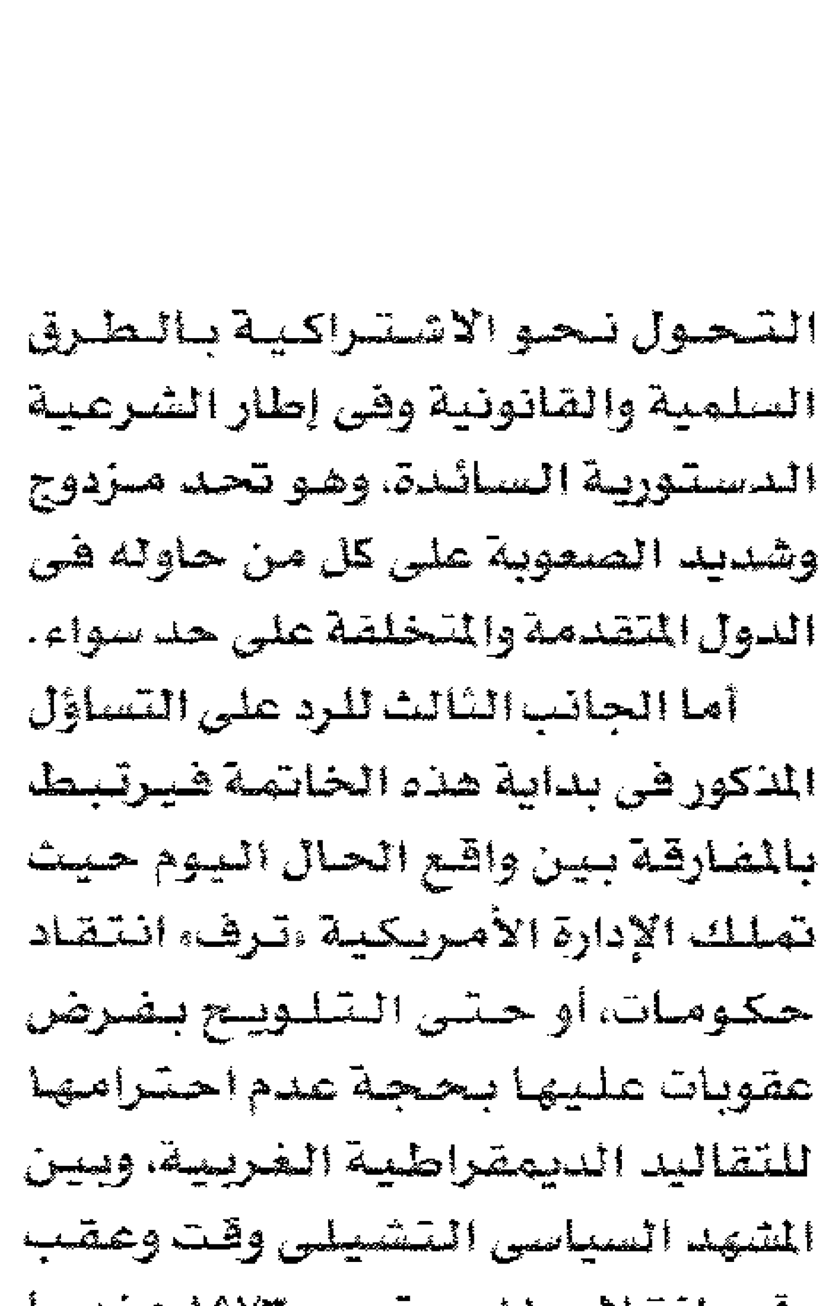


تشيلي بالذات دون بقية الانقلابات الكثيرة في القارة التي يشار إليها دائماً باعتبارها «الفناء الخلفي» للولايات المتحدة الأمريكية، القوة الكبرى منذ استقلالها في القرن الثامن عشر وحتى تحولها إلى قوة عظمى عقب نهاية الحرب العالمية الثانية في منتصف القرن العشرين؟ والتساؤل مشروع بطبيعة الحال، والإجابة عليه متعددة الجوانب ومتشابكة الأبعاد.

ويتصل الجانب الأول بأن انقلاب «بينوشيه» تم في أوج المواجهة بين الشرق الشيوعي والغرب الرأسمالي في زمن الحرب الباردة. وجاء الانقلاب في أعقاب هزيمة أمريكية في جولة سابقة من المواجهة بين المعسكرين تمثلت في الحرب الهندية/الباكستانية عام ١٩٧١ والتي أسفرت عن انتصار الهند. حليفة الاتحاد السوفيتي السابق حينذاك. على باكستان التي كانت محسوبة على الغرب، وعلى الأمريكيين على وجه الخصوص.



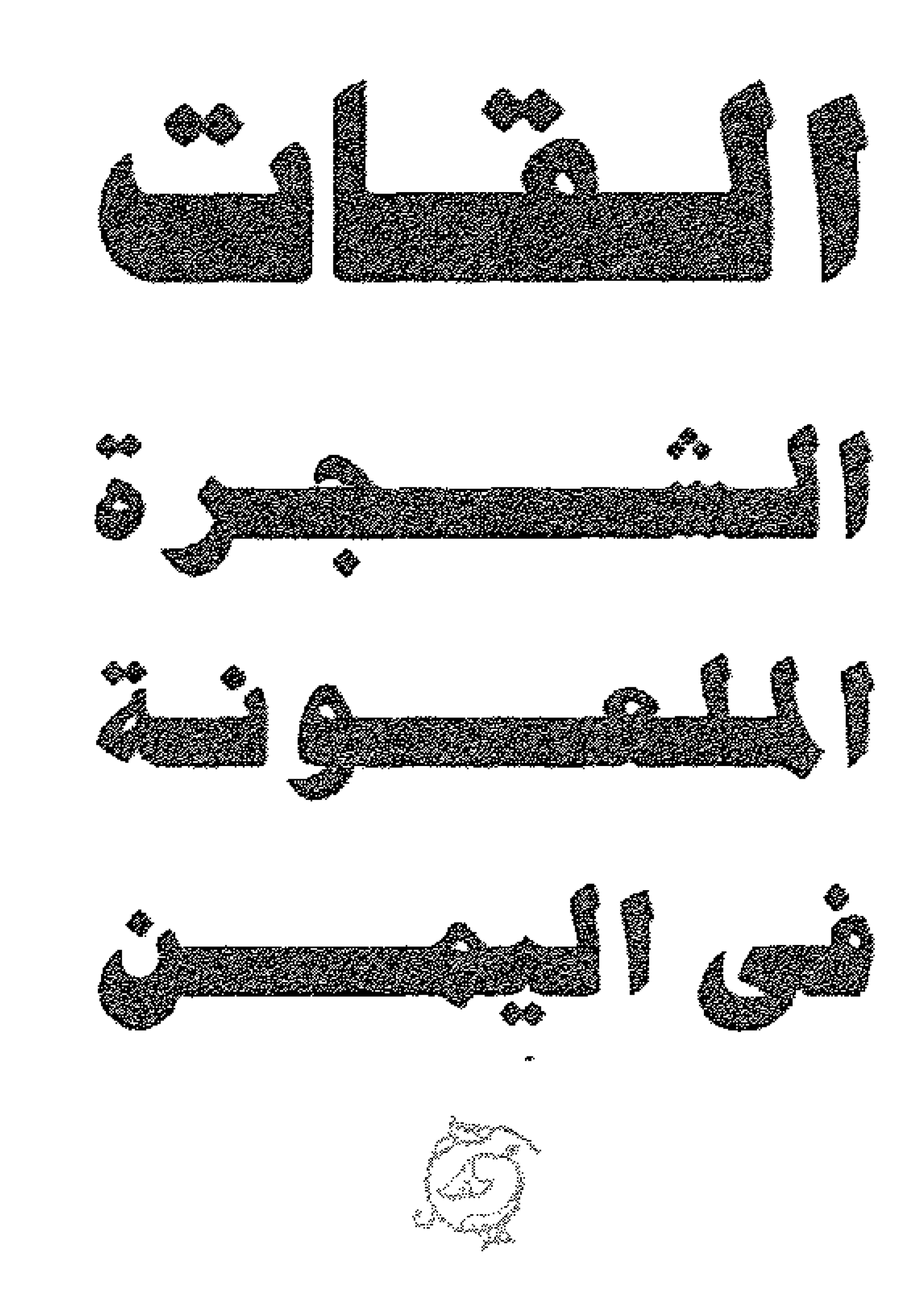
ويتعلق الجانب الثاني للرد على هذا التساؤل بأنه بالرغم من أن الحكم الذي كان يقوده «الليندي» في تشيلي وكان ضحية انقلاب ١١ سبتمبر ١٩٧٣ كان يسارياً، فإنه لم يكن شيوعياً طبقاً للتعريف الدقيق للمصطلح، كما أنه كان في كل الأحوال منتخباً بشكل حر ووفقاً لمعايير الديمقراطية الليبرالية الغربية ولم يسع أبداً لتجميد هذه الديمقراطية أو إلغائها أو الإطاحة بها، بل إنه كان يمارس دوره في إطارها، ويعمل على إنجاز



التحول نحو الاشتراكية بالطرق السلمية والقانونية وفي إطار الشرعية الدستورية السائدة، وهو تحد مزدوج وشديد الصعوبة على كل من حاوله في الدول المتقدمة والمتخلفة على حد سواء.

أما الجانب الثالث للرد على التساؤل المذكور في بداية هذه الخاتمة فيرتبط بالمفارقة بين واقع الحال اليوم حيث تملك الإدارة الأمريكية «ترف» انتقاد حكومات، أو حتى التلويح بفرض عقوبات عليها بحجة عدم احترامها للتقاليد الديمقراطية الغربية، وبين المشهد السياسي التشيلي وقت وعقب وقوع انقلاب ١١ سبتمبر ١٩٧٣ عندما كانت الأولوية للإدارة الأمريكية. وبالرغم من كافة الشعارات المعلنة عن الحرية والديمقراطية. لاعتبار واحد هو: من يخدم المصالح الأمريكية أكثر، ديمقراطياً كان أم فاشياً، مدنياً كان أم عسكرياً، حتى ولو اقتضى الأمر. كما حدث بالفعل كثيراً. دعم الولايات المتحدة لنظم حكم غاية في الرجعية أو أخرى غاية في ممارسة القمع السياسي أو الاضطهاد الديني، وذلك في سبيل هدف واحد طغى على ما عداه في معادلة حساب التوازنات الكونية الأمريكية، ألا وهو مواجهة «الخطر السوفيتي الشيوعي» والتصدي له واحتواؤه ومحاولة إلحاق الهزيمة به في أكبر عدد ممكن من المعارك الإقليمية والدولية.

وأخيراً، فقد صدرت كتب عديدة وأعمال فنية وأدبية بمختلف اللغات تناولت ما حدث في ١١ سبتمبر ١٩٧٣، كان من أوائلها كتاب «الثورة المضادة في تشيلي» باللغة العربية للأستاذ «مجدي نصيف» عن دار الثقافة الجديدة بالقاهرة في سبعينيات القرن الماضي، وكان من أواخرها كتاب صدر في نوفمبر ٢٠٠٣ بالولايات المتحدة حول سجل انتهاكات انقلاب «بينوشيه» ونظامه لحقوق الإنسان، مروراً بالعمل السينمائي البارز للمخرج الشهير «كوستا جافراس» عن نفس الموضوع والمعنون MISSING إلا أن السمة الأكثر تميزاً في الكتاب الذي تناولناه هنا برؤية تحليلية ونقدية هي منظوره الثلاثي الأبعاد الذي جمع في الإسهامات التي بين دفتيه بين إجراء المقارنة لأوجه التشابه والاختلاف مع أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ في الولايات المتحدة الأمريكية، وتتبع الدور الأمريكي في تشيلي منذ انتخاب «الليندي» وحتى الإطاحة به، والواقع الداخلي في تشيلي قبل الانقلاب وخلاله وبعده، وذلك من خلال منهاجية متكاملة في مستويات التناول ومتجانسة في المحتوى.■



القات الشجرة الملعونة فى اليمن

يوسف الشريف

كثيراً ما يظهر الرئيس اليمنى على عبدالله صالح على شاشة التليفزيون فى لباسه الرياضى وهو يمارس العدو والسباحة والغوص، وربما وهو يتعامل مع الكمبيوتر والإنترنت، تأكيداً على إقلاعه عن تعاطى القات، وكيف أصبح هكذا موفور الصحة والحيوية والنشاط، لعل الشعب اليمنى يحتذى حذوه، فى إطار الدعاية للمشروع القومى الذى بدأه بنفسه واختار له شعار «يمن بلا قات»!

عن شجرة القات قال رجالات اليمن من السياسيين والعلماء والأدباء والشعراء الكثير من النقد والذم والهجاء، ونهضت جمعيات أهلية عديدة لمواجهة كوارث القات على كل صعيد منذ عام ١٩٩٥، بل خرجت أوائل عام ٢٠٠٣ مظاهرات شعبية ضخمة وغير مسبوقة فى طول البلاد وعرضها، ضمت أكثر من خمسة ملايين يمنى من بين تعداد السكان البالغ ٢٠ مليون مواطن، وتصدرها مختلف ألوان الطيف الرسمى والشعبى، فيما يشبه إعلان حرب المجتمع اليمنى ضد ديكتاتورية القات، ومع ذلك يظل التحرر والانعتاق من لعنة القات أشبه بالأمنيات السعيدة وأحلام اليقظة، حيث لاتزال الشجرة الملعونة تتحدى الجميع، بل تجتذب يومياً المزيد من الضحايا المتيمين بها، رغم ما يتواتر عن مضارها كونها تذهب بالعقول والجيوب، وتفتك بالصحة العامة، وتهدر الوقت والدخل القومى والخاص!

وتعجب للشعب اليمنى الباسل كيف خاض الثورات والانتفاضات بإرادته الصلبة تباعاً، ونجح فى التحرر من حكم أئمة آل حميد الدين البغيض فى الشمال والاستعمار البريطانى فى الجنوب، حتى قوض أسوار عزلته عن العالم التى امتدت قروناً، وشرع فى استعادة الوصال بموروثاته الحضارية، وكيف حقق معجزة الوحدة اليمنية وعض عليها بالنواجز حين داهمتها المؤامرة الانفصالية عام ١٩٩٤، ثم يزداد العجب لأنه نفس الشعب الذى يكابد الاستسلام والخضوع الطوعى لسلطان القات!



كنت فى اليمن إثر اندلاع ثورة ٢٦ سبتمبر عام ١٩٦٢، وفجأة أوشك نجمها الساطع على الأفول، حين انبرى الرئيس عبد الله السلال يندد بلعنة القات، ويدعو اليمنيين إلى الإقلاع عن تعاطيه، ويتوعد باقتلاع أشجاره، فلما أدرك أنه يسبح ضد التيار سكت عن الكلام المباح!

فى عام ١٩٧٢ عاد الأستاذ محسن العينى رئيس الحكومة اليمنية آنذاك إلى تأجيج الحرب ضد القات عبر أسلوب مختلف، لجأ أولاً للقاضى عبد الرحمن الإيريانى رئيس المجلس الجمهورى، وهو كان شخصية تاريخية بارزة ومرجعية دينية موضع احترام الجميع، وأقنعه بإصدار فتوى تؤكد أن القات مكروه شرعاً،



لم يعدم محسن العينى الوسيلة لمواصلة الحرب على القات، جلب من مصر شحنة من الصناديق تحتوى على كم هائل من دودة القطن التى تفتك بمحصولها القومى، ثم كلف من يسربها فى الخفاء إلى بعض مزارع القات، لعلها وعساها تلعب دوراً قومياً فى القضاء على أشجاره الملعونة



بالنظر لمضاره العديدة، فى الوقت الذى صدر قرار العينى باقتلاع أشجار القات المزروعة فى الأراضى المملوكة للدولة أو التابعة للأوقاف، بدعوى عدم مشروعية الصرف من ريعها على إيواء الأيتام وتعمير المساجد!

لكن أحداً من أصحاب مزارع القات لم يأبه لهذه المبادرات ولا اقتلع أشجاره، ووجدوا من بين رجال الدين من يفتيهم فى المقابل بمشروعية زراعة وبيع وشراء القات والاستمتاع بتخزينه عن قناعة وياطمئنان!

لم يعدم محسن العينى الوسيلة لمواصلة الحرب على القات، جلب من مصر شحنة من الصناديق تحتوى على كم هائل من دودة القطن التى تفتك بمحصولها القومى، ثم كلف من يسربها فى الخفاء إلى بعض مزارع القات، لعلها وعساها تلعب دوراً قومياً فى القضاء على أشجاره الملعونة، ولابد أنها سوف تزحف وتلتهم أوراقها، بل وقدر أن تبيض وتفرخ الملايين، وبعدها سوف تنتشر فى غيرها من مزارع القات وتعريتها بالتالى من أوراقها، إيذاناً بالنهاية المحتومة لهذا الداء الوبيل!

وعلى ما يبدو أن دودة القطن المصرى - على حد سخريات أهل اليمن - رفضت التدخل فيما لا يعنيها، ومن ثم امتنعت عن تنغيص المزاج اليمنى، وربما راق لها القات واستحلبته هنيئاً مريئاً كما لو أنها المعينة فى المثل القائل «جنتك يا عبد المعين تعيننى.. وجدت يا عبد المعين فى حاجة لمن يعينك، بينما لم يصدق على هذه الحالة المثل القائل «وداونى بالتى كانت هى الداء»!

لكن العينى لم يتراجع، دعا الأدباء والشعراء والوعاظ إلى مساندة حملته ضد القات وأجزل لهم العطاء، ومن ثم انبرى أحدهم وهو الشاعر أحمد المعلمى ونظم قصيدة عصماء يندد فيها بالقات مطلعها:

ورأى أن يحارب القات
فالقات بلاء دواؤه غير سهل
إنه سبة علينا وعار
نحن منها ممرغون بوحل
إنه آفة أقل مساويها
مضى ساعات من غير شغل
قاتل للأوقات وهو بلاء
لشباب فينا وشيخ وكهل
نحن نحيا عصر الفضا لم نعد
نحيا بجهل حياة عير وبغل
قد غزا عصرنا الكواكب بينما
بعضنا فيه ماشياً دون نعل

فلما سمع محسن العينى القصيدة أعجب بها، وكاد يعمم تداولها فى أجهزة الإعلام، لكنه تراجع عندما عرف أن الشاعر كتبها وهو يخزن القات والقاها فى أحد مجالس «تقويت» القات!

هكذا تأزمت العلاقة كما لو أنها الثأر بين محسن العينى ومافيا القات، حتى نال شرف وصفه بـ «العدو الأول للقات»، إثر قوله مؤخراً فى حديث صحفى «لا يمكن أن نبقى تنابلة السلطان.. نخزن

ونوسوس، نحلم ونتواكل ونكسل.. ونمد أيدينا للغير، يقيمون لنا المدارس والمستشفيات، ويقدمون لنا الطعام، وينشئون المصانع ويستصلحون الأرض، ويفتحون لنا الجامعات ويقدمون المنح الدراسية لأولادنا و.. كأننا قرة عين الزمان»!

على أنه في حوار معه عبر الفضائية اليمنية، استدرك وقع الصدمة في موقفه من القات، وقال إن اليمنيين كانوا في الماضي لا يداومون التخزين كما هو حالهم اليوم، إذ كانوا بين حين وآخر يخزنون بعضاً من أوراقه، ثم استطرد قائلاً «صحيح أن مجالس القات متنفس للحوار ومبعث للمسرات، إلا أنها باتت ظاهرة خطيرة، خاصة أن الشباب والأطفال راحوا ينضمون تباعاً إلى جموع المخزنين، ومن هنا استشعاري للخطر الذي يهدد حاضر اليمن ومستقبله» ولعله أقل وأدل على مصداقية وضرورات تجسيد شعار الحملة القومية «يمن بلا قات»!

القات مع أبرهة الحبشي:

القات مصدره أفريقيا، واسمه في الصومال «تشات»، وفي كينيا له عدة أسماء بحسب أنواعه.. «ميراء.. كات.. ميرانجي.. ليس.. طمايات.. ميلونجي.. ماونج»، وفي يوغندا يعرف بـ «موستات»، وفي الحبشة ومنها دخل اليمن في ركاب أبرهة وهو في طريقه لهدم الكعبة يسميه الأثيوبيون تيج أو تدج، وقد اكتشف الإمام شرف الدين القات في اليمن على حد رواية بعض المؤرخين، بينما يؤكد البعض الآخر أن الرعاة لاحظوا كم تنتشي أغنامهم كلما اقتاتت من أشجار برية معينة، فلما مضغوا واستحلبوا أوراق تلك الأشجار أدركوا سرها، ومن ثم ذاع صيتها وراح اليمنيون يقبلون على زراعتها وتعاطي أوراقها جيلاً إثر جيل، ومن المؤسف حقاً أن يقتلعوا أشجار البن اليمني الفاخر، وإحلال أشجار القات البغيضة مكانها!

والشاهد أن شهرة البن اليمني طبقت الآفاق منذ قرون مضت إلى حد صدور عشرات الكتب التي تتغنى بأوصافه وشمائله بلغات العالم، وبينها «كل شيء عن البن» الصادر عام ١٩٣٥ لمؤلفه ويليام إيكرز.. يقول: لعدة أجيال ظل «بن المخا». نسبة إلى تصديره للخارج عبر ميناء المخا. متميزاً عن كل بن العالم بنكهته الحارة وعطره وقليل من حموضته المستحبة، ويقول كيفن نوكس في كتابه «مبادئ البن» الصادر عام ١٩٥٧ «احتساء فنجان واحد من بن المخا يغنيك عن مذاق كل أنواع البن»، ويقول جون ثورن في مؤلفه «كتاب البن» إن بن اليمن له طعم النبيذ المعتق برائحة العطر»، وفي معرض البن السنوي الذي أقيم في سان فرانسيسكو في ١٤ أبريل عام ٢٠٠٠، كانت النشرة الصادرة عن أكبر شركة لتوزيع البن في العالم تقول: نحن ننفرد بالتعامل الحضاري منذ ستين عاماً مع بن المخا، فهو أفضل بن على الإطلاق، إذ يتميز بنكهة الفاكهة والبهارات وطعم الشيكولاته وأريج عطري فريد».



والمشكلة أن زراعات القات كما العملة الرديئة التي تطرد العملة الجيدة من السوق، حيث بلغت مساحاته المزروعة زهاء ٣٧٪ من الأراضي الخصبة، وتؤكد نتائج الإحصاء الزراعي أن هذه المساحة كانت ٨٠٠٠ هكتار عام ١٩٧٠ وزادت بنهاية عام ٢٠٠٠ نحو ١٠٢,٩٣٤ هكتاراً، أي أن نسبة التوسع في زراعة القات بلغت ١١,٨٧٪، ومعظم هذه الأراضي كانت تُزرع بالبن وشتى أنواع البقول والفاكهة، بينما يقدر عدد مزارع القات بحوالي ١٨٠ ألف مزرعة، موزعة بين أكثر المناطق ارتفاعاً ما بين ٨٠٠ إلى ٢٦٠٠ متر عن سطح البحر، ومعظمها في محافظات صنعاء وحجة والمحاديت وإب وتعز والبيضا وعمران والضالع.

مشكلة ثانية وتتعلق بالسحب المتواصل للمياه الجوفية واستخدامها في ري أشجار القات بنحو ٨٣٠ مليون متر مكعب سنوياً، وفي شربها كذلك خلال عملية تخزين ومضغ القات، مما يؤدي بالضرورة إلى جفاف وملوحة الآبار الجوفية، والتهديد باستنزاف الاحتياطي الاستراتيجي من المياه، وفاقم من خطورة التفريط في الثروة المائية، زيادة حفر الآبار عشوائياً، خاصة أن البنوك تتبارى في مد المزارعين بقروض ميسرة لشراء معدات الحفر والضخ!

المشكلة الأخرى وتكمن في انعكاسات «القات» السلبية على العلاقات الاجتماعية حيث يلتهم شراء القات بين ٣٠ إلى ٥٠٪ من ميزانية الأسرة، بينما تتراوح نسبة المتعاطين بين الذكور من ٧٥ إلى ٨٥٪، وما بين ٣٥ إلى ٤٥٪ بين الإناث، ويرصد بحث أكاديمي ميداني قيمة ما يستهلكه اليمنيون سنوياً على شراء القات زهاء مليارين ونصف المليار دولار بما يفوق ميزانية الدولة، والأدهى والأمر يتمثل في ظواهر الانحراف الأخلاقي، عبر تفشي حوادث الرشوة والاختلاس بين الموظفين محدودي الدخل لشراء ما يلزمهم من القات وارتياد مجالسه كمظهر للتفاخر والتواصل الاجتماعي مع الأصدقاء، وقد يتعثر الزوج عن الوفاء بمتطلبات أسرته والقات، وعندئذ قد يضغط على زوجته كي تبيع مصاغها ويحدث الشجار الذي يؤدي في النهاية إلى الطلاق!

على أن القات فجّر في السنوات الأخيرة مصيبة كبرى، حين استخدم المزارعون أصنافاً مغشوشة من المبيدات الحشرية والأسمدة العضوية لأول مرة لتسريع نمو أشجاره والإكثار من أوراقه، مما أدى لزيادة أرباحهم بشكل غير مسبوق، حتى انكشف مصدر انتاجها في إسرائيل رغم منع استخدامها دولياً، مثل الد د.تي والتوباز والديوكسين والسماد الحديدي، مما أدى إلى تصاعد نسبة مرضى السرطان والفشل الكلوي، خاصة في مناطق زراعة القات مثل إب وماويه وشرعب وهمدان وجبل حبر، وهكذا أضيفت أمراض جديدة إلى جملة الأمراض المعروفة للقات، وبينها التليف الكبدي وتشوهات الأجنة وزيادة التوتر العصبي والمغص والإسهال والصداع والضعف الجنسي والجفاف العاطفي بين المتزوجين، إلى غير ذلك من الإصابة بجلطة المخ لدى المصابين بتصلب الشرايين، واحتمال الإصابة بالبواسير والقلق والاضطرابات النفسية والعصبية، وتكسير الدهون وزيادة ضربات القلب والعقم، فضلاً عن تصاعد معدلات حوادث السيارات والسرقات والنهب المسلح!

على ما يبدو أن دودة القطن المصري. على حد سخريات أهل اليمن. رفضت التدخل فيما لا يعنيها، ومن ثم امتنعت عن تنغيص المزاج اليمني، وربما راق لها القات واستحلبته هنيئاً



دحض الشبهات حول القات:

إذا كان اليمنيون يدركون إلى أي حد مساوئ ومفاسد ومضار القات الاجتماعية والاقتصادية والزراعية والصحية والنفسية.. فلماذا إذن كل هذا الإسراف في تعاطيه؟ ولماذا يضيعون نحو ٢٠ مليون ساعة يومياً في ممارسة هذه العادة المرذولة بلا طائل من العمل والإنتاج أو الإبداع؟ لماذا وتعاطي القات يمكن الإقلاع عنه بسهولة إذا ما توافرت الرغبة والإرادة.. خاصة أن القات منبه لا يفضي للإدمان كما هو الحال مع المخدرات النباتية والمصنّعة؟



لابد أن وراءه إذن سراً لا يدرك وسحراً طاغياً يستبد بالأفئدة والعقول والجيوب، فهل تراه كذلك؟

الإجابة دائماً يختلف حولها أهل اليمن وعلى النقيض، بين فريق لا يجد في القات سوى الضياع والهلاك، وبين من يراه كذلك ولكن يظل أقل خطراً من الانزلاق إلى هاوية المخدرات، والدليل على ذلك أن أجهزة الأمن في مصر نجحت إلى حد كبير في إغلاق منافذ تهريب الحشيش اللبناني، فكانت النتيجة أكثر وبالاً بعد انتشار شم بودرة الهيروين والكوكايين الأخف وزناً والأكثر ربحاً والأفدح خطراً، حيث الشفاء من إدمانها يحتاج إلى وقت طويل وكلفة باهظة، إلى ذلك يضيف أصحاب هذا الرأي الإشارة إلى أن زراعة وتجارة ونقل وبيع القات يستوعب ما يزيد على مليون مواطن من العاملين في هذه المجالات، فكيف يجوز في حالة منع القات، إضافة هذا العدد إلى نحو مليوني عاطل في اليمن بلا عمل!

يقول الشاعر اليمني الكبير إبراهيم الحضراني وهو من خصوم القات:

قف معي يامن تخاف الأزمات
نضرب القات بسوط اللعنات
ما رأينا مثله ضرراً
ينزل السوء بمجد العائلات
يقتل الإنسان مستقبله
عندما يألف تدخيناً وقات

ويقول الشاعر السوري المسليمان العيسى بعد أن جرب تخزين القات وعاش أجواء مجالسه:

سم به وطن الأحرار يقتات
سم يدمر من عاشوا ومن ماتوا
متى ستنفض عنك الداء يا بلدي
متى سيعدم هذا المجرم القات

لكن هناك ممن يطيب له تخزين القات، لا يصدق ولا يريد أن يصدق ما يتردد عن أضراره، كما لا يرى ثمة طعماً للحياة ولا جدوى لها بدونه، ثم إن تخزين القات مسئولية متعاطيه، ولا دخل للدولة أو المجتمع بالحريات الشخصية! بل إنني سمعت من الشيخ عبدالله الأحمر شيخ مشايخ قبيلة حاشد ورمز القبيلة المستنيرة في اليمن، إضافة لكونه رئيس مجلس النواب ما يتفق مع هذا الرأي، إذ يرى أن لكل شعب مزاجاً خاصاً يروح به عن همومه ومتاعبه ويمنحه الشعور بالسعادة والراحة، ومن هنا راق القات مزاجاً خاصاً لليمنيين دون غيره من المسكرات أو المغيبات، ولعله يفسر لماذا

يزرع اللبنانيون الحشيش بينما يدخنه غيرهم مثل المصريين.

حتى فقهاء الإسلام فى اليمن يختلفون أو يجتهدون حول مشروعية القات من عدمه، ومن المعروف أن الإمام شرف الدين كان قد أفتى عام ٩٥٠ هجرية بتحريم القات، مما أثار عليه حفيظة الفقهاء والمتصوفين والشعراء الذين انبروا للدفاع عن القات، مما دفعه إلى تحليل ما سبق وحرمه، ومنذ ذلك الحين صار القات قضية دينية وسياسية واجتماعية محل خلاف، وصدرت بشأنه عشرات الكتب التى وضعها علماء اليمن، وبينها «تحذير الثقات من استعمال القات» للعلامة ابن حجر الهيثمى، و«البحث المسفر عن تحريم كل مسكر ومفتر» للقاضى الشوكانى، و«دحض الشبهات حول القات» للعلامة عبدالله العمودى، وكتاب «ترويح الأوقات فى المناظرة بين القهوة والقات»، كما صدر مؤخرا كتاب «القات فى الأدب اليمنى والفقه الإسلامى»!

ورغم أن الله سبحانه يقول فى قرآنه الكريم «ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة»، مما يؤكد أن الشريعة مع جلب المصالح ودرء المفاسد، إلا أنه على ما يبدو أن مافيا القات تمارس إرهابها حتى على رجال الدين، وإلا لماذا لم يجمعوا على فتوى تحرم القات رغم الاتفاق على مضاره الجمة؟!

يقول القاضى محمد قاسم الشامى عضو المحكمة العليا «القول بالتحريم أو مقاطعة القات راجع للدولة، فهى التى تقدر المصلحة العامة من خلال الدراسة المستفيضة للمشكلة، والصحيح الذى يجمع عليه جمهور العلماء حول أدلة التحريم الواردة بشأن كل مخدر أو مفتر خاصة فى ضوء ما تواتر عن مضار القات الصحية والاجتماعية والاقتصادية، ولأن البلوى عمت، ولأنه إذا أردت أن تطاع فلا تأمر إلا بما لا يستطاع، ومن هنا أوضح أن المطلوب والممكن ليس الوعظ والنصيحة فحسب، وإنما شحذ الهمم وبعث الإرادة والإدراك المعرفى بمخاطر القات، وهو الدور الذى يجب أن تلعبه الأجهزة الثقافية والإعلامية والسياسية، بحيث تتوافر القناعة الطوعية بالإقلاع عن القات.

مجالس القات:

فى مجلة «ريدرز دايجست» الشهرية التى كانت تصدر منها طبعة عربية بعنوان «المختار» إبان الحرب العالمية الثانية، قرأت مقالاً للأثرى المغامر وندل فليبس الذى اكتشف العديد من آثار الحضارة اليمنية فى مأرب، وروى كيف ساعد تخزين القات على التفاهم مع اليمنيين وفهمهم، ويبدو أننى سرت على خطاه ووصلت إلى ما وصل إليه دون أن أدرى، ولا كان فى حياتى إدراك سر عشق أهل اليمن للقات.



وقد تذهب إلى اليمن للعمل أو السياحة وتمتد إقامتك أياماً وأعواماً طوافاً فى ربوعه، لكنك لا تستطيع الحصول على تأشيرة الولوج إلى الشخصية اليمنية، وشهادة معترف بها على توغلك فى دروب العقلية اليمنية والإحاطة بتضاريسها الإنسانية والوجدانية، إن لم يتأت لك خوض تجربة تخزين القات فى الجانب الأيسر من الفم، وهى حركة لا إرادية يصعب استبدالها بالجانب الأيمن (دون أن تدرى لذلك سبباً) وعليك أن تمضغ أوراق القات ببطء وعناية، ثم عليك بعدها أن تعتصره تباعاً وتستحلب رحيقه رويداً رويداً حتى يسترخى بدنك ويصفو مزاجك وتستيقظ مشاعرك وتتحشد حواسك يقظة وتألقاً، وقد تكون محاوراً أو مبدعاً أو مجرد مستمع أو متأملاً وربما هائماً فى ملكوته سبحانه، وربما مناجياً طيف الحبيب المجهول أم المعلوم و.. لله فى خلقه شئون!

ولأن مجالس القات تبدأ فى ساعة القيلولة إثر الفراغ من طعام الغداء، من هنا وصف مجلس القات بـ«المقيل»، وللنساء أيضاً مقيل يسمى فى صنعاء «التفرطه»، و«النشرة» فى الحديدة، و«القيلة» فى تعز وعدن، لكن يظل المقيل الصنعانى بطقوسه الحضارية الأكثر شهرة وإمتاعاً، ولم لا وصنعاء مدينة التاريخ والحضارة وأقدم مدينة فى العالم، واسم صنعاء يشى بمعنى الصناعة والحرفة.. يقول «معجم البلدان» أن صنعاء كناية عن جودة الصنعة فى ذاتها.

القات للجميع:

يصل القات طازجاً لصنعاء فى العاشرة صباحاً إلى حيث بيعه وشرائه فى أسواق «قاع اليهود» و«الملح» و«باب سبح»، والطريف أن يتسلل الموظفون من أعمالهم لشراء القات الجيد قبل نفاده، بينما يتركون على مكاتبهم ما يدل على دوامهم فى العمل مثل شال العمامة أو علبة السجائر أو المسبحة.

نبات القات أنواع وأشكال، بينه الفاخر ذو اللون الأصفر قبل اخضراره، وغير المرشوش منه بالمبيدات الحشرية، هو الذى يقبل الأثرياء وعلية القوم على شرائه مهما غلا ثمنه، ومنه الطويل والقصير العود ويتراوح فى شكله وملمسه بين أوراق الملوخية والجرجير وشجرة «الفيكس» التى تنمو على أسوار الفيلات والقصور فى مصر، ومن أسماء وأنواع القات.. الضلاعى والمطرى والصبرى والهمدانى والحرازى والشامى والمغربى والبخارى والوادى والعصرى.

نحن الآن فى أحد البيوت الصنعانية العريقة، والمقيل أجمل وأهم أركانه، وقد فرش بالسجاد أو البسط الملونة، وتناثرت الحشيات الوثيرة حول أضلاعه المستطيلة بارتفاع ٣٠ سنتيمتراً، وقد غطيت كذلك بالسجاد الناعم وفى جنباتها «مساند» للظهر وكذلك «المتكئات» لراحة الذراعين، وعادة ما يتسع المقيل لعشرة أشخاص فى المتوسط، وربما المئات كما هو حال المقيل فى قصور مشايخ القبائل، ودائماً ما يتوسط المقيل مداعة أى «نرجيلة»، وربما عدة مداعات من النحاس المشغول تمتد منها «الليات» جمع «لى» إلى شفاه المخزنين إن شاءوا تدخين التمباك المشتعل، فيما يحرص صاحب المقيل على أن يوفر عبوات الماء المعدنية وزجاجات المشروبات الغازية!

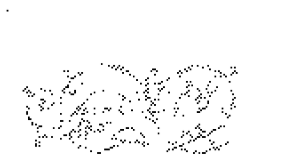
يحتل المقيل فى الغالب أجمل وأعلى مكان فى البيت الصنعانى وعندئذ يسمى «المفرج»، كونه يوفر الرؤية البانورامية التى تحيط بالعاصمة وعماراتها الحضارية!

لكل مقيل هوية اجتماعية أو ثقافية أو سياسية، كما أن للأحزاب والنقابات والجمعيات مقايل خاصة، وإلى وقت قريب كان لكل وزارة ومؤسسة حكومية مقيل خاص، حتى صدر قرار رئيس الجمهورية بتحريم تعاطى القات على الموظفين والشرطة والجيش خلال فترات الدوام سواء فى دواوين الحكومة أو المعسكرات، وقد شهدت صنعاء أوائل السبعينيات ظاهرة المقايل السرية التى كانت تضم عناصر الحركات الوطنية واليسارية إبان كان المقدم محمد خميس مديراً للأمن العام، لكن مع بزوغ فجر الوحدة اليمنية والديمقراطية التعددية السياسية، تلاشت هذه الظاهرة تدريجياً!

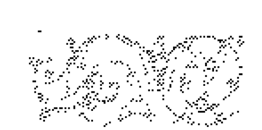
يدخل الضيوف إلى المقيل وكل منهم يتأبط حزم القات ملفوفة بالبلاستيك وكانت تلف فى الماضى بأوراق الموز حتى تظل طازجة، يسلم الضيف على من سبقوه فى الحضور باليد أو بإيماءة من رأسه وأحياناً يأخذ مكانه فى المقيل بهدوء حتى لا يقطع على الضيوف حديثهم، وعندئذ ينبرى أحدهم قائلاً: «حيا الله من جاء»!

يبدأ الضيف فى تنقية أوراق القات من الشوائب وينتخب الصالح منها للمضغ تباعاً، حتى ينتفخ خده الأيسر، بعدها تبدأ عملية المضغ والاستحلاب، وخلالها يتبادل الحاضرون أعواد القات من باب تنويع المذاق وجلباً للمودة.. ويستمر الحال هكذا فى أحاديث جانبية أو ثنائية إلى حين وصول الجميع إلى ذروة النشوة والحيوية، وعندئذ يدق صاحب المقيل أو كبير المخزنين ويعلن اختيار موضوع الساعة الأنسب للحوار حوله، وأشهد أن الجميع ينالون دوماً حظوظهم من الحوار الديمقراطى الخلاق بالعدل والقسطاس مهما تدنى الوضع الطبقى أو الوظيفى!

من أشهر المقايل الثقافية حتى سنوات قريبة فى صنعاء، تلك التى كان



يلتهم شراء القات بين ٣٠ إلى ٥٠٪ من ميزانية الأسرة، بينما تتراوح نسبة المتعاطين بين الذكور ٧٥ إلى ٨٥٪، وما بين ٣٥ إلى ٤٥٪ بين الإناث



يتصدرها الشاعر اليمنى الفحل عبدالله البردونى، ورغم أنه كان ضريراً يرحمه الله، إلا أنه كان موسوعى الثقافة، محيطاً بأمهات الكتب قديمها وحديثها، وهو كان راوية وفناناً وناقداً وساخراً، وكم أسمع أصدقاءه وحوارييه العجب العجاب من نوادر وحكاوى العصر العباسى وربما ذكرياته عن أئمة بيت حميد الدين الذين حكموا اليمن زهاء ١٥٠ عاماً داخل أسوار العزلة، فلا سمع الشعب اليمنى عن الحرب العالمية الأولى ولا الثانية!

على أن أرقى مقايل صنعاء الآن، ذلك الذى يتزعمه الدكتور عبدالعزيز المقالح وهو كان مديراً لجامعة صنعاء والآن مديراً لمركز الدراسات اليمنية، وهو شاعر عظيم وشخصية لامعة وإنسان ودود. وهذا المقيل بمثابة مدرسة أدبية وندوة سياسية يومية، وأعتقد أنه لا غنى عنه لمن يتردد على اليمن لفهم أوضاعه وشواغله على كل صعيد، والتعرف على نجومه الواعدة فى الشعر والقصة والغناء والموسيقى.

وأحياناً ما يستضيف المقيل اليمنى مطرباً أو منشداً أو عازفاً، وقد تعجب حين ينهض رجلان ويندمجان برشاقة فى حلقة للرقص الشعبى لا تتجاوز مساحتها مترين مربعين، وقد تعجب أكثر عندما تعرف أن الغناء والرقص عنصر أساسى فى مباهج مقايل الجنس اللطيف، إلى جانب الدور الذى تلعبه فى اختيار الأمهات زوجات لأبنائهن من بين المخزنات، واستعراض آخر موضات الأزياء والروائح العطرية الشعبية والبارفانات الفرنسية وأنواع الحلى الفضية والذهبية والماسية، بل إن الفرصة سانحة أيضاً للبيع والشراء فى هذه الكماليات!

لكن تظل الشائعات أبدع ما يتردد فى المقايل الصنعائية، وعبرها يمارس اليمنيون ذكاءهم الحاد وسخريتهم من مساخر الحياة، وهى عادة قديمة تحدث عنها المؤرخ الكبير أبوالحسن الهمدانى فى مؤلفاته التى يرجع تاريخها قبيل ألف عام حين قال: «ما رأيت كأهل صنعاء يرجفون على أنفسهم»!

أذكر أن إطلاق وترويج الشائعات كان أخطر وقعاً وانعكاساً على أمن القوات المصرية فى اليمن، عبر عملاء الإمام البدر المخلوع والرجعية العربية والاستعمار البريطانى فى عدن، فكانوا ينتشرون فى المقايل، ويبثون ألوان الكراهية والتشويه للدور المصرى القومى النبيل، فلم يكن بوسع القيادة العسكرية المصرية فى اليمن سوى النسج على منوالهم، وشن الحرب النفسية ضد خصوم الثورة اليمنية عبر ترويج الشائعات المحبوكة فى المقايل!

ولأن لتخزين القات أوقاتاً، لذلك ينتهى المشهد الافتتاحى للمقيل الصنعانى حين يبلغ المتعاطون ذروة المضغ والاستحلاب، ليبدأ المشهد الثانى بغياب ضوء الشمس وهو ينعكس إلى داخل المقيل ويضفى لمساته الشاعرية على المقيل وعلى المقيلين عبر زجاج النوافذ التى تجمع بين ألوان الطيف، إيذاناً بحلول «الساعة السليمانية» التى يبلغ فيها الضيف ذروة النشوة والابتهاج والراحة النفسية، وهى أسطورة موروثة تدعى أن سيدنا سليمان كان يتعاطى القات، بعدها تضاء المصابيح وينفض السامر، ليبدأ المخزن فى إفراغ فمه من بقايا القات، وفسخ العلاقة مع تأثيره المنبه قبل أن يحل به الكسل والفتور عبر احتساء مشروب مركز من الشاى أو قشر البن و...




هكذا يعود متعاطى القات إلى منزله كسولاً بعد زهاء خمس ساعات استهلكها فى شرائه وتخزينه، وبدلاً من مداعبة زوجته ومتابعة أحوال أولاده وتحصيلهم الدراسى، إذا به يتجه مباشرة للنوم والتفكير فى دورة القات العبثية فى الغد!

إن المشكلة على حد إجماع العلماء والأطباء والمثقفين فى اليمن ممن لا يتعاطون القات، تحتاج إلى علاج غير تقليدى وحلول خلاقة مبتكرة، خاصة بعدما تأكد فشل القانون والقدوة الحسنة والتهديد بقلع أشجاره أو تسريب دود القطن إلى مزارع القات، البعض يقترح تغيير مواعيد العمل الرسمى فى مؤسسات الدولة بحيث تستوعب أوقات تخزين القات، وهناك من يرى الحل فى خلق بدائل للترفيه عبر زيادة الأندية الرياضية والمسارح ودور السينما والمتنزهات والمكتبات، أو عدم ترقية الموظفين المتعاطين للقات و...

فى كل الأحوال يظل أهل اليمن ولاشك أدرى بشعابه وأقدر على الوصول بالمشكلة إلى مرافئ العقلانية والأمان، ونحسب أن تبديد الأوهام والأكاذيب السعيدة التى تروج للقات وفوائده وجدواه إنما هى البداية السليمة، ولعل فى مقدمتها ما يُشاع عن إصابة كل من يمتنع عن تعاطى القات بمرض نفسى وهمى ما أنزل الله به من سلطان ويدعى «الازم»، إلى حد الاعتقاد أن وضع «الجنبية» أو الحذاء تحت الرأس أثناء النوم، يفضى إلى طرد كوابيس الأحلام المزعجة والشفاء تدريجياً من مرض الازم! ■



أحمد لطفى السيد

الانتماء الحزبى

على أن الحزب فى كل مجلس يجب أن يكون له قائد يقوده ويجب على كل عضو أن يضحى دائمًا رأيه لرأى حزبه كما قال أحد النواب فى أمة من الأمم المتمدنة: (سمعت فى المجلس خطابات كثيرة بعضها غير اعتقادى ولم تغير واحدة منها صوتى) فإذا كان كل نائب يريد أن يكون هو قائد حزبه فلا حزب ولا قيادة.

نوابنا - إليكم ألقت الأمة مقاليدها فألقوا مقاليدكم إلى قادتكم. وليكن تخيركم للمذهب الذى تسيرون عليه فى التشريع بعد الفكرة والروية. إنه لا يطعن على النائب أن لا يكون هو قائد الفكرة التى تربطه بأصحابه ولا يطعن عليه أنه ليس الخطيب المفوه الذى يقف كل يوم فى منبر الخطابة ليدافع عن آراء حزبه. ولكن يطعن عليه كل الطعن، أن يسلم مقاليد آرائه للصدفة أو أن يغلبه حب الشهوة على حب مصلحة البلاد.

نوابنا - إن الحكم على كفاءة الأمة المصرية للحكم الذاتى موقوفاً على ما تبدونه من أصالة الرأى والاستقلال وحسن التقدير فيما بأيديكم من مصلحة الأمة والجرأة فى انتقاد أعمال الحكومة، وعدم المبالاة فى تقدير الحق والنافع.

نوابنا - إن أمة اليوم ليست هى أمة الأمس - فقد شهدتم بأنفسكم حركة الانتخاب. وعلمتم عن قرب أن عوامل الحركة الانتخابية ليست هى عواملها القديمة وأن نتيجتها الباهرة بانتخابكم أكبر دليل على أن أطماع الأمة قد تغيرت ومطالبها من نوابها قد تضاعفت. لا تكلفكم الأمة فوق المستطاع ولا صرف النظر بالمرة عن الظروف المحيطة بالبلاد، ولكنها تطلب إليكم أن تؤيدوا الحرية بكل معانيها فإنها إليها أحوج ما تكون.



فتح الله الشيخ

«يأتى تهديد البقاء للجنس البشرى من الجنس البشرى نفسه، من سوء توظيف التكنولوجيا للأغراض الشيطانية والأنانية وولع الإنسان بالأذى والشر الذى هو أخطر عليه من الزلازل وثورات البراكين والعواصف والفيضانات وموجات الجفاف والفيروسات والميكروبات»

آرنولد توينبى «خيار الحياة»

مقدمة:

تحدق بالإنسان أخطار لا حصر لها، بعضها نادر الحدوث ضعيف الاحتمال، مثل اصطدام نيزك أو شهاب بكوكب الأرض أو انفجار مستعر أعظم[1] بالجوار، والبعض الآخر شائع «مألوف» نراه حولنا فى كل مكان مثل حوادث الطرق ونزلات البرد. وبين هذه وتلك تتفاوت فرص حدوث آلاف الأخطار والكوارث الماثلة والمعروفة. وتحتجب خلف المجهول أعداد لا يعلمها إلا الله من أخطار وكوارث غير معروفة أو «مألوفة»، لكنها متوقعة. كما عودنا تاريخ الإنسانية مثل ما حدث مع الفيروس المسبب لأعراض نقص المناعة المكتسبة «الإيدز» وفيروس مرض الالتهاب الرئوى اللانمطى «سارس». ويسجل التاريخ سلسلة من الكوارث والأخطار التى تعرضت لها البشرية من كل نوع وبكل المقاييس. ونظرا لطول الفترة التى يحتفظ التاريخ فيها بسجلاته عن الكوارث والأخطار، وللظروف المتغيرة بوتيرة متسارعة، فإن الحديث عن التوقعات والاحتمالات، وعن طرق درء الأخطار الناجمة عن الكوارث بأنواعها أصبح ملحا وممكنا، بل واجباً تفرضه الحضارة الحديثة وعقائد الحفاظ على البشرية وإنجازاتها.

وتنقسم الكوارث والأخطار مبدئيا إلى طبيعية، تقع على الإنسان دون تدخل منه أو دون أن يتسبب فيها مباشرة مثل الزلازل والبراكين والأعاصير والفيضانات وموجات الجفاف وصدمات الشهب والكويكبات، وأخرى من صنع الإنسان بدءاً من الشجار والأذى النفسى فى علاقات الناس ببعضهم فى الأسرة والعمل والزواج والصداقة، وانتهاء بالحروب عظيمها وصغيرها. وأخطار التقدم التكنولوجى المهول، والتلوث الشامل للمحيط الحيوى[2] لكوكب الأرض، ومروراً بكارثة خاصة ومميزة للجنس البشرى فقط وهى أنظمة الحكم الدكتاتورية الشمولية التى حصدت من أرواحهم مئات الملايين.

ومقدمة أخرى

كانت هذه مقدمة لا بد منها للدخول فى موضوع الكوارث والأخطار، غير أنها لا تكتمل إذا لم نظهر امتناننا واعترافنا بالجميل لسلسلة من الكوارث الطبيعية الرهيبة الخارقة التى أدت فى نهاية الأمر إلى تسيد جنس الإنسان العاقل على كوكب الأرض بمن وما عليه من كائنات. فكوننا الذى نعرفه. نراه ونختبره ونحاول السفر عبره. قد نشأ فى «كارثة» مهولة هى ما يعرف بالانفجار الرهيب أو «بيج بانج Big Bang»[3] منذ حوالى ١٣ بليون سنة (البليون = ألف مليون). و«كارثة» أخرى تكونت بها المجموعة الشمسية، وهى كارثة تتكرر فى جميع أرجاء الكون بين حين واخر فى المجرات المختلفة. انفجار «مستعر أعظم Supernova» منذ ٤.٥ بليون سنة، الأمر الذى نشأ عنه نجمنا العظيم وأسرته من الكواكب، الشمس ومجموعتها من التوابع الطبيعية. أما الكارثة الثالثة فقد كانت اصطدام نيزك أو شهاب بكوكب الأرض منذ ما يقرب من ٦٥ مليون سنة، الأمر الذى قضى على الديناصورات وأنهى العصر الطباشيرى[4] وأتاح أفضل الظروف لازدهار وتشعب الثدييات التى ورثت سيادة كوكب الأرض بعد انقراض الديناصورات. وقد تُوِّجت هذه السيادة بظهور الإنسان، الذى واجه تحديات كارثة رابعة. هى انحسار الغابات ونزوله للصيد بعد أن كان جامعا للثمار فقط فى الغابات وعلى الأشجار، منذ حوالى مليونين ونصف المليون من السنين.

حدث الانفجار الهائل ثم تكونت المجموعة الشمسية وانقرضت الديناصورات بعد مدة ثم انحسرت الغابات واحترف الإنسان الصيد، وانتهت سلسلة الكوارث العظمى بالسيادة شبه المطلقة للإنسان على كوكب الأرض بمن وما عليه. دخلت البشرية بعد ذلك فى سلسلة من العصور. الحجرى بأقسامه ثم البرونزى فالحديدى. وتوالت الموجات الحضارية. الزراعية فالصناعية فالمعلوماتية والاتصالات وأخيرا موجة العولمة الطاغية. اخترعت البشرية بين هذه العصور الكتابة، فى مصر بالذات، وعرفت الاستقرار بعد اختراع الزراعة وتركت حياة الترحال خلف الفرائس باقتناص وتدجين حيوانات الرعى، فتكونت المجتمعات الكبيرة. القرى العظمى والقبائل العظمى. التى تحولت فيما بعد. وفى سياق التطور الطبيعى، إلى أمم ومدن وممالك وإمبراطوريات.

ومع التحول من جمع الثمار إلى الصيد ثم من الصيد إلى الزراعة وحدوث التطور المواكب من قبائل تجوب السهول بحثا عن الفرائس إلى مجتمعات مستقرة وأمم ودول وإمبراطوريات، ظهرت المجتمعات اللاشخصية، أى تلك المجتمعات التى لايعرف الناس بعضهم بعضا فيها. وقد أصبح مزيد من الوقت متاحا للتأمل والتفكر «والدراسة» بعد الوفرة الكبيرة فى الغذاء، فتفرغ الناس بعض الوقت بينما تفرغ بعضهم طول الوقت، فتشكلت البدايات الأولى للحكومات من رؤساء ورموز القبائل والعشائر. وقد اتسمت هذه المجتمعات ببدايات أنماط من السلوك لم تكن معروفة من قبل، لكنها قطعا من الكوارث التى «أبدعها» الإنسان، مثل الكذب والخداع والخيانة والدعارة والشذوذ والرق والحروب والأسر ومعسكرات الاعتقال والتطهير العرقى والمذهبى والإيديولوجى والسجون وتعذيب الإنسان لأخيه الإنسان. وظهرت «كارثة» فى غاية الخصوصية» اسمها الزواج لتمنح الأفراد المرتحلين للصيد من أبناء القبيلة شيئا من الاستقرار الأسرى، فيعود كل منهم بعد العناء والشقاء إلى زوجة وأبناء تقر بهم عينه، ثم استمرت الفكرة حتى بعد موجة الحضارة الزراعية لتمنح الاستقرار والأمان للمرأة والرجل معا.

وهكذا جاءت «الكوارث» الطبيعية. على قسوتها وهولها فى تسلسل تنازلى من الانفجار الهائل الذى بدأ به الكون وحتى انحسار الغابات الذى دفع بالإنسان إلى السهول وتكوين الجماعات «القبائل» واحتراف الصيد، جاءت هذه «الكوارث» بالإنسان سيدا فوق الجميع. لكنه عندما تسيد أتى «بكوارث» من نوع جديد غير طبيعى. كوارث من صنعه، كوارث ضارة مهلكة.

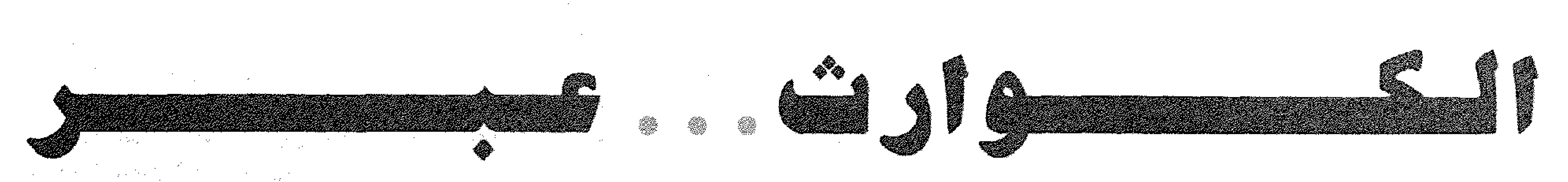
الحاضر..

نظرة عامة

على بعض الأرقام:

إذا حصرنا أعداد الناس الذين أضيروا بشكل مباشر. بدرجات متفاوتة. من الكوارث الطبيعية بين عامى ١٩٩١ و ٢٠٠١ لوجدنا أن ثلث سكان العالم تقريبا (٢.٤بليون) قد تعرضوا مرة واحدة على الأقل لنوع من الأخطار والكوارث الطبيعية (تعرض بعضهم أكثر من مرة). وتتوزع أنواع الكوارث والأخطار تبعا لأعداد من تعرضوا لها كما هو مبين بالشكل (١)، حيث يتضح أن الفيضانات تصيب قرابة الثلثين من أعداد المضارين (٦٤.٠٪) يليها فى ذلك موجات الجفاف (!!!)، والتى تصيب ١٩٪، ثم الأعاصير ونصيبها ١٢ ٪ من المضارين. أما الزلازل والبراكين والانهيارات الأرضية والجليدية وحرائق الغابات والأمراض المعدية فكلها لا تصيب أكثر من ٥.٠ ٪ (!!!) من المضارين. وكأن الماء و«سوء» توزيعه بين الفيضانات والجفاف يلعب الدور الرئيسى فى الكوارث الطبيعية التى تصيب البشر (٨٣.٠ ٪ من المضارين)، فإذا أضفنا الهواء فى صورة الأعاصير لأمكننا القول بأن جيشان الماء والهواء وتحركاتهما الديناميكية المضطربة تصيب ٩٥.٠ ٪ من أعداد المضارين بالكوارث الطبيعية. أما جغرافياً (الشكل ٢) فإن أعداد المضارين تتوزع أولا على قارة آسيا ومنطقة الباسفيك بنسبة ٨٩.٥٪ ثم إفريقيا ونصيبها ٧.٥٪ فى الوقت الذى فيه نصيب بقية مناطق العالم ٣.٠ ٪ فقط من المضارين.

ومن الجدير بالذكر أن عدد الكوارث والأخطار التى وقعت بين عامى ١٩٩١ و٢٠٠١ كان حوالى ٣٧٠٠، وكان أكثرها تأثيرا الفيضانات التى وقعت فى الصين سنة ١٩٩٨ وأضرت بحوالى ٢٣٠ مليون نسمة. ومن بين ست كوارث أصاب كل منها أكثر من ١٠٠ مليون نسمة وقعت خمس فى الصين والسادسة فى الهند(!!!)، وكانت جميعها فيضانات. وفى عام ٢٠٠٢ تأثر حوالى ٦٢٠ مليون نسمة بالكوارث الطبيعية كان نصفهم من نصيب موجة الجفاف التى ضربت العديد من الولايات الهندية. وليس من المستبعد أن تكون مصر قد تعرضت



أحمد اللباد

لموجات من الفيضان والجفاف لولا الحارس الأمين. السد العالى. الذى حمانا من موجات الجفاف التى قضت على مئات الآلاف فى أثيوبيا والفيضانات العارمة التى أغرقت السودان الشقيق.

ومن المعروف أنه فى المتوسط تحدث الأعداد التقريبية الآتية من الكوارث والأخطار سنويا: ١٠٠ زلزال قوى مدمر، و١٠٠٠٠٠ عاصفة رعدية، ١٠٠٠٠ فيضان، و٢٥٠ انزلاقا أرضيا، و٢٠٠ تورنادو، وعشرات العواصف وحرائق الغابات وثورات البراكين وموجات الجفاف وموجات التسونامى (موجات عملاقة من المحيطات تكتسح وتجرف المدن والمنشآت الساحلية وتنشأ من الزلازل التى تضرب قاع المحيط). وقد شهد العالم خلال القرن الماضى ما يربو على ١٠٠ زلزال مدمر حصد كل واحد منها من الأرواح أكثر من ١٠٠٠.

من التاريخ البعيد:

قرب نهاية القرن الثالث قبل الميلاد وفى سنة ٢١٨ ق.م. تحديدا، وعندما قاد هانيبال جيوشه متجها إلى روما عبر جبال الألب، تتقدمها الفيلة ثم الفرسان، كان أول وأكبر أعدائه الانهيارات الجليدية التى تعرض لها وقضت على خمس جيوشه (٢٠ ألفا من بين ١٠٠ ألف جندى وألفا فرس وعدد كبير من الفيلة). لم تكن الانهيارات الجليدية إلا واحدة من الكوارث العديدة التى لعبت دورا فى الأحداث السياسية والاجتماعية وفى تسلسل الحضارات عموما. فالعلاقة بين كوكب الأرض والمنطقة الكونية المحيطة به كانت دائما علاقة صدام سجلتها البيانات والروايات عن كرات النار والمذنبات والشهب، وعن العصور الجليدية المتناوبة بسبب الغبار الناتج عن انفجار أو اصطدام الكويكبات بالغلاف الجوى للأرض ونفاذها أحيانا. إذا كانت كبيرة بما فيه الكفاية. إلى سطح الأرض مثيرة للغبار والحرائق والدمار، أو بسبب الغبار المتصاعد من ثورات البراكين.

صعود وانهيار الأسر الحاكمة:

تشير بعض الدراسات إلى ارتباط الكوارث بالتغيرات السياسية العظمى. ويؤكد ذلك مقارنة بعض الأحداث فى التاريخ بأزمنة حدوث الكوارث. فقد بينت دراسة الحلقات السنوية لأشجار البلوط المتحفرة فى إيرلندا أن الضيق الذى يصيب هذه الحلقات يتزامن مع أحداث كبرى وجدت سجلاتها فى طبقات الجليد فى جرينلاند. ومن المعروف أن التغيرات التى تطرأ على الظروف المناخية تسجل فى شكل تغيرات فى اتساع الحلقات السنوية أثناء نمو الأشجار. وإذا كانت هذه التغيرات كبيرة واسعة الإنتشار فإن الجليد المترسب فى المناطق القطبية دائمة التجمد يسجل هو الآخر هذه الأحداث على صورة نسب متفاوتة من الغبار أو الغازات فى طبقاته المتعاقبة. وقد اتضح ارتباط ثلاثة أحداث على وجه التحديد بثورة بركان «هيكلا» فى آيسلندا، وثورة «سانتوريني» فى بحر إيجة، وثورة «هيكلا٣» كما يوضح الجدول الأول:

ترى، هل حدث ما حدث بشكل حاد وفجائى، كما هو متوقع من ثورة بركان، أم أنه جاء نتيجة تراكم للعوامل الهدامة إضافة إلى أوضاع اجتماعية وسياسية متدهورة بالفعل؟ والأرجح هى الإجابة الثانية والتى تطرح بدورها تساؤلاً مهماً آخر عن طبيعة العوامل التى تسببت فى الأوضاع المتدهورة. فهل من الممكن أن يكون أحد هذه



العوامل كونيا؟ ربما وربما تضافرت عدة عوامل خارجية وأرضية فى هذه الأوضاع، فالمصائب لا تأتى فرادى، كما يقول المثل.

كانت الزلازل تتسبب فى كوارث اجتماعية كبيرة فى الماضى، فهى تدمر المنشآت والمعابد وتولد الموجات العملاقة (تسونامى) التى تصل ارتفاعاتها إلى عشرات وأحيانا مئات الأمتار فى مياه المحيط فتكتسح وتدمر وتقضى على المدن والمجتمعات الساحلية. وتأتى الزلازل عادة فى تجمعات تستغرق من ٥٠ إلى ١٠٠ عام تعقبها فترات من الهدوء قد تصل فى بعض الأحيان إلى ألف عام. ومن أمثلة ذلك ما حدث شرق المتوسط فى القرن الرابع الميلادى وما حدث على طول فالق شمال الأناضول خلال القرن العشرين من نشاط زلزالى. ومن المتوقع أن يكون أثر هذه التجمعات القوية والنادرة من الزلازل أقوى بكثير فى العصور القديمة عنه اليوم نظرا للأبنية والإنشاءات غير المحكمة وافتقار المجتمعات القديمة للاستعدادات المطلوبة لمواجهة الزلازل والكوارث عموماً.

جعلت الآثار المدمرة للزلازل من المجتمعات القديمة مجالا مفتوحا للأحداث الدامية. فقد كانت معظم الثروة والسلطة مركزة فى يد أقلية لم تكن قادرة على حمايتها بشكل جيد. فمثلا كانت انهيارات المدن المحصنة تمثل دعوة صريحة للهجوم عليها ونهبها بواسطة: الأعداء الخارجيين (جوشوا ومدينة أريحا وهجوم قبائل البدو على الإمبراطورية الفارسية عام ٣١ ق.م.)، أو الجيران فى حالة حدوث مشادات وتعارض للمصالح (سقوط ميسينيا عام ١٢٠٠ ق.م. وموقعة ساؤول عام ١٠٢٠ ق.م.)، أو الفقراء والعبيد (أسبرطة عام ٤٦٥ ق.م. وهاتوساس Hattusas عام ١٢٠٠ ق.م. وتيوتيهواكان Teotihuacan عام ٧٠٠ ق.م.). وعندما تكون الزلازل محدودة والصراعات محلية صغيرة فإن آثار الدمار تكون هى الأخرى محدودة لا تستغرق سوى بضعة عقود ليعود الوضع إلى سابق عهده. أما إذا كانت الهزات الأرضية شاملة قوية واسعة الانتشار وفى ظروف صراعات كبرى، فإن الدمار كان من الضخامة بحيث يستغرق الأمر عدة قرون لإعادة الأمور إلى طبيعتها. كانت المجتمعات تمر أثناء هذه القرون بعصور مظلمة تتراجع فيها الإنجازات الثقافية، فتتخلى المجتمعات عن المهارات التقنية (مثل الكتابة) وتنقطع العملية التعليمية ويتوقف البناء وتشييد المنشآت. فقد كان المغتصبون يقومون بنهب مواد البناء. وعلى النقيض من ذلك كانت المناطق الداخلية البعيدة عن السواحل وعن متناول موجات التسونامى لا تتأثر بمثل هذه الدرجة؛ بل أحيانا كانت تزدهر بعض الشىء نتيجة لتوقفها عن دفع الضرائب للمناطق التى سحقتها الزلازل وموجات التسونامى وعمليات النهب والسلب. ويعزى الانهيار المأساوى للحضارات التى سادت فى شرق المتوسط قرب نهاية العصر البرونزى إلى سلسلة من الهزات الأرضية التى أتت عليها وحولت المجتمعات الساحلية إلى لاجئين وعبيد ومحتلين.

كوننا الذى نعرفه نشأ فى «كارثة» مهولة هى ما يعرف بالانفجار الرهيب أو «بيج بانج Big Bang» منذ حوالى ١٣ بليون سنة

نهاية البرونز وتقدم الحديد:

يبدو أن ما حدث فى شرق المتوسط قرب نهاية العصر البرونزى كان مقدمة لمجموعة من الكوارث الطبيعية التى أنهت هذا العصر ليحل محله العصر الحديدى. فكثير من العلماء يعتقدون أن مجموعة من الكوارث الطبيعية المفاجئة قد ألمت بالأرض من مصدر فضائى. ولذا تسمى تلك الأحداث بالمحورية لأنها تسببت فى الانتقال من العصر البرونزى إلى العصر الحديدى (٦٠٠. ٥٠٠ ق.م.) وأثرت فى العالم المادى. وقد تسببت هذه الأحداث، فى رأى إيرفنج وولف Irving Wolfe فى ثورة ثقافية فى الوجود البشرى بكل المقاييس. وقد سمى إيرفنج ما حدث «بالأزمة الثقافية»، فقد تعرضت عناصر ثقافية كثيرة لتغيرات حادة وفجائية فى نفس الفترة منها: ظهور الفنون الدنيوية بجانب الفنون الدينية، وظهور الكتابة، وحدوث الانقلابات والثورات على الأسر الحاكمة واختفاء العديد منها، وظهور التحضر urbanization والأفكار الحالمة حول تنظيمات اجتماعية جديدة، وظهور أنساق جديدة من الوعى consciousness، وتعميم طقوس الألعاب الإغريقية على نطاق واسع، وتأسيس الديمقراطية، وأخيرا استخدام النقود. وتختلف كل هذه العناصر من الناحية الروحية عن تلك التى سادت فى السابق (ثقافة العصر البرونزى).

فإذا ما ربطنا كل هذه الثورات الثقافية زمانيا فيما بينها ومع الأدلة العلمية على انقلابات مماثلة موثقة جيولوجيا وآركيولوجيا archeological ومناخيا، لوجدنا أمامنا مخططا للأحداث الطبيعية التى أنهت حقبة تاريخية معينة وأدت إلى نشوء الخصائص الثقافية للعصر الحديث. وفى النهاية كلنا أبناء هذه الانقلابات.

وعن المستقبل القريب والبعيد:

فى لحظة ما من المستقبل وفى موقع ما من الفضاء قد تصطدم الأرض بجرم سماوى. كما تكرر حدوث ذلك فى الماضى. وساعتها ستتراوح النتائج بين مجرد تكون حفرة مخروطية فى إحدى الصحارى أو الغابات أو الحقول الزراعية (لأنها تغطى معظم اليابسة)، وبين الفناء الكلى للكوكب الأزرق الرائع، كوكب الأرض بكل من وما عليه. وحتى لا يكون الحديث خيالا علميا كما فى الأفلام السينمائية، فلنسترجع معا ما أورده الفلكيون المحترفون والهواة. فقد ذكر آرثر همفرى أن كوكب الأرض يكاد يصطدم بأجرام سماوية (كويكبات) عدة مرات كل بضع سنين. ففى يناير ١٩٩١ اقترب منا كويكب (BA ١٩٩١) وقطره عشرة أمتار لمسافة ١٧٠ ألف ميل، أى بفارق أقل من ٢٤ ساعة فقط ليحدث الصدام. وفى مارس ١٩٨٩ عبرنا على مسافة ٦٨٢ ألف ميل من الكويكب (١٩٨٩) وقطره ٤٠٠ متر. ويقدر همفرى عدد الكويكبات الأكبر من ٥ كيلومترات فى قطرها والتى تتقاطع مداراتها مع مدار كوكب الأرض بالعدد ١١ ألف كويكب! إنها ١١ ألف فرصة محتملة لحدوث اصطدام مع جرم يزيد قطره على ٥ كيلومترات تؤدى إلى فناء شبه كامل للحياة على كوكب الأرض[٥]!!!

الحادثة القديمة:

قد تظن أننا نبالغ إمعانا فى التخويف أو التحذير، لكن وحتى نقترب من الواقع أكثر سنذكر حادثتين موثقتين، إحداهما قديمة والأخرى

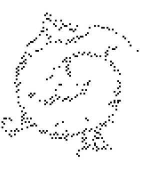
الجـــدول الأول

الحلقات السنوية	تارخ ثورة البراكين	الأحداث الكبرى وتاريخها
٢٣٤٥ ق.م.	٢٣٣٠ ـ ٢٢٩٠ ق.م.	
١٦٢٨ ق.م.	١٦٧٠ ـ ١٥٣٠ ق.م.	١ ـ بداية حكم أسرة «شانج» فى الصين ٢ ـ بداية حكم الأسر الحديثة فى مصر حوالى ١٥٧٠ ق.م.
١١٥٩ ق.م.	١١٥٠ ـ ١٠٩٠ ق.م.	١ ـ نهاية حكم أسرة «شانج» فى الصين ٢ ـ نهاية عصر الأسر الحديثة فى مصر حوالى ١٠٨٠ ق.م.

حديثة. أما الحادثة القديمة الموثقة فقد وقعت منذ ٦٥ مليون سنة عندما اصطدم شهاب أو كويكب ضخم نسبيا (حوالى ٦ أميال) بكوكب الأرض فى منطقة «يوكاتان» بالمكسيك، فأنهى بهذه الصدمة عصرًا وقضى على «حكومة» و«دولة»، وخلّف وراءه حفرة مخروطية قطرها ١٧٠ كيلومترًا. أنهى هذا الصدام العصر الطباشيرى وقضى على حكومة الديناصورات ودولة الزواحف العظمى. ماحدث عند الاصطدام، أو بلغة العصر «سيناريو» الاصطدام أعاد كتابته وجمع أشلاءه، كما يفعل هواة تجميع الصور من مئات القطع الصغيرة، عالم الفيزياء الحائز على جائزة نوبل لويس ألفاريز. إنه لويس ألفاريز، أو «لوى» كما كان يناديه طلابه وزملاؤه بود شديد، هو الذى استخدم الأشعة الكونية لسبر أغوار الأهرامات، وهو الذى اخترع جهاز الهبوط الآلى للطائرات، واخترع جهازا آمنا لتفجير القنابل الذرية (الانشطارية)، وهو نفسه الذى طلبت منه الحكومة الأمريكية دراسة كل الصور الفوتوغرافية لآخر اللحظات فى حياة الرئيس كنيدى. استخدم «لوى» المنهج العلمى والمنطق وحدة الذكاء التى كان يتمتع بها فى حل إحدى أكبر المعضلات فى تاريخ الحياة القديمة مستعينا بخبرة ابنه عالم الجيولوجيا والتر ألفاريز.

الـسـيـنـاريـو:

كان يومًا عاديًا من أيام كوكب الأرض منذ ما يقرب من خمسة وستين مليون سنة ماعدا أمر واحد بدا غريبا. كانت هناك نقطة صغيرة ساطعة فى السماء أخذت تقترب وتكبر وتزداد سطوعا، وكانت تتخذ مسارا يتقاطع مع مسار كوكب الأرض ليصطدم به فى لحظة رهيبة. وقبل أربع ساعات من هذه اللحظة كان القاتل القادم من الفضاء على مسافة من كوكب الأرض مثل المسافة إلى القمر وكان ساطعا مثل كوكب الزهرة لحظة الشفق. وقبل الصدمة بعشر دقائق كان القاتل على مسافة مساوية لقطر الأرض، ولو كان هناك بشر فى ذلك الزمن البعيد لشاهدوا بجلاء اقتراب هذا الجرم وهو يهوى فى صمت رهيب، فقد كانت سرعته أكثر من ثلاثة أضعاف سرعة الصوت!!! وقد وصل إلى حدود الغلاف الجوى للأرض قبل عشر ثوان فقط من الارتطام. اندفع القاتل الغازى متوهجا ومخترقا الطبقات العليا للغلاف الجوى تاركًا وراءه اسطوانة مائلة للصفرة أخذت تتسع وتنتشر بأسرع من الصوت. كان جزء من المذنب أو الشهاب قد تبخر بينما تحول جزء آخر إلى غبار، لكن معظم كتلته اصطدمت بالمحيط ونفذت إلى قاعه فى أقل من ثانية مفجرة فى طريقها طمى القاع الذى انسحق تحت وطأة الصدمة. كانت هذه نهاية العصر الطباشيرى وبداية العصر الثلثى وسط عنف لايمكن تخيله، بداية العصر الذى من المقدر أن تسود فيه أسلاف الثدييات الأوائل.



وقعت الصدمة، وخلال ثوان قليلة كانت قد تحررت كميات مهولة من الطاقة تكافئ ملايين القنابل النووية الاندماجية (الهيدروجينية). كان معظم الطاقة على شكل حرارة مما رفع درجة الحرارة إلى أكثر من مليون درجة فى مدى مئات الأمتار. تبخر الطمى والماء بل وحتى الصخر قد تبخر بعضه وانصهر الباقى. انفجرت مرتفعة من البحر فى حركة ظاهرية بطيئة كالشبح كرة هائلة من النار حاملة معها الخراب والدمار (كانت سرعتها الحقيقية أكبر من سرعة الصوت). أحدثت موجة الصدمة التى انتشرت بسرعة ٤ كيلومترات فى الثانية حفرة مخروطية هائلة بلغ قطرها حوالى ١٧٠ كيلومتر. اندفعت بعد ذلك مباشرة التوابع الزلزالية من بؤرة الاصطدام، واندفعت معها قطع المذنب وشظاياه للخارج ولأعلى. وقد وصلت كتلة الغبار الناتج وحده ١٠٠ تريليون طن (التريليون = مليون مليون). ارتفعت قطع وشظايا المذنب المتوهجة عاليا حتى وصلت إلى الفضاء الخارجى المحيط بكوكب الأرض فبردت لبعض الوقت لتلتهب ثانية بعد ذلك وهى تنهمر عائدة إلى سطح الأرض فتشعل الحرائق فى الغابات والأدغال لمسافة آلاف الكيلومترات. وقد تسببت الحرارة الهائلة المصاحبة لعودة الشظايا الملتهبة فى شى الحيوانات التى كانت قد نجت لبعدها عن موقع الصدمة المباشرة. وارتفعت من المحيط موجات «تسونامى» العملاقة، نتيجة للارتطام وللزلازل التى تلته، وأخذت تنتشر عبر المحيط بسرعة مئات الكيلومترات فى الساعة (سرعة الطائرات). عصفت هذه الجدران الشاهقة من المياه (يقدر الخبراء ارتفاعها بحوالى ٥٠٠ متر) بالشواطئ والتلال وسحقت كل شىء اعترض طريقها. واندثرت السهول الساحلية التى كانت تمد الحياة البرية بالغذاء.



حدث الانفجار الهائل ثم تكونت المجموعة الشمسية وانقرضت الديناصورات، وانتهت سلسلة الكوارث العظمى بالسيادة شبه المطلقة للإنسان على كوكب الأرض



تحول قاع المحيط إلى مغارة فائقة الحرارة أخذت تجيش غليانا، وتكون فوق المحيط الساخن إعصار لم يشهد البشر مثله قط فى ضخامته واتساعه (لم يكن هناك بشر فى ذلك الوقت). وتسبب الفارق الكبير فى درجات الحرارة بين المحيط الساخن جدا وطبقة الستراتوسفير الباردة جدا فى نشأة رياح عاتية بلغت سرعتها أكثر من ٨٠٠ كيلومتر فى الساعة، واندفعت تيارات هائلة من الهواء محملة ببخار الماء إلى ارتفاعات تفوق ٥٠ كيلومترا فوق سطح الأرض. واضطربت الطبقات العليا من الغلاف الجوى، وتكونت عاصفة من الضخامة والشدة لدرجة أن الرياح فى قمتها كانت أسرع من الصوت، ولذا يطلق عليها «هايبيركان hypercane» أو «فوق العاصفة». بعد عدة أيام أخذ سطح المحيط يبرد بالتدريج، وكانت كميات من الماء (عدة أميال مكعبة) قد انتقلت إلى الستراتوسفير، فأثرت فى مناخ العالم لفترة طويلة. غابت الشمس وغاب القمر لعدة أشهر وتحول النهار إلى ليل حالك بلا نجوم. وأخذت السماء تمطر كميات متزايدة من الغبار العائد من الفضاء الخارجى إلى طبقة الستراتوسفير لينتشر ويعم العالم أجمع. توقفت عمليات البناء الضوئى بواسطة البلانكتون[٦] فى المحيط لتهلك معظم صور الحياة البحرية التى تعتمد على البلانكتون كقاعدة وأساس للسلسلة الغذائية.

وبعد الاصطدام بعدة أشهر، وبعد أن استقر الغبار أخيرا، ظل ضباب كثيف من قطرات حمض الكبريتيك الدقيقة معلقًا فى الهواء، وهو الحمض الذى تكون من بلايين الأطنان من مركبات الكبريت التى تبخرت من الصخور (تحتوى صخور كثيرة على مركبات الكبريت) وتأكسدت وارتفعت مع الانفجار لحظة الاصطدام. وربما يكون ضباب الحمض قد حجب أشعة الشمس لعقود طويلة من الزمن. ومن نجا من الحيوانات من الصدمة المباشرة للشهاب أو المذنب،

الجـــدول الثانى

السلاح أو نظام التسليح	درجة الفتك
السيف	١
البندقية الأولية	٣
البندقية الهجومية الحديثة	٢١٠
دبابة الحرب العالمية الأولى	٣,٤ ألف
دبابة الحرب العالمية الثانية	١١٠ آلاف
دبابة المعارك الحديثة	١٦٠ ألفًا
الطائرة المقاتلة القاذفة الحالية	٤٨٠ ألفًا
صاروخ قصير المدى برأس نووى (٢٠ كيلوطن)	٤١,٥ مليون
طائرة قاذفة مقاتلة بتسليح نووى (٣٥٠ كيلوطن)	٣١٠ ملايين
صاروخ استراتيجى برأس نووى (٢٥ ميجاطن)	١٠,٥ بليون

لم يكن لينجو من الظلام والبرد الذى أعقب الصدمة وحجب أشعة الشمس سنوات طويلة. ومن كتب له النجاة من هذه وتلك أدركه موت محقق رهيب، أمطار حمض الكبريتيك. كان النيتروجين الموجود بوفرة فى الغلاف الجوى قد تأكسد بواسطة أكسجين الهواء وبفعل الحرارة الشديدة إلى أكاسيد النيتروجين التى تعطى مع الماء حمض النيتريك. هكذا إذن، تضافر على هلاك الحياة أكثر حمضين شراسة : الكبريتيك والنيتريك. أخذت الأمطار الحمضية تتساقط فوق كل شبر من سطح كوكب الأرض وبتركيزات أعلى كثيرا من تلك التى تسبب هلاك الغابات اليوم. وقد ارتفعت الحموضة فى المحيطات فقضت على معظم البلانكتون ولم ينج إلا الأنواع المقاومة للحموضة.

كانت كميات كبيرة من الحجر الجيرى (أكثر الصخور انتشارا) قد تحللت وأطلقت غاز ثانى أكسيد الكربون، لترتفع نسبته بشكل كبير جدا فى الهواء الجوى. ومن المعروف أن هذا الغاز من الغازات المسببة لظاهرة الاحتباس الحرارى أو ظاهرة الصوبة الزجاجية، فهو يقتنص الأشعة الحرارية ولايطلقها فترتفع بذلك درجة حرارة الأرض. كما أن بخار الماء يلعب نفس الدور فى الاحتباس الحرارى. وعندما استقرت فى النهاية كميات الغبار والماء التى تسببت فى برودة الأرض، وعندما سقطت كل الأمطار الحمضية، لم يبق فى الغلاف الجوى سوى الكميات الكبيرة من ثانى أكسيد الكربون وبخار الماء لذلك أخذت درجة حرارة الأرض ترتفع بالتدريج ودون توقف، فاستبدلت الأرض بالبرودة سخونة. أخذت النباتات الخضراء التى صمدت وتحملت ونجت. تزدهر (فى وجود وفرة من ثانى أكسيد الكربون وبخار الماء) فاستهلكت كميات متزايدة من ثانى أكسيد الكربون وبخار الماء. وأخيرا نجحت هذه الآلية فى استعادة الظروف الطبيعية مرة ثانية لتزدهر صور الحياة التى نجت من المحارق التى أعقبت الاصطدام مباشرة وصمدت للظلام والبرودة واختبأت بشكل جيد من الأمطار الحمضية حتى تمكنت من التسيد على الكوكب. ومن المرجح أن تكون عملية استعادة الظروف الطبيعية. استعادة الكوكب لصحته. قد استغرقت آلاف السنين. كانت طبقة الأوزون قد تحطمت واستنفدت فى هذه الأثناء بفعل أكاسيد النيتروجين فأضافت لكل ما ذكرنا من مهالك مهلكة شديدة القسوة فتكت بالبقية الباقية من صور الحياة التى غامرت بالخروج من مخابئها فى ضوء الشمس.



فى لحظة ما قد تصطدم الأرض بجرم سماوى وساعتها ستتراوح النتائج بين مجرد حفرة وبين الفناء الكلى للأرض بكل ما عليها



كان الدليل على تفاصيل هذا السيناريو يقع فى: وجود طبقة غريبة عمرها ٦٥ مليون سنة فى جميع أنحاء العالم تتميز بتركيز مرتفع من عنصر «الإيريديوم» لا بد أن يكون مصدره الفضاء الخارجى وموزع بانتظام حول العالم، وفى الاختفاء المفاجئ لمعظم أشكال الحياة فوق هذه الطبقة. لم يبق سوى اكتشاف الحفرة المخروطية التى قطرها، بناء على الحسابات الأولية، حوالى ١٠٠ ميل، موقع الاصطدام لتكتمل حلقة الأدلة الدامغة على صحة الحدث والسيناريو الذى أعاد كتابته «لوى» لويس ألفاريز. وللأسف لم يمهل القدر «لوى» ليشهد بنفسه لحظة النصر فمات قبل بضعة أشهر فقط من اكتشاف حفرة مخروطية قطرها حوالى ١٧٠ كيلومتر وعمرها ٦٥ مليون سنة فى خليج يوكاتان بالمكسيك[٧] كانت هذه الحفرة بمثابة الدليل الدامغ والنقطة التى وضعت فوق جميع الحروف لتنهى عصرا و«دولة» و«حكومة».

الحادثة الحديثة:

تكرر السيناريو الذى حدث على كوكب الأرض منذ ٦٥ مليون سنة، لكن على كوكب المشترى العملاق هذه المرة. فى ١٦ يوليو سنة ١٩٩٤ انهالت على كوكب المشترى إحدى وعشرون شظية للمذنب «شوميكر. ليفى ٩» بسرعة ٦٠ كيلومترا فى الثانية. كان هذا المذنب قد اكتشف فى مساء ٢٤ مارس ١٩٩٣ بواسطة الهواة دافيد ليفى والزوجين كارولين ويوجين شوميكر، الذين سبق أن اكتشفوا العشرات من المذنبات الجليدية ذات الرؤوس المتوهجة والذيول الطويلة. كان المذنب قد انشطر وتمزق إلى إحدى وعشرين قطعة بفعل الجاذبية الفائقة لكوكب المشترى. جاءت نتائج الارتطام مدهشة لدرجة أن هواة الفلك تمكنوا من رؤيتها بتلسكوباتهم البسيطة من أسطح منازلهم. أما التلسكوبات الكبيرة فقد أظهرت تفاصيل غاية فى الدقة. كانت مجموعة الصدمات من الضخامة بحيث لو حدثت على الأرض لاندثرت الحياة كلها تقريبا. كان قطر أكبر الشظايا بين ٣ و ٤ كيلومترات وقد انفجرت عند الارتطام لتكون كرة نارية مستعرة فى حجم كوكب الأرض تقريبا، وكانت طاقة الصدمة تكافئ ٦ تريليون طن من مادة T.N.T، أى آلاف المرات أكبر من الطاقة المصاحبة لانفجار كل المخزون من السلاح النووى. أخذت هذه الكرة النارية تدور فى حركة دوامية لعدة دقائق بعد الصدمة متوهجة بأشعة أغلبها تحت حمراء ثم بدأت تختفى بالتدريج تاركة بقعة سوداء محاطة بحلقات متحدة المركز. وقد ظل موقع ارتطام الشظية G، مثل بعض الندبات العشرين الأخرى، ظاهرا للعيان لشهور بعد ذلك. وقد شكل الغبار الكبريتى الناتج عن أكبر الصدمات بقعة عظيمة قطرها ضعف قطر كوكب الأرض. وعند ارتطام كل شظية من شظايا المذنب بالغلاف الخارجى للمشترى كانت الغازات تتوهج ساطعة لارتفاع درجة الحرارة فجأة عدة آلاف من الدرجات. وقد شاهدت سفينة الفضاء «جاليليو» هذه التوهجات الأولية مباشرة من مسافة ١٥٠ مليون ميل، أما المشاهدون من كوكب الأرض فكان عليهم الانتظار عدة دقائق ليتمكنوا من رؤية الكرة النارية التى تكونت من انفجار الشظية الكبرى، وذلك حتى تصبح هذه الكرة فى مجال الرؤية بدوران الكوكب السريع حول نفسه (طول اليوم على كوكب المشترى عشر ساعات فقط).

واكتشف العلماء لأول مرة كبريتيد الهيدروجين على المشترى وكميات من الماء فى مواقع الصدمات. دامت الندوب على سطح المشترى فترة أطول مما توقع معظم الفلكيين. وتسببت سرعة دوران الكوكب وشدة الرياح (سرعتها ٣٠٠ كيلومتر فى الساعة) فى تمزق نقاط الارتطام وتشتت محتواها، لتصبح بعد بضعة أشهر على شكل أشرطة طولية تحلقت حول الكوكب.



كانت الطبقة الغنية بعنصر «الإيريديوم» وانتظام توزيع مكوناتها، واختفاء معظم صور الحياة فى هذه الطبقة وفوقها مباشرة، واكتشاف الحفرة المخروطية فى «يوكاتان» بالمكسيك، وفناء الزواحف العظمى. الديناصورات. وتزامن كل هذه الأحداث منذ ٦٥ مليون سنة، كان كل ذلك الدليل على وقوع الكارثة الكونية باصطدام شهاب قطره حوالى ١٠ كيلومترات بكوكب الأرض. أما ما حدث على كوكب المشترى يوم ١٦ يوليو سنة ١٩٩٤ وشاهده وسجله آلاف الفلكيين الهواة والمحترفين فقد كان أكثر من دليل دامغ على عنف الكوارث الكونية. وفى الواقع إن أعنف الكوارث وأشد الأخطار ضررا التى يمكن أن تتعرض لها البشرية هى تلك التى تصطدم فيها أجرام سماوية بكوكب الأرض، لكنها لحسن الحظ نادرة الوقوع.

التكنولوجيا والحرب والحكومات والخطورة الكامنة:

وإذا كان من الممكن أن تتكرر نوعيات الكوارث والأخطار التى حاقت بالأرض فى الماضى القريب أو الماضى السحيق، فإن هناك نوعيات محددة من كوارث وأخطار لم يعرفها كوكب الأرض ولا البشرية من قبل. تلك هى الكوارث المرتبطة بالتطور التكنولوجى الذى حدث ويحدث الآن بوتيرة متسارعة، وكذلك الأخطار التى جاءت مع التقدم المفزع فى «صناعة القتل»، أى فى صناعة أدوات الحرب والقتال، والكارثة الكبرى كذلك التى قضت على أكثر من مائتى مليون من البشر فى القرن العشرين، وهى الحكومات، قد

ساهمت بشدة فى نوعيات الأخطار التى جاءت بها الحضارة البشرية، سواء عفويا أو بتعمد وعن قصد. وسنأتى هنا على ذكر بعض هذه الكوارث.

الكوارث النووية:

قد تؤدى القدرة النووية إلى ثلاثة أنواع من الكوارث: التلوث الإشعاعى، والتفجيرات النووية المحدودة، والحرب النووية الشاملة. ويخضع المخزون من السلاح النووى فى الدول الصناعية المتقدمة لسلسلة من خطوات التأمين ضد الأخطاء العشوائية، لكن ماتملكه دول أخرى فى شبه القارة الهندية أو الشرق الأوسط قد يتسبب فى كارثة تذهب بأرواح عدة ملايين وتدفع المنطقة للخلف عقودا طويلة من الزمن. أما قيام حرب نووية شاملة فقد يحصد مئات الملايين من البشر مخلفا وراءه شتاء نوويا سيحصد هو الآخر. بالإشعاع والجوع والأمراض. مئات الملايين. وسيستغرق الأمر قرنا أو أكثر لتستعيد الأرض اتزانها وصحتها، فى الوقت الذى سيتراجع فيه التقدم العلمى والتكنولوجى وكل الإنجازات الحضارية المادية قرونا إلى الخلف.

الكوارث البيولوجية:

قد يتمكن شخص ما أو عدة أشخاص فى المستقبل من تصميم وتنفيذ كائن دقيق (فيروس أو ميكروب) للقضاء على الجنس البشرى. لكن، ليتمكن حتى من مجرد المحاولة لا بد لهذا الكائن أن يتمتع بمجموعة من الخصائص مثل: الانتقال بسهولة من شخص لآخر، والانتشار السريع، ومقاومة المؤثرات البيئية، ومقاومة المضادات الحيوية وآليات المناعة فى جسم الإنسان، وأن يتسبب فى القضاء على من يصيبهم بنسبة ١٠٠ ٪. لكن، ليس بهذه البساطة يمكن القضاء على الجنس البشرى، فسيستغرق الأمر عدة أشهر سيتمكن الإنسان خلالها من التغلب. سلبا أو إيجابا. على القاتل.

كارثة الإنسان الآلى «الروبوت»:

يخشى بعض الناس من الاندماج بين الإنسان الآلى والذكاء الصناعى وذلك تحسبا من نشوء جنس جديد يتسيد ولا يسمح للبشر بالتحكم فى الموارد أو حتى التنافس معه عليها. لكن لا محل لهذه المخاوف، فالذكاء الصناعى لن يتضح تطوره النهائى قبل سنة ٢٢٠٠ ولن يتطور مباشرة إلى الذكاء الفائق. وحتى لو حدث التكامل بين الذكاء الصناعى والحياة الصناعية بحلول القرن الثالث والعشرين، فإن الوقت والحاجة إلى الطاقة ستضع ضغوطا على الأشخاص الصناعيين تجعلهم أقل مقدرة على تسيد العالم من أجناس البشر (الأشخاص الطبيعيين). ولن يكون فى مقدور أول مسبار «فون نيومان Von Neumann» تبدعه البشرية أن يتغلب على دفاعات الأرض حتى لو أراد وحاول ذلك. ولكى تصبح هذه الـ«فون نيومان» مصدر خطر حقيقى، فإن عليها أن تتزود بذكاء حقيقى وتفوق عسكرى على البشرية. ومثل هذا النوع لن يشارك فى تحالف عدوانى مع غرباء من خارج الأرض.

كارثة التكنولوجيا فائقة الصغر Nanotechnology:

قد تصبح «النانوتكنولوجيا» أو التكنولوجيا فائقة الصغر، التى تتكاثر بنفسها (أى التى تنتج مثيلاتها دون تدخل من الإنسان) سرطانا للمحيط الحيوى لكوكب الأرض، فتقوم بإحلال «الحياة النانوتكنولوجية» محل «حياة الحمض الريبونووى». وستكون محددات انتشار مثل هذه الحياة، مثل أى شكل آخر من أشكال الحياة، هى إمكانية الحصول على الطاقة التى يمكن استخدامها والمواد الضرورية للبناء. وحيث إن أية مادة عضوية ستكون صالحة للاستخدام، فإن المحدد الأولى الذى سيضع القيود على الكيفية التى ستستهلك بها النانوتكنولوجيا الحياة العضوية سيكون إمكانية الحصول على الطاقة القابلة للاستخدام. وفى هذا الصدد فإن الوقود الحفرى (كمصدر للطاقة) لا يتواجد فى كل الأماكن، كما أن طاقة الاندماج النووى ليست سهلة الحمل والتنقل بها، وهكذا سيلجأ السرطان النانوتكنولوجى، تماما مثل الكائنات الريبونووية، إلى ضوء الشمس كمصدر للطاقة متاح فى جميع الأماكن ولا تحتاج الـ«نانوكائنات» لحمله والتنقل به. ومن المعروف أن التخليق



هنــاك كــوارث وأخطــار لم يعرفها كوكب الأرض ولا البشرية من قبــل. تلك هى الكـــوارث المرتبطة بالتطــور التكنولوجى

الضوئى فى الكائنات الريبونووية يقتنص ١٠ ٪ فقط كحد أقصى من الطاقة الشمسية الساقطة عليها، بينما ستتمكن الكائنات النانوتكنولوجية من اقتناص ٥٠ ٪ من هذه الطاقة على الأقل. ولا توجد طريقة لإيقاف السرطان «النانو» إلا بقطع إمداداته المادية أو حجب الطاقة عنه أو بالتدخل المباشر فى آلية استخدامه للطاقة والمادة.

كارثة الانهيار الثقافى:

يخشى بعض الناس أن تكون الرذائل والجرائم والفساد عموما مؤشرات على انهيار المجتمعات مما يهدد بكارثة للبشرية كلها. ويخشى البعض الآخر من انقسام المجتمع إلى طبقات وانتشار التلوث وتدهور التعليم والبنية الأساسية كمؤشرات على الانهيار الاقتصادى أو التهديد بكارثة ثقافية. وهذه المخاوف ليست فى محلها. فقد مرت انهيارات ثقافية وحضارية عديدة فى الماضى كانت جميعها من جراء تغيرات حادة فى الظروف البيئية أو وباء أو غزو خارجى. لكن بعد إدخال القاطرات البخارية فى منتصف القرن التاسع عشر لم يبق مجتمع واحد خارج مجال الإصابة بالعدوى من أوبئة الآخرين، وأصبحت كل المجتمعات أجزاء فى كيان حضارى واحد انتفت معه احتمالات الغزو الخارجى إلا فيما ندر. ومن الكوارث «الهادئة» الركود الثقافى الذى يهدد بالانهيار البطىء. وكما حدث فى حكم أسرة مينج فى الصين، أو فى أوربا فى العصور الوسطى أو دول الكتلة الشرقية. فإن الركود الثقافى يؤدى إلى إيديولوجية ستاتيكية راكدة وشمولية تقمع كل من يعارضها. ويبدو أن التطور فى هذا الاتجاه قليل الاحتمال فى المستقبل. وينضوى تحت الأنظمة الشمولية المحتملة التى تكرس الركود الثقافى كل من الأنظمة الدينية السلفية والأنظمة الماركسية الجامدة وأنظمة الالتزام الجامد بالطبيعة والدعوة البدائية للمعيشة كالسلف سواء فى نفى التقدم التكنولوجى أو فى العلاقات.

تكنولوجيا القتل:

لم يبدع الإنسان فى أمر من الأمور أكثر من إبداعه أدوات القتل والهلاك. وقد شهد هذا الإبداع عدة طفرات بدءاً من النصف الثانى للقرن التاسع عشر وحتى يومنا هذا. فقبل هذا التاريخ ظلت الأسلحة وأدوات القتال على درجة منخفضة نسبيا. وكان القتلى فى الحروب والمعارك يموتون من النزف وتلوث الجروح والأمراض. ومع التطور الذى حدث للعلوم والتكنولوجيا خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر، تطورت تكنولوجيا الحرب والفتك والهلاك، فأصبحت الأسلحة أكثر دقة وأعلى قدرة وأعظم فتكا. ومع تطويع التفاعلات النووية الانشطارية ثم الاندماجية فى الأسلحة التى اصطلح على تسميتها القنابل الذرية والقنابل الهيدروجينية، أصبحت درجة الفتك أكبر من أن تقاس. وللمقارنة أدخل «بيتر زوكيرمان Peter A. Zuckerman» مقياسا لدرجة الفتك اعتمد فيه على التاريخ. وفى هذا المقياس اعتبر «زوكيرمان» أن السيف هو الوحدة الأساسية. وقارن بين عدد القتلى فى حروب الإمبراطورية الرومانية (عدد

كتــــاب الـزاويــــة

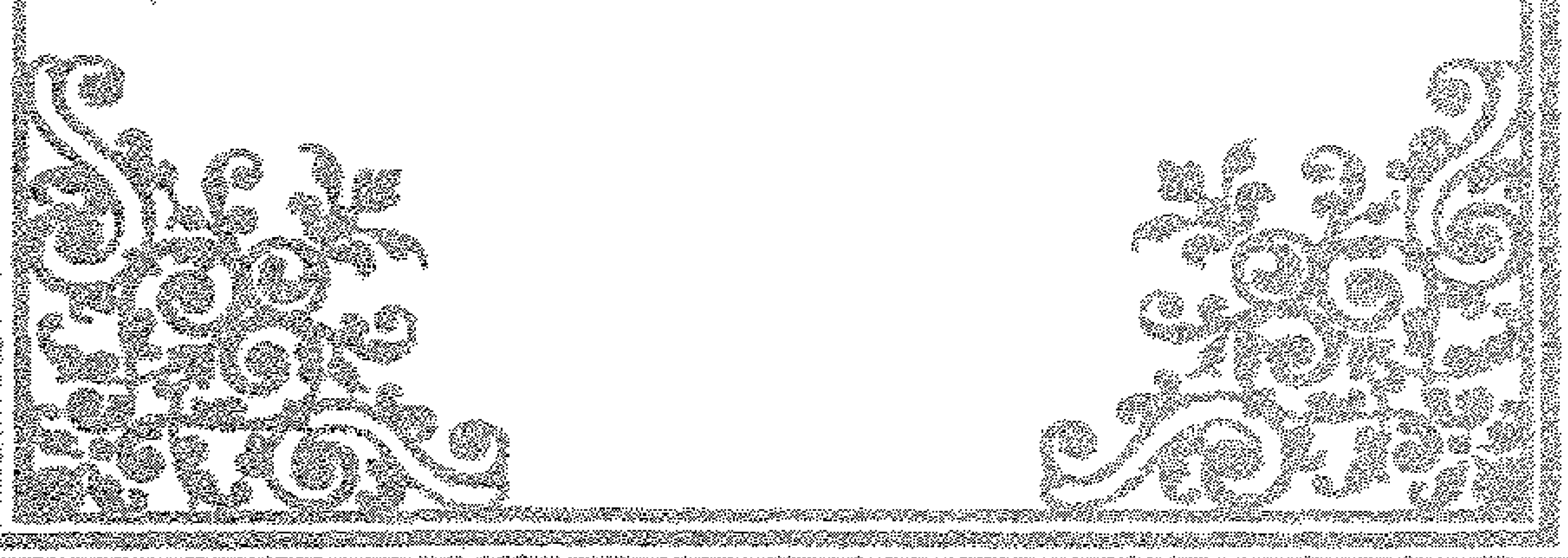


أحمد لطفى السيد

الدولة وحقوق الإنسان

تلك الحقوق الأصيلة، حقوق الكافة التى هى أربطة الجمعية الإنسانية ومناط الأفراد بها هى: حق الحرية الشخصية بمعناها العام: حرية الفكر والاعتقاد، حرية الكلام والكتابة، حرية التربية والتعليم فى حدود ضرر الغير، فليس للشارع أن يضع قانونًا يسلب به فردًا أو طائفة أو كل الأمة حقهم فى الحرية بمعناها العام فى غير حدود الضرر المعروف.

حسب الفرد أنه خاضع لقوى الطبيعة المختلفة وهموم الحياة وشهواتها. تتقاذفه البلاوى التى لا طاقة له بها ولا قبل للجمعية بحمايته منها. حسبه ما ركب فيه من شرور الحسد والحقد والانتقام وبقية الشهوات التى ترعى نارها قلبه ويقلق همها نومه، ويجعل مضجعه من الشوك. حسبه خوف الموت. وزوال النعمة، وانقطاع الأمل وخيبة الرجاء. حسبه الأمراض الجسمية وما يتبعها. حسبه عذاب المشاعر المختلفة التى يقتضيها وجوده من فوات مرغوب أو هلك المحبوب. حسبه العجز الطبيعى عن درء كل هذه البلاوى، فما يكون أمره إذا كان الشارع، الجمعية أو الحكومة، تنصب نفسها أيضًا قوة ضارة تأخذ لنفسها ما بقى له من سعادة الحرية الشخصية، على أن الحرية الشخصية بأنواعها، أساس العمل لمصلحة الفرد ومصلحة المجموع. تنقص تربية الفرد وقدرته على استعمال ملكاته لمصلحة الجمعية، بمقدار ما ينقص من حريته. فإذا سطا الشارع على حرية الفرد فاستلبها كلها أو بعضها، فإنما هو بذلك يعطل تقدم الفرد وتقدم الجمعية التى أوتى السيطرة عليها وعلق فى عنقه سلامتها من الأمراض، وكفل لها التقدم بقوانينه إلى الأمام.



السكان حوالى ٦٠ مليونًا) على مدى أربعة قرون والذى بلغ مائة مليون، وهو نفس عدد الذين كانوا سيلقون حتفهم فى مواجهة نووية شاملة بين الاتحاد السوفيتى (سابقا) والولايات المتحدة فى خلال ساعة واحدة فقط. جاءت هذه المقارنة مع تقييم شتى الأسلحة. مقارنة بالسيف. بأرقام فلكية للأسلحة الحديثة، كما يوضح الجدول الثانى:

ويبين الجدول أن درجة فتك الصاروخ الاستراتيجى ذى الرأس النووى قد بلغت عشرة بلايين وخمسمائة مليون مرة مثل السيف. ولتقريب الصورة، فإن مقارنة السيف بهذا الصاروخ، كمثل رجل واحد يحمل سيفا فى مواجهة كل سكان الأرض برجالهم ونسائهم وأطفالهم وشيوخهم (وعددهم أكثر من ستة بلايين نسمة)، ومع كل واحد منهم سيف وخنجر (نصف سيف). الصورة مفزعة، ولو حدث ونشبت (والأصدق انفجرت) حرب نووية شاملة، فإنها قد تكلف البشرية نصف السكان وتخلف حضارى يستمر لعدة قرون مع تشوهات للأجنة من جراء الإشعاع وطفرات فى الكائنات الحية، ودخول كوكب الأرض فيما يعرف بـ«الشتاء النووى».

الحكومات.. الحكومات دائماً

خلال القرن العشرين وحده قتلت الحكومات المختلفة من أعدائها الخارجيين والداخليين ما يزيد على مائتى مليون نسمة. كان العدد الأوفر من نصيب الاتحاد السوفيتى حيث قتل على يديه ٦٢ مليون نسمة يليه الصين الشعبية ٣٢.٢٤ مليون نسمة، ثم ألمانيا ٢١ مليون نسمة، ثم الصين قبل سنة ١٩٤٩ - ١٣.٥ مليون نسمة (الصين الوطنية وسوفيتيات ماو)، ثم اليابان ٦ ملايين نسمة، وكمبوديا ٢ مليون نسمة، ويلى ذلك بعض الحكومات التى لا يتعدى عدد قتلاها المليونين ليصل المجموع فى النهاية إلى ٢٠٨ ملايين نسمة. كل هذه الأعداد لاقت حتفها بصورة رسمية «شرعية» فى كارثة خاصة جداً ببنى الإنسان.

مـا الـذى تـغـيـر

خلال قرن واحد فقط؟

فى مقارنة أخرى بين الوضع العام فى مطلع القرن العشرين، سنة ١٩١٣، قبيل الحرب العالمية الأولى، وبين الوضع العام فى آخر القرن سنة ٢٠٠٠



تتضح الصورة المفزعة التى أصبحنا عليها. فالانفجار السكانى رفع التعداد من ١.٥ بليون نسمة إلى ٦ بلايين، وزاد عدد الحكومات من ٥٠ إلى ١٨٠، وأصبح عدد الحروب ٣٨ حرباً ضروساً أو صداما مسلحا بعد أن كانت حربا واحدة وحربين أهليتين فى مطلع القرن. وارتفع عدد اللاجئين من قسوة الحروب الأهلية أو قسوة حكوماتهم من بضعة آلاف فقط إلى حوالى ٥٠ مليون لاجئ، وتضخمت أعداد جنود وضباط جيوش العالم من ٧ ملايين إلى ٣٠ مليون فرد، وتطورت وزادت أسلحة الدمار الشامل من بعض الغازات السامة مثل غاز الخردل والكلور إلى أسلحة دمار لم يحلم بها طاغية من طغاة التاريخ كالرؤوس النووية والأسلحة البيولوجية والكيميائية. وكانت الظروف البيئية عموما جيدة سنة ١٩١٣ فأصبحت سنة ٢٠٠٠ تعانى من تدهور سريع متمثل فى انحسار الغابات وتعرية التربة والتصحر وفناء الأنواع الحية والاحتباس الحرارى والتلوث الشامل.

إدارة الكوارث (أو الأخطار)

Crisis Management:

لا تفرق الكوارث الطبيعية بين الفقراء والأغنياء، ولا بين الدول النامية والدول الصناعية المتقدمة. لكن ما يجرى فى واقع الأمر من فداحة الخسائر فى الأرواح والممتلكات فى المجتمعات النامية والفقيرة مقارنة بالخسائر فى المجتمعات المتقدمة، نتيجة لكوارث من نفس الحجم والتأثير، يشير بجلاء إلى تخلف المفاهيم والثقافات وسيادة التواكل والاستسلام للأقدار والتكدس السكانى الهائل والمستوى المتدنى

للصحة العامة عند الناس فى المجتمعات الفقيرة.

فهم لا يمارسون إلا رد الفعل وبطرق لحظية قصيرة المدى لاتتسم بتخطيط أو توقع أو مفهوم إحصائى للأخطار وأثرها فى حياتهم.

وعلى العكس فى المجتمعات الصناعية المتقدمة تسود المفاهيم الإحصائية والتخطيط لما هو متوقع والاستعداد المسبق لمواجهته.

وإننى أكاد أجزم بأنه لا الناس ولا المسئولين فى المجتمعات الفقيرة ومعظم المجتمعات النامية قد سمعوا - مجرد السماع - بـ«إدارة الكوارث والأخطار crisis management» وهو المفهوم الذى يحكم عقلية الناس والمسئولين فى المجتمعات التى تصنع مستقبلها بأيديها وتواجه المحتمل من الكوارث والأخطار بالتخطيط والتدريب والاستعداد التام لذلك.

الذاتية فى تقييم الأخطار:

تصيب الفيضانات وموجات الجفاف أكثر من ٨٠ ٪ من المضارين بالكوارث، فى الوقت الذى لا يصل فيه المضارون بالأوبئة والأمراض المرعبة إلى ٥ ٪ من مجموع المضارين.

وقد حصدت الإصابة بالالتهاب الرئوى اللانمطى الحاد - سارس - طوال الأشهر التى هاجمنا فيها وتدخل فى حياتنا طولا وعرضا، وأخافنا وأرعبنا وألزمنا بيوتنا حقيقة ومجازا، حصدت عددا أقل بكثير مما تفعله حوادث الطرق فى العالم فى بضعة أيام!

لكننا لا نخاف أو نخشى ما يمكن أن يقع فى حياتنا من فيضانات أو حوادث طرق أو زلازل قدر خوفنا أو خشيتنا من «سارس»، لماذا؟ ولماذا يرتعد الناس من ذكر حوادث الطائرات وهى لا تصيب منهم إلا أقل كثيرا مما تتسبب فيه حوادث القطارات والسيارات؟



يقول المحللون النفسيون أن خوف الإنسان وخشيته تزداد من المجهول الذى لا يرى أو يدرك أسبابه أو آليات فعله وتأثيره (الفيروسات والبكتريا المسببة للأمراض وطريقة تأثيرها فى الخلايا الحية من جسم الإنسان) وتزداد هذه الخشية عندما لا يرى الإنسان رأى العين ما الذى يدور من حوله ولا يملك التحكم فيه (حوادث الطائرات).

بينما تقل خشيته ويستكين من الخوف إذا كان يعلم أو يرى ما يحدث و«يعتقد» أنه قادر على التدخل فى مجريات الأمور سلبا أو إيجابا (القفز من القطار أو السيارة والضغط على الكوابح أو الصياح بالسائق لتنبيهه بالخطر المحدق).

أما الفيضانات والجفاف والبراكين والزلازل فالإنسان يراها ويفهم ويدرك أسبابها وآلية تأثيرها، ولذا فالخشية منها محدودة.

إنها المجهول والمستقبل والغيب، هى أخشى ما نخشاه، لأنها جميعا تتجاوز حدود معرفتنا ومقدراتنا ولو بدرجات مختلفة. ■

الهـــوامـــش:

١ . نجم فائق الكتلة ينفجر تحت تأثير الجاذبية الهائلة فتتكون العناصر الأثقل من الهيدروجين والهليوم وتنطلق طاقة هائلة بحيث يمكن رؤية هذه النجوم حتى فى ضوء النهار، وينتج عن ذلك تكون النجوم العادية وتوابعها من الكواكب.

٢ . يشمل المحيط الحيوى كلا من الطبقة الدنيا من الغلاف الجوى، والغلاف المائى (المحيطات والبحار والبحيرات والأنهار والمستنقعات) والتربة السطحية للأرض، وهو النطاق الذى توجد فيه الحياة مؤدية جميع وظائفها.

٣ . الانفجار الذى بدأ الكون به منذ حوالى ١٣ بليون سنة من نقطة متناهية الصغر مهولة الكثافة ودرجة الحرارة.

٤ . أحد العصور الجيولوجية الذى بدأ منذ ١٣٦ مليون سنة وانتهى منذ ٦٥ مليون سنة.

٥ . Philip M. Dauber and Richard A. Muller, "The Three Big Bangs - Comet Crashes, Exploding Stars, and the Creation of the Universe", Helix Books, Addison - Wesley Publishing Company, 1996

ترجمة الكتاب تحت الطبع (د.أحمد السماحى و د.فتح الله الشيخ)

٦ . الكائنات النباتية الدقيقة التى تطفو فوق سطح مياه المحيطات والبحار، وتقوم بعملية البناء الضوئى photosynthesis معتمدة على ضوء الشمس والكلوروفيل وثانى أكسيد الكربون وبخار الماء، وهى بذلك تمثل القاعدة الغذائية أو بداية السلسلة الغذائية لجميع الكائنات البحرية.

٧ . تأخر اكتشاف هذه الحفرة الهائلة لأنها، كغيرها من الحفر المخروطية الناتجة عن صدمات الأجرام السماوية بالأرض، قد طمست وأصبح من المستحيل اكتشافها بالرؤية المباشرة، لذلك تم اكتشافها بقياس تأثير الجاذبية وتغيراتها الطفيفة أثناء عمليات التنقيب عن البترول.

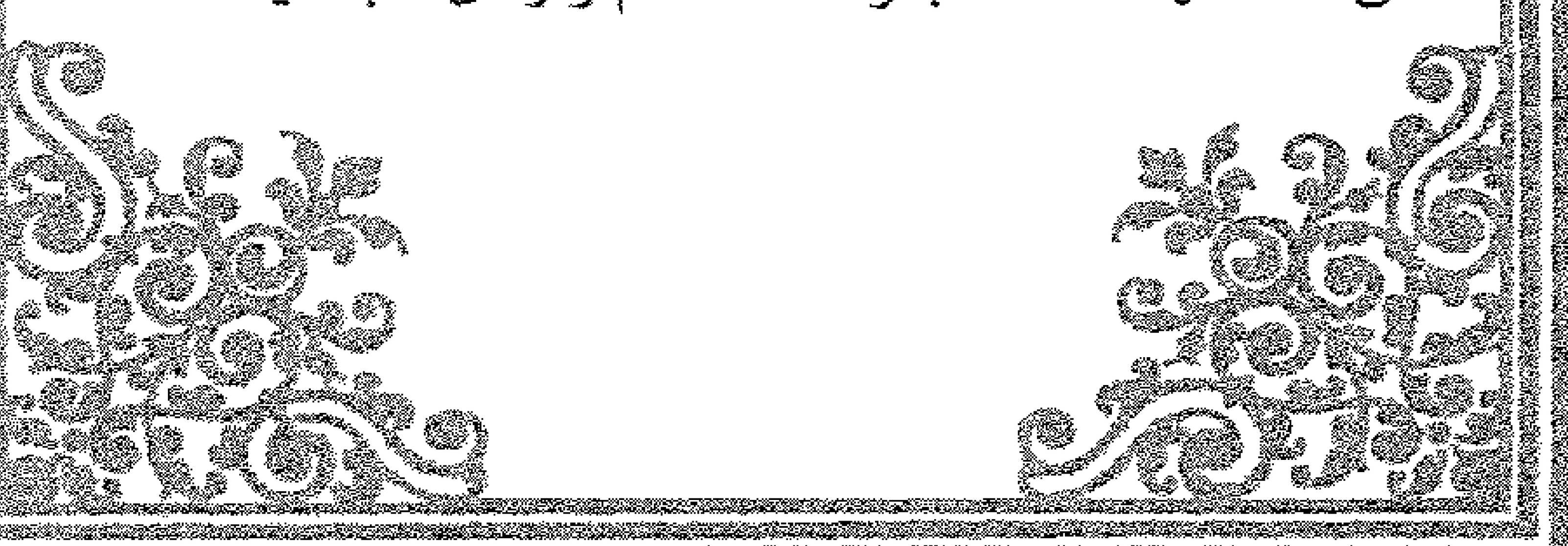
كتــــاب الــزاويـــة

أحمد لطفى السيد

الدستور والحريات العامة

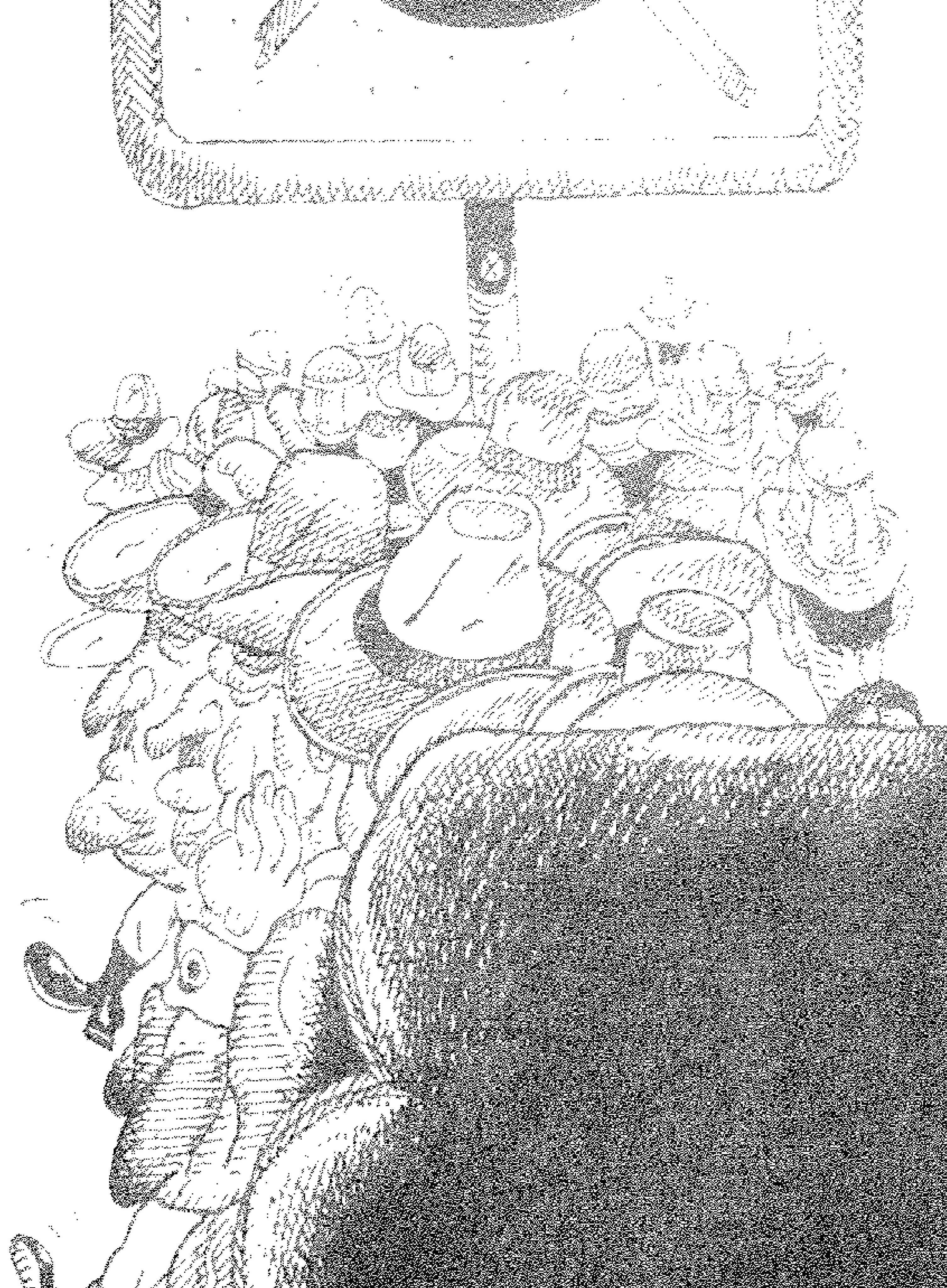
فى حق الأمة أو دستورها أو حريتها العامة: هذا الحق للأمة كحق الحرية الشخصية للفرد. فإن الذين يقولون إن الفرد خلق حرًا - وكل الناس على هذا الإجماع - يجب أن يقولوا أن الأمة تألفت حرة أيضًا، مادام اجتماع الأمة ليس من الحوادث العارضة، ولكنه حادثة طبيعية لأن الإنسان مدنى بالطبع. هذا الحق حق الأمة فى حكم نفسها على الطريقة التى ترضاها، هو من الحقوق التى لا يجوز للشارع أن ينقص منه شيئًا.

نحن المصريين لم نصل حتى اليوم إلى استرداد هذه الحرية، ولكننا طامعون جادون فى الوصول إليها، معتمدون فى ذلك على إجماعنا بضرورتها لوجودنا من حيث كوننا أمة، وعلى أعمالنا المختلفة لتقدمنا ثم على الزمان، ومع ذلك يمكننا أن نمثل لهذا الحق بما فعلت الحكومة عند سن القانون النظامى الجديد، فإنها تعرضت لحق الأمة. إذ الدستور القديم - وهو دستور فى الجملة وبوجه ما - كان يقضى بأنه لا يوضع فى البلاد قانون إلا بعد أخذ رأى مجلس الشورى، وتلك قاعدة قررت حقًا من الحقوق الأصلية فأصبحت بذلك هى نفسها قاعدة أصيلة لا تقبل النسخ ولا الاستثناء، ولا يحل للشارع أن يقربها. ورجاؤنا أن الحكومة لن ترجع إلى ذلك فى المستقبل. قد يقولون إنه لم يحصل خطر من ذلك ما دام القانون الجديد لم ينقص من حقوق الأمة فى القانون القديم إلا ما سموه شيئًا قليلاً. ليكن ذلك. ولكن الحقوق الأصيلة التى كسبتها الأفراد وكسبتها الأمة بحكم الطبيعة لا يجوز للشارع أن يقربها لأن فى مساسها مساسًا بقواعد النظام وأركان الجمعية.



بين الهوية والعولمة: الطربوش

لم تصدر أى من الدول العربية الكبرى خلال عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين أية تشريعات تفرض على شعوبها ارتداء الملابس الغربية والقبعات، كما فعل الإصلاحيون الذين تولوا السلطة فى تركيا وإيران وأفغانستان. فتحت سيطرة الانتداب البريطانى والفرنسى على هذه الدول انتفت الحاجة للاتجاه إلى هذا التشبه المضحك بالغرب. ومع ذلك فرض العديد من الملوك العرب غطاء رأس موحداً على موظفيهم وسعوا لنشر هذا الغطاء بين الجماهير باعتباره غطاء الرأس «القومى» على مستوى القطر بل وعلى مستوى العالم العربى. وأدلى كثير من الأعلام والمفكرين العرب بدلوهم فى المناظرات الدائرة حول أفضل شكل مرغوب فيه لغطاء الرأس. ومن ثم نجد أن الزى العام لم يعكس فقط الاعتبارات التقليدية المتعلقة بالطبقات والطوائف والولاء تجاه الأسر الحاكمة، بل عكس أيضاً التنافس الحديث الحاد بين أشكال القومية المختلفة (ذات النزعة الوطنية، والداعية إلى الوحدة العربية، والإسلامية، والشرقية) عبر العالم العربى بل وعلى اتساع العالم الإسلامى.



ففى السنوات الأولى من حكمه قام الملك فيصل ملك العراق بإدخال السدراة الجديدة (أو الفيصلية) بهدف جعلها غطاء الرأس الوطنى بل والرسمى أيضاً فى العراق بينما اتجهت مصر، التى كانت قد نالت استقلالها، إلى السير على درب القصر واحتفظت بالطربوش لهذا الدور بعد بعض الجدل العام. حتى بدائل الطربوش التى استخدمها الجيش المصرى بشكل مؤقت سميت بالفؤادية والفاروقية. أما فى سوريا وفلسطين حيث لم توجد شخصيات ملكية مماثلة، اتجه الوطنيون إلى الكوفية التى كانت موجودة فى الريف.



ومع ذلك انقسم دعاة الوحدة العربية بين مؤيد للسدارة أو الكوفية أو الطربوش. وبصورة عامة كان للسدارة موقع الصدارة فى أواخر العشرينيات وأوائل الثلاثينيات، ولكن الثورة الفلسطينية التى اندلعت فى فترة ١٩٣٦-١٩٣٩ عززت من مكانة الكوفية كرمز للوحدة العربية (ولفلسطين). وعلى الرغم من أن الطربوش والسدارة كانا يحظيان ببعض التأييد فى قلب العالم العربى إلا أنهما كانا محدودين نتيجة لارتباطهما بأصحاب المهن والوظائف فى المناطق الحضرية. لذا كان معظم المتعلمين من سكان الحضر يأنفون من الكوفية الريفية الواسعة الانتشار.

كذلك كان الطربوش علامة بينة على النزعة المحافظة فى السياسة والثقافة والدين، ومع أن المسيحيين واليهود كانوا يرتدون الطربوش إبان الحكم العثمانى، إلا أن دلالته الإسلامية كانت أكثر من الكوفية أو السدارة. وعلى النقيض من ذلك كانت القبعة توحى بالاتجاه صوب الحداثة الثقافية والدينية (وهذا لا يعنى القول باستبعاد الأديان). مع ما يحمله ذلك من إيحاءات بالتأثير التركى. وكان للقبعة ذات الحواف (شبكا) التى فرضها مصطفى كمال أتاتورك على مواطنيه فى سبتمبر ١٩٢٥ دور فى الحملة التى شنتها تركيا لاستعادة لواء الإسكندرونة من سوريا. وقد اجتذبت القومية الشرقية باعتبارها مفهوماً للتضامن أوسع من الإسلام غلاة الحداثيين - ولا سيما مع اتخاذ اليابان نموذجاً ناجحاً ينحو نحو الغرب.

ومع ذلك رفضت الغالبية العظمى من المسلمين خارج تركيا وكثير منهم داخل تركيا وإيران وأفغانستان ارتداء القبعة رفضاً باتاً. ولم يكن هذا الموقف من منطلق التقاليد فقط بل فى مواجهة هذا الشكل الكاسح من أشكال التغريب المدمر ثقافياً. وفى مقابل ذلك انتشرت المناظرات حول الطربوش والسدارة والكوفية، وامتدت إلى أطراف العالم العربى فى المغرب وحضرموت، بل وإلى إندونيسيا وروسيا والصين. كذلك برزت قضية لباس الرأس فى عالم السياسة فى الهند قبل الحرب العالمية الأولى وفى فترة ما بين الحربين، حيث تضامن الوطنيون المسلمون والهندوس فى رفض القبعات الغربية.

مصر

برزت الآراء العامة حول القبعات والملابس الأوروبية بشكل رئيس فى مصر مع النزاع الذى شب فى دار العلوم فى القاهرة بعد شهور قليلة من صدور قانون القبعات الثورى فى تركيا. فقد طالب طلبة دار العلوم، وهم من خريجى الأزهر القديم الذين كانوا يرتدون العمامة والقفطان اللذين يميزان المشايخ، بحقهم فى خلع هذه الملابس مفضلين زى الأفندية المكون من البنطلون والجاكت والطربوش الذى يرتديه الطلبة فى الجامعة الحديثة (جامعة القاهرة حالياً). وبالرغم من أن المتظاهرين زعموا أن زى المشايخ غير مريح وعتيق، إلا أن تمردهم كان يشير إلى سخط أعمق على المؤسسات التعليمية القديمة ويعبر عن مخاوفهم من أن طلبة الجامعة يتاح لهم بسهولة

... والعمـــــامة... والقبعـــــة!!

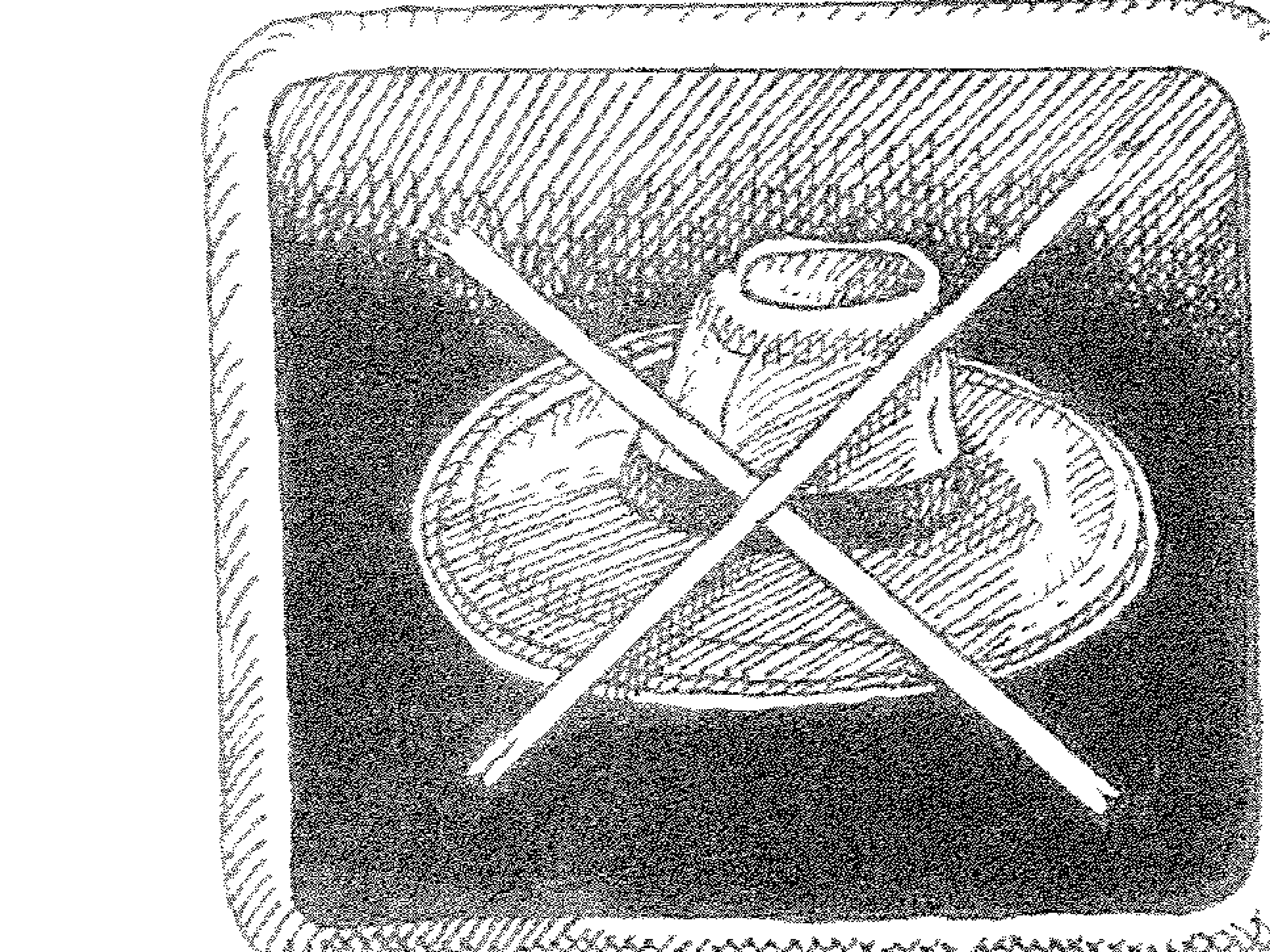
مـاثيـــو إليـــوت

الحصول على الوظائف الحكومية. وفى بداية شهر فبراير ١٩٢٦ قرر ما يقرب من نصف طلبة دار العلوم حضور دروسهم فى زى الأفندية، واعترضت إدارة الكلية وطلبت وزارة التعليم من الشرطة منع دخول الطلاب الذين يرتدون الطرابيش والملابس الأوروبية. بل وهددت الوزارة بإغلاق دار العلوم ما لم يحضر الطلبة فى زيهم التقليدى، وكان رد فعل الطلبة هو الحضور إلى الكلية بالعمامة والقفطان ثم تغيير ملابسهم فجأة إلى الطربوش والبنطلون. وبناء عليه أغلقت الشرطة الكلية. وقد روى اللورد لويد المندوب السامى البريطانى الواقعة على النحو التالى:

كان طلبة كلية إعداد المشايخ يناضلون بشدة... من أجل الحق فى حضور المحاضرات بالملابس الأوروبية والطربوش. وفى اليوم الذى انتهت فيه مدة الإنذار النهائى الذى أصدرته وزارة التعليم، حضر الطلبة إلى بوابة الكلية فى خضوع وهم يرتدون القفطان الرسمى والعمامة فسمح لهم بالدخول؛ وسرعان ما تغير موقفهم فخلعوا ملابسهم فور دخولهم قاعات المحاضرات وشرعوا فى التباهى بعرض بنطلوناتهم. وهكذا اقتربوا من تحقيق هدفهم حتى أن طلبة الكليات الأخرى بدأوا يناقشون بجدية مسألة تبنى القبعات كعلامة فارقة بين الأفندية الأصليين والمزيفين.

وتوضح ملاحظة لويد الأخيرة تصميم طلبة الجامعة على الحفاظ على ما يميزهم بشكل واضح عن طلبة الأزهر وطلبة دار العلوم من حيث الملبس؛ كذلك تبين كيف حدث التغيير إبان فترة الاتجاه نحو العلمانية ومساهمة هذا التغيير فى زخم هذا الاتجاه. ومع ذلك خلقت هذه الاتجاهات نحو العلمانية مناخاً من الأزمة ومحاولات مناوئة لها. ويعطينا طه حسين، أستاذ الأدب العربى بالجامعة حينئذ، صورة جيدة لانقسام المجتمع المصرى بين المشايخ والأفندية فى سيرته الذاتية «الأيام». وقد جسدت مسيرة حياته نفسها هذا الرفض لقيم التعليم الدينى لصالح القيم العلمانية ومن ثم تعرض للاتهامات العامة بالكفر والارتداد بسبب كتابه عن الأدب الجاهلى. ولقد شاهد الكاتب البريطانى روبرت جريفز، الذى كان يدرس فى الجامعة أيضاً، هذه التيارات العلمانية والدينية المتصارعة وعلق عليها فى سيرته الذاتية وداعاً لكل ذلك:

كانت مصر تعتبر نفسها بلداً أوروبياً، ولكن كانت تحاول فى نفس الوقت أن تحل محل تركيا باعتبارها القوة المتزعمة للإسلام. وقد أدى هذا إلى كثير من المتناقضات. ففى نفس اليوم الذى خرج فيه طلبتى يتظاهرون ضد آراء أستاذ الأدب العربى (طه حسين) العلمانية، كان طلبة الأزهر، كلية علوم الدين الكبرى فى القاهرة، يرفضون ارتداء الزى العربى المحدد المتمثل فى القفطان والعمامة الحرير وخرجوا يرتدون الملابس الأوروبية والطربوش. كان الطربوش هو غطاء الرأس الوطنى الذى يرتديه الجميع حتى الموظفون البريطانيون. أنا نفسى كان لدى واحد. ولم يكن الطربوش مناسباً على الإطلاق للمناخ. فبلونه الأحمر يمتص حرارة الشمس، ويصبح قائظاً من الداخل، وليس له حواف تحمى الرقبة من ضربات الشمس.





أثارت تلك الحادثة المجادلات العامة حول العمامة والطربوش و سرعان ما توسعت لتشمل القبعات بل وقضايا التقدم والهوية. فهب الأكاديمى محمد صادق عزام يدافع عن زى المشايخ فى جريدة «البورصة المصرية»:

وعلى عكس العمامة والقفطان، تكاد الملابس الأوروبية-وهى ما نسميه ملابس الأفندية-أن تكون مكروهة. ومع ذلك فأنا لا أعنى أن الدين الإسلامى يحرم لبس الطربوش والبنطلون، أو أن اللبس على الطريقة الأوروبية من المعاصى. ولكن المسألة مسألة أفضلية وارتياح، وما يناسب التقاليد من ملابس. والكتب المقدسة فى الديانتين المسيحية واليهودية لا تفرض على رجال الدين عندهم طريقة معينة فى اللبس: ومع ذلك فالقساوسة والحاخامات يميزون أنفسهم عن أبناء ديانتيهما بغطاء رأس خاص وملابس مميزة، وخاصة فى الشرق. وهذا ينطبق على الدين الإسلامى. والقرآن لا يفرض العمامة والقفطان على رجال الدين: ومع ذلك من الأفضل أن يستمروا فى ارتدائهما. فمن الضرورى أن يميز أصحاب المسئوليات الدينية والأخلاقية أنفسهم عن الآخرين- ليس من أجل أنفسهم، بل من أجل احترام الدين الذى يمثلونه...

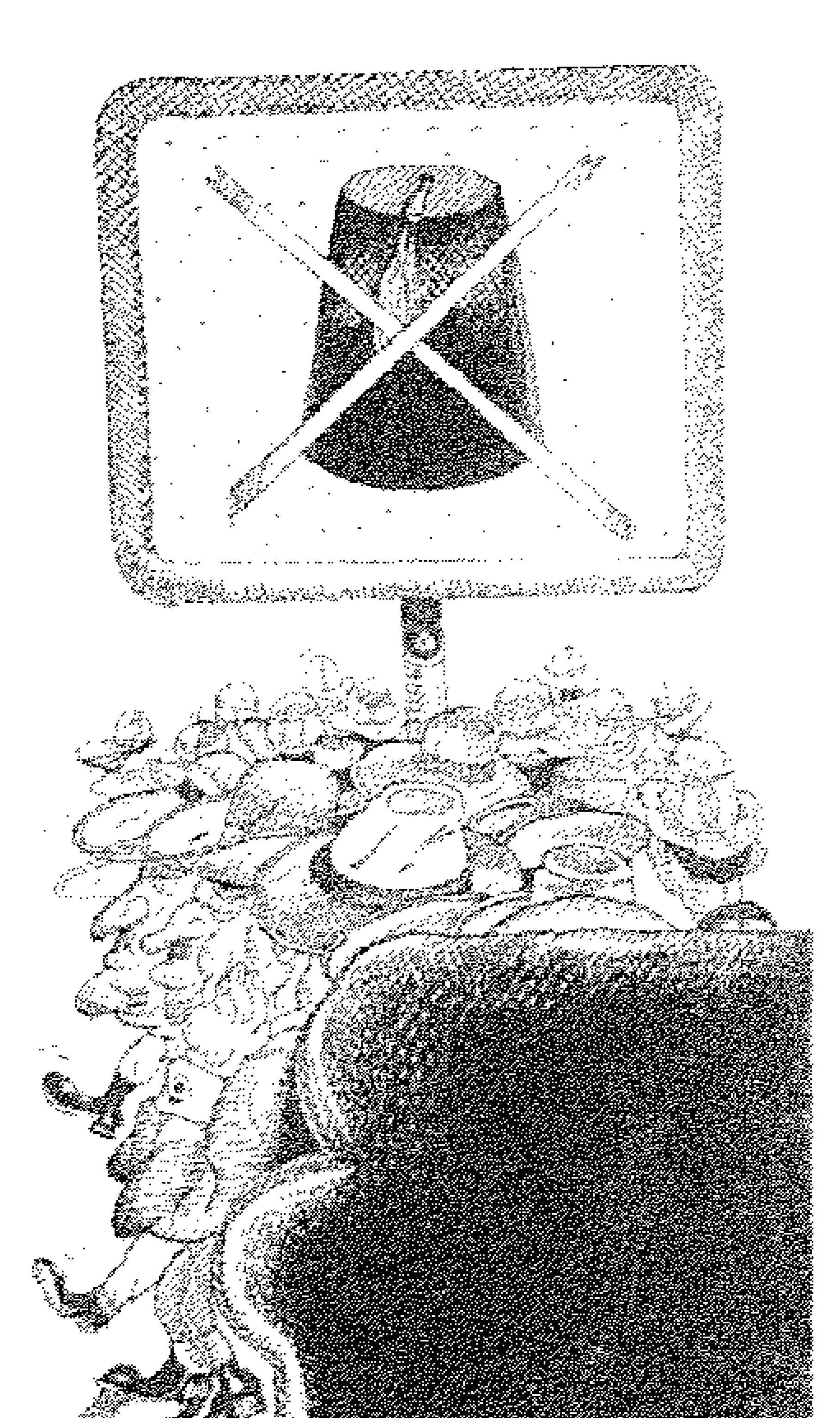
ومع ذلك اعتاد رجال ☞

القصر والسياسة على النمط المصرى العثمانى فى الملابس الذى أقره محمد على وخلفاؤه. وكانوا فى الحقيقة يفضلون أن يعتبروا ملابسهم إسلامية ومصرية بسبب الطربوش ولا يقرون أنها أوروبية وذلك لأنها ملابس تلبس من الرقبة إلى أسفل. فضلاً عن ذلك ساعد الاحتفاظ بالطربوش كدعامة للمزاعم الوطنية المصرية ومزاعم الأسرة المالكة فى إرث السلطة الأخلاقية والدينية للدولة العثمانية. ومما لا شك فيه أن رغبات الملك كانت فى ذهن الأمير عمر طوسون وكذلك فى ذهن سعد زغلول، زعيم حزب الوفد، عندما أعلنا على الملأ أن الطربوش هو غطاء الرأس المصرى الأصيل واستنكرا فى غضب ارتداء القبعات الأوروبية.

بينما صرح محمد محمود، وكيل حزب الأحرار الدستوريين، على نحو أكثر تعقلاً أنه ليس ضد استخدام القبعة ولكنه لا يفهم لماذا يريد الناس استبدال الطربوش بها. لذا وافق على الاقتراح الذى دعا إلى ضرورة اجتماع المثقفين المصريين لتقرير غطاء الرأس المناسب للمصريين.

وفى ٢٤ مارس ١٩٢٦ أدان شيخ الأزهر ومفتى الديار المصرية ارتداء المسلمين للقبعات. ووفقاً لما قاله لويد:

قيل أن هذا البيان صدر على أثر الزيارة التى قام بها العلماء للقصر، وأن الملك تذمر أثناء هذه الزيارة من أن العلماء لم يفعلوا شيئاً من أجل التأثير فى الرأى العام، بينما عبر الأمير عمر طوسون وسعد باشا زغلول عن رأيهما بقوة فى قضية القبعات. وكانت لغة البيان... تحتشد بالوعيد لمن يتشبهون بالكفار.





وكان بيان الأزهر بمثابة حسم للجدل الدائر حول الموضوع، لا سيما وأن وزارة المعارف (التعليم) كانت قد نجحت فى إجبار طلبة دار العلوم على الخضوع لتعليماتها. ومع ذلك استمر الهجوم على ارتداء القبعات وعلى المرتدين من أتباع كمال أتاتورك فى الصحف الدينية وشب الخلاف حول العلمانية مرة أخرى فى البرلمان خلال شهر سبتمبر. وأفضت قضية طه حسين «إلى أضخم أزمة خلال الدورة البرلمانية بأكملها» وكانت ثمة بوادر لمعارضة برلمانية لوصاية الملك الدينية واتجاهه المحافظ. وقد وصف الدبلوماسى البريطانى نيفل هندرسون الموقف على النحو التالى:

من السمات الشائقة التى لوحظت فى مناقشات البرلمان فى دولة تدين بالإسلام، ويطمح شبابها طموحاً كبيراً فى أن يصبحوا من موظفى الحكومة، ذلك الهجوم الذى شن على جامعة الأزهر ومشايخ المسلمين، و على المرتبات الضخمة لموظفى الحكومة وأعدادهم الزائدة عن الحاجة.. وبالرغم من أن الانتقادات التى وجهت للمؤسسات الدينية لم تثمر شيئاً، إلا أنه من الملاحظ أنه كان ثمة اتجاه واضح نحو النزعة العلمانية، على غرار نموذج جمهورية تركيا. وهو الاتجاه الذى سيتطور على نحو مؤكد ويؤدى مباشرة إلى الصدام مع الملك، الذى كانت بعض من أهم امتيازاته وأكثرها عائداً مرتبطة بالأوقاف.

كذلك عقدت الرابطة الشرقية، التى كانت تدعو لفكرة وحدة الشرق، جلسة مطولة فى عام ١٩٢٦ لمناقشة قضية الملابس. وكان على جدول أعمالها ثلاثة أسئلة:

أولاً: هل يجب على الشرقيين أن يحتفظوا بملابسهم دون التشبه بالغربيين، أم يتمسكون بالجزء النافع من العادات والتقاليد ويحذون حذو الغربيين فى السلوك الخارجى والملابس؟

ثانياً: أى عادات غربية خاصة بالمظهر يمكن أن ننتفع بتقليدها؟

ثالثاً: هل من المناسب، فى حالة تقرير تغيير غطاء الرأس والملابس، أن يحتفظ بعض الناس بالملابس التى تتوافق مع وظائفهم الخاصة؟

ولم يخرج ما توصلت إليه الرابطة عن التصريح العام بأن «الشرقيين يجب أن يقلدوا الغربيين فى ما هو نافع ويتفق واحتياجاتهم المختلفة، طالما لا يتعارض مع القومية الشرقية». ولكن بعد ذلك بسنتين خلال زيارة له أعلن الملك أمان الله، وهو من المؤيدين البارزين للقومية الشرقية، «عن معارضته الواضحة لارتداء الطربوش والجلباب، اللذين جعلا من الشرقى موضوعاً لازدراء الأوروبيين، بينما كانت سترة الفراك الرمادية والقبعة العالية اللتان يرتديهما «موضع ترحيب من قبل أنصار الحداثة باعتبارهما علامات أصيلة من علامات التقدم». لم يرق ذلك للعلماء أو للملك فؤاد، الذين كانوا بالطبع من أشد مؤيدى الطربوش.



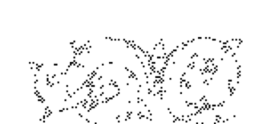
فى عام ١٩٣٢ أدت إحدى المبادرات التى أُطلقت فى أوساط التجار والطلبة من أجل تطوير الصناعة المصرية إلى تأسيس مصنع جديد للطرابيش. ومن المزايا الهامة للمشروع التى أُشير إليها أن «الطربوش هو العلامة المميزة للغالبية العظمى من المصريين والسوريين والطبقات المتعلمة». ومن الدلائل الأخرى على تأييد الطربوش فى نفس العام النقد الذى وجهه كريم ثابت، الصحفى المعروف الناطق بلسان حال الحكومة، لبعض الدبلوماسيين المصريين فى جريدة «المقطم» وذلك لظهورهم بالقبعات العالية بدلاً من الطربوش فى المناسبات الرسمية وحفلات الاستقبال. ولاحظ أيضاً أن الملك فؤاد فى إحدى زياراته لألمانيا وتشيكوسلوفاكيا وسويسرا فى ١٩٢٩ أصر على ارتداء الطربوش فى كل احتفال رسمى وأن يحذو الوفد المرافق له حذوه. فضلاً عن ذلك أظهر الملك فؤاد استياءه من أحد الدبلوماسيين المصريين الذى كان يرتدى قبعة عالية. وعقد كريم ثابت مقارنة بين القبعة البهلوية التى يرتديها الدبلوماسيون الفارسيون ووصف الطربوش بأنه «الرمز الوطنى المصرى، أو على الأقل غطاء الرأس الرسمى فى مصر». وبعد ظهور مقالة كريم ثابت بشهرين وقعت حادثة دبلوماسية بين تركيا ومصر عندما طلب مصطفى كمال أتاتورك من الدبلوماسى المصرى عبد الملك حمزة أن يخلع طربوشه فى حفل استقبال رسمى بمناسبة العيد المئوى لجمهورية تركيا. فقدمت مصر مذكرة احتجاج دبلوماسية واستعرت المناقشات فى الصحف التركية والمصرية حول الموضوع لعدة أسابيع حتى أتفق الطرفان على أنه قد حدث سوء فهم وأنه يمكن إغلاق الموضوع عند هذا الحد.

ومع ذلك استمر الهجوم على الطربوش. ففى عام ١٩٣٧ظهرت موجة جديدة من المقالات والرسائل فى الصحافة المصرية تناقش إمكانية إحلال القبعات محل الطرابيش. فعلى سبيل المثال طُرح اقتراح لتأسيس جمعية للدعوة إلى ارتداء القبعات، وهو ما استنكرته جريدة الفتح الأسبوعية. وظهر الأمير عمر طوسون مرة أخرى ونشر حديثاً دفاعاً عن الطربوش قال فيه أن من يفضلون القبعة على الطربوش يقلدون الغرب تقليداً أعمى معتقدين بذلك أنهم يلحقون بركب التقدم. ولكن ارتداء القبعة كما ذهب الأمير طوسون لم يحسن من وضع الزنوج فى الولايات المتحدة، ولم يحقق التقدم لليابانيين، أو يرفع كل الدول الأوروبية لنفس المستوى. فالملابس فى حد ذاتها لا علاقة لها بالتقدم أو التخلف، رغم أنها كرمز للعزة الوطنية والشعور القومى أحد العوامل الهامة للرقى. ومن ثم فإن الطربوش بالنسبة للأمة، شأنه شأن الدين والعادات والتقاليد، لا يجب التخلى عنه. وانتهى إلى أن دعاة التغيير المفتقرين إلى العقل يريدون الإطاحة بكل الضوابط، ولكن قوة الأمة الأخلاقية من شأنها أن تهزمهم وتكفل الرجوع إلى الصواب. وتركيز حديث الأمير طوسون على الاتجاهات اللاعقلانية واللاأخلاقية لأنصار ارتداء القبعات يعكس أصداء فتوى شيخ الأزهر ومفتى مصر عام ١٩٢٦.



وبالرغم من هذا التأييد من قبل الجهات العليا، إلا أن ثقل الاتجاه العلمانى ضد الطربوش كان فى ازدياد. ففى ٦ ديسمبر ١٩٣٨ وافق الملك فاروق بنفسه على زى جديد للقوات الجوية استبدل الطربوش بنوعين من الكابات، الفاروقية والفؤادية. وكانت هذه أول

انقسم دعاة الوحدة العربية بين مؤيد للسدارة أو الكوفية أو الطربوش. ولكن الثورة الفلسطينية التى اندلعت فى فترة ١٩٣٦ - ١٩٣٩ عززت من مكانة الكوفية كرمز للوحدة العربية (ولفلسطين)



خطوة نحو إحلال الكابات محل الطربوش فى القوات المسلحة، رغم بقاء الطربوش كزى للعروض العسكرية وخارج أوقات الخدمة. وطالب الأمير طوسون بإلغاء هذا القرار فى رسالة موجهة لناظر الحربية (وزير الدفاع) ولجريدة «الأهرام» ولكن بلا جدوى. فى تلك الأثناء بدأ بعض طلبة الأزهر فى الحضور بالملابس الأوروبية، وفى شتاء ١٩٣٩ قررت السلطات فرض أوامرها بالقوة: فتم منع من لا يحضر إلى الأزهر مرتدياً العمامة. ولكن الأخبار التى نقلتها جريدة منبر الشرق أفادت أن المعركة ضد الملابس الأوروبية قد باءت بالخسارة فى دار المعلمين ودار العلوم منذ الخلاف الأول الذى نشب عام ١٩٢٦.

العـــــراق

أما فى العراق، التى أصبحت دولة نتيجة اندماج ثلاث ولايات عثمانية سابقة مختلفة دينياً وعرقياً (الموصل وبغداد والبصرة)، فكان الكتاب الغربيون المعاصرون غالباً ما ينظرون إلى الملابس كأحد المؤشرات الأكثر وضوحاً على الانقسامات الموجودة بين المدن والأرياف، والطوائف، والأجيال والأعراق. ففى بداية عشرينيات القرن العشرين كانت ملابس معظم سكان المدن تحتوى على الأقل على قطعة من الملابس الأوروبية، وحتى هؤلاء الذين كانوا يرتدون الحلل الأوروبية كاملة كانوا يتجنبون ارتداء القبعة، مفضلين الطربوش عليها. رأى الزائرون أيضاً القلبق، والعمائم والكوفية. وتُظهر الصور الفوتوغرافية فى فترة ما بعد الحرب العالمية الأولى الملك فيصل والضباط المرافقين له من الأشراف وهم يرتدون شكلاً مميزاً من أغطية الرأس العسكرية المكونة من خوذة مستديرة صلبة لها ذرّ من أعلى، وحاشية مدلاة من الخلف وعقال، وهى شكل معدل من الخوذة العسكرية البريطانية مثل التى كان يرتديها الملك فيصل عند تتويجه. ويعزى ابتكار الفيصلية أو السدارة عادة إلى الملك فيصل أو حاشيته، ولكن ريتشارد كوك يرجع أصلها بشكل محدد إلى جعفر العسكرى وفترة حكم الأشراف فى سوريا. وفى أواخر عام ١٩٢٣ وبدايات عام ١٩٢٤ اتخذ الجيش العراقى والشرطة وكثير من طلبة المدارس السدارة غطاء للرأس، لكنها لم تحقق انتشاراً حقيقياً حتى ابريل ١٩٢٤ عندما أصدرت الحكومة العراقية مرسوماً يقضى بارتداء جميع الموظفين لها. وبدا ذلك وكأنه نهاية الطربوش، الذى كان مرتبطاً فى العراق بسكان المدن المتعلمين الذين كانوا مرتبطين بدورهم بالخدمة العامة. كذلك كان الطربوش يمثل حينئذ رباطاً غير مرغوب فيه بالحكم العثمانى والتركى. بالإضافة لذلك نظر الملك فيصل، كما يذهب إرنست مين، للسدارة باعتبارها شكلاً من أشكال العلم الوطنى يوحد كل العراقيين من خلفه:

لقد كان أمل الملك فيصل وهدفه المعلن أن يوحد الأديان والطوائف المختلفة حتى يصيروا جميعاً عراقيين، مواطنين فى دولة واحدة. وليسوا عرباً أو يهوداً أو مسيحيين أو أكراداً. ومن أجل هذه الغاية قدم غطاء الرأس الوطنى المعروف بالسدارة...



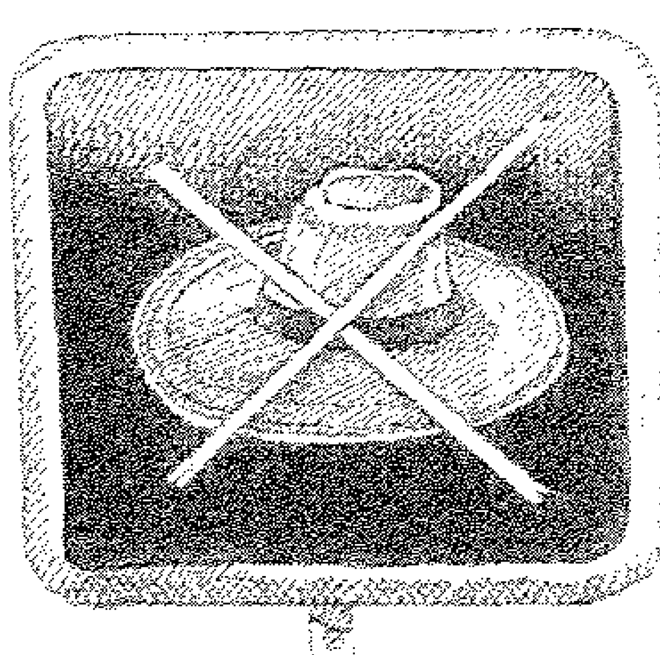
وأثار إدخال السدارة كثيراً من القضايا وأشكالاً من المجادلات تكررت فى دول مجاورة أخرى فى فترة ما بين الحربين. فعلى سبيل المثال، ساق أصحاب المدخل الاقتصادى الحجج ضد الطربوش لأنه مستورد وغال مفضلين الفيصلية الرخيصة المنتجة محلياً، كذلك دخلت التبريرات القائمة على الجوانب الصحية والعملية إلى ساحة النقاش. كذلك ذهب الملك فيصل ومؤيدوه من الشباب، الذين أسسوا حزب الأمة النشط فى أغسطس ١٩٢٤، أنهم يدعون إلى تبنى الملابس الغربية ليس فقط لأنها تعكس عادات عقلية وسلوكية غربية بل تنتج نظيراً لها. ومع ذلك فمن المدهش أنه كما تجنب المواطنون الذين اتجهوا إلى ارتداء الملابس الغربية القبعات الأوروبية، نجد أن الملك فيصل، نصير الملابس الغربية، اختار أن يكون مختلفاً فيما يتعلق بغطاء الرأس. فإذا ما أخذنا فى الاعتبار الاسم التقليدى للسدارة وهو «الفيصلية»، وتدخل الملك شخصياً فى هذا المشروع فضلاً عن دوره الرائد فى تأسيس دولة العراق، نرى أن لدينا من الأسباب ما يجعلنا ندرك أنه ثمة عنصر يتعلق بحكم الأسرة المالكة فى قضية غطاء الرأس الوطنى. فالسدارة، مثل الطربوش، ليس لها حافة وقد ساعد هذا بلا شك على تجنب الخلافات الدينية، وليس هناك إلا دلائل قليلة على أنها كانت مصدر إساءة. فبالنظر إلى أهمية الدين فى دعاوى الهاشميين بشرعيتهم السياسية وكذلك تأثير رجال الدين السنيين والشيعيين خاصة على المجتمع العراقى، لم يكن هناك دافع قوى لدى فيصل لإضافة حافة للسدارة. ومع ذلك فقد احتاط للأمر بفرض السدارة على الجيش والشرطة وتلاميذ المدارس قبل أن ينتقل للموظفين. وفيما بعد عزف الملك فيصل نغمة علمانية حذرة فيما يخص استخدام السدارة عندما أمر الموظفين المدنيين بارتدائها «مثل القبعات»-أى أن يخلعوها عندما يكونون داخل المبانى- خلال الزيارة الرسمية التى قام بها الملك فيصل بن سعود عام ١٩٣٢. وقد لاحظ المعاصرون الإصلاحات الموازية فى الملبس فى تركيا وفارس. الفرق الوحيد البين هو أن الملك فيصل لم يفرض على مواطنيه السدارة بالقوة. على الرغم من أنها أصبحت زياً إلزامياً لموظفى الحكومة وعلامة مميزة لجماعات الشباب مثل الكشافة والفتوة. كذلك شكلت الإساءة للسدارة جرماً. وفى أحد الحوادث الشهيرة تم القبض على شابة مجرية لأنها داست عليها خلال الاستعراض الذى كانت تؤديه فى أحد كباريهات بغداد. ولكن شأنها شأن الطربوش الذى حلت محله أصبحت السدارة العلامة المميزة للأفندية ولم تحظ بانتشار ملحوظ فى الريف. فعلى سبيل المثال رفض مشايخ مجلس النواب العراقى، الذين أسسوا كتلة برلمانية فى ١٦ فبراير ١٩٤٦، عضوية «الأفندية ومن يرتدون السدارة». وظلت الفيصلية، أو غطاء شبيه بها، مستخدمة بين الموظفين خلال حكم الملك غازى (١٩٣٣-١٩٣٩) وكان الملك نفسه يرتديها.

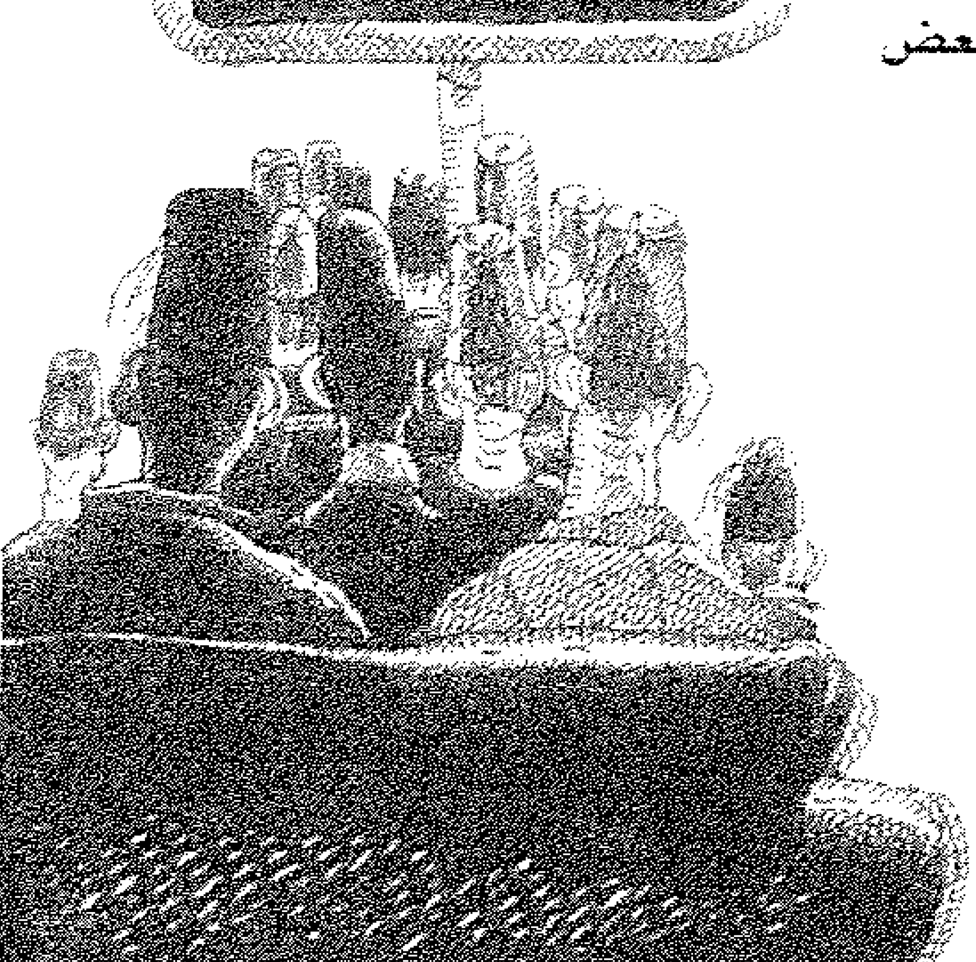
وفى عام ١٩٣٥ حذت العراق حذو فارس فى الحد من المواكب العامة المرتبطة بتقاليد احتفال الشيعة بموت الإمام على والحسين وما يسودها من مظاهر التطرف فى البكاء وجلد الذات. ولكن لم يحدث إحلال الفرس للقبعات والملابس الغربية محل الكولة والحلة البهلوية فى ذلك العام تغييراً مشابهاً فى العراق ومع ذلك كانت أغطية الرأس ذات الحواف تحظى بمؤيدين حتى من بعض ذوى المناصب العليا. ووفقاً للمؤرخ العراقى ماجد خدورى.

فى ديسمبر عام ١٩٣٥ عاد حكمت (سليمان) إلى العراق (من زيارة لتركيا) وشوهد وهو يسير فى شوارع بغداد مرتدياً قبعة على رأسه-وهى علامة ظاهرة على تأثير زيارته لتركيا. وقد تبنى حكمت سليمان، الذى أصبح رئيساً للوزراء بعد عدة شهور على أثر انقلاب عسكرى، موقفاً مؤيداً لتركيا وحض الملكة عالية على الظهور علناً بلا حجاب. ومن ثم شرع موظفو الحكومة فى التنافس على شراء القبعات، ظناً منهم أن حكومة حكمت سليمان على وشك أن تفرض القبعة كزى رسمى. وعليه ارتفعت أسعار القبعات ارتفاعاً باهظاً وسارع تجار التجزئة بطلب بضاعة جديدة من مورديهم فى الخارج (فى إيطاليا أساساً).

ســــوريـــا

فى عام ١٩٣٠ تقدمت مجموعة من علماء الدين السوريين والتجار والحرفيين إلى الشيخ بدر الدين الحسنى إمام القطر واشتكوا اليه أن الشرطة والموظفين المدنيين يرتدون القبعات وطلبوا منه التدخل دفاعاً عن التقاليد الوطنية والإسلامية. ثم ذهبوا إلى جلسة استماع مع ابنه تاج الدين الحسنى، الذى كان رئيساً للوزراء، فاستمع إلى انتقاداتهم للقبعة (بما فى ذلك عدم كونها صالحة فى مواجهة الشمس)





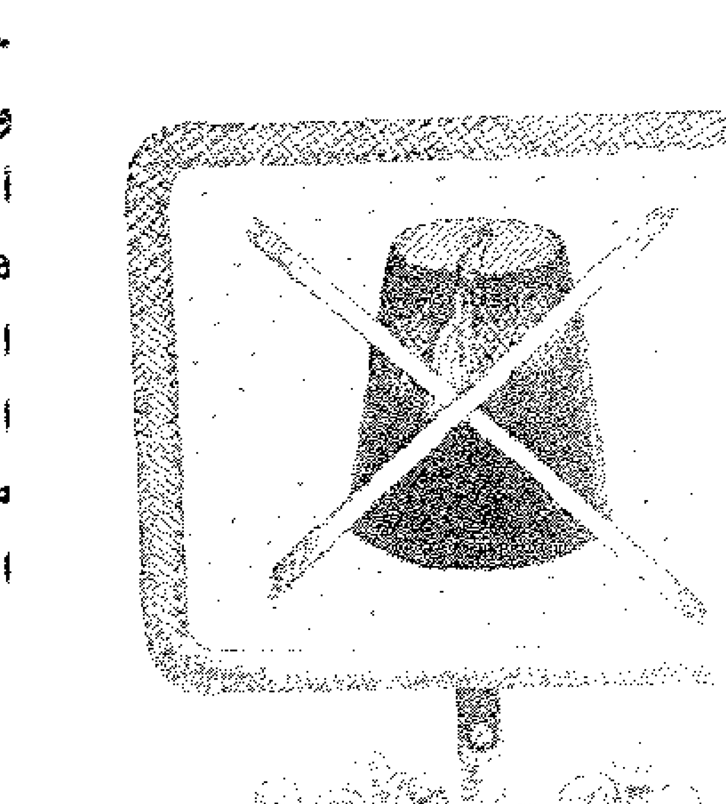
واقتراحهم أن يحل محلها «غطاء الرأس الوطني» المتمثل في الكوفية والعقال. ووافق تاج الدين على دراسة المسألة.

ويسجل دليل وزارة الخارجية البريطانية الخاص بالمراسلات الدبلوماسية ملفاً من سوريا عن عام ١٩٣١ تحت عنوان «مغزى مظاهرات الطلبة المؤيدة لغطاء الرأس العربي». لكن هذا الملف لم يكتب له البقاء. ومع ذلك تلقي تقارير الصحافة المعاصرة الضوء على القضية:

في دمشق حضر تلاميذ اثنتين من المدارس الحكومية وهم يرتدون غطاء الرأس البدوي المكون من الكوفية والعقال، بدلاً من الطربوش أو القبعة الأوروبية. وعندما رفض مديرو المدرستين السماح لهم بالدخول توجه الطلاب إلى وزارة التعليم، التي وعدت بأنه سيتم توجيه الأوامر لمديري المدرستين للسماح لهم بالدخول.

فحسب ما جاء في صحيفة «الشعب» الصادرة في دمشق، كان هناك اتجاه لاستخدام الكوفية والعقال بدلاً من الطربوش، على الأقل بصورة مؤقتة، حتى يتم اختيار غطاء رأس وطني. كان كثير من طلاب المدارس الابتدائية والثانوية، الحكومية والخاصة، يرتدون الطربوش. في ٢٢ من مارس ١٩٣١ تجمع عدد كبير من الطلبة السوريين في ميدان المرج وقاموا بحرق كومة من الطرابيش، مثلما فعل أنصار غاندي في الهند بالمنسوجات الأجنبية، وبذلك وهبوا أنفسهم لقضية غطاء الرأس الوطني.

وبالرغم من أوجه الشبه مع مظاهرات الطلبة في مصر التي وصفناها آنفاً ومع التدمير الأوسع للطرابيش في تركيا، إلا أن الصحفيين السوريين اتجهوا أولاً للتفكير في التأثير الهندي. كذلك افترضت صحيفة Oriente Moderno الشرق الحديث أن هذه الحوادث «يمكن أن تكون نتيجة لتوجيهات الزعيم الهندي شوكت علي (عندما كان في يافا) بضرورة دعم المنتجات الوطنية والحفاظ على الملابس المحلية». في الواقع ذهب معارضو الطرابيش إلى أن كثيراً منها مستورد. أما الراديكاليون السوريون فقد هاجموا الطرابيش في بعض الأحيان انطلاقاً من أسباب حزبية سياسية باعتبارها شارة السياسيين في الجبهة الوطنية المحافظة. ولكن بعد ذلك بأسبوع اقترح فخري بك البارودي، أحد الأعضاء البارزين في الجبهة، إقامة مسابقة عامة، لها لجنة محكمين، لتصميم نموذج لغطاء رأس سوري. على أن يحل هذا النموذج محل الطربوش وكل الأشكال الأخرى المستخدمة في غضون خمس سنوات. وقد تضمنت شروط المسابقة أن يكون الشكل أنيقاً، وصناعة سورية، وأن يحمي الرأس من الشمس والمطر، وأن يكون مريحاً في الصلاة، وأن يتمتع بسمات عربية.





اجتمع الشباب المؤيد لغطاء رأس وطني يمثل الأمة العربية في الثالث من أبريل، هذه المرة في ميدان المرج بمدينة حلب، وهم يرتدون الكوفية والعقال ويحملون طرابيشهم القديمة في أيديهم. فأشعلوا ناراً، وألقوا بالطرابيش فيها وهم يصفقون ويهتفون؛ وقام المتظاهرون بحرمان بعض المارة، ممن اقتربوا بدافع الفضول ليروا ما يحدث، من طرابيشهم فألقوا بها أيضاً في النيران. وفر المارة الآخرون في الوقت المناسب، رغم استمرار المشاجرات والحوادث. وبعد أن خمدت النيران، التي التهمت ما لا يقل عن أربعمائة طربوش، ختم المتظاهرون احتفالهم بعمل حلقة ورقص الدبكة.

وعلى الرغم من أن القوميين السوريين الراديكاليين ودعاة الوحدة العربية عبروا عن سخطهم على الطربوش، فقد راوحوا بين الكوفية التقليدية المميزة للأرياف وسدارة الإصلاحيين المميزة للحضر والمؤيدة للعراق. وكما رأينا فإن طلبة المدارس على وجه التحديد هم الذين انغمسوا في هذه القضية. وقد عكست السياسات التي تبنتها منظمات الشباب إزاء الملابس التحولات والانقسامات الأوسع في سوريا حول الهوية والطموحات القومية. فعلى سبيل المثال كان الفرع السوري لحركة الكشافة يرتدي في الأصل زي الكشافة مع الطرابيش ولكنه استبدلها في بداية الثلاثينيات بالسدارة ثم الكوفية فيما بعد. وقد عمل على تدعيم الشعور بالوحدة العربية من خلال تبادل الزيارات مع العراق وفي عام ١٩٣٧ دعا وزير التعليم السوري كل تلاميذ المدارس للانضمام للكشافة. وتبنت مجموعة أخرى من الشباب القومي، وهي مجموعة القمصان الحديدية، السدارة إبان تأسيسها عام ١٩٣٦، أما بالنسبة لرابطة العمل القومي، التي كانت تضم أعضاءً من الحضر والأرياف، فقد أقرت السدارة لأعضاء الحضر والكوفية للفلاحين (الذين كانوا يرتدون سروالاً واسعاً بدلاً من البنطلون الغربي) ولكنهم قرروا فيما بعد سياسة عامة في جانب الكوفية. وبدا التحول باتجاه الكوفية مرتبطاً بالثورة الفلسطينية. ولكن قبيل اندلاع الحرب العالمية الثانية بفترة قصيرة عاد التعاطف مرة أخرى تجاه العراق وذلك نتيجة لتزايد شهرة الملك غازي كمؤيد للثورة القومية في سوريا وفلسطين. فطالب طلاب جامعة دمشق، على سبيل المثال، الملك غازي أن يصبح ملكاً على سوريا (بالاتحاد مع العراق) وأن تحل السدارة محل الطربوش.

أصبحت قضية القبعة موضع مناقشات مطولة في سوريا على وجه الخصوص وذلك نتيجة لارتباطها بنشاط تركيا في استعادة سنجق الإسكندرونة من سوريا. في ديسمبر عام ١٩٣٤ قام أحد المدرسين بجامع يني كامي بأنطاكية بسب مجموعة من الأتراك الذين يرتدون قبعات ونعتهم بالكفار واعتدى عليهم جسدياً لدخولهم مسجده وتضاربت أقوال الصحف التركية والعربية حول الحادثة. وفيما بعد قام الأتراك الداعون لاستعادة الإسكندرونة بنقل الفلاحين في حافلات إلى المدن لاستبدال طرابيشهم بقبعات، وعندما أثار ذلك انتباهاً كبيراً قاموا بحملات سرية في الأرياف لتوزيع عربات نقل محملة بالبيريهات والكابات. وتصاعد عدد الحوادث والاعتقالات المرتبطة بغطاء الرأس مع اقتراب موعد الاستفتاء على مستقبل الإسكندرونة، وعندما دخلت القوات التركية السنجق في يوليو ١٩٣٨، تمت مهاجمة من يرتدون الطرابيش علانية في شوارع أنطاكية. وقد تهكمت صحيفتا «المساء» و«الشباب»، اللتان كانتا تدركان أن الأقلية العربية سوف تخسر في الاستفتاء، على حركة استرداد الأرض التركية في شعر ساخر:

لقد ارتدينا الكابات، وارتدينا القبعات،
ومزقنا طرابيشنا شذرات.
شارات العبودية! لا سيفونات!
و حول رؤوسنا لا نلف عمامات.

وكان أحد القرارات الأولى التي اتخذها مجلس الإسكندرونة تحت السيادة التركية هو التصويت على قانون يجعل القبعات غطاء رأس إلزامياً.

فلسطين

كذلك أثار قانون القبعات الثوري في تركيا جدلاً في فلسطين: ففي ٢٠ أبريل ١٩٢٦ اجتمعت مجموعة مكونة من خمسين شاباً من المسلمين والمسيحيين في القدس لمناقشة القبعات ورسائل واردة من كبار رجال الدين المسلمين والمسيحيين في فلسطين حول هذه القضية. وقد رجحت معظم المخاطبات استخدام القبعة بدلاً من الطربوش، كذلك اعتبر الشباب المشاركون القبعة صحية أكثر. ومع ذلك اعترضت صحيفة فلسطين اليونانية الأرثوذكسية التي كانت تصدر من يافا على أن القبعة، حتى وإن كانت مفضلة من بعض الأوجه، فهي غير مناسبة للظروف السياسية القائمة في فلسطين:. فإذا تبنى سكان فلسطين الأصليون القبعات فسوف يدعو ذلك الأوروبيين إلى الافتراض أنهم صهاينة، ومن ثم يعطي دعامة جديدة للمزاعم الصهيونية.



بعد ذلك بعامين قرر مؤتمر التعليم الفلسطيني العربي أنه يتعين على طلبة

كان الطربوش علامة بينة على النزعة المحافظة فى السياسة والثقافة والدين، ومع أن المسيحيين واليهود كانوا يرتدون الطربوش إبان الحكم العثمانى، إلا أن دلالته الإسلامية كانت أكثر من الكوفية أو السدارة



المدارس الثانوية فى المستقبل ارتداء القمصان الأوروبية والشورتات بدلاً من القفطان التقليدى أو الحلل الحديثة الجاهزة، وعدم ارتداء الطرابيش أو أى شكل آخر من أغطية الرأس داخل الأبنية المدرسية. ورغم أن هذا شكل خطوة واضحة تجاه السلوك الأوروبى الحديث، إلا أنها كانت خطوة معتدلة وعملية فى تجنب الشكليات التقليدية والأوروبية. لذا نجد أن إقبال على شاه الأفغانى، الذى ساح بأرجاء فلسطين عام ١٩٢٩، اندهش اندهاشاً بالغاً من الاحترام والعناية التى تولى لأنماط الملابس المختلفة. ومع ذلك ذهب الكاتب اليهودى إتامار بن آفى، فى تعليق له على تصريح المندوب السامى بعصبة الأمم، السير جون رويرت تشانسلر، أن فلسطين غير مؤهلة للحكم النيابى، قائلاً أنه تكون لديه انطباع بالتخلف الثقافى من الطربوش الذى يضفى هيئة عثمانية على كثير من المسلمين والمسيحيين واليهود من الطبقة المتعلمة الذين يرتدونه. فطالب بن آفى:

أيها الفلسطينيون، تخلوا عن الطربوش! فليس له علاقة بالجنسية: حيث إنه جاء من جزيرة كريت، وفرضه السلاطين العثمانيون: وها هم الأتراك أنفسهم يتبرأون منه الآن. فليس لدى فلسطين الآن وقد انفصلت عن تركيا للأبد أى دافع لتحتفظ به، ولاسيما أن غالبية الدول العربية قد تخلت عنه. من المستحسن أن ينتقى الفلسطينيون، دون تمييز دينى، غطاء رأس موحداً مثل العقال الذى يرتديه البدو، والذى يرجع على الأرجح إلى غطاء الرأس اليهودى القديم. فسيكون أكثر رونقاً وموضع تقدير فى الاحتفالات. على أية حال، دعونا نتخلص من الطربوش!



بعد ذلك تلقت الحركة الداعية للزى الوطنى حافزاً جديداً من الأوساط الإسلامية القومية. ففى ١٣ فبراير ١٩٣١ استقبل المفتى أمين الحسينى شوكت على فى يافا. وألقى شوكت على خطاباً جماهيرياً فى الجمعية الإسلامية المحلية استناداً إلى خبراته الهندية:

أطالبكم بأن ترتدوا الملابس الوطنية والزينة الوطنية... لقد كنت أنا وأخى نرتدى الملابس الأوروبية ونحاكى الأوروبيين فى تأسيس منازلنا. لكنهم كانوا يحتقروننا. لذا تخلينا عن المحاكاة، ورجعنا إلى ملابسنا الوطنية، واستأنفنا سلوكياتنا التقليدية. فأطلقت لحيتى، وهى لا تجعلنى بأى حال أكثر وسامة، احتجاجاً على حياتى الماضية. لقد تغيرنا حتى نعمل على عزة بلدنا وديننا. لقد بدأ الأوروبيون يحترموننا... آمل عندما أعود مرة أخرى إلى فلسطين أن أجدكم فى ثياب عربية.

وبعد ذلك بأقل من شهر، فيما بدا وكأنه استجابة لنداء شوكت على، أعلنت الغرفة التجارية فى نابلس عن تأسيس شركة نسيج عربية لإنتاج أنواع مختلفة من الأقمشة تكفى احتياجات البلاد وتكون قادرة على أن تحل محل البضائع المستوردة، معتمدة فى ذلك على رأس مال عربى بالكامل وقوة عمل عربية خالصة. فى نفس الوقت لاحظت صحيفة الكرمل أنه ظهرت حركة، فى أنحاء البلاد، تساند صناعة الملابس الوطنية. فى العام القادم... سوف نشهد إحياء للملابس الوطنية. ولقد ظهرت نماذج أولى لنمط غطاء الرأس العراقى فى فلسطين.. تصنع فى مجدل.

كذلك قدمت صحيفة فلسطين إعلانات مجانية لمنتجى النسيج وأغطية الرأس المحليين أو السوريين (وقدم هؤلاء المنتجون بدورهم خصومات خاصة للمدارس التى تقدم الزى الوطنى والفيصلية لتلاميذها). ونقلت صحيفة ألف باء الدمشقية فى عام ١٩٣٢ أن بعض سكان يافا بفلسطين تبنوا الفيصلية لأنها «تظهر رغبة المسلمين والعرب فى أن يكون لهم نفس الزى ونفس الطموحات والمشاعر، وكعلامة على تقديرهم للملك فيصل «بسمارك العربى».



ومع ذلك فإبان الثورة العربية توارت الحملة من أجل السدارة فى خلفية المشهد. ففى أغسطس ١٩٣٨ أطلق الثوار استراتيجية جديدة عندما أمروا كل الفلسطينيين بالتخلى عن الطربوش وارتداء الكوفية والعقال. وجاء فى صحيفة التايمز ما يلى: الحظر الفلسطينى العربى على الطربوش: الاتجاه الوطنى فى الملابس.

بدأ الحظر الناجح الذى تناقلته الأنباء على الطربوش الأحمر، الذى يشكل زينة خلابة للمدن الفلسطينية، بالقرار الصادر من «مقر القيادة العامة للثورة العربية فى فلسطين» الذى أعلن منذ أسابيع قليلة فى كل المساجد يدعو كل عربى مخلص إلى ارتداء الكوفية أو الحطة والعقال المستخدمين بين قبائل الصحراء وسكان القرى.

ومنذ ذلك الحين امتدت الحملات الاعتيادية لتحطيم الطرابيش إلى المدن. فظهرت أول ما ظهرت فى يافا، وأصبحت ملموسة فى القدس. وسارع الشباب، أو الدماء الشابة إلى الاستجابة لتلك الحملات، وحذا الصبية الصغار حذوهم. وقد توخى الأرمن والأقليات الأخرى الحذر واستجابوا لنمط الملابس الجديد. والدافع وراء هذا القرار غير معلوم، حتى لدى الذين يساعدون على تنفيذه. فيقول البعض أنه يؤكد على عودة روح العروبة والثورة على نزعة التغريب؛ وذهب آخرون إلى أن القرار قصد به جعل هجمات رجال العصابات على المدن أقل وضوحاً؛ أو أن القرار يستهدف المساواة فى المعاملة بين الفلاحين والأفندية خلال حملات التفتيش. ومما لا شك فيه أن الثوار العرب يرغبون فى التأكيد على الوحدة العربية وذلك بمحو أبرز علامات التفرقة الطبقية بين الأفندية والفلاحين.

وكانت الضغوط التى مورست من أجل الانصياع لقرار التخلى عن الطربوش من الشدة بمكان حتى أن عائلة النشاشيبى ومؤيديهم، الذين تمسكوا فى البدء بالطربوش، ارتدوا الكوفية والعقال فى نهاية المطاف. لقد أصبحت الكوفية والعقال رمزاً قوياً للثورة حتى أن السلطات البريطانية اضطرت إلى منع المحامين من ارتدائهما فى المحاكم. ومع ذلك فبنهاية الثورة العربية وإعلان الكتاب الأبيض الخاص بفلسطين عام ١٩٣٩ عاد سكان المدن مرة أخرى إلى ارتداء الطربوش. وفى عام ١٩٤٠ صرح رشيد الحاج إبراهيم وهو من القوميين العرب لصحيفة فلسطين أنه حان الوقت للتخلى عن الكوفية والعقال. فهذه الملابس، كما قال، تميز أهل الريف؛ وأن الطربوش أكثر صلاحية للوحدة العربية.

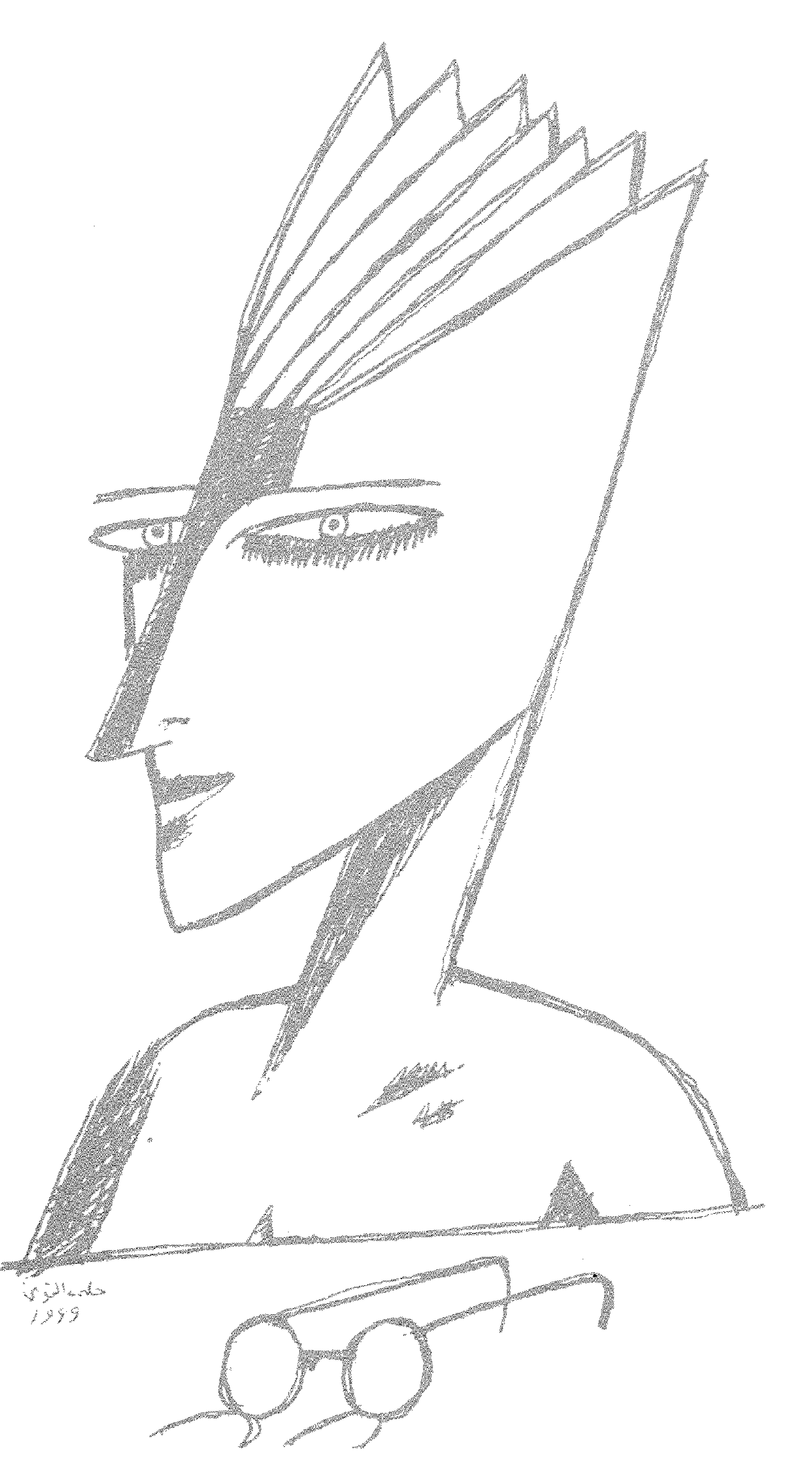
خاتمة

بالرغم من أن الدول العربية لم تحذُ حذو تركيا وإيران وأفغانستان فى إصدار قوانين للملابس والقبعة، إلا أنها كما رأينا تأثرت فى تلك الفترة بهذه الدول المجاورة وكذلك بأزياء النماذج السياسية الليبرالية والشمولية فى أوروبا. فملابس وأسماء بعض حركات الشباب فى سوريا ومصر، على سبيل المثال، توحى بنموذج إيطاليا الفاشية. ومع ذلك استمرت قضية الزى العربى وغطاء الرأس العربى فى فترة ما بين الحربين خاضعة للاعتبارات التقليدية الخاصة بالطبقات والطوائف بالإضافة إلى النظريات الحديثة، المحلية رغم ذلك، عن الوطنية، والقومية العربية، والوحدة الإسلامية بل والقومية الشرقية. وقد شغلت هذه القضايا المتعلقة بالملابس معظم فئات المجتمع من الحكومة إلى الفلاحين وارتبطت بمجموعة من السياسات من المقاومة الراديكالية (مثل الثورة العربية فى فلسطين وحركة استعادة الأرض فى لواء الإسكندرونة) إلى بناء الأمة وتأسيس شرعية الأسر الملكية. وحتى خلال تلك الفترة، وهى فترة المد العالى للعلمانية فى الشرق الأوسط، كان هناك رفض عميق بين المسلمين لتبنى القبعات الغربية. ولم تنته نقطة التناقض الأساسية بين الملابس الغربية والشرقية، وهى مسألة اختلاف غطاء الرأس، إلا فى الفترة اللاحقة للحرب العالمية الثانية حيث ساد اتجاه عام نابع من إرادة الأفراد نحو تعرية الرأس. ■



خيـــر رفيـــق فـى الزمـــان!!!

رضــــوى الــشــافـــعـــى



▪▪ «إن أصعب ما كان على التعامل معه هو أن أرى وأشـهـد عـلاقـة الـنـاس بالكتاب وهى تتغير وتتحول. كانت الكتب فى الماضى تعتبر مقتنيات غالية لا تقدر بثمن. وكانت تعامل باحترام، ولا يفرط فيها بسهولة. منذ عدة أيام، رأيت مجموعة من الأطفال يلقون بكتبهم المدرسية فى سلة المهملات. لقد حطم ذلك قلبى. أخجل أن أقول ذلك، لكن المنظر أبكانى؛ لم أستطع التحكم فى دموعى. قلت لنفسى إن هذه الكتب هى التى علمت هؤلاء الأطفال. إذا كان هذا هو الجزاء الذى حصلت عليه، فماذا سيكون جزاء آبائهم؟».

بائع كتب على سور الأزبكية

- Egypt Today الطبعة العربية - خريف 2003

كنت أعلم وأنا أتجول فى طرقات معرض الكتاب معها، أن رفيقى فى الطريق للحاق بالديناصورات. لكنى لم أكن بعد على استعداد لمجاراة السخرية والدخول به إلى حوارات التهريج والسخف. كانت صديقة وعزيزة، أحبها لنقاء قلبها، فقط! كانت الجملة الأولى: «يلا نشترى فشار ونركب الطفطف».

طفطف! كانت تقصد الأتوبيس الذى ينقل الزوار بين أجنحة المعرض المختلفة، والذى يرتبط فى ذهنها بتلك الوسيلة الترفيهية للنقل التى كان يستقلها المصطافون فى المصايف قديماً، والتى ربما لا زالت موجودة حتى الآن فى بعض المدن الساحلية المصرية.

صديقتى جامعية مثل الأغلبية. لا تمت للثقافة بصلة؛ تنظر للكتاب على أنه أداة مملة للنجاح فى الامتحان، سواء كان مدرسياً أو جامعياً. وبعد أن انتهت هذه المرحلة الدراسية، انتهت علاقتها بالرفيق الذى لم يفارق ساعاتى على مدى السنوات الطويلة بعد التخرج.

طالما لاحت أمامى تلك الفكرة الغريبة: ماذا لو أجد نفسى أمام ذلك الأبله الذى صنف القراءة على أنها هواية، نضعها فى بنود استمارات التوظيف أو السير الذاتية. هل بدأت هذه الفكرة التى أعطت للناس ذريعة اختيار السباحة أو جمع الطوابع كبديل مشروع من أحد الأشخاص فعلاً؟ وترى كيف سيبدو هذا الشخص؟

أذكر أحد المسلسلات التليفزيونية القليلة الممتعة تدور أحداثه فى حى الفجالة، وليس هو مسلسل الفجالة المعروف، بل مسلسل آخر تابعته منذ أكثر من عشر سنوات وأكثر ما لفت نظرى فيه مقدمته الغنائية. عشر سنوات أو أكثر ولا زال صوت محمد منير يدور فى رأسى بين الحين والآخر:

عينى عليك يا فجالة
م الرجالة العيرة بشنبات
عايشين فى حاجات
وحاجات بدل الكُتُبات

كانت فكرة المسلسل تدور حول المكتبات التى تتحول واحدة بعد الأخرى إلى محلات لتجار السيراميك، وعن الروائى بطل المسلسل وروايته التى لم تكتمل بعد. ربما هذا نفسه ما يشعر به هؤلاء الذين مرت سنواتهم بين الكتب، يرتبون ويرصون، يبيعون ويشترون، والكثير منهم يقرأ ما تقع عليه يده من هذه الكتب قبل بيعه: باعة الأزبكية القدامى. أقول القدامى لأن الجدد منهم لا يختلفون عن صديقتى كثيراً، حتى لو كانوا أبناء الباعة المحنكين، والذين ورثوا تلك المهنة عن آبائهم، لكنهم لم يرثوا ثقافتها.

كان سور الأزبكية القديم يعج بالباعة الذين يعرفون كتبهم واحداً واحداً. عم حسين كان من بين الكثيرين الذين عشقوا كتبهم فى سور الأزبكية. قابلته للمرة الأولى عام ١٩٩٠، وكنت أقلب فى كتبه المعروضة.

فاجأنى وأنا أقلب فى صفحات كتاب بعنوان The Dynamic Laws of Healing للكاتبة الأمريكية كاثرين بوندر. قال لى: «هذا الكتاب عن الطب البديل». هززت له رأسى بابتسامة بسيطة ولم أعر كلامه اهتماماً. اشتريت منه هذا الكتاب وبعض الكتب الأخرى وطلب منى عشرين جنيهاً فقط.

أعطانى وقتها كارت عليه تليفونه واسم مكتبته، أو كشكه. لما جاء الوقت وبدأت قراءة ذلك الكتاب، كان موضوعه لا يبعد كثيراً عما قاله عم حسين: الطب البديل. كان يدور حول قوانين الإرادة البشرية والطاقة الذهنية فى مداواة الأمراض(بعيداً عن الطب والعقاقير)، وكيف أن معظم الأمراض التى تصيب الجسد تبدأ من العقل والضغوط النفسية التى يمكننا القضاء عليها من المنبع بتفعيل تلك الطاقة الكامنة فينا.



لم أتصل بعم حسين بعدها، بل ذهبت إليه مباشرة. لم أجده وعلمت أنه «ذهب لشراء بعض الكتب من زبون فى الحلمية». علمت منه حين عاد أنه يطلب من كل من يشترى منه الكتب أن يتصل به ويخبره إذا علم أن أحداً من معارفه سيتخلص من أى كتب لديه، بل ويذهب ليأخذها بنفسه وينقلها إلى كشكه، حيث يقوم بعملية فرز دقيقة، ويضع كل كتاب مع الكتب التى تقع فى نفس المجال. كان يذهب لينقذ الكتب من صناديق القمامة وباعة الروبابيكيا، وفى نفس الوقت يسهل على من ضحوا بالكتب التى تزحم مكتباتهم عملية النقل. «ترى هل تبدو التحف أو الورود التى وضعوها مكانها أجمل من كتبى»؟!

سألته وقتها إذا كان يجيد اللغة الإنجليزية، ولم يكن. وكيف عرف موضوع الكتاب الذى باعه لى؟

«أنا أعرف موضوعات كل كتبى، حتى الفرنسية والألمانية منها. أعرف الكثير من الكلمات والمصطلحات فى هذه اللغات. عرفت معانيها من زبائنى على مر السنين. لم أترك هذا الشعر الأبيض ينمو هباء. أما الكتب العربية، فأنا أقرأها جميعاً، حتى الكتب المدرسية منها. أنا أعرف كل كلمة تغيرت فى المناهج المصرية على مر السنين»!



بالطبع لم أكن بالغباء الذى يجعلنى أفقد الاتصال بمثل هذا الرجل البسيط العميق. ظللت على اتصال به منذ ذلك اليوم، حتى مات عم حسين منذ ثلاث سنوات. حزنت عليه كما أحزن على كتاب حبيب أفقده، وليس هذا بقليل.

إذا كنت من القراء النهمين، تعرف بالتأكيد ذلك الدفق الشعورى الذى ينتاب الواحد منا من وقت لآخر بالقراءة فى موضوع بعينه. كان كل ما علىّ هو إجراء مكالمة تليفونية قصيرة لعم حسين وأسأله إذا ما كانت لديه كتب فى هذا الموضوع. حتى المرات القليلة التى لم يكن أحد الكتب التى أسأل عنها متوفراً لديه، كان يتصل بى بعدها بأيام قليلة. وكنت أعرف ما سيقوله بالضبط: «طلبك جاهز يا أستاذة».

كان يذكر ما اشتريته منه من كتب بالضبط، وأنا واحدة فقط من ضمن زبائنه. وإذا تكرر سؤالى عن كتب فى نفس الموضوع، لم يكن يكرر ما اشتريته من قبل، حتى لو كان ذلك قبلها بسنوات. كنت فى تلك الفترة أفضل القراءة بالإنجليزية، وكان يعرف ذلك من نفسه، رغم أنى اشتريت منه كتباً بالعربية أيضاً. حين طلبت منه ذات مرة كتباً عن اليوجا، فاجأنى وقتها بكتابين من أفضل الكتب التى قرأتها فى هذا الموضوع، وبالإنجليزية. بالطبع لا زالا فى مكتبتى، وفى آخر مرة مددت يدى لأحدهما، كتبت عليه:

رحم الله عم حسين!

عم أمين، أحد باعة الكتب الآخرين فى الأزبكية. فى حوار أجرته معه مجلة «ايجيبت توداى» راح يحكى قصة زمن راح، زمن كان الكتاب فيه يعامل باحترام.

«إن أصعب ما كان على التعامل معه هو أن أرى وأشهد علاقة الناس بالكتاب وهى تتغير وتتحول. كانت الكتب فى الماضى تعتبر مقتنيات غالية لا تقدر بثمن. وكانت تعامل باحترام، ولا يفرط فيها بسهولة. منذ عدة أيام، رأيت مجموعة من الأطفال يلقون بكتبهم المدرسية فى سلة المهملات. لقد حطم ذلك قلبى. أخجل أن أقول ذلك، لكن المنظر أبكانى: لم أستطع التحكم فى دموعى. قلت لنفسى إن هذه الكتب هى التى علمت هؤلاء الأطفال. إذا كان هذا هو الجزاء الذى حصلت عليه، فماذا سيكون جزاء آبائهم؟».

أعطى الله عم أمين الصحة.

كانت الكتب فى الماضى تعتبر مقتنيات غالية لا تقدر بثمن. وكانت تعامل باحترام، ولا يفرط فيها بسهولة. منذ عدة أيام، رأيت مجموعة من الأطفال يلقون بكتبهم المدرسية فى سلة المهملات. لقد حطم ذلك قلبى

وماذا كان مصير كتب عم حسين؟

ظل ابنه محمود يعمل فى إرث أبيه من الكتب، لكنه لم يكن يعرفها ويحبها. وأنا أيضاً لم أعد أعرف محمود وأحبه. كان عم حسين حاصلاً على الشهادة الابتدائية: أما محمود فحاصل على بكالوريوس فى التجارة.

هل كان عم حسين يقرأ لابنه؟ حسب المركز القومى الأمريكى لدعم ثقافة الأسرة، فإن أفضل ما يقوم به الآباء هو القراءة بصوت مرتفع لأبنائهم. تشير دراسات المركز إلى أن من بين المهارات التى يكتسبها الأطفال، وهم يستمعون إلى آبائهم يقرءون، التعرف على الحروف المختلفة للغة، وإدراك أن الكلمات المطبوعة تمثل كلمات منطوقة، وتعلم مسك الكتاب وتقليب صفحاته والانتظار حتى نهاية ذلك الكتاب. كما أن القراءة المتكررة للأطفال تمثل تعرضاً أكثر تعقيداً وفصاحة للغة، ومن ثم الوصول بهم إلى ثقافة إدراكية أكبر. تصبح القراءة من هنا مصدراً للتساؤل والبحث، وينمو الإنسان بها جزءاً لا يتجزأ من حياته.

أما نحن هنا فنشجع الأطفال على التخلص من كتبهم المدرسية بعد ظهور نتيجة الامتحان مباشرة، وربما ننادى باعة الروبابيكيا بأنفسنا. يا لها من قدوة نقدمها لأطفالنا! نلقى بكتبهم المدرسية، بدلاً من أن نقرأ لهم صغاراً.

انظر إلى كتب الأطفال بعد مرور شهر واحد على بدء الدراسة، وسترى معنى الكتاب فى مجتمعنا جلياً: كتب مهلهلة، كانت منذ شهر واحد جديدة خرجت لتوها من المطبعة. وليت معاملة هذه البراعم الصغيرة للكتب نابعة من عدم اقتناعهم بما فيها. وتلك قصة أخرى! إن ثقافة الحفظ عن ظهر قلب، والالتزام بما فى الكتاب المدرسى قتل عمد لروح البحث، والرفض والنقاش.



أما حال خريجى الجامعات، فلا يختلف كثيراً عن أطفال المدارس.

وائل نجيب، شاب فى السابعة والعشرين من عمره، حاصل على بكالوريوس التربية، قسم اللغة الإنجليزية. لم يقرأ كتاباً واحداً منذ تخرجه، ولا قبل الالتحاق بالجامعة، فيما عدا الكتب المدرسية، وبعض مغامرات رجل المستحيل!

«لا أدرى ما هى مشكلتكم فى أننا كشباب لا نقرأ. أنا أعرف كل ما يهمنى من التليفزيون والجرائد. أما فكرة الإمساك بكتاب بيدى يدور حول نفس الموضوع من الجلدة للجلدة، فهو شىء ممل جداً».

وماذا عن دراستك الجامعية؟ هل مرت هى الأخرى دون أن ينمو لديك ولو احترام بسيط للكتاب؟

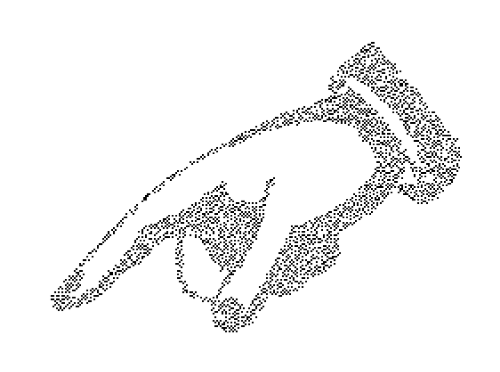
«كان لدينا أستاذ يدرس لى مادة الدراما والمسرح فى الجامعة، وكان يلح علينا دائماً بقراءة كتب أخرى غير المقررة علينا، ويخرج من محاضرته كل من لا ينفذ ذلك. بصراحة، لم أكره فى حياتى مثل هذا الرجل. ألم يكفه ما لدينا من كتب دراسية».

أما كرم عبد العزيز، خريج كلية العلوم، والمفترض فيه البحث المستمر، فلا يختلف عن وائل كثيراً رغم اضطراره للقراءة فى بعض الموضوعات، على حد قوله، بسبب طبيعة عمله فى إحدى شركات الأدوية الأجنبية.

«لاحظت منذ بداية عملى مع الشركة أن علىّ القراءة فى بعض الموضوعات المتعلقة بمجال عملى حتى لا أصبح كالجاهل بين زملائى الأجانب. لكن فيما عدا ذلك، أنا بصراحة لا أميل لقراءة الموضوعات الطويلة. أما الشعر والروايات التى تعشقونها أنتم (ولا أدرى من المقصود بأنتم هنا)، فصراحة لا تمثل لى سوى تضييع وقت».

لا عجب أن نرى أغلبية خريجى الجامعات يتلعثمون إن حاولوا قراءة خطاب بصوت

كتاب الزاوية



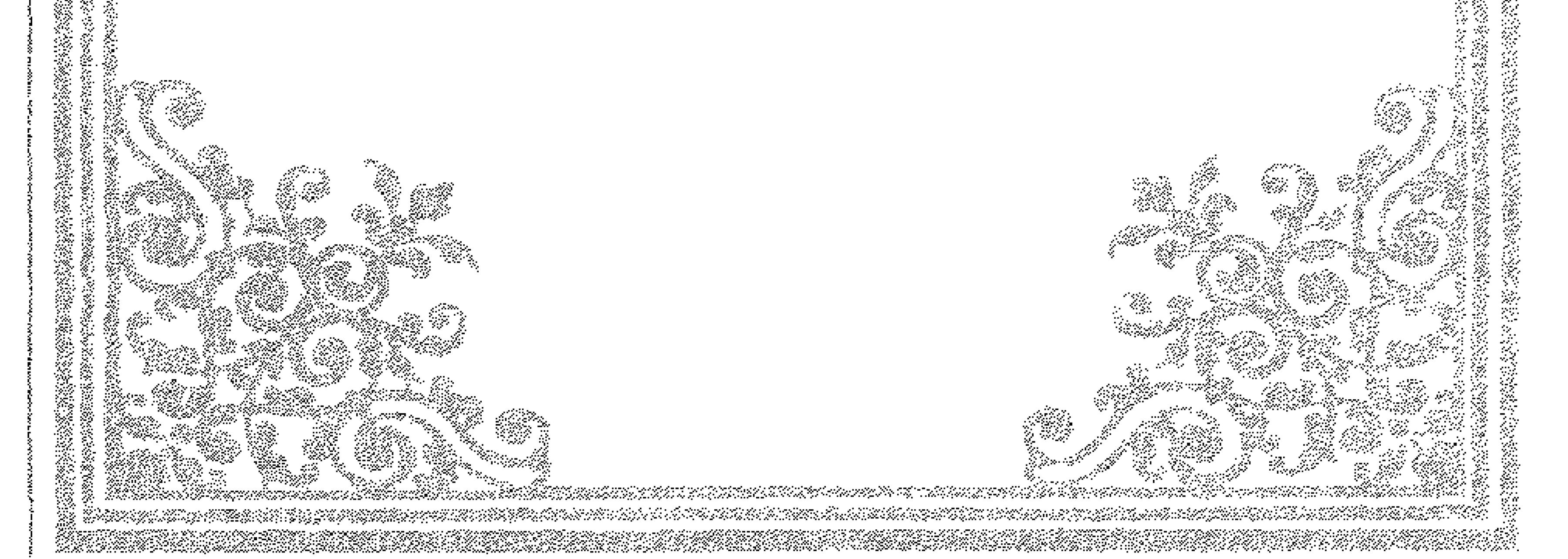
أحمد لطفى السيد

حرية الصحافة

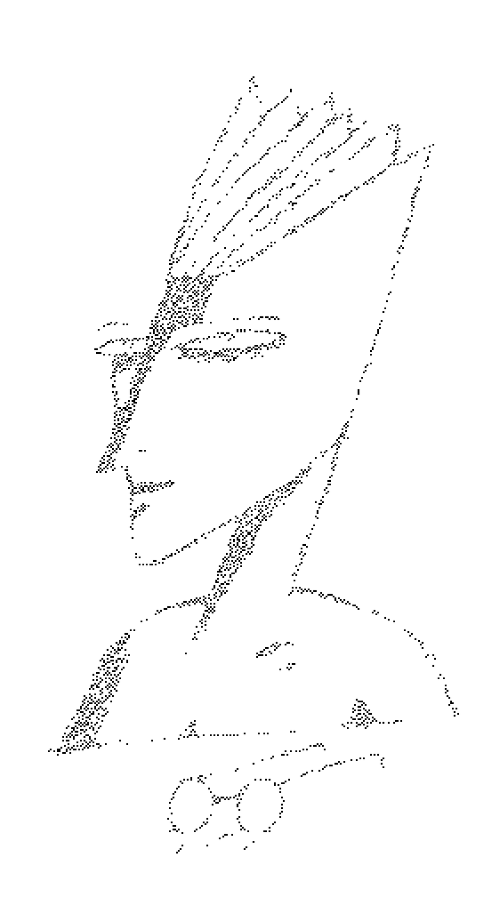
خير ما تفعل الحكومات لنفسها وللأمة التى تحكمها أن تكون مع الصحافة على غاية من التسامح. فلا تقف فى طريق رقيها لأن ذلك وقوف فى طريق حرية الرأى العام ومصادرة لاعتقاده، لا يأتى إلا بنتيجة عكسية. لأن الرأى العام بطبعه عنيد تزيده طرائق العنف تشبثًا بمعتقده. وتشعل مصادرة الحرية فى صدره لهب الحرية المتوقد وضوءها الساطع. وسرعان ما يتسرب إليه سوء الظن بالحكومة التى تريده على أن يفل غرب حدته، مهما حسنت نيتها وأرادت له الخير وخافت عليه من الوقوع فى شر نفسه.

خير ما تفعل الحكومة أن يكون اتكالها فى الحكم على رغبة الناس لا على إرهابهم، ولا طريقة لذلك إلا أن تكون هى والصحافة على وفاق فى الرأى واقتراب فى النظر وتشابه فى قواعد الحكم.

تلك حقيقة تعترف بها كل الحكومات لأنها لم تستغن يومًا من الأيام بجبروتها وقوة عساكرها وقدرتها على منافع الناس، لم تستغن بذلك كله عن أن تتخذ لها من الصحافة نصيرًا يهيئ الرأى العام لقبول مشروعاتها، ويؤيد قواعدها التشريعية، ويبرر تصرفاتها التنفيذية، حتى الحكومة النيابية، فإنها مع ما لها من قوة الوكالة عن الأمة، وما فيها من الثقة لا غنى لها عن أن تأوى من مناصرة الصحافة إلى ركن شديد.



خير رفيق فى الزمان



مرتفع. القراءة مهارة مكتسبة مثل أى مهارة أخرى نتعلمها ونكتسبها ونبرع فيها. يجد الواحد منا نفسه دون أن يدرى فصيحاً يعرف حتى قواعد اللغة دون أن يدرسها. مهارة وليست هواية.

ليس انحسار القراءة مشكلتنا الوحيدة هنا فى العالم العربى، ولكن كيفية القراءة أيضاً. انزعج جداً ممن يرددون كلمة قصة بشكل مستمر وكأنها مرادف للقراءة. هذا ما يطلقه أغلب الشباب على كل الصنوف الأدبية عدا الشعر. فالمسرحية قصة والرواية قصة والقصة القصيرة قصة. والقصة تعنى حدوتة ومسلية. وما عدا ذلك من الكتب فهو «كتب أكاديمية لا تهم إلا الدارسين فى مجالها». أنا لا أتجنى هنا ولكنها الحقيقة التى لا تخفى إلا على أعمى بصيرة أو منافق.

لا أذهب بعيداً إن قلت إن القراءة هى المكون الرئيسى للعقل البشرى. ومن دونها نسير بهذا العقل دون أن يتكون. نصبح مجرد مجموعة عادات يومية تمتلئ بالتفاصيل الصغيرة المكررة يوماً بعد يوم. بعيدين عن عالمنا وعن كم الرسائل الهائلة التى يرسلها الاخرون فى سماء هذا العالم، وقد خُلقنا لنقرأ.

رغم الأسباب الكثيرة الحقيقية لتراجع القراءة/الوعى والتكوين الفكرى، تثار مسببات ربما ليست على هذا القدر من الإدانة التى تنصب عليها.



لا شك أن للإنترنت دوراً فى تراجع دور الكتاب فى الحصول على المعلومات. لكن هناك نقطتين أساسيتين هنا: أولاً، إن الكتاب ليس مجرد وسيلة للحصول على المعلومات، بل مكون رئيسى للفكر الإنسانى. أنا لا أنكر دور الإنترنت، فهى بالنسبة لى أصبحت ضرورة لا يمكن الاستغناء عنها. إنها مصدر ضخم ورهيب للمعلومات ووسيلة اتصال ونشر فى منتهى الفاعلية. ولكنى لا أرى فى ذلك عوضاً عن الكتاب من الناحية المنطقية. هل ما كنا نبحث عنه فى الكتاب هو سرد لمجموعة معلومات؟

وحتى لو نظرنا للإنترنت من ناحية عرضها المكثف للكتب المختلفة ودور النشر المنتشرة فى كل دول العالم، هل معنى ذلك أننا قرأنا تلك الكتب؟ تعرض الشبكة الكثير من الكتب بشكل كامل على صفحات مواقعها متاحة للقراءة بالمجان أو باشتراك، ولكن هذا الجزء تحديداً لا يمثل تراجعاً أو انحساراً للكتاب، فاختلاف صورة الكتاب من نص مطبوع إلى نص إلكترونى ليس إلا أحد التطورات المقبولة والهامة. وفى النهاية فإن الشخص الذى يذهب إلى الكتاب الإلكترونى هو من البداية قارئ اختار شكلاً آخر للقراءة.

ثانياً: إذا كانت نسبة مستخدمى الإنترنت فى العالم العربى تتراوح ما بين ١ إلى ٧ ٪ من عدد السكان، فكيف ينظر إلى هذه النسبة الضئيلة كعامل مؤثر لإصدار الحكم بأن الإنترنت صرفت أو عوضت الناس عن القراءة؟ إن هذه النسبة فى أغلبها تستخدم الشبكة فى أغراض العمل أو التسلية. وهذه النقطة على ما استهلكته من طول نقاش ليست فى حقيقتها سوى اتهام باطل للإنترنت.

ارتفاع أسعار الكتب أحد المسببات الأخرى المثارة، وهى حقيقة واقعة لا يمكن إنكارها. نعم ارتفعت أسعار الكتب، خاصة الأجنبية منها، لكن النسبة الأكبر من الشباب لا تقدم لك ذلك سبباً لابتعادها عن القراءة. إن من يسعى وراء الكتاب يصل له حتى لو كان مرتفع السعر، والطرق عديدة، سواء كانت مكتبات عامة، أو استعارات من الأصدقاء.

أنا لا أدعى أنى أضع يدى على الأسباب الحقيقية، لكنى أعرف بلا شك أنها تتعلق بغياب قيم كثيرة من حياتنا. أصبحت حياتنا اليومية، رغماً عنا سلسلة طويلة من التفاصيل الصغيرة تصرفنا جميعاً بعيداً عن أنفسنا الحقيقية، وتجرفنا فى دوامة كسب العيش. فلا الأب لديه الوقت ليغرس قيماً، ولا المدرسة، التى هى مؤسسة ضمن مؤسسات المجتمع الروتينى، تشجع روح الابتكار والبحث. وحين يأتى دور الجامعة، حتى ولو كانت فرضاً فى قمة فاعليتها، لا تستطيع إصلاح ما أفسده الدهر. ■

عبدالرحمن منيف:

الرواية تاريخ من لا تاريخ لهم

فاروق عبدالقادر

■ في ٢٥ يناير الماضي وبعد طول ترحال وتنقل من منفى إلى آخر، ترجل أخيراً الروائي العربي الملحمي عبدالرحمن منيف عن عمر يناهز ٧٥ عاماً، جدّد خلالها فن الرواية العربية وأدخلها في ضروب جديدة ثم إنه أعاد قراءة التاريخ الحديث للجزيرة العربية بصورة غير مسبوقة.

وقد اختارت «وجهات نظر» نشر جزء من المقدمة التي كتبها الناقد الكبير فاروق عبدالقادر عن الروائي الراحل في الطبعة الصادرة عن دار الهلال في يونيو ١٩٩٨ لروايته الملحمية «مدن الملح».

المحرر

في ١٩٧٣، فوجئ قراء الرواية العربية بنجم جديد يبزغ بقوة وثبات. بعضهم كان يعرفه معنياً بجانب آخر من قضايا الواقع العربي. كان الاسم عبدالرحمن منيف، والعمل الأول «الأشجار واغتيال مرزوق» رواية صلبة ومتماسكة: من خلال لقاء عابر في قطار يقطع أرضاً عربية. عن عمد لا يسميها، ولم يسم بعدها أرضاً أخرى، فعنده لا أهمية للاسم، طالما بقيت الفروق بين هذه الأرض العربية وتلك فروقاً في النسبة لا في النوع. يلتقي رجلان، ومع الليل والحركة الرتيبة وكئوس العرق يتقاربان، يتقاسمان الطعام والشراب وخبرات الحياة. والرواية، بعد، هي هاتان الشخصيتان، عليك. بعد أن تفرغ من قراءتها. أن تعيد ترتيب التفاصيل كي تبني صورة واضحة لكل منهما.

وتضاربت الأقوال حول هذا الروائي الطالع، قيل شامي، وقيل عراقي، وقيل بل من الجزيرة العربية. والحقيقة أن شروطاً ذاتية وموضوعية تحالفت كي تجعل من عبدالرحمن منيف المواطن العربي بامتياز: الأب من نجد والأم عراقية، ولد في عمان (١٩٣٣)، وظل بها حتى أنهى دراسته الثانوية (وقد استعاد ذكرياته منها في كتاب جميل هو «سيرة مدينة. عمان في الأربعينيات، ١٩٤٤»). ثم ارتحل إلى بغداد كي يكمل دراسته الجامعية: لكنه انغمس في نشاط سياسي كثيف في فترة من أخطر الفترات في العراق، وبعد توقيع «حلف بغداد» أبعد عن العراق في ١٩٥٥، فجاء إلى القاهرة يكمل دراسته «الحقوق» في جامعتها، وفي ١٩٥٨ سافر إلى يوغوسلافيا ليتابع دراسته في جامعة «بلجراد»، وفي ١٩٦١ حصل على الدكتوراة في العلوم الاقتصادية (كان موضوعها: اقتصاديات النفط. الأسعار والأسواق)، وحول منتصف الستينيات قرر عبدالرحمن منيف التوقف عن العمل السياسي، فأنهى علاقته بالتنظيمات (في ١٩٦٣ أسقطت عنه جنسيته السعودية. وسحب جواز سفره)، عمل عبدالرحمن في مجال النفط في سوريا، وفي ١٩٧٣ غادرها إلى بيروت للعمل في مجلة «البلاغ»، وفي ١٩٧٥ سافر إلى بغداد ليصدر مجلة متخصصة بعنوان «النفط والتنمية»، وفي ٨١ خرج من بغداد إلى باريس حيث تفرغ للكتابة، وفي ١٩٨٦ عاد إلى دمشق، ولايزال مقيماً فيها.

صدرت روايته الأولى، إذن، وقد بلغ الأربعين. ثم تتابعت الأعمال: «قصة حب مجوسية، ٧٤»، «شرق المتوسط، ٧٥»، «حين تركنا الجسر، ٧٦»، «النهايات ٧٧»، «سباق المسافات الطويلة، ٧٩»، «عالم بلا خرائط. بالاشتراك مع جبرا ابراهيم جبرا، ٨٢». وكان عقد الثمانينيات هو عقد الغوص في «مدن الملح»: صدر جزؤها الأول «التيه» في ٨٤، والثاني «الأخدود» في ٨٥، والثلاثة الباقيات: «تقاسيم الليل والنهار» و«المنبت» و«بادية الظلمات» في ٨٩، ولعله لم يكن قد بارح عالم مدن الملح تماماً في عمله الذي صدر بعدها «الآن هنا، أو شرق المتوسط مرة أخرى، ٩١». فأحد بطليها الرئيسيين ينتمي إلى هذه المدن على وجه التحديد، وهو الآن عاكف على عمل جديد بعنوان «أرض السواد» يتمنى أن ينجزه هذا العام.




يقول عبدالرحمن منيف: «منذ سنة ١٩٥٠ حتى ١٩٦٥ كنت مستغرقاً تماماً في السياسة والعمل السياسي، ولكنني رأيت أن هذا كله خدعة كبيرة، كان الواحد منا يتصور أن المؤسسة السياسية يمكن أن تكون أمينة في قناعاتها ومقولاتها السياسية، ومن خلال التجربة، رأينا أن هناك فارقاً كبيراً بين الأفكار التي كان يؤمن بها ويدعو لها، والممارسات الفعلية في الواقع، وما أمكن الوصول إلى نوع من الصيغة أو التعايش للبقاء ضمن تلك المؤسسة. وبدأ البحث عن أشكال جديدة لمواجهة العالم ومحاولة تغييره.. ومن هنا كان الاقتراب من أداة أخرى من أدوات التعبير والتغيير هي الرواية».

إذن، بقي الهدف هو هو، لكن المحارب يستبدل سلاحاً بسلاح. ولكن: أي رواية يعني؟ إن لهذا المبدع الكبير أفكاره حول «التجربة الروائية» في عمومها وفي تفاصيلها كذلك، وهي أفكار أنضجتها الممارسة قبل أي شيء، وكلها تدور حول محور واحد: تأسيس الرواية العربية وتطويرها وتجديدها: «صحيح إنه لا يمكن وضع مقاييس أو مواصفات كاملة أو نهائية لكيفية كتابة الرواية. لكن مع ذلك يجب أن تستلهم موروثاً. وأن تمد جذوراً، وأن تكتسب طرائق وصيغاً من الأرض والناس. وأن تتوجه إليهم في الوقت نفسه، ومن هنا فإن معرفة الموروث الثقافي للشعب، ومعرفة الواقع، يمكن أن يساعدا معاً في خلق رواية من نمط جديد، ليست امتداداً أو تقليداً للرواية، وليست عودة إلى استحضار أساليب عصور ميتة..».

على هذا الدرب يمكن أن تصبح الرواية أداة تعبير وتغيير، أداة جميلة للمعرفة والمتعة، وأن تصبح. حسب تعريف صديقه المنفي الأبدي غائب طعمه فرمان. هي «الشجاعة المكتوبة». لكن هذا يتطلب أن تكون الرواية «تاريخ من لا تاريخ لهم»، أن تكون «حافلة بأسماء الذين لا أسماء كبيرة أو لامعة لهم، وسوف تقول كيف عاشوا وكيف ماتوا وهم يحلمون، وسوف تتكلم الرواية أيضاً وبجرأة، عن الطغاة، والذين باعوا أوطانهم وشعوبهم، وتفضح الجلادين والقتلة والسماسرة والمخربة نفوسهم. ولابد أن تقرأ الأجيال القادمة التاريخ الذي نعيشه الآن وغداً، ليس من كتب التاريخ المصقولة، وإنما من روايات هذا الجيل والأجيال القادمة..».

في هذا الضوء يعرض منيف لبعض هموم الرواية العربية.. إنه.. على سبيل المثال. يناقش مفهوم الحداثة. وهو يفهم «الحداثة» ويتعامل معها على أنها «روح أكثر مما هي شكل، وأنها حالة أكثر منها صيغة. إنها. ضمن أبسط المفاهيم. الاتساق مع العصر والضرورة والحاجة.. والحداثة الأوروبية ثمرة لتطور موضوعي، هذا التطور يمكن أن نستنتج منه قوانين عامة. لكن له خصوصيته أيضاً ومن ثم فالهموم التي تواجه تلك الحداثة ليست بالضرورة همومنا.

ثم يقدم بعض الأفكار حول مظاهر وعناصر الحداثة في الرواية العربية المعاصرة: أولاً إن الحداثة مرآة الحياة والناس، بمعنى أن الرواية العربية يجب أن ترتاد أفقاً جديداً بأن تركز كل اهتمامها على الناس العاديين، وإعطائهم الفرصة لكي يقولوا همومهم وأحلامهم «إذ بعد أن غيبوا عمداً. فترة طويلة، ولأسباب قد لا تكون خافية. فقد حان الوقت لأن يحتلوا مكانهم الطبيعي والحقيقي في هذه الحياة..» ثانياً: الحداثة بطولة الواقع والبسطاء.. «إن بطل الرواية الفرد. الذي يملأ الساحة كلها. وما الآخرون إلا ديكور لإبرازه وإظهار بطولاته. إن هذا البطل الوهمي الذي سيطر على الرواية العالمية فترة طويلة. آن له أن يتنحى، وألا يشغل إلا ما يستحقه من مكان وزمان، وهنا يظهر مفهوم جديد للبطولة الروائية، حيث يتعاقب الناس الأبطال، كمياه النهر الجاري. بحيث لا يتوقف الواحد منهم أكثر مما يحتمل المشهد أو الحالة. فاسحاً المجال، بعد ذلك، لكي يأتي الآخر، البديل، المكمل، ويواصل المشوار، الحياة». ثالثاً: من أكثر الأمور إشكالية في الحداثة العربية اللغة. إن اللغة التي عاشت زمناً طويلاً في مرحلة صعود، كانت قادرة على استيعاب الآخر وتلبية الحاجات المستجدة، لكنها أصيبت بالجمود، ثم التراجع، في مرحلة لاحقة «وبمرور الوقت انقسمت إلى لغتين: الفصحى والعامية، وجر هذا الانقسام إلى تطور متفاوت بالنسبة لبنية كل منهما، وإلى ازدواج في الفكر والتعبير، وبالتالي إلى ازدواج حتى في الشخصية.

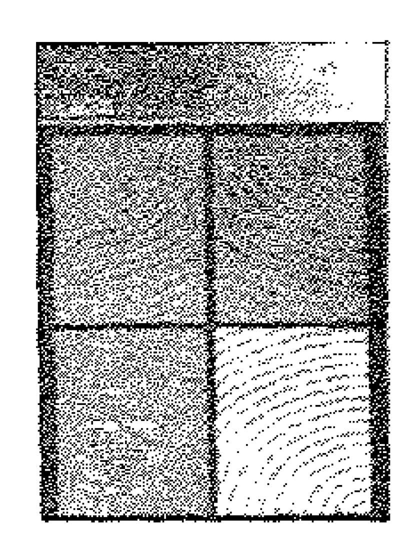
تلك بعض هموم الرواية العربية الحديثة. كما يراها عبدالرحمن منيف (وهل يعرف الشوق إلا من يكابده..؟). ■

تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها فى ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

الطبعة الفنية.. تاريخ وجماليات البارز والغائر

صبرى حجازى

القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٣، ١٥٣ صفحة



يجد الناس صعوبة فى فهم ما الذى يجعل صورة مطبوعة صورة أصلية، خصوصاً إذا تشابهتا إلى حد التطابق. المؤلف هنا يتابع السياق التاريخى لتطور فن التعبير التشكيلى من خلال الطباعة، ويشرح المعنى الحقيقى لعلاقة التجربة الفنية بالتكنولوجيا.

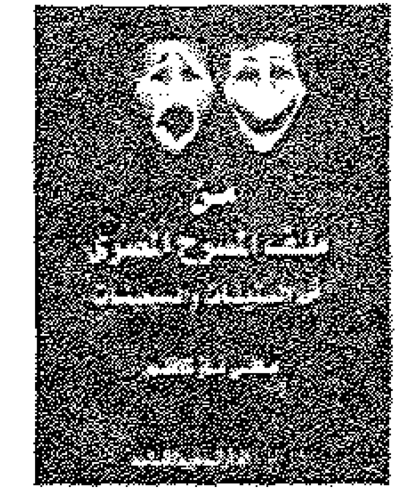
إن فن الحفر والطباعة لغة تتميز باتساع مفرداتها وإمكانياتها التشكيلية، وهو يتميز بالتنوع الكبير فى طرقه الأدائية التى تندرج تحت أقسام رئيسية هى: الطباعة البارزة والطباعة الغائرة والطباعة المستوية وطباعة الشاشة الحريرية.

لقد كان فن الحفر والطباعة أسلوباً أصيلاً للتعبير عن الطاقة التشكيلية الكامنة داخل عديد من الفنانين، وفى كثير من الأحيان كان هو الوسيط لتسجيل نمط الحياة اليومية لكثير من المجتمعات. وقد ألهم عشرات الفنانين فى مختلف العصور، مثل فان جوخ وفويارد، كما أنها ساعدت آخرين مثل جويا فى نضالهم السياسى والاجتماعى، وكانت بالنسبة للوتريك هى الشكل الذى يناسب طبيعته المندفعة، ويسير فن الحفر والطباعة اليوم موازياً لسيل الابتكارات الحديثة.

من ملف المسرح المصرى فى الستينيات والسبعينيات

صافى ناز كاظم

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٣، ٢٢٢ صفحة



شهدت مصر نهضة مسرحية فى فترة الستينيات ومطلع السبعينيات من القرن الماضى، تشكلت فيها ملامح المسرح المصرى، وخرج من رحمها جيل من صناع المسرح لاتزال بصماتهم واضحة ومؤثرة حتى اليوم.

ولهذا اهتم بتلك الفترة كثير من نقاد ومؤرخى المسرح.

المؤلف تناول عشرين عرضاً مسرحياً: ١٣ عرضاً من فترة الستينيات، و٧ عروض من فترة السبعينيات.

وهى تبدأ بمقدمة أرخت فيها لتجربتها الخاصة فى النقد المسرحى، بدءاً من تخرجها من كلية آداب القاهرة (قسم صحافة) عام ١٩٥٩، ثم سفرها إلى الولايات المتحدة لاستكمال دراستها المتخصصة فى نقد المسرح أولاً بجامعة كانساس، حتى حصولها ثانياً على ماجستير فى نقد المسرح عام ١٩٦٦ من جامعة نيويورك.

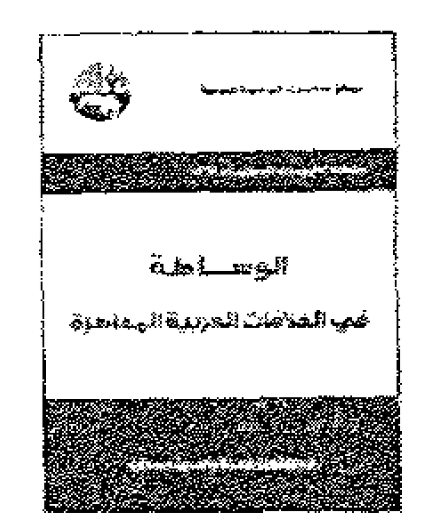
وحين رجعت إلى مصر عملت فى مجلة «المصور» فى الفترة من ١٩٦٦ - ١٩٧١.

تناولت الناقدة عشرين عرضاً مسرحياً لأهم وأبرز العروض المسرحية فى فترتى الستينيات والسبعينيات لكبار كتاب المسرح العالميين، مثل مسرحيات «الإنسان الطيب» لبرتولد برخت، «حاملات القرابين» لإسخيلوس، و«الغول لانجلو» لبيتر فايس. ولكبار كتاب المسرح المصريين والعرب، مثل مسرحيات: «شهرزاد» لتوفيق الحكيم، «مأساة الحلاج» لصلاح عبد الصبور، «الزير سالم» لألفريد فرج، «ليلة مصرع جيفارا» لميخائيل رومان، «تحت المظلة» لنجيب محفوظ، «ثورة الزنج» لمعين بسيسو.

الوساطة فى الخلافات العربية المعاصرة

نهلة ياسين حمدان

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٣، ٣٤٢ صفحة



الوساطة أحد أشكال إدارة الصراع، وعادة ما يقوم بها طرف ثالث يكون غير متورط فى الصراع كمنازع.

وهى تختلف عن الإجراءات القانونية مثل التقاضى والتحكيم، وتعتمد على التزام الأطراف بحكم صريح يصدره الطرف الثالث.

والكتاب يحقق فى موضوع الوساطة فى النزاعات السياسية فى الوطن العربى، ومن شأن فهم أفضل لموضوع الوساطة فى الخلافات العربية - العربية، أن يفضى إلى حلول سلمية لكثير من الصراعات.

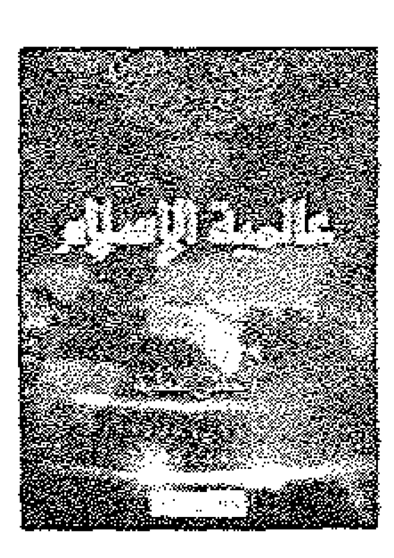
ويرجع المؤلف أن طبيعة النظم السياسية والأعراف الثقافية فى البلدان العربية، يمكن أن تسهم فى هذا بشكل كبير.

وبعد فصول ستة، يقدم المؤلف خلالها فهم الوساطة فى السياق العربى، والعلاقة بين الثقافة والوساطة، وتفسير عمليات الوساطة، وتحليل نتائج الوساطة، والنزاعات العربية - العربية، والنزاعات العربية - غير العربية، يقدم المؤلف استنتاجاته وتوصياته لتفعيل عملية الوساطة فى إدارة الصراعات.

عالمية الإسلام

رجائى عطية

القاهرة: مركز الأهرام للترجمة والنشر، ٢٠٠٣، ٢٤١ صفحة



يتعرض الإسلام فى هذا الزمن لهجمات متوحشة ضالة.

إذ تنتزع نصوصه من سياقها، ويستغلون تصرفات خرقاء هوجاء لبعض حركات التطرف التى تنسب نفسها للإسلام، وهو منها براء، كى يشوهوا صورة الإسلام والمسلمين.

وإزاء هذه الهجمة الشرسة، تبدو الدعوة إلى عالمية الإسلام مهمة خطرة وضرورية فى آن معاً، وهى لازمة للمسلمين قبل غيرهم ممن يدينون بغير الإسلام. وحق عليهم أن يعرفوا موجباتها وما تستلزمه فى لغة الخطاب بينهم أولاً، ثم فى مواجهة الآخر ثانياً.

عالمية الإسلام التى يدعو اليها المؤلف هى الصلاحية والقدرة على الامتداد فى المكان وفى الزمان.

وهى صلاحية تكتسب قوة دفعها من روح الإسلام وجوهر العقيدة.

عبر خمسة عشر فصلاً يفسر المؤلف للمسلمين وغيرهم، ما الذى يعنيه بعالمية الإسلام.

المسلمون الأمريكيون

أحمد يونس

القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٣، ٦١ صفحة



يسعى الكتاب إلى تقديم أحد التصورات العديدة للمسلمين الأمريكيين عن مكاننا المناسب داخل تعددية المجتمع الأمريكى، وإلى توضيح دور هوية المسلم الأمريكى داخل هذه الفسيفساء، فى اجتهاده لاتباع ما جاء فى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وهو يفعل ذلك مع الاقتناع الكامل بأن أزمة العقل المسلم هى نتاج حقائق سياسية واجتماعية، جعلت من تحليلاتنا للواقع المحيط مجرد ردود أفعال، بدلاً من أن تكون نتاجاً لمبادراتنا الخلاقة من أجل تفعيل الإسلام فى حياتنا.

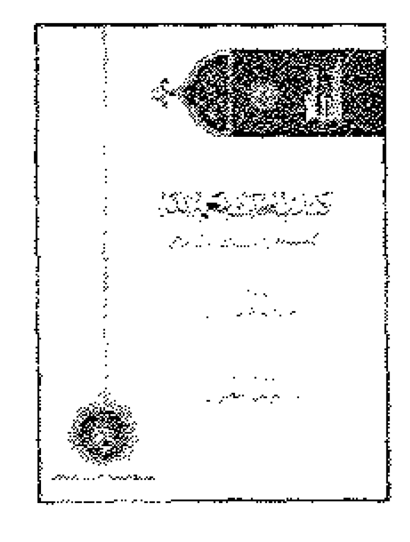
كما يؤكد المؤلف على أن المكون الأكثر ثراءً فى الملكات الإنسانية للمسلم هو قدرته المعرفية، ولهذا يحتاج الإسلام فى أمريكا - كما يقول - إلى العمل الدءوب المخطط، الذى يجعل من الإسلام والمسلمين قوة مهمة تقف على قدم المساواة مع قوى التعددية الأمريكية، هذا ما يرمى اليه المؤلف، وهو أمريكى من أصل مصرى، له نشاط بارز على أصعدة سياسية واجتماعية وقانونية فى الولايات المتحدة، برغم أنه فى عشرينيات عمره.

كتاب التحدث بنعمة الله

جلال الدين السيوطى

اليزابث مارى سارتين

القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة (سلسلة الذخائر)، ٢٠٠٣



تمثل السير الذاتية جانباً مهماً فى الثقافة العربية الإسلامية، ربما أكثر مما تحويه أى ثقافة أخرى، وهى لم تكن ترفاً أو تزيداً، بقدر ما كانت نوعاً من التحقيق العلمى الذى قام على ركيزتين أساسيتين

هما السند والمتن. وقد دار القسم الأغلب منها حول توثيق النصوص، وخصوصًا النصوص الدينية المتمثلة فى حديث الرسول صلى الله عليه وسلم، وهى التى عرفت بعلوم الجرح والتعديل، فضلاً عن كتب التراجم الكثيرة التى حملت عناوين الطبقات أو المعاجم أو السير.

وإلى جانب هذا النوع عرفت الثقافة العربية أيضًا تراجم الأشخاص لأنفسهم، مثل «الفتوحات المكية» لابن عربى، و«المنقذ من الضلال» للغزالى، و«الاعتبار» لأسامة بن منقذ وغيرها. وإلى هذا النوع ينتمى هذا الكتاب، حيث يحمل السيرة الذاتية للمؤلف المصرى جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى، والذى عاش فى القرن الخامس عشر الميلادى وتوفى عام ١٥٠٥ عن واحد وستين عامًا، وكتابه هذا ليس مجرد سيرة شخصية وإن كان يحمل الكثير منها كونه يتحدث عن والده وبلدته والمؤثرات التى ساهمت فى تكوينه، لكنه أيضًا، كتاب فى العلم وقضاياه ومعاركه التى شارك السيوطى فى بعضها، وكان شاهدًا على بعض آخر، والكتاب هو رسالة حصلت به المؤلفة على درجة الدكتوراة من جامعة كمبريدج عام ١٩٦٨.

فالعلم وقضاياه والدفاع عن الحق فى مواجهة الباطل، وإعظام شأن الاجتهاد وتسفيه الركون إلى التقليد وغيرها، هى القضايا التى انشغل بها السيوطى، وبدت جلية فى سيرته.

حاضر الرواية فى المغرب العربى

عفاف عبد المعطى

تونس: دار المعارف، ٢٠٠٢، ١٣٠ صفحة



عبر خمسة نصوص مميزة، تقدم المؤلفة المشهد الروائى فى دول المغرب العربى، فهى تختار من تونس «المعجزة» للروائى محمود طرشونة، و«الدراويش يعودون إلى المنفى» لإبراهيم الدرغوثى، وكلاهما وإن عبر عن معاناة خاصة كاشفًا عن رؤية كل منهما للعالم، فإنهما عبرا عن فرادة فى التناول، ففى حين جنح طرشونة إلى تقديم صورة رومانسية لقصة حب مختلفة، يطرح عبرها نقده لبعض الظواهر الاجتماعية، فإن الدرغوثى يستعين بالتراث كى يقوم بالمهمة ذاتها.

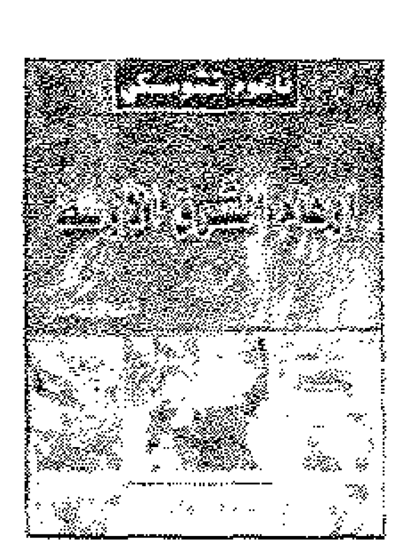
ومن المغرب تختار المؤلفة «السيل» لأحمد التوفيق و«البعيدون» لبهاء الطود، والأول يخلق من عالم بدائى صورة لحقيقة صراع الإنسان مع الحياة، والثانى عن صراع المغترب فى عالم مغاير يسعى فيه إلى تحقيق ذاته. وهى بهذا المعنى تنتمى إلى الروايات التى تناولت صراع المشرق والمغرب وهى عديدة فى أدبنا المعاصر، وتختار الناقدة رواية «الولى الطاهر يعود إلى مقامه الزكى» وهى آخر إبداعات الروائى الجزائرى الكبير الطاهر وطار، صاحب «اللاز» و«الشمعة والدهاليز» و«عرس بغل»، وقد هوجمت «الولى الطاهر» من قبل بعض النقاد بوصفها تعبيرًا عن انتكاسة فى مواقف الطاهر وطار، أو تراجعًا عن رؤاه التقدمية لحسابات رؤى جماعات الإسلام السياسى.

المهم أن الناقدة لا تكتفى بتحليل النصوص، وإنما تستفيد من دراسات نقدية سابقة فى الموضوع ذاته كى تثرى دراستها وتعمق رؤيتها النقدية.

أوهام الشرق الأوسط

نعوم تشومسكى

القاهرة: مكتبة الشروق، ٢٠٠٤، ١١٠ صفحات



يواصل نعوم تشومسكى فى هذا الكتاب عملية كشف الحقائق وتعرية المواقف، التى لم يتوقف عنها بأسلوبه الساخر والدقيق فى آن معًا، والتى تفضح ألاعيب السياسة الأمريكية فى العالم، والنزعة الصهيونية للسيطرة على الشرق الأوسط بأكمله، وهو يبدأ بالتأكيد على أن مشروع مدريد - أوسلو «ليس إلا تثبيتًا على سيادة مبدأ القوة فى العلاقات الدولية». تشومسكى يبدد أوهام السلام غير العادل الذى تسعى أمريكا إلى فرضه على شعوب المنطقة، ويشير بوضوح إلى أن أوسلو تضمن سيطرة دائمة لإسرائيل على أغلب مصادر المياه، وتفرض بالقوة ظروفًا غير إنسانية على الفلسطينيين.

وهو حين يتناول موضوع العراق، ومع التأكيد على إدانته للنظام الاستبدادى الذى كان يحكمها، فإنه يكشف عن أن العراق مثلت باستمرار «انحرافًا» عن تخطيطات أمريكا للمنطقة، قد خلصت نفسها من براثن الهيمنة الأمريكية مع نهاية الخمسينيات، وشرعت فى الاستفادة من ثرواتها المحلية بما فيها النفط، ووصلت إلى تنمية حقيقية اجتماعية واقتصادية لم ترض عنها أمريكا، وهو ما جعل أمريكا تدفعها دفعًا إلى سلسلة من المغامرات التى انتهت بحصار اقتصادى لا إنسانى، بدد كل الأوهام التى قيلت - ومازالت تقال - عن حقوق الإنسان، ثم أخيرًا باحتلال سافر يتدثر بشعارات عن العدالة وإقامة الديمقراطية، ويخفى فى واقع الأمر رغبة دفينة فى الهيمنة وبسط النفوذ.

الخلاصة الكاشفة التى يقدمها تشومسكى هنا اعتمادًا على الوثائق والمعلومات التاريخية المؤكدة وشهادات الفاعلية فى المنطقة، أن حقوق الشعوب تتحدد - وفق الرؤية الأمريكية - على أساس الإسهامات فى حفظ النظام، فالولايات المتحدة لها كل الحقوق، ولبريطانيا بعضها مادامت تلعب دور الكلب الوفى، والأنظمة العربية لديها حقوق مادامت تسيطر على شعوبها، وتضمن ثراء الغرب، أما الفلسطينيون الذين ليس لديهم شىء يقدمونه لإثراء الغرب، وليست لديهم قوة تذكر، فلا حقوق لهم.

تلك هى الاستراتيجية الأمريكية الثابتة، التى كانت فى الماضى، والتى استمرت طوال العقود الثلاثة الأخيرة، والتى لا يبدو أنها ستتغير فى المستقبل.

رسالة تشومسكى - فيما أرى - واضحة لنا شعوبًا وحكومات.

ما بعد العولمة

محمد عبد الحكم دياب

القاهرة: المركز العربى الدولى للإعلام، ٢٠٠٣، ١٣٠ صفحة



قربت آليات العولمة المسافات واختصرت الزمن، حتى أن انهيار دولة بحجم الاتحاد السوفيتى لم يستغرق سوى أسابيع.

وها هى العولمة تنهار بالمعدل ذاته، بما يعنى - حسب المؤلف - أن انهيار إمبراطورية بحجم أمريكا سيستغرق زمنًا أقل كثيرًا مما نتصور.

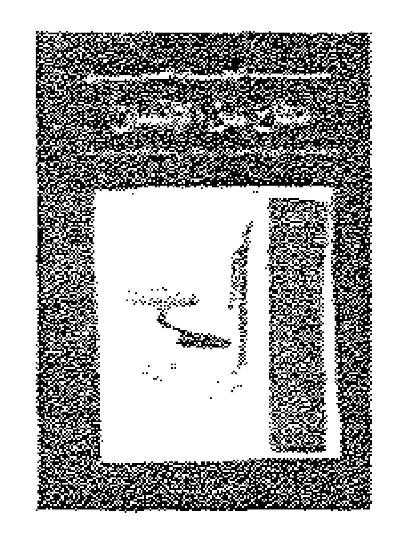
ما بعد أحداث سبتمبر ٢٠٠١، يؤرخ لزمن جديد ونظام عالمى جديد، فبعد أن كان العالم يسير حثيثًا نحو ترسيخ قواعد مجتمع متعدد الثقافات والعقائد والأديان، إذا بالأمور تنقلب رأسًا على عقب، ويتحول الغرب، حتى دوله الأكثر محافظة مثل بريطانيا إلى طريق آخر، وصار المزاج العام أكثر ميلاً للقبول بأشكال العنصرية والتمييز الدينى والعرقى، وزادت عمليات الاعتداء على العرب والمسلمين بشكل خاص، والمؤلف يركز بالذات على المجتمع الإنجليزى، الذى تتأثر قرارات حكومته سلبًا وإيجابًا بما يصدر فى البيت الأبيض، وهذا المجتمع يضم أشتاتًا من أجناس مختلفة وألوان وديانات متمايزة، ويعيب المؤلف على بعض المسلمين البريطانيين خطابهم المتشدد الميال إلى التكفير لكل مخالف، حتى أن بعضهم بات يفكر فى دولة للخلافة مقرها لندن.

وبالعودة إلى عصر ما بعد العولمة، فإن المؤلف يرى أن له قسمات محددة، بينها أنه أحل العمل العسكرى بديلاً عن الإجراءات الاقتصادية فى مواجهة «الدول المارقة»، وتراجع الخطاب السياسى الأمريكى ليتجاوز الطابع البراجماتى إلى الطابع الرسالى الدينى القائم على لغة توراتية قديمة، كثيرًا ما استخدمها رواد الاستيطان وهم يبيدون السكان الأصليين (الهنود الحمر) قبل قرون، ومنها كذلك اختفاء شعارات حقوق الإنسان والحريات والدعوة إلى تسويق أسلوب المجتمع الأمريكى، التركيز فقط على أمن ومصلحة أمريكا، وإسقاط الفروق بين حركات المقاومة المشروعة للاحتلال، وبين الأعمال الإرهابية سواء التى تقوم بها دول أو أفراد، ثم التدخل السافر فى إعادة صياغة قيم ومعتقدات الدول إلى حد تشويهها.

دفاع عن الإنسان

عبد الوهاب المسيرى

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٣، ٢٦٧ صفحة



يتميز الإنسان عن غيره من الكائنات بتركيبة فريدة تمنح كل فرد سماته التى لا يشابهه فيها أحد، هذه التركيبية الإنسانية تحديدًا هى التى تفصله عن عالم الطبيعة/المادة.

بعض العلماء يرون العكس، فالإنسان بالنسبة لهم جزء لا يتجزأ من الطبيعة، والقوانين التى تسرى على الظواهر الطبيعية تسرى عليه هو الآخر، ومن يؤمنون بهذه الرؤية يستخدمون المنهج ذاته الذى يفسرون به الظواهر الطبيعية فى تفسير السلوك الإنسانى، فيختزلون الإنسان إلى عنصر واحد أو عنصرين، ويسقطون كثيرًا من الأبعاد التى تميزه عن بقية الكائنات، وهم بهذا الاختزال ينكرون إنسانيته ذاتها.

الكتاب يقترح طريقة أخرى فى التعامل مع الظاهرة الإنسانية، تبتعد عن الموضوعية المادية المتلقية - كما يسميها - وتستخدم نماذج تحليلية مركبة يدخل فيها عناصر متنوعة ربما يصل التداخل بينها إلى حد التناقض، منها السياسى والاقتصادى والاجتماعى والدينى والحضارى، وهذا النموذج هو وحده القادر على الإحاطة بالظاهرة الإنسانية لأنه متعدد الأبعاد والمستويات.

تناول الظاهرة الإنسانية بتلك

الصيغة التي يقترحها المؤلف، هي برأيه تعبير عن احترام إنسانية الإنسان وتركيبه، ودفاع عنه ضد النزعات المادية العدمية التي تحاول تفكيكه ورده إلى ما هو دونه أي قوانين المادة وحركتها.

والكتاب يتضمن تعريفًا بالنماذج المعرفية وعلاقة ذلك الإدراك بالواقع، ومقارنة بين النماذج الاختزالية والنماذج المركبة، ويحاول تطبيق المنهج التفسيري من خلال نماذج مركبة على ظواهر حضارية مختلفة ومتنوعة، مثل الماسونية والرأسمالية ومعاداة السامية والإبادة النازية ليهود أوروبا.

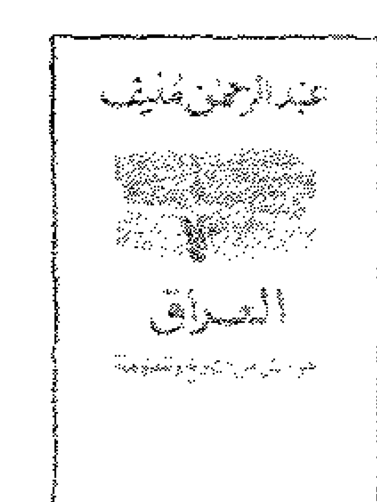
يقع الكتاب في اثنى عشر فصلاً ويشتمل على عدد من الملاحق التي يشرح بعضها أفكار المؤلف عن النماذج المركبة المتناثرة عبر فصول الكتاب، ويشرح بعضها الآخر عددًا من المصطلحات الواردة فيه.

ويخصص الكتاب فصلاً كاملاً يحاول أن يفسر فيه عملية الإبادة النازية ليهود أوروبا، ويضعها في سياقها الألماني واليهودي، كما يتناول في فصلين متتاليين حملات الفرنجة والجماعات اليهودية، والماسونية، بهدف تقديم رؤية مركبة تدرس العناصر الدينية والاقتصادية والحضارية التي أدت لتجريد حملات الفرنجة ضد المسلمين وإلى انتشار الماسونية.

العراق.. هوامش من التاريخ والمقاومة

عبد الرحمن منيف

الدار البيضاء - بيروت: المركز الثقافي العربي والدار العربية للعلوم، ٢٠٠٣، ٢٠٧ صفحات

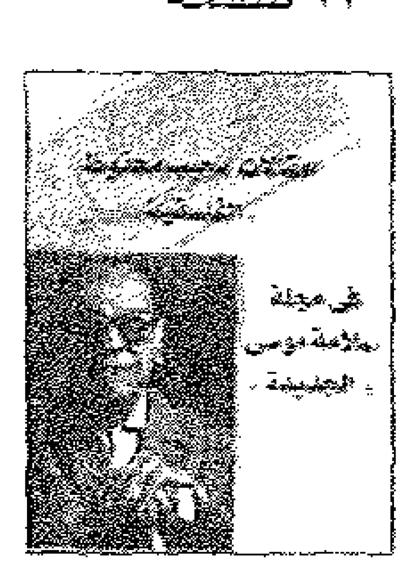


كتب عبد الرحمن منيف من قبل رواية عن العراق بعنوان: «أرض السواد»، مكنه التحضير لها من قراءة تاريخ العراق السياسي ومقاومته للاحتلال البريطاني، فاستوقفته بعض المحطات التاريخية التي تركت أثرها في العراق وما حوله، وعرضها في كتابه هذا كمقالات قصيرة.

في هذا الكتاب نقرأ عن ثورة عام ١٩٢٠ ضد البريطانيين، ونتعرف على شخصيات عراقية ومواقفهم المؤثرة في تاريخ العراق، مثل: الشيخ ضاري الحمود زعيم قبيلة زوبع العراقية ومقاومته الشرسة للبريطانيين، والملك فيصل وسياسته مع الاحتلال الإنجليزي، والملك غازي وقصة اغتياله، والأمير عبد الإله الوصي على عرش العراق، ورئيس الوزراء المقاوم ياسين الهاشمي، كما نقف على مواقف شخصيات بريطانية وأثرها في أحداث العراق في النصف الأول من القرن العشرين، مثل: المس بيل، والكولونيل البريطاني لجمان، وأحد أركان الانتداب البريطاني على العراق: هاري سندرسن، إضافة إلى التعريج بنا على أحداث مفاصل في تاريخ العراق، مثل: مشكلة الموصل في الربع الأول من القرن الماضي، وحركة رشيد عالي الكيلاني، والمذابح الدامية التي ارتكبت في عهد الأمير عبد الإله عام ١٩٤٨ بحق المتظاهرين الرافضين لبنود المعاهدة مع البريطانيين، وختامًا مع مقالين قصيرين عن كنزي العراق بعد الاحتلال الأمريكي الحالي له: آثاره وعلمائه.

مقالات نجيب محفوظ الفلسفية في مجلة سلامة موسى «الجديدة»

القاهرة: دار ومطابع المستقبل، ٢٠٠٣، ١٧٠ صفحة



بدأت معرفة نجيب محفوظ بسلامة موسى، وكان محفوظ وقتها طالبًا في المدرسة الثانوية، وعمره لا يجاوز عشرين عامًا، فيما كان سلامة موسى في الأربعين من عمره.

وكان بالنسبة له في مكانة الأستاذ، وقد نشر له أولى مقالاته الفلسفية في مجلة «الجديدة» عام ١٩٣٠، والتي كانت ذات صبغة تقدمية وتنويرية.

وقد ضمت إلى جانب محفوظ كتابًا كبارًا مثل محمود عزمي ومحمود تيمور وإبراهيم ناجي ومنصور فهمي وطه حسين وحسين مؤنس وإبراهيم المازني وأحمد رامي وفريد أبو حديد وزكي نجيب محمود وغيرهم.

وكان أول مقال لنجيب محفوظ في هذه المقالات التي سماها فلسفية تحت عنوان: «احتضار معتقدات وتولد معتقدات».

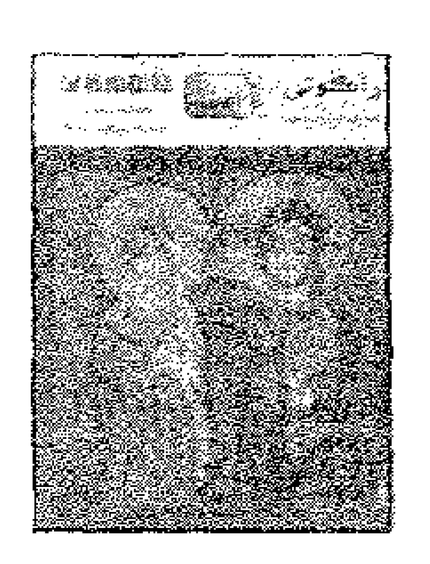
ويضم الكتاب خمسة عشر مقالاً نشرت في الفترة من ١٩٣٤ وحتى ١٩٣٦، وكان محفوظ وقتها يدرس الفلسفة بكلية الآداب.

ومن عناوين المقالات: الحب والغريزة الجنسية، البراجمتزم أو الفلسفة العملية، المجتمع والرقي البشري، الفلسفة عند الفلاسفة، ماذا تعني الفلسفة، السيكولوجية واتجاهاتها، الحياة الحيوانية والسيكولوجية، الحواس والإدراك الحسي، الله، الفن والثقافة، نظريات العقل، اللغة.

راكوتي (دورية)

رئيس التحرير: مينا بديع عبد الملك

القاهرة: مكتبة الجامعة الأمريكية، ٢٠٠٣، ٤٠ صفحة



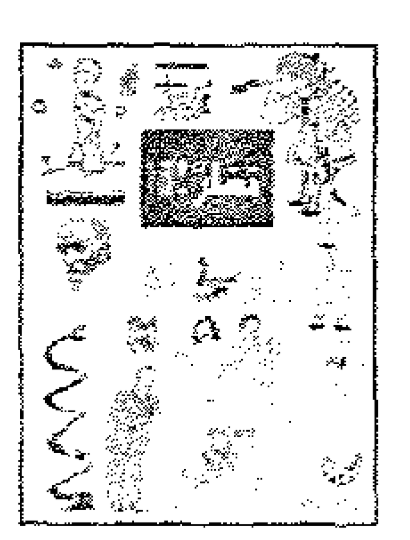
إضافة جديدة للدوريات المتخصصة، وهذه المجلة تعنى في الأساس بالدراسات القبطية، أما سبب التسمية «راكوتي» فيعود إلى هذه القرية الفرعونية التي حملت الاسم ومعناه الحصن أو الوقاية.

تضم محتويات العدد الأول عدة دراسات منها: تاريخ اللغة القبطية، المخطوطات القبطية، الأقباط في عصر الولاة، الطب المصري في العصر القبطي، عميد الأدب القبطي إقلاديوس لبيب، دير أبا فويبامون، بالإضافة إلى مختارات من المكتبة القبطية.

نظـــر

محيي الدين اللباد

القاهرة: العربي للنشر والتوزيع، ٢٠٠٣، ١٤٣ صفحة



الألبوم الثالث للفنان الكبير ومصمم الكتب الحائز على جوائز محلية وعربية وعالمية، يتضمن مقالات في الفنون البصرية المختلفة، من رسم وتصميم وكاريكاتير وجرافيك وغيرها، وهي مقالات تكشف عن ملكاته الإبداعية وقدرته على التعبير، بالكلمة لا بالريشة، عن أصعب الأفكار بسلاسة ودقة ووضوح، وكتابه يتضمن عشرات الموضوعات عن رسامين من كل مكان في العالم.

وينقل للقارئ خلاصة مشاهداته ومشاركاته في معارض كتب الأطفال وأهمها معرض بولونيا الدولي. في الكتاب أيضًا مقالات يدرجها المؤلف تحت عنوان «ملاحظات بصرية في حياتنا»، تجمع بين الفن والسياسة والاجتماع وفنون السيرة.

ألبوم اللباد سياحة فنية وأدبية بديعة في الفنون البصرية على اختلافها، تكشف عن مدى ارتباط هذه الفنون بواقع الناس المعاش، كما تكشف عن روح الفنان في التعاطي مع متغيرات الواقع من حوله.

ثمرات المطابع

WWW.thamarat. com

أحدث مواقع الكتب العربية على الإنترنت. أنشأه مركز المصادر للمعلومات.

ويهدف المركز إلى تقديم اللبنة الأولى التي تعين الباحث على أعماله العلمية من خلال:

- توثيق ما يصدر باللغة العربية من كتب ودوريات تهم الباحثين.
- إعلام الباحثين، كل في مجاله، بالأعمال الصادرة حديثًا.
- توثيق المخطوطات العربية من خلال متابعة وضبط كل ما يتعلق بالمخطوطات فهرسة وتعريفًا.

ويهدف الموقع إلى تعريف القراء تعريفًا علميًا موجزًا بأحدث الإصدارات على مستوى العالم العربي من خلال:

١. تقديم البيانات الكاملة للتوصيف البيليوجرافي للكتاب وتشمل: اسم الكتاب كاملاً، اسم المؤلف، اسم المعتني بالكتاب، الناشر، رقم الطبعة وتاريخها، عدد الأجزاء، عدد الصفحات، نوع الغلاف، سعر الكتاب، تصنيف الكتاب العلمي.

٢. تقديم قراءات مطولة وخلاصات لأهم الإصدارات العربية.

٣. إمكانية تقديم الخدمة لمجالات متنوعة، أو لتخصص واحد فقط، تبعًا لطبيعة المؤسسة.

- وحسب الموقع فإن مركز المصادر يهتم أيضًا بالدوريات التي تهم الباحثين، والتي تمثل مصادر معتبرة للأخبار، ويسعى المركز لرصد كامل وتوثيق دقيق للمعلومات المنشورة في الدوريات العربية، ويقوم المشروع الآن بمتابعة ما يزيد على ١٣٠ دورية شهريًا (المستهدف فهرسة ٤٠٠ دورية).

ومن مشروعات المركز الطموحة أيضًا إعداد فهرس الكتروني للكتب التي طبعت خلال الأعوام الماضية وبيان طبعات كل كتاب، ويشمل ما طبع في بداية القرن من الكتب النادرة وربط قواعد البيانات بعضها ببعض. كذلك يقوم مركز المصادر بعمل قاعدة معلومات تحتوي على فهارس المخطوطات في العالم ووضعها بين أيدي الباحثين، وذلك لتلافي المصاعب التي تواجه الباحث عادة لكثرة فهارس المخطوطات وندرة كثير منها، وتعدد لغاتها.

بين نصرة الدين.. ونصرة الشعوب

بدأ اسم خالد أبو الفضل يتردد فى الدوائر الإعلامية العربية منذ أن تم تعيينه فى شهر مايو من العام الماضى عضواً فى لجنة الحريات الدينية التابعة للحكومة الأمريكية بقرار من الرئيس الأمريكى جورج بوش شخصياً. وبالنسبة للمراقب العربى، كان من اللافت تلك المساحات المؤثرة التى تفردها أحياناً وسائل الإعلام الأمريكية لآراء أستاذ القانون. المصرى الأصل. والعبارات المادحة التى تصفه بها، فقد وصف مرات بأنه: «أهم مفكر إسلامى فى العصر الحديث»، و«أبرز خبراء الفقه الإسلامى»، و«المثقف المعتدل الشجاع»، و«أهم سلاح فى المعركة ضد الأصولية الإسلامية»!

ثم حدثت مؤخراً زوبعة صغيرة أحرجت خالد أبو الفضل مع الرئاسة الأمريكية عقب زيارته إلى مصر فى نوفمبر الماضى، مترئساً وفد لجنة الحريات الدينية الأمريكى. فقد تناقلت الصحف الأمريكية ترجمة (أعدها معهد MEMRI) لحديث أجرته معه مجلة «أكتوبر» المصرية أثناء زيارته، تضمن انتقادات لاذعة للرئيس بوش. الأمر الذى انتهزه «دانييل بايبس». أبرز مساندى إسرائيل فى أمريكا. فراح يؤكد أن الفقيه الشهير لا يقدم سوى صورة أكثر ذكاءً من المشروع الإسلامى المعادى لأمريكا والغرب، وأن «القول بوجود فارق بين إسلامى معتدل وإسلامى متطرف يماثل القول بوجود فارق بين نازى معتدل ونازى متطرف»! ومن جانبه، نفى أبو الفضل فى بيان رسمى تلك التصريحات التى وردت على لسانه مؤكداً ولاءه للرئيس الأمريكى.

ويبدو من كل هذا مدى صعوبة موقف خالد أبو الفضل، وصعوبة تحديد موقف منه، كما هو الحال دائماً مع أصحاب الآراء الوسطية والجنسيات المزدوجة. فبرغم أنه ولد فى دولة الكويت وتربى ما بين مصر والكويت، إلا أنه الآن مواطن أمريكى يقوم بتدريس القانون الإسلامى وقضايا الهجرة والأمن القومى فى جامعتى كاليفورنيا وييل، بالإضافة إلى عمله كمحام، بل ونشاطه البارز فى الحياة العامة الأمريكية كمثقف وخبير إسلامى. لهذا، وتجنباً للتحيزات المسبقة والأحكام المتسرعة، تأتى هذه المحاولة لتناول إحدى كتاباته بشكل مباشر إيماناً بواجب «الفهم قبل الحكم».

The Place of Tolerance in Islam
(منزلة التسامح فى الإسلام)
By: Khaled Abou El-Fadl, with Tariq Ali, Milton Viorst, John Esposito, and Others
Edited by: Joshua Cohen and Ian Lague
Boston: Beacon Press, 2003, 117p

يتيح هذا الكتاب الصغير الذى أعدته فى الأصل مجلة «بوسطون ريفيو» الأمريكية بعد أحداث ١١ سبتمبر، فرصة كبيرة للتعرف على أفكار خالد أبو الفضل. فهو عبارة عن مناقشة اشترك فيها ١١ كاتباً ومفكراً كتب كل منهم تعليقاً يرد به على مقال رئيسى عن التسامح فى الإسلام للمؤلف الذى ينهى الكتاب برد ختامى على الجميع. وبالرغم من أن عنوان الكتاب يحدد موضوعه، إلا أن تنوع خلفيات المعلقين أحدث ثراءً واتساعاً فى نطاق الحوار.

تركز حديث خالد أبو الفضل على إبراز التباين فى تفسير آيات القرآن الكريم التى تتناول علاقة المسلمين بغير المسلمين ومبادئ الحرب والقتال، مبيناً الفرق بين التفسيرات الضيقة التى تسود فى مراحل التردى الفكرى والحضارى كالتى نعايشها الآن، وتلك التى سادت فى مراحل ازدهار الحضارة الإسلامية كحضارة ذات رسالة إنسانية. فهو يرى أن المنهج الوهابى السائد اليوم والذى تتبناه جماعات إرهابية مثل جماعة بن لادن، تفسر مثل هذه الآيات وغيرها تفسيراً مدمراً لأنه يتم بمعزل عن القراءة التاريخية لأسباب وظروف نزول النص، والسياق الأخلاقى الأوسع للقرآن الذى يضم العديد من الآيات التى تأمر بالعدل، والقسط، والرحمة، والمعروف، والإحسان للناس جميعاً، تلك القيم التى تشكل أولوية فى سلم القيم الإسلامية.

ويوجه خالد أبو الفضل هجومه إلى الوهابيين مبيناً أن علماء الإسلام الذين عاصروا بداية حركة محمد بن عبد الوهاب وصفوهم بأنهم «خوارج الإسلام». كما هاجم هيمنة الدولة فى العصر الحديث على المؤسسات العلمية الإسلامية مما أفقد العلماء استقلالهم، وبالتالى شرعيتهم. فحدثت فجوة وفوضى فى المرجعية الإسلامية استغلتها الجماعات العنيفة المتعصبة.

وقد تباينت ردود المعلقين على خالد أبو الفضل بشكل مثير، ما بين المدح الشديد والنقد الشديد الذى يصل إلى حد اتهامه بالانتهازية والتسلق. ويمكن القول بأن التباين فى خلفيات المعلقين الأحد عشر إنما يعكس ويفسر التباين فى مواقفهم. فقد رحب جميع المعلقين الأمريكيين بالصورة السمحة التى قدمها خالد أبو الفضل عن الإسلام، ونقده للأوضاع القائمة. وسواء عبروا عن احترامهم للأديان جميعاً مثل جون اسبوزيتو وسكوت أبيلبى، أو طعنوا فى الإسلام مثل ستانلى كيرتز الذى يعمل فى معهد هوفر المحافظ، فقد انطلقوا جميعاً من منطلق واحد، وهو وجود خطر أصولى إسلامى يهدد السلام والأمن العالميين. كما اتفقوا أيضاً على أن المسلمين أنفسهم هم السبب فيما آلت إليه بلادهم من تخلف فى جميع المجالات، وإن كانوا قد اختلفوا فيما بينهم فى تعيين السبب المحدد لتخلف المسلمين.

فمثلاً، يرى ملتون فيورست أن المشكلة لم تبدأ مع المذهب الوهابى وإنما قبل ذلك بكثير عندما نبذ المسلمون فكر المعتزلة العقلانى وتركوه للغرب يصنع منه نهضته. أما ستانلى كيرتز فيرى أنه يجب إرساء الحداثة فى الشرق الأوسط أولاً، حتى تتمكن عقول المسلمين هناك من قبول منهجية عالم مثل خالد أبو الفضل. ويرى كل من اسبوزيتو وسكوت أبيلبى أن المشكلة تكمن فى المرجعية والقيادة الإسلامية فى المنطقة، بل ويقول أبيلبى صراحة: «إن السؤال العملى الآن هو كيف نجعل لعلماء معتدلين مثل خالد أبو الفضل الكلمة والنفوذ على سائر المسلمين فى العالم؟».

ويشترك مع هؤلاء – أو ينجرف وراءهم – مجموعة الباحثين المسلمين المشتغلين فى الجامعات الأمريكية مثل خالد أبو الفضل نفسه، حيث انطلقوا من نفس الإطار، وبالتالى انبروا للدفاع عن الإسلام كما فعل هو فى البداية. فكتب كل من سهيل هاشمى، وأمينة ودود، وعقيل بلجرامى، وقمر الهدى كلاماً جميلاً ومعقولاً عن الأوجه المختلفة لسماحة القرآن وعظمة التراث الإسلامى القديم، وسوء الفهم الذى يعانى منه هذا الدين سواء من الغرب أو من جهلاء المسلمين المعاصرين الذين تبرءوا منهم بسبب عنفهم وتخلفهم الذى شوه الإسلام.

أما التيار الناقد الذى رفض هذا الحصار الفكرى الغربى، فقد عبر عنه اثنان من باكستان، الكاتب الإسلامى عابد الله جان والشاعر مشهود رزفى، وشاركهما حليف آخر غير متوقع، هو الكاتب البريطانى اليسارى «طارق على». فقد رفض الثلاثة التسليم بأن غياب أو وفرة التسامح فى الإسلام هى وراء تزايد عمليات العنف والإرهاب، بل إن مصالح الدول الغربية التى قامت أساساً بتسليح هذه الجماعات ثم سياساتها غير العادلة هى التى تثير البغضاء والرغبة فى المقاومة أو الانتقام، ومشكلات العالم اليوم لا تكمن فى التفسير الخاطئ للقرآن، وإنما فى سعى الولايات المتحدة وحلفائها للهيمنة على العالم اقتصادياً وسياسياً وثقافياً.

لهذا يرى «طارق على» أن الحل فى تلك المناطق الملتهبة فى العالم، يجب أن يكون سياسياً وليس دينياً. وهو يلخصه فى الديموقراطية، وتسوية القضيتين الفلسطينية والعراقية، وإلا فلن يتوقف الشباب المسلم عن الانضمام إلى التنظيمات المسلحة. ويرى كل من مشهود رزفى وعابد الله جان أن الولايات المتحدة افتعلت ذلك الاهتمام بالعلوم الإسلامية لتصرف أذهان الرأى العام عن الجناة الحقيقيين، ورؤية الصلة بين عمليات ١١ سبتمبر والسياسات الأمريكية الوحشية فى مختلف بقاع العالم. كما أنه من الناحية الإسلامية، فإن ما يسمى عدم تسامح هو فى الواقع مقاومة شرعية تقوم على مبدأ الدفاع عن النفس أمام الطغيان، لأن مبدأ التسامح الإسلامى لا يعنى قبول الطغيان، وإلا يكون قد حجب أول المبادئ الإسلامية وهو «العدل».

وفى النهاية، يصر خالد أبو الفضل على أن الحفاظ على رسالة الإسلام الإنسانية والسلامة الأخلاقية للدين أهم من تحقيق أى مكسب سياسى، وأنه لا يجب اختزال الدين لغرض وظيفى هو التحرير السياسى. وعندما يرفض خالد أبو الفضل اعتبار الدين الإسلامى هوية سياسية قومية، فهو يعبر تماماً عن وضعه.



فى النهاية هو مواطن أمريكى يخدم فى إدارة بوش ولا تعنيه المصالح السياسية والاقتصادية للمسلمين البائسين فى الشرق الأوسط الذين هم سبب تخلف الإسلام من وجهة نظره. ولكن من ناحية أخرى لا يوجد سبب للتشكيك فى إخلاصه فى الدفاع عن الدين الإسلامى، بل ويمكن ونحن بصدد الحديث عن تجديد الفكر الدينى أن نستفيد من أفكاره التى تتسم بالوجاهة، ولكن هذا يجب أن يتم فصله بوضوح عن دائرة الصراع السياسى فى المنطقة. ولعل هذا الفصل بين نصرة الدين ونصرة الشعوب، يجعلنا ونحن نحاول صد الهجمة الأمريكية عن بلادنا، نلتفت إلى الملايين من غير المسلمين حول العالم، الذين تظاهروا من أجل تحرير العراق فى أوروبا وأمريكا اللاتينية وآسيا، متحالفين معنا فى مقاومة الهيمنة الأمريكية.

هديل غنيم

China's New Order

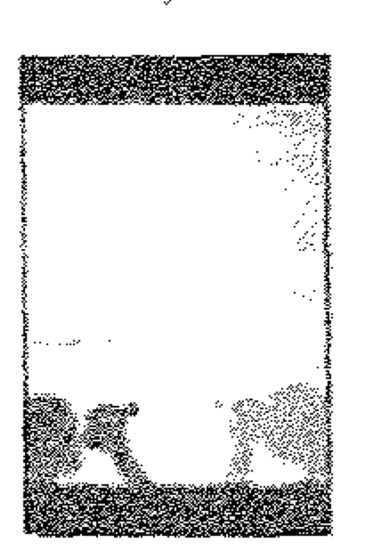
(نظام الصين الجديد)

Harvard University Press

Wang Hui

Edited by Theodore Huters,

239PP, 22.95



يتألف هذا الكتاب من ٣ مقالات كبيرة عن التطورات الأخيرة التي تشهدها الصين، وهي تمثل نقداً شاملاً ومثيراً لحركة الإصلاح في الصين في شكلها الفريد والتي يطلق عليها الرأسمالية اللينينية. وكاتب هذه المقالات هو وانج هو محرر صحيفة «داشو» «القراءة» والأستاذ في إحدى جامعات بكين وهو واحد من المثقفين الذين تحدوا الجدلية التي تقول أن الإصلاح الاقتصادي يمكن أن يسير بدون إصلاح سياسي. ورغم أن الكتاب جريء ونقدي إلا أن التناول الأكاديمي والنظري من جانب المؤلف يجعل فهم الكتاب أمراً صعباً.

وبعكس معظم الناقدين لتجربة الإصلاح الصينية التي بدأها الزعيم الراحل دينج شياوبنج في أواخر ١٩٧٨ واستمرت مع جيان زيمين والزعيم الحالي هو ختناو، فإن المؤلف لا يحصر نفسه في الاقتصاد، وهو ينظر إلى الوضع بشكل شمولي مطالباً بأن يشمل الإصلاح النواحي الثقافية والقيم وطريقة الحكم. ويؤكد ذلك أن المثقفين الصينيين أو على الأقل بعضهم، لم يصمتوا تجاه ما يحدث. وكمشارك في الحركة المؤيدة للديمقراطية عام ١٩٨٩ فإن وانج يشعر بالقلق من أن المثقفين الصينيين سيكونون بلا حول أو قوة ازاء تسويق كل شيء في الصين أو ما يسميه سطوة السوق.

ويعتبر المؤلف نفسه من اليسار الجديد وهو شديد النقد لما أسماه بالطريق غير السوي الذي تسير فيه جمهورية الصين الشعبية في سبيل التنمية الاقتصادية فقط. ورغم أنه لا ينكر أن الأسواق المفتوحة يمكن أن تدعم الليبرالية إلا أنه يتحدى الرؤية السائدة بأن فتح هذه الأسواق يؤدي بشكل آلي إلى فتح المجتمعات. ويشير إلى أن الانتعاش الاقتصادي في الصين ليس نتيجة لسلسلة من الأحداث الاقتصادية لكنه جاء بسبب تدخل الدولة. ويحذر المؤلف من أن الاعتقاد بأن التقدم الاقتصادي يمكن أن يستمر بدون التقدم السياسي ففي لحظة ما لابد من حدوث تقدم سياسي يواكب التقدم الاقتصادي وإلا كان المجتمع يسير بساق واحدة.

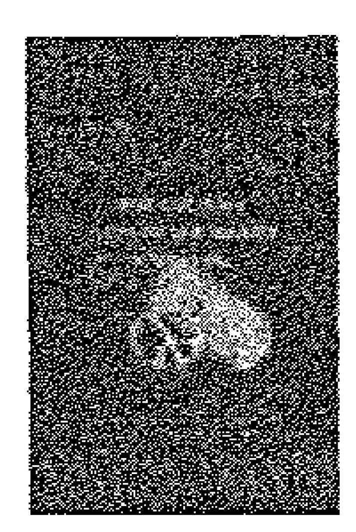
▪

They Marched into Sunlight War and Peace, Vietnam and America, October 1967

(الحرب والسلام.. فيتنام وأمريكا أكتوبر ١٩٦٧)

David Maraniss

Simon & Schuster, 572PP, $ 29.95



هذا الكتاب أشبه بفيلم روائي طويل أبدع المؤلف في استخدام عناصر التشويق والإثارة وكافة الأمور التي تجعل الموضوع جذاباً وشيقاً. الموضوع الرئيسي هو حرب فيتنام وتأثيراتها سواء داخل الولايات المتحدة أو في فيتنام نفسها أي على الجبهة.

وقد انطلق المؤلف من حادثة وقعت في حرم جامعة ويسكونسن الأمريكية في ١٧ أكتوبر عام ١٩٦٧ عندما استخدم البوليس الغاز المسيل للدموع في تفريق الطلاب الذين تظاهروا احتجاجاً على الحرب والانتهاكات التي وقعت آنذاك من جانب البوليس. وبعد أن يعيد المؤلف سرد تفاصيل ما حدث على لسان الطلاب ويوضح مدى الاستياء الطلابي من استمرار الحرب وتساقط الضحايا، ينتقل المؤلف عقب ذلك إلى الجبهة من خلال تقرير بالغ العمق من شمال فيتنام ويتحدث عن المعركة الدائرة آنذاك وينقل عن نائب قائد إحدى الكتائب الفيتنامية قوله أن قواته كانت تبحث عن الأرز في تلك المنطقة لكنها فوجئت بوجود كتيبة أمريكية على بعد كيلومتر واحد وأنها كانت تعد لكمين داخل الغابات للقوات الفيتنامية ثم يعود المؤلف إلى جامعة ويسكونسن ليتابع التوترات والاضطرابات بين الطلاب والبوليس، ويتابع الكتاب خطوة بخطوة تصاعد ظاهرة الاحتجاج على الحرب الأمريكية في فيتنام بين فئات المجتمع الأمريكي خاصة الطلاب وكيف أن هذا التصاعد نتج عنه نوع من التمرد من جانب الطلاب ضد السلطات الجامعية. ومازال الطلاب في جامعة ويسكونسن يحتفلون كل عام بذكرى هذه الاحتجاجات

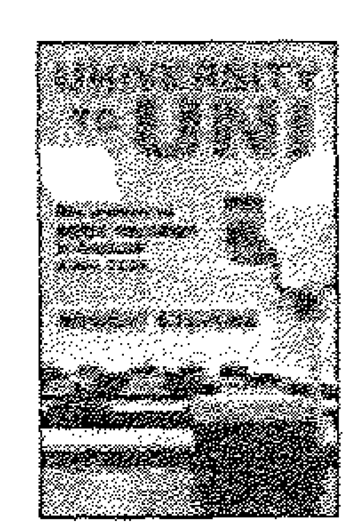
▪

University To Uni: the Politics of Higher Education in England Since 1944

(سياسات التعليم العالي في انجلترا منذ ١٩٤٤)

Robert Stevens

15.99, 196PP #Politico's,



يخوض رئيس الوزراء البريطاني الحالي توني بلير معركة داخلية يعتقد كثير من المراقبين أنها ستحدد مستقبله السياسي وتتمثل تلك المعركة في الرسوم التي سيتم فرضها على الطلاب الجامعيين والتي تلقى رفضاً كبيراً من جانب الطلاب وكذلك من داخل حزب العمال الحاكم.

ويعتقد مؤلف الكتاب أن بلير على حق في إصراره على فرض هذه الرسوم، التي يقول منتقدوها أنها ستكون بمثابة النهاية له تماماً كما كان الأمر بالنسبة لمارجريت تاتشر بشأن ضريبة الرأس. ويقول المؤلف أن الجامعات البريطانية خاصة الإنجليزية تفتقر للتمويل الأمر الذي جعلها تحتل مراتب أقل بالنسبة لنظيراتها في أمريكا وأوروبا.

ويشير إلى أن المفارقة الكبيرة هي أن الجامعات في بداية نشأتها قبل قرون عديدة كانت تعتمد على الإنفاق الخاص أما الآن فإن الاتجاه هو أن تكون الدولة هي التي تتحمل التكاليف، الأمر الذي يعني أن الجامعات ستظل تتلقى ميزانيات ضئيلة من الدولة مما يحرمها من زيادة فرص البحث والتعلم والتدريب.

ويقول المؤلف أنه من الصعب فهم إشكالية أنه في الوقت الذي يتم فيه خصخصة الشركات المملوكة للدولة وعلى رأسها شركة الاتصالات البريطانية بريتش تليكوم يتصاعد الاتجاه نحو تأميم الجامعات.

ويستعرض المؤلف سياسات التعليم الجامعي في انجلترا منذ أكثر من ٥٠ عاماً. ويقول أنه في بداية الخمسينيات كان حوالي ٥٠ ألف طالب فقط يدخلون الجامعات سنوياً في انجلترا بما يمثل النخبة، أما الآن فقد تضاعف العدد عدة مرات نظراً لأنه كما يقول المسئولون، فإن الاتجاه حالياً ومنذ سنوات عديدة هو تبني سياسات إدخال أكبر عدد إلى الجامعات وليس التكيف مع حاجات الاقتصاد. وساهم هذا التصاعد في أعداد الطلاب في قلة عدد المدرسين والأساتذة بالقياس للطلاب ليس فقط في الجامعات المتوسطة المستوى بل في جامعات النخبة.

ويتحدث المؤلف عن مشكلة أخرى في التعليم الإنجليزي وهي تتعلق بالمعاهد الفنية التي كان الهدف منها تخريج فنيين مدربين بشكل جيد تلبية لاحتياجات السوق. أما الآن فقد تحولت كثير من هذه المعاهد إلى جامعات وبذلك غلب الجانب النظري الأكاديمي على الجانب العملي.

▪

Negro President

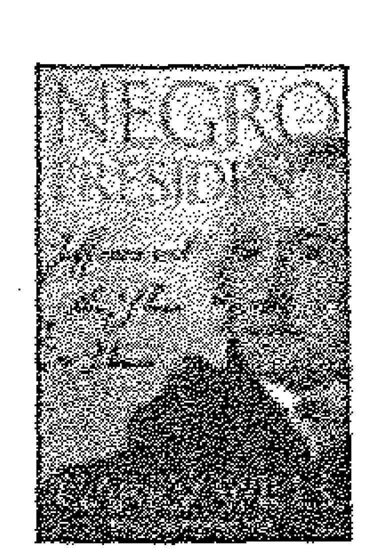
(الرئيس الزنجي)

Garry Wills

Jefferson and the Slave Power

Houghton Mifflin, 274PP,

$25.00



اعتبر المؤرخون الأمريكيون انتخابات عام ١٨٠٠ أحد أهم الأحداث في التاريخ الأمريكي.

وقد جادل توماس جيفرسون الذي فاز بهذه الانتخابات بأنها ستحدد الشخصية القومية الأمريكية كما ستحدد إذا ما كان الجمهوريون أو الارستقراط سوف يسيطرون على مقاليد الأمور في الولايات المتحدة الأمريكية.

وكان جيفرسون وارون بار قد تلقيا ٧٣ صوتاً من أصوات المجمع الانتخابي لكل منهما في هذه الانتخابات الرئاسية بينما حصل جون آدامز الذي كان رئيساً على ٦٥ صوتاً فقط، ثم انتخب مجلس النواب بعد ذلك جيفرسون رئيساً.

ويتحدث مؤلف الكتاب عن أجواء هذه المعركة الانتخابية التي كانت نقطة تحول فبعدها بـ٤ سنوات فقط جرى تمرير التعديل الثاني عشر في الدستور الأمريكي لفصل انتخاب الرئيس عن نائب الرئيس.

كما أن الاحتفال بتتويج جيفرسون رئيساً في ٤ مارس ١٨٠١ جرى لأول مرة في واشنطن التي أصبحت العاصمة الجديدة.

ويتحدث المؤلف عن ظروف التصويت الانتخابي في هذه الانتخابات حيث حدثت مشكلة كبيرة ستتكرر عدة مرات أهمها ما حدث في انتخابات عام ٢٠٠٠ بين الرئيس الأمريكي الحالي جورج بوش وآل جور نائب الرئيس الأمريكي السابق.. فقد ادعى كل معسكر بأنه الأحق بالرئاسة إلى أن حسمت المحكمة العليا الأمريكية الأمر لصالح جورج بوش.

في انتخابات عام ١٨٠٠ حدث شيء مشابه.

وأكد مراقبون آنذاك أنه لو تم فرز الأصوات بشكل أمين لكان آدامز قد فاز. وهناك من اتهم جيفرسون بأنه وصل بفضل السود وأشاروا إلى أن السادة البيض في الجنوب الذي كانوا يمتلكون العبيد السود جعلوا هؤلاء الأشخاص يصوتون بشكل غير مشروع لصالح جيفرسون.. وهناك من أطلق لذلك على جيفرسون الرئيس الزنجي.

▪

كـــتـــاب الـــطـــفـــل

حين يطالع طفلك كتاباً، ما الذي يجذب انتباهه ويحفزه على المتابعة؟

وحين يقرأ له الكتاب، إن كان لا يستطيع القراءة بمفرده، فما الذي يستهويه؟

هذان سؤالان يهمان ناشر كتب الأطفال طبعاً، لكنهما بالقدر ذاته ينبغي أن يشغلا ذهن الأبوين، والقائمين على تربية الأطفال وتنمية عادة القراءة لديهم.

بعض كتب الأطفال تعنى أساساً بالفكرة على حساب «الحدوتة»، والأخيرة هي مخزن أسرار خيال الطفل وذاكرته الناصعة، وما يبقى فيها، هو ما يستدعى في سنوات الصبا والكهولة، استناداً إلى ما يقرره خبراء التنشئة وعلم النفس، من أن السنوات الأولى للإنسان هي التي تشكل ملامح شخصيته.

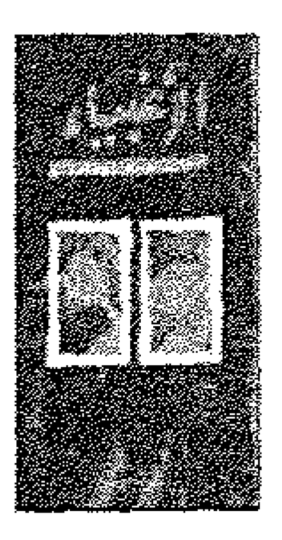
والحدوتة تحمل بين طياتها، وعلى لسان شخوصها وكائناتها التي يتم استنطاقها. أشجاراً وزهوراً ولعباً وحيوانات. فكرة بالضرورة، قيمة يراد ترسيخها، وأخرى تستوجب الاستبعاد، هذا ما رمت إليه حكاية «كليلة ودمنة»، و«سندريلا» وحكايات «ذات الرداء الأحمر» و«سنوهوايت» وعشرات غيرها مما شاع وقبع في ذاكرة الأطفال في كل مكان في العالم، وقرأه الصغار بكل اللغات، محققين تواصلاً افتقده الكبار الذين يرزحون تحت سيل من الخلافات المذهبية والدينية والعرقية، وصراعات المصالح وموازين القوى.

تحقق هذا لأطفال العالم قبل دعاوى العولمة وادعاءاتها، التي يبدو أنها تفرق أكثر كثيراً مما تجمع.

كتب أخرى أفسحت مجالاً للرسوم متجاهلة الاثنين معاً: الحدوتة والفكرة، وهذه النوعية. بالضرورة. تخاطب فئة عمرية تكتشف العالم عبر وعيها البصري وتدريب ذائقتها الجمالية، أما الكتب العلمية والموسوعات، فثمة طفرة هائلة في صياغاتها وطباعتها ووسائل التشويق المتنوعة التي تتضمنها، سواء تلك المكتوبة بالعربية، أو المترجمة عن لغات أخرى.

▪

عن «الأغبياء» برسم وليد طاهر (دار الشروق ٢٠٠٣)، كتابا كله رسوم، والرسالة في الغلاف الأخير: عندما نريد أن نملك كل شيء.. نخسر كل شيء ونكون أغبياء.



وبرغم بساطة الرسوم ووضوح إيحاءاتها، فإنها تبقى مغلقة على مخاطبة العقول الصغيرة، دون الرسالة المباشرة على الغلاف الأخير، ولعل هذا ما أدركه المؤلف، فأضاف إلى رسوماته البسيطة تلك الكلمات الأكثر بساطة.

الصورة الأولى من «الأغبياء» لرجل يحمل تمراً طازجاً في سلة زرقاء، وفوق وجهه تنطبع النخلة، تمييزاً له عن الرجل الآخر في الصفحة المقابلة، والذي يصطاد سمكاً من البحر ويضع الحصيلة في سلة أمامه، وفوق وجهه تنطبع السمكة، (بوسعنا أن نميز بين الاثنين بسهولة، فهذا هو «الرجل النخلة»، والثاني هو «الرجل السمكة»، والملاحظة المهمة هنا، هي حالة السعادة التي تغمر الاثنين، وقد رضي كل منهما بنصيبه من الدنيا، نشوة غامرة تحيط بالاثنين، موسيقى مفرحة تصدح في المكان، طيور مبهجة ترف حوله، وحتى السمك الذي تتوعده صنارة «الرجل السمكة»، يبدو مبتسماً فرحاً.

وحين يخلو الاثنان إلى نفسيهما (النخلة والسمكة) ويبدأ في التهام ما حصدا، يقطبان ويهاجمهما الوساوس ويستولي عليهما الجشع، فكل منهما يفكر فيما لدى الآخر، غير قانع بما تحت يديه. يبدو الاثنان في حالة من الكدر، مستغرقين في تفكير عميق، وفي الصفحتين التاليتين، يكشف الرسام عما يجول بخاطر الاثنين، فالرجل «السمكة» يحلم بأن يحوز ما لدى زميله «النخلة»، وهو نفس ما يسيطر على فكر الآخر، ويفكر كل منهما بالطريقة ذاتها، أن يسرق ما لدى الآخر أثناء نومه، وحين يبدأ في تنفيذ خطتهما يتواجهان في صراع دام، وتتبدل ملامحهما من حالة الهدوء والرقة والبهجة، إلى حالة وحشية شيطانية، ويحشد كل منهما للآخر أسلحته الفتاكة في انتظار الموقعة الفاصلة، التي تنتهي بمقتلهما معاً، عقاباً لهما على جشعهما ورغبتهما الجامحة في الحصول على كل شيء، فيما تبقى الطبيعة على حالها، جميلة مبهجة، تتعايش كائناتها في تعاون وتعانق، وتسود بينهما روح المحبة.

هذه هي المعاني الجميلة التي حكتها الرسوم دون كلمات، وهي نوعية موجهة بالضرورة للأطفال قبل سن القراءة، كي تعمل خيالهم وتدرب عيونهم على تحويل المجرد إلى معان ودلالات، فكرة جيدة، لكنني أشك كثيراً في أن يفهمها الأطفال دون إشارة ولو بسيطة لما تود قوله.





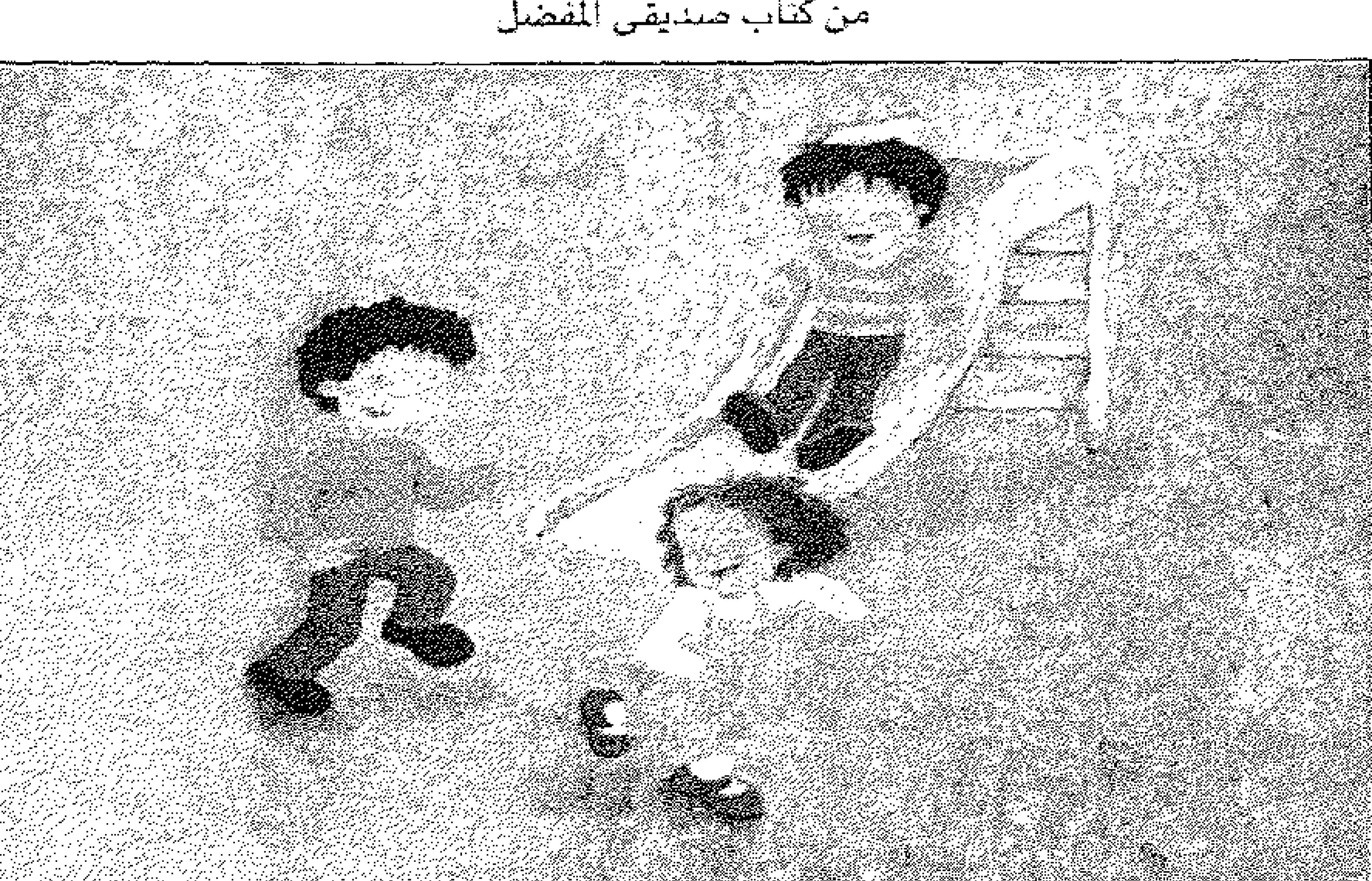
من نوعية كتب الأطفال التي تعنى بالفكرة على حساب الحدوتة، كتابان جميلان بطلاهما طفلان من ذوي الاحتياجات الخاصة، والاثنان صدرا عن الدار ذاتها (دار الحدائق. بيروت)، تحمل القصة الأولى عنوان «صديقي المفضل»، وفيها نتعرف على الطفل أحمد من خلال صديقته التي تساعده في اكتشاف العالم من حوله، ولا تقول الحكاية أبداً أن أحمد يعاني من فقدان البصر، لكنها تقدم إشارات وإيماءات إلى نوع إعاقته، بدءاً من عينيه المغمضتين دوماً، إلى عباراته الموجزة الدالة: «الشمس لا تشرق عندي»، أو أن تقول صديقته: «أزور صديقي أحمد، نتناول الطعام معاً، أرشده إلى مكان صحنه وكوبه وشوكته وسكينه».. «ننام على العشب الأخضر فأخبره عن الغيوم ويخبرني عن قطته».. «نذهب معاً إلى المدرسة، أخبره عن واجهات المحلات.. وهكذا.





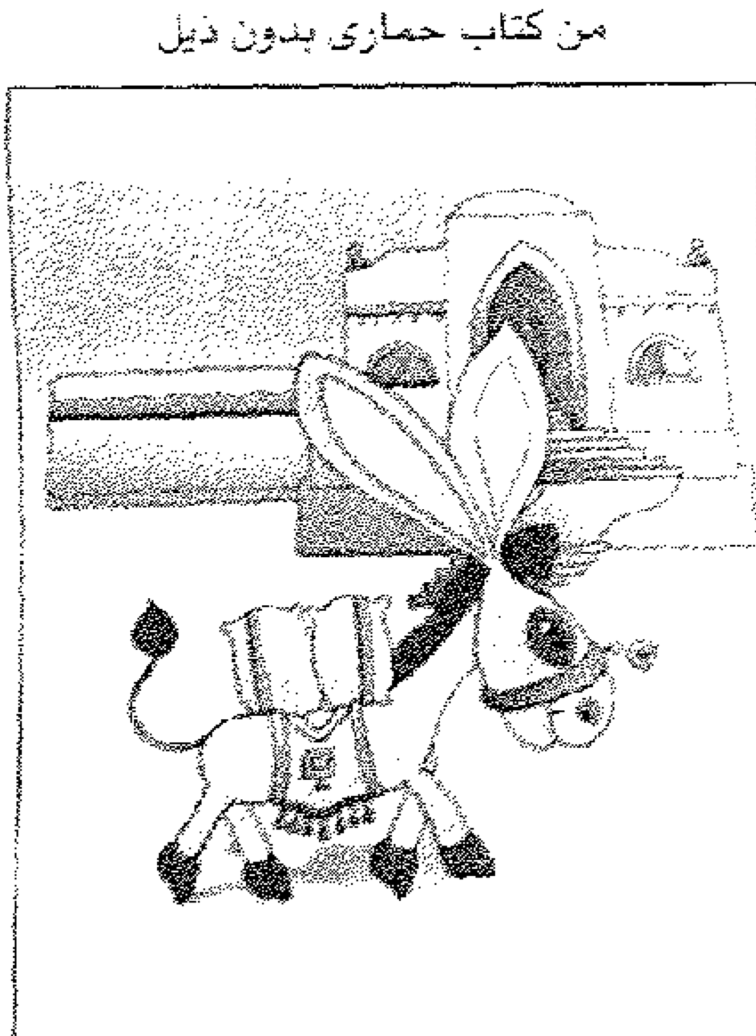
في الاتجاه ذاته «عدنان لا يحب قصتي»، وإذا كان أحمد كفيفاً في «صديقي المفضل»، فإن عدنان هنا أصم، أو ضعيف السمع لا يمكنه السماع إلا بواسطة سماعة أذن، وفي الحكاية أن «نور» تحكي قصصاً لعدنان وإيمان جاريهما التوأمين ومعهما أخوها أمير، وفي كل مرة تحكي فيها قصة تفاجئ بأن إيمان وأمير سعداء، أما عدنان فيبقى منزعجاً، وتدهش «نور» وتتساءل: لماذا لم تعجب القصص عدنان؟، وحين توجه السؤال لأمه تجيبها: مهلاً، الخطأ خطئي، نسيت أن أضع لعدنان سماعة الأذن، فهو لا يسمع جيداً من دونها، وحين تضع الأم لعدنان السماعة، وتحكي أميرة حكاياتها، يستغرق عدنان في الضحك والسعادة مثل بقية الأولاد.

كما نرى فإن الكتابين: «صديقي المفضل» و«عدنان لا يحب قصتي»، لا تحملان حدوتة يمكن تناقلها بين الأطفال، وإنما تحمل فكرتين جميلتين



من كتاب صديقي المفضل

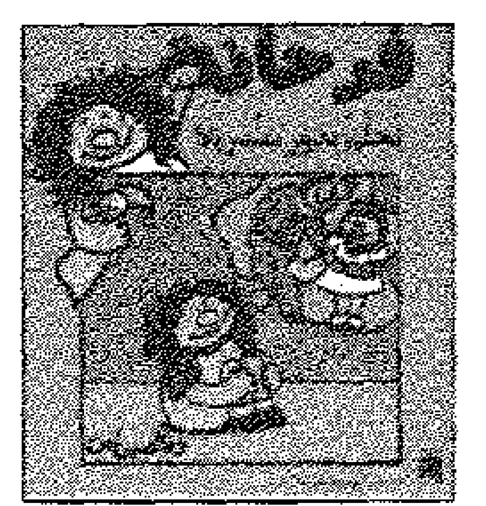
من كتاب بابا جاي امتى



من كتاب حماري بدون ذيل

كـــتـــاب الـــطـــفـــل

عن كيفية التعامل مع ذوى الاحتياجات الخاصة، وقد عوضت الرسوم الجميلة لـ «عبير مزهر» فى الأولى و«ضياء عبد الصاحب» فى الثانية غياب السرد.



مازلنا أيضاً فى إطار «الفكرة»، وضمن سلسلة حكايات فرحانة (دار الياس - القاهرة).

بين أيدينا «فرحانة تحلم بدور سندريلا»، وفرحانة بنت صغيرة تفتقد جمال الوجه لكنها طيبة القلب والمعشر، محبوبة من الجميع، وحين تقرر المدرسة أن تعرض مسرحية «سندريلا» يختارون لفرحانة دور السيدة الشريرة، وتحزن فرحانة لأنها كانت تحلم بدور سندريلا، لكن المدرسة اختارت له «إنجى»، وهى طفلة جميلة شقراء قريبة الشبه من سندريلا، وتعود فرحانة حزينة إلى البيت، فيساعدها أبواها ويخففان عنها، ويشيران إلى ما تحمله بداخلها من طيبة وصفات جميلة تجعل كل من حولها يحبونها، وهى ذات صفات سندريلا.

والقصة هنا - كما نرى - ليست إلى الأطفال فحسب، وإنما أساساً إلى الوالدين.

والمؤلفة «رانيا حسين أمين» لم تغفل عن ذلك، فتوجه الآباء فى بطن الغلاف إلى ضرورة إعطاء الطفل الثقة بنفسه، والتعبير له عن سعادتنا بما فى شخصيته من صفات طيبة، وإذا كان الطفل جميل الوجه، فلا ينبغى أن نلفت نظره كثيراً إلى هذه الصفة، وإنما يجب توجيه نظرة إلى جماله الداخلى.

سلسلة «غنوة وحدوتة» (الدار المصرية اللبنانية) تستند أساساً إلى غناوى شائعة بين الأطفال يحيلها المؤلف «عبد التواب يوسف» إلى حدوتة شائعة، مثل «على عليوة»، و«يا طالع الشجرة»، و«الغراب النوحى» وغيرها، وبينها هذه الأغنية الشهيرة:

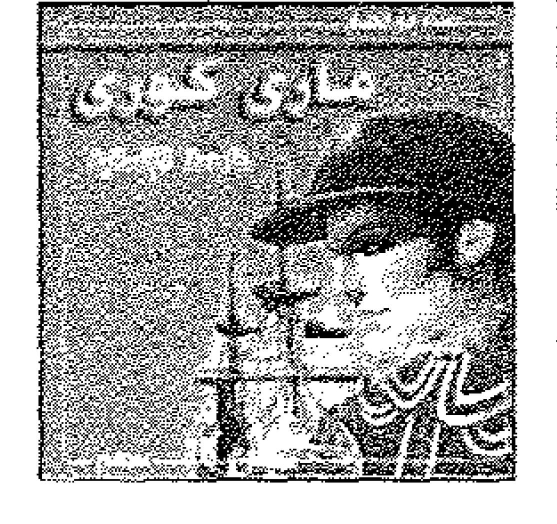
بابا جاى امتى	جاى الساعة سته
راكب والا ماشى	راكب بسكلته
بيضا والا حمرا	بيضا زى القشطه
وسعوا له السكة	واضربوا له سلام

والقصص من هذا النوع على تقليديتها، فإنها تربط بين الأغنيات الشائعة التى يرددها الأطفال، وحكايات يفترض المؤلف أنها وثيقة الصلة بها، وربما تبقى فى ذهن الأطفال علاقة وثيقة بين كلمات الأغنية ودلالات الحكاية.

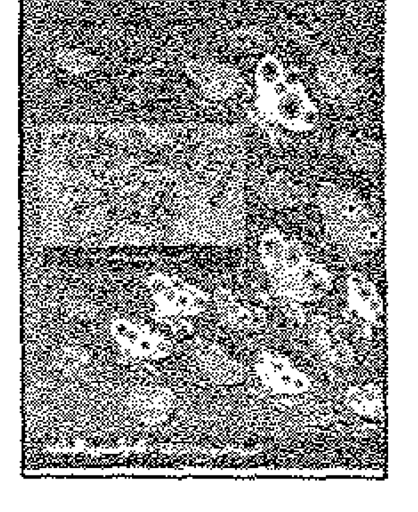
بعض كتب الأطفال لم تبارح بعد دوائر الكلاسيكية سرداً وإخراجاً وتصميماً، برغم أن دور النشر التى تصدرها - مثل دار سفير مثلاً - قدمت لمكتبة الطفل نوعيات مميزة من كتاب الطفل، واستفادت من التقنيات الحديثة فى هذا المجال.



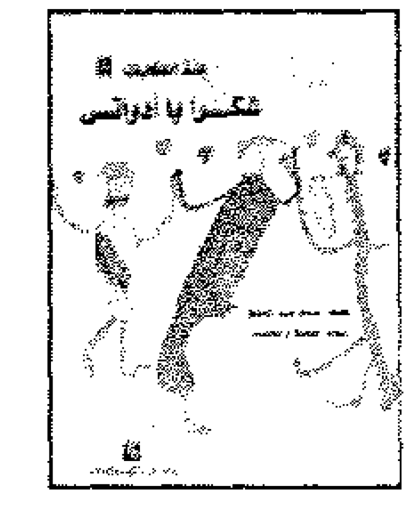
«الغشاش والقرد» (دار الحرف الذهبى - مكتبة الراشد/بيروت - السعودية) تلبى حاجةً ما، فهى تستمد مادتها من الحديث النبوى الشريف، وما رواه النبى صلى الله عليه وسلم لأصحابه، وهى حكايات صعبة تنتقى من معاجم اللغة أصعب الكلمات، ولذلك تحفل هوامشها بمرادفات المعانى الصعبة، ورسومها تنتمى - بالضرورة - إلى العالم ذاته، ويعد أن تنتهى الحكاية يذيل الكتاب بتمارين عن معانى الكلمات وتصاريف الأفعال وغيرها، كتاب مدرسى يفتقد إلى عناصر الإبهار تماماً.



«مارى كورى» يأتى ضمن سلسلة «نساء فى القمة» (دار سفير)، وكما هو واضح فإن السلسلة تتناول النساء البارزات كل فى مجاله، وهو يقدم صورة شافية عن مدام كورى، البولندية مكتشفة الراديوم التى ودعت الحياة فى عام ١٩٣٤، وهو نوعية أخرى من الكتب ذات الطبيعة المدرسية تقليدية الطابع.



وفى الإطار ذاته تأتى مجموعة قصص «أنشودة الفرح» (الدار المصرية اللبنانية)، ١٠ قصص قصيرة تحمل أفكاراً وقيماً إيجابية وسرداً جيداً، لكنها تفتقد الجاذبية التى يحتاجها طفل يتطلع إلى عالم مبهر يدفعه للمطالعة.



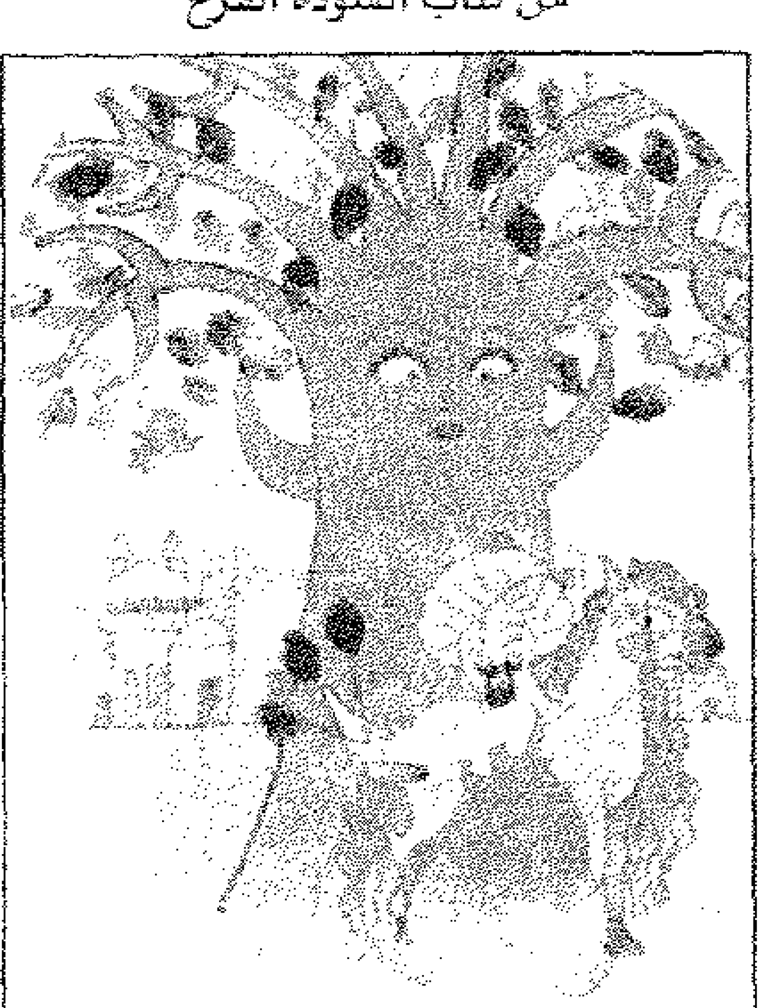
وبدرجة أقل - أعنى بجاذبية أكثر - صممت كتب «شكراً يا أدواتى» (الدار العربية للكتاب - القاهرة) و«من السارق» (نهضة مصر - القاهرة) و«حمارى بدون ذيل» (دار الياس - القاهرة).

فى الحكاية الأولى يتم استنطاق أدوات الاستخدام اليومية: فرشاة الأسنان والمشط والمرآة، والتى تبدو غاضبة من أن «ندى» تعاملها بقسوة ولا تشكرها على ما تسديه لها كل يوم، وحين تسأل ندى أمها: وهل تسمعنى الأدوات إن شكرتها، تجيبها الأم: شكرك لها هو تنظيفها وعنايتك بها.

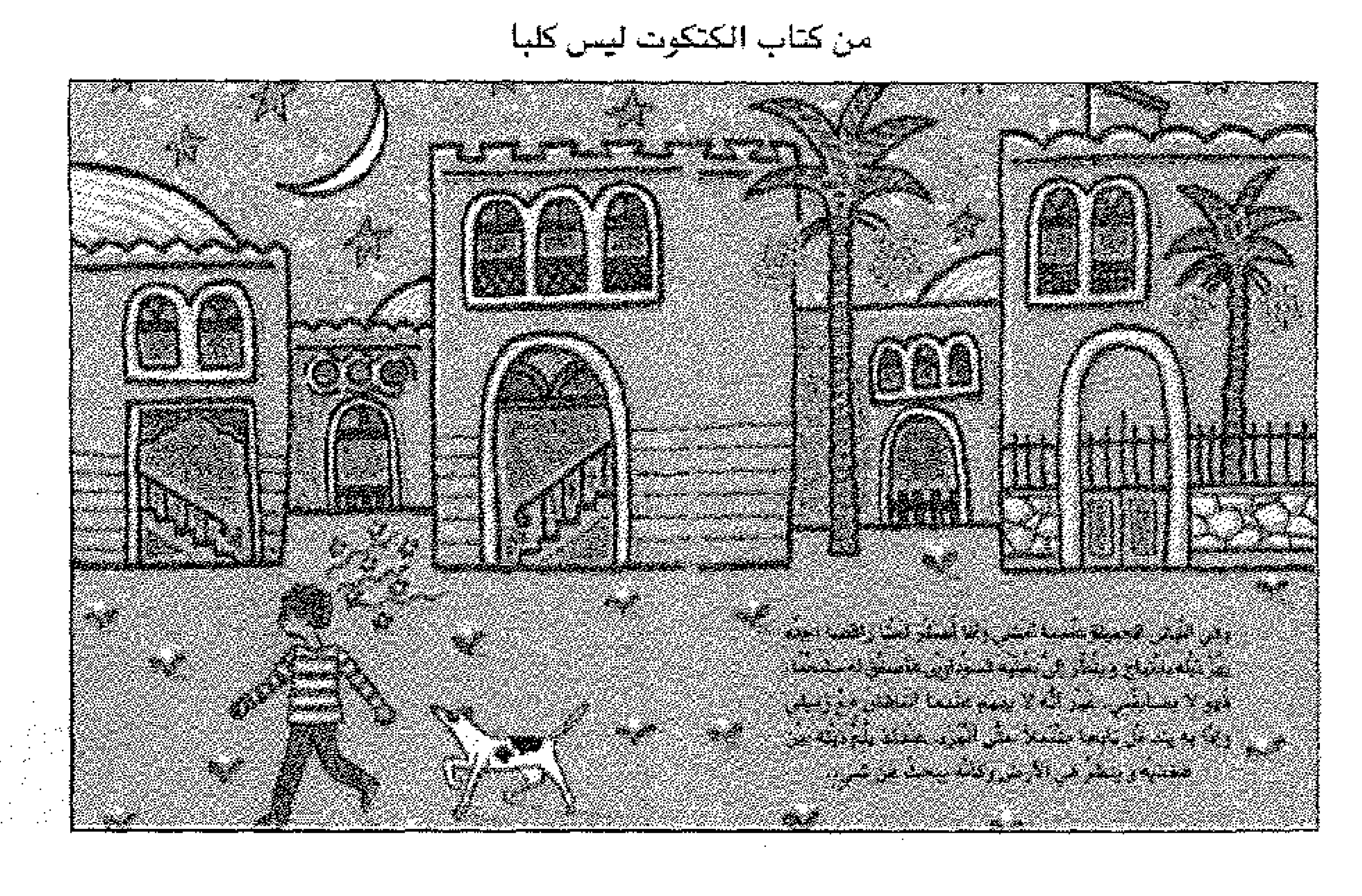


«من السارق» موعظة مباشرة عن تلميذ يسرق أفكار زميلته، لكن حيلته تم اكتشافها فى النهاية مما يشعره بالخجل، وتأتى القصة ضمن سلسلة تحمل عنوان «مفاهيم جديدة» يسعى القائمون عليها إلى تعريف الأطفال بمفاهيم مستحدثة تصادفهم فى الحياة، من نوع: الملكية الفكرية والإدمان وقبول الآخر والعولمة وغيرها.

من كتاب أنشودة الفرح

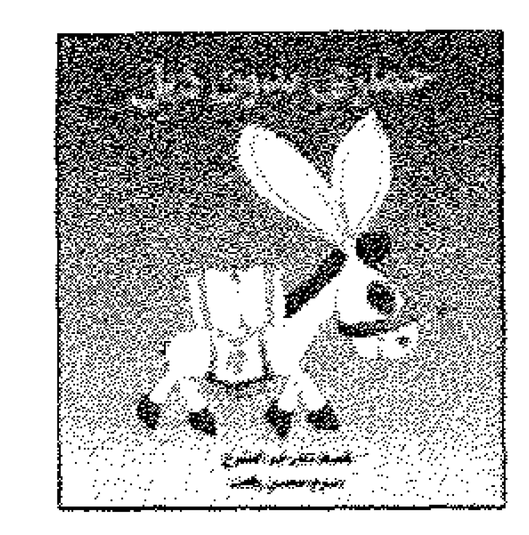


من كتاب الكتكوت ليس كلبا

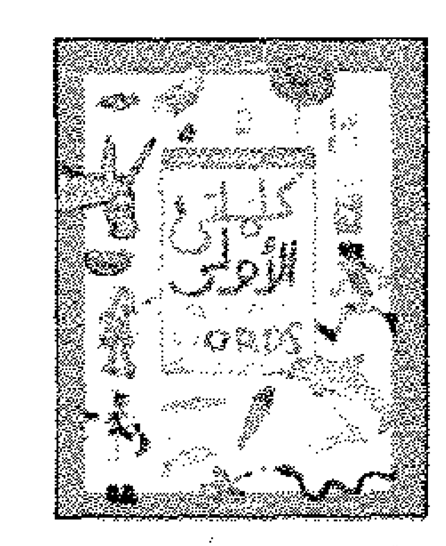


من كتاب شكرا يا أدواتى

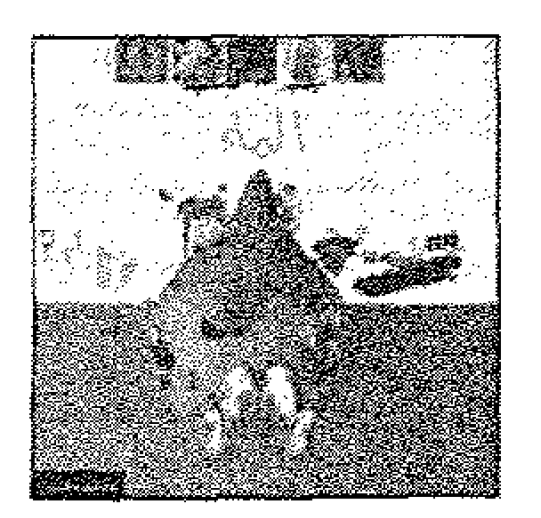
كـــتـــاب الـــطـــفـــل



أما «حمارى بدون ذيل» فهى حكايات ذات طبيعة سحرية، يظهر فيها ناس غرباء ويقومون بحيل أكثر غرابة، ولديهم قدرات فذة تقترب من صنع المعجزات، والى إخراجها المميز ورسومها ذات الطابع الغرائبى، فإن الحكايات مرفقة بأشرطة تسجيل تحكيها بصوت «أبلة فضيلة» وهى واحدة من الشهيرات فى دنيا الأطفال فى مصر، والتى قدمت لهم حكايات لعقود من السنين عبر أثير الإذاعة، لكن مصاحبة شريط التسجيل للحكاية يثير استفهاماً لا أظنه غاب عن الناشر: إذا كنا نريد أن نعوّد الطفل على القراءة فلماذا شريط الكاسيت وهو الذى يمكن أن يغنيه عن المطالعة؟ أم أن الشريط معه كى يستفيد من الحكاية أيضاً الأطفال دون سن القراءة؟



الكتاب العلمى والمعرفى هو أكثر النوعيات التى طالتها يد التحديث والتطوير خصوصاً الموسوعات والأطالس التى تشهد إقبالاً كبيراً خصوصاً فى السوق الغربى، وقد عنيت دور نشر عربية بترجمتها وتقديمها فى صورتها البراقة ذاتها، منها مثلاً سلسلة «موسوعتى الأولى» (دار الشروق - القاهرة) والتى قدمت معلومات موسوعية عن الأرض وعالم الحيوان والنبات وغيرها، وهى تتميز بطباعة فاخرة وألوان ورسوم شديدة الجاذبية.



وضمن سلسلة جد × لعب (دار الشروق - القاهرة) ها هو كتاب عن «الماء» مترجم عن الفرنسية، وهو كتاب شديد الإبهار، ليس فقط لاشتماله على كل شيء من الماء، واحتياجات الإنسان والنبات والحيوان منه. ولا للمعلومات السخية التى يقدمها فى الجغرافيا والفيزياء والأنثروبولوجيا والكيمياء والتاريخ والبيئة وغيرها، إنما فى الكيفية التى يتم بها تقديم المعلومة، فهذا كتاب تفاعلى بامتياز، فهو لكى يقدم الحالات المختلفة للماء يرسم نموذجاً مفرغاً لترمومتر يمكن سحبه من بين طيتين من الورق المقوى، وكلما سحبته لأعلى أعطى حالة من حالات الماء، فهو فى المرحلة الأولى مجمداً حين تنخفض الحرارة إلى ما تحت الصفر، ثم سائلاً فى المرحلة الوسطى، ثم بخار ماء عند درجة ١٠٠ مئوية، وسحب الورقة الوسطى بين الطيتين حين يعطى صورة للماء فى هذه الحالة، فإن المربعات الثلاثة المفرغة تجاورها المعلومات المطلوبة عن حالة الماء، والورقة التى يتم سحبها بين الطيتين تعطى معلومات إضافية فى حالة سحبها فى الصفحة التالية التى تتحدث عن دورة الماء، وحين يشرح الكتاب الماء فى جميع أشكاله فإنه لم ينس أن يضع داخل الكتاب مرآة صغيرة داخل مظروف، ويشير إلى الطفل بالزفير فيها كى يرى بنفسه تحول بخار الماء إلى سائل، أى يشرح له عملياً وتفاعلياً ظاهرة التكثف.

الكتاب ملىء بالحيل والألاعيب وحتى الأساطير عن الماء، وقد فعل ذلك بطريقة مبهرة وذكية، تدفع الطفل إلى استخدام كل حواسه، إلى اختبار كل قدراته لاكتشاف الطبيعة من حوله، كتاب لا يلقّن ولا يقدم مبادئ معرفة بطريقة مجانية، إنما يأخذه فى رحلة لاكتشاف العالم مستفيداً من قدراته كلها.



هذا التطور المتلاحق فى دنيا كتب الأطفال، ربما هو الذى أغرى كتاباً كبار أن يجربوا حظوظهم فى هذا المجال، فالدكتور عبد الوهاب المسيرى كتب حكايات للأطفال (دار الشروق)، وكتب الشاعر والكاتب التونسى المعروف منصف المرغنى مسرحية للأطفال حملت عنوان «الصرصور والنحلة والنملة»، وأخيراً كتب جار النبى الحلو وهو من أدباء جيل الستينيات المرموقين فى مصر «الكتكوت ليس كلباً» (دار الشروق)، وهى من رسوم الفنان الكبير «حلمى التونى» الذى أثرى كتب الأطفال برسومه ولوحاته البديعة، وعالمه الزاخر بالخيالات والرؤى.





وبيدو لى أن حكايات فيزو التى صدرت منها حتى الآن أربعة حكايات (دار الشروق - القاهرة) هى التى تحقق المعادلة الصعبة، التى افترضتها فى البداية، أى أن تقدم حدوتة يحبها الطفل ويحفظها ويحكيها لأصحابه، وأن تقدم فكرة وقيمة يتمثلها الطفل، وأن يغلف ذلك كله بإخراج بسيط وجميل وبرسوم مرحة مبهجة.

والأهم هو هذا الارتباط بين الطفل و«فيزو» الذى يمارس شقاوة الصغار ويعبث كما يعبثون.

فهو يختفى فى الدولاب فى حفلة عيد ميلاد صديقه «مازن» لأنه لا يعرف بقية الأصدقاء «فيزو فى الدولاب».

وهو يستغرب أن أمه وأباه وأخته سعداء باستقبال النهار الجديد فيما هو مهموم حزين «فيزو أصبح سعيد».

وهو لا يؤدى عملاً كما ينبغى فيبقى دائماً نصف فيزو «نصف فيزو».

أو هو يدعى أنه يعرف كل شىء، فيؤدى إلى إفساد كل شىء «فيزو يعرف يعرف».

كما نرى، كتاب الأطفال عالم زاخر، ملىء بالخيالات والرؤى والاستفسارات الصعبة.

وفى عالم تتسارع تطوراته بدرجة مذهلة، وتساهم فى تشكيل ذهنية الطفل عشرات الوسائل والمستحدثات، تصبح المسألة عسيرة، ويصبح إرضاء الطفل أكثر صعوبة.

لكن هذه المسألة على صعوبتها تبقى مسلية مشوقة وعميقة الأثر.

عماد الغزالى



من كتاب الغشاش والقرد

من كتاب فرحانة

من كتاب الماء

ترحب «وجهات نظر» بما يرد لها من رسائل تعليقاً على ما ينشر بها من موضوعات ومقالات. وتحرص على نشرها. مع التأكيد على أن ما تتضمنه من آراء. مثلها مثل المقالات ذاتها. لا تعبر بالضرورة عن رأى المجلة أو هيئة تحريرها

د. سلمان أبو ستة الكاتب والباحث الفلسطينى ومن أكثر المهتمين بتوثيق التاريخ الفلسطينى والدفاع عن حق العودة أرسل إلى «وجهات نظر» تلك الرسالة التى يوضح فيها جانباً غير معروف فى حياة المفكر الفلسطينى الراحل إدوارد سعيد، وكيف كانت بداية تحوله من البحث الأكاديمى إلى الاهتمام بقضايا شعبه.

المحرر



إدوارد سعيد
من الدراسة الأكاديمية إلى الفكر السياسى

استمتعت كثيراً بمقال الأستاذة الدكتورة رضوى عاشور («حكاية إدوارد»، وجهات نظر، نوفمبر ٢٠٠٣، العدد ٥٨، السنة الخامسة ص١٢). لقد وضعت ببراعة مؤثرات تشكيل شخصية إدوارد سعيد السياسية والأدبية والاجتماعية. وجاء فى النص أنه «بعد عام واحد من هزيمة ١٩٦٧ بدأ سعيد فى كتابة نصه الأول عن القضية الفلسطينية».

كيف انتقل إدوارد من كونه أستاذ الأدب المقارن الذى يعمل فى رحاب جامعة تعنى بالمطلق والمجرد والمقارن إلى أستاذ يعنى بالقضايا السياسية وأولها قضية فلسطين وخلفيتها، قضية العالم الثالث الذى خرج لتوه من ربقة الاستعمار؟

هذه ثغرة نوعية فى تاريخ إدوارد الأدبى، ولا أعتقد أنها قد درست بشكل كاف فيما كتب عنه، ولا بأس فالوقت لايزال مبكراً لذلك. ولعلنى أسلط الضوء على هذه المرحلة، إذا رويت لكم ما رواه لى صديقى وصديقه الراحل إبراهيم أبو لغد.

كنت فى زيارة للمرحوم إبراهيم فى رام الله فى سبتمبر ٢٠٠٠ قبيل الانتفاضة ونزلت عنده ضيفاً لثلاثة أيام، جلنا خلالها شمال فلسطين ووسطها. ذهبنا إلى يافة الناصرة حيث ألقى محاضرة، وأقمنا فى فندق فى الناصرة.

وانطلقنا نزور قرى الجليل وذهبنا إلى الحدود مع لبنان عند رأس الناقورة، ثم عدنا على الطريق الساحلى مروراً بعكا وحيفا ثم يافا التى قضينا فيها وقتاً طويلاً حيث مررنا على مدرسته (العامرية) وشارع فيصل، وشاهدنا مرابع طفولته وصباه، بل ووجدنا غطاء فولاذياً مكتوباً عليه «شركة السكب الفلسطينية ١٩٢٩»، وهى الشركة التى أسسها والده فى يافا مسقط رأسه فى تلك السنة وهى أيضاً عام مولده.

وخلال ساعات السفر الطويلة بالسيارة، حدثنى ابراهيم عن ذهابه من عمان إلى أمريكا عام ١٩٤٩ لطلب العلم، وكيف عانى الأمرين لضيق الحال، فقد أصبح لاجئاً ولم تعد له موارد.

وقال إن عربياً آخر هناك كان يدعوه لمناقشة أحوال العرب البائسة فى قهوة، فكان يستزيد من وقت المناقشة لكى يطلب الداعى مزيداً من القهوة والكيك، لأن ابراهيم لم يأكل منذ مدة. وكيف أنه كاد أن يفصل من الجامعة لأن الفحص الطبى أفاد بأنه مصاب بالسل، واتضح بعد جهاد أنه ليس سلاً، ولكنه عيب فى الرئة، ما لبث أن لحق به حتى توفى عام ٢٠٠١.

لقد كان إبراهيم لاجئاً فلسطينياً بحق، خبر النكبة كشاهد عيان وعانى منها مادة وروحاً وهوية، وهذا الذى أعطاه وقوداً للعمل والمثابرة والإصرار، فتخرج من الجامعة وحصل على الدكتوراة فى العلوم السياسية.

وفى منتصف الخمسينيات كان ابراهيم فى جامعة برنستون الشهيرة عندما قابل إدوارد لأول مرة.

قال: ذهبت لمشاهدة مسرحية وقيل فى الإعلان: شراء التذاكر فى غرفة كذا. ذهبت لتلك الغرفة فوجدت شاباً أمريكياً جالساً وقدماه على المكتب. فطلبت تذكرة، وسألنى عن اسمى، فلما سمعه، قال من أى بلد؟ قلت فلسطين. فقفز من كرسيه قائلاً: «وأنا أيضاً». كان هذا الطالب «الأمريكى» هو إدوارد سعيد.

توطدت الصداقة بين إبراهيم وإدوارد، وعرفه إبراهيم بالطلاب العرب فى الجامعة، وهم قليلون. وحصل إبراهيم على وظيفة فى اليونسكو) مركز سرس الليان فى مصر).

فأقام فيها بضع سنوات مع زوجته الأمريكية، جانيت، الباحثة المعروفة. وفى هذه الفترة.. أواخر الخمسينيات كان إبراهيم وزوجته يزوران عائلة إدوارد فى القاهرة، خصوصاً عندما يأتى إدوارد لزيارتهم فى إجازاته.

وعندما عاد إبراهيم إلى أمريكا، انقطع الاتصال مع إدوارد فى أوائل الستينيات، إلى أن حدثت هزيمة ١٩٦٧.

لقد كانت هزيمة بشعة، امتدت فيها نكبة ١٩٤٨ إلى كل فلسطين وبلاد عربية مجاورة. وكانت الأقسى على العرب المقيمين فى أمريكا.

فقد طفحت صفحات الجرائد بالتشفى والحقد على العرب ووصفتهم بأقذع الألفاظ، باعتبار أنهم همج متخلفون، يريدون القضاء على منبر الحضارة فى الشرق، لكنهم فشلوا بفضل الشجاعة الخارقة للإسرائيليين وهم قليلو العدد، أمام الجيوش العربية الفاشلة، كثيرة العدد، قليلة الفاعلية.



اجتمع عدد من خريجى الجامعات العرب واتفقوا على إنشاء جمعية العرب الخريجين الأمريكية (AAUG) عام ١٩٦٨.

وهذه أول مرة أتعرف فيها على إبراهيم، (تعرفت على إدوارد بعد ذلك بسبع سنوات فى المجلس الوطنى الفلسطينى).

وكان أول مشروعاتهم إصدار كتب توضح وجهة النظر العربية وحقائق الموقف فى الشرق الأوسط. وأوكل إلى كل أستاذ جامعى عربى الكتابة عن موضوع معين.

قال إبراهيم: تذكرت أن إدوارد متخصص فى الأدب الإنجليزى، فكتبت له على عنوانه القديم، أطلب منه أن يكتب عن الشخصية العربية فى الأدب الإنجليزى، وكيف أنها تشوهت. فلم يرد على لبضعة شهور.

وفجأة جاءنى منه اتصال تليفونى، قال لقد وصلتنى رسالتك على عنوانى الجديد، وسأكتب لك عن الموضوع.

ولما جاء بحث إدوارد قال ابراهيم إنه أروع بحث قرأه، ولم يكن فى مقدور أحد غير إدوارد أن يكتب مثله، وذلك لأصالة معرفته بالأدب الإنجليزى وخلفيته العربية.

شارك إدوارد فى نشاطات (AAUG)، وفتحت أمامه مجالات العمل الفلسطينى السياسى، وزار بيروت السياسية فى السبعينيات وأصبح عضواً فى المجلس الوطنى الفلسطينى إلى أن استقال عام ١٩٩١.

وبعد عشر سنوات من مقاله عن الشخصية العربية فى الأدب الإنجليزى، صدر كتاب «الاستشراق» الشهير. وباقى القصة أصبح تاريخاً.

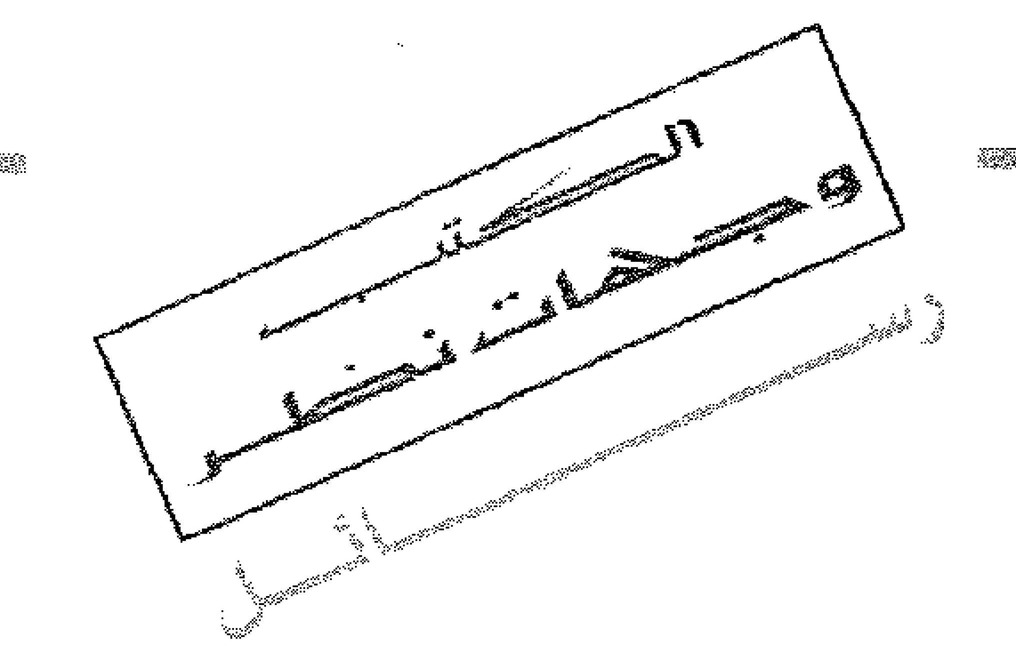
من الصعب جداً تحديد المحاور المفصلية فى حياة كل إنسان. كيف ولماذا عرف نيوتن قوانين الجاذبية، هل بسبب التفاحة التى سقطت من الشجرة؟ كيف توصل داروين إلى نظرية النشوء والتطور؟ وفى أى وقت من رحلته على ظهر السفينة Beagle؟

وهل هزيمة ١٩٦٧ وإعادة اتصال إدوارد بإبراهيم هو السبب والحافز فى كتابه «الاستشراق»؟ ولو لم يحدث هذا الاتصال بعد الهزيمة، هل كان من الممكن أن يبقى إدوارد الشاب الفلسطينى البروتستانتى الذى لم يعان آلام اللجوء من ناحية مادية، مستغرقاً فى كتاباته عن كونراد فى أروقة جامعة كولومبيا؟

لا ندرى بالضبط الجواب عن هذا السؤال. ولكننا نعلم جيداً أنه بعد هذه «الصحوة»، تدفقت روائع إدوارد عن الاستشراق وعن الإمبريالية، ولم يكتب أى شخص. عربى أو غير عربى. أكثر غزارة وأكثر تأثيراً وأكثر إحساساً بالظلم، بالإنجليزية من إدوارد عن قضية فلسطين.

رحم الله إبراهيم وإدوارد رحمة واسعة.

سلمان أبو سته



تاريخ مصر الحديث

نتابع بشغف واهتمام محتويات مجلتكم القيمة «وجهات نظر» ونعتبرها مصدراً للمعلومات الأساسية فى قطاعات معينة. فى «بيروت» تنقصنا مصادر المعلومات تلك ونأمل أن تساعدونا فى توفير بعضها.

فى كتابه الأخير «سقوط نظام» تطرق الأستاذ الكبير محمد حسنين هيكل لمواضيع تتعلق بشخصيات لعبت دوراً مهماً، سلبياً كان أم إيجابياً، فى حياة مصر، كالسيدة ناهد رشاد وكريم ثابت..

هل كتب الأستاذ «هيكل» عن هذه الشخصيات أو هذه الحقبة الخطيرة فى تاريخ مصر، غير هذا الكتاب؟ وهل ينوى أن يسد ولو بعد أن أعلن اعتزاله الكتابة، ثغرة هامة فى تاريخ الحياة السياسية فى مصر؟

هل هناك كتب تتعلق بهذه الشخصيات ومن أين يمكن الحصول بها.

هل من كتب تتعلق بأفراد العائلة المالكة فى مصر وخاصة شقيقات الملك؟

هل من منشورات وكتب تتناول حياة «الضباط الأحرار» بعد اعتزالهم الحياة العامة؟ والعلاقات الخاصة فيما بينهم وبين الرئيس عبدالناصر!

كيف يمكننا الحصول على كتاب «ملفات ثورة ٢٣ يوليو» للأستاذ طارق حبيب (مركز الأهرام للنشر)

وعلى كتاب شبه مجهول قرأنا عنه فى جريدة الحياة وهو «فى بيت محمد على». للأمير حسن»؟

وكيف يمكننا الحصول على لائحة بكتب الأستاذ محمد التابعى ومن أين يمكن الحصول على هذه الكتب؟

ومن أين يمكننا أن نحصل على كتب الأستاذ مصطفى أمين؟

نأسف للازعاج الذى يمكن أن نسببه لكم.

ونأمل أن نقرأ الجواب فى أول عدد يصدر عن «وجهات نظر» العزيزة.

حامد سالم

بيروت

هناك الكثير من الكتب التى صدرت حول هذه الموضوعات نذكر منها على سبيل المثال

● مذكرات كريم ثابت

١. فاروق كما عرفته ٢. عشر سنوات مع الملك فاروق ● طلاق امبراطورة. طلاق شاه إيران والامبراطورة فوزية. وقد صدرت جميعها عن دار الشروق.

● مذكرات محمد نجيب «كنت رئيساً لمصر» المكتب المصرى الحديث.

● أنور السادات البحث عن الذات (قصة حياتى).

● مع عبدالناصر والسادات.. سنوات الانتصار وأيام المحن. مذكرات مراد غالب. مركز الأهرام للترجمة والنشر.

● ٥٠ عاماً من العواصف.. ما رأيته قلته، أمين هويدى. مركز الأهرام للترجمة والنشر.

● الآن أتكلم. خالد محيى الدين مركز الأهرام للترجمة والنشر

● فاروق الذى غدر به الجميع عادل ثابت. كتاب اليوم (الأخبار)

● عبد الناصر الذى غدروا به عادل ثابت. كتاب اليوم (الأخبار)

المحــرر



كنز هيكل الثقافى

لقد كان وقع قرار الأستاذ الكبير محمد حسنين هيكل باعتزال الكتابة كبيراً وقاسياً إلى درجة شعرنا بالخوف من فقدان البوصلة فى التحليل والرؤية السياسية الصحيحة للمستقبل.

لقد تابعت وبتقدير كبير كتابات ومقالات أستاذنا العظيم عبر سنوات طويلة وخاصة بالفترة الأخيرة عبر مجلتكم الرائعة.

إن القدرة التى ميزت وتميز أستاذنا الكبير هيكل هو جمعه بفن وأصول العمل الصحفى النزيه، والمعرفة الثاقبة والتفتيش والبحث المتواصل فى الأرشيفات والمكتبات إلى جانب وعيه السياسى وقدرته على قراءة الماضى لتحليل الحاضر وقراءة المستقبل من خلال رؤية وطنية قومية صادقة لم تغيره طيلة سنوات عمله الصحفى والفكرى برغم ما تعرض له من ضغوط، ورغم تبدل الظروف المحيطة عربياً وإقليمياً ودولياً.

قبل فترة قصيرة كنت فى لقاء مع أحد أهم أقطاب السلطة الوطنية الفلسطينية، والذى كان منذ سنوات طويلة فى قمة هرم القيادة الفلسطينية.

وكان لقاء جمع مجموعة من الأصدقاء دعاهم هو لتبادل وجهات النظر فى الأزمة الفلسطينية الداخلية والخارجية، وكم كانت صدمتى كبيرة بأن اكتشف بأن هذا القيادى الكبير لا يعرف أموراً سياسية عامة مثل كيفية صنع القرار بالولايات المتحدة، تأثير الفكر الصهيونى أو المسيحى المتصهين على صناع القرار بالإدارة الأمريكية، أزمة العروش والأنظمة العربية، والعديد والعديد من الأمور التى بدون أن يكون هذا القائد أو ذاك مطلعاً عليها يصعب عليه التعامل مع السياسة الخارجية للإمبراطورية الأمريكية الحديثة وما يتبعه ذلك من انعكاسات خطرة.

المهم بالموضوع أننى وبعد أن صدمت من هذا الجهل المسىء لنا كأمة عربية اقترحت على هذا المسئول وغيره من صناع القرار فى أوطاننا العربية قراءة ما كتبه أستاذنا الكبير محمد حسنين هيكل ومتابعة مجلة وجهات نظر ليتعرفوا على تاريخ وواقع الأمة العربية والتداخلات النظرية والسياسية فى الصراع العربى الإسرائيلى وغيره من الأمور والهموم المشتركة للأمة العربية.

وأنا واثق تماماً بأن الكنز الثقافى والسياسى والصحفى الذى قدمه لنا الأستاذ الكبير على مدى نصف قرن تقريباً لا يوجد مثله كنز، وكم أتمنى من مجلتكم أن تواصل المشوار كونها بحق المجلة الأولى بالوطن العربى والتى تستحق القراءة والاحتفاظ بها كمرجع للمستقبل وأقترح على حضراتكم نشر أجزاء مهمة وفصول حساسة من كتابات أستاذنا هيكل عبر أعداد مجلتكم بالمستقبل. فما كُتب وخاصة بالسنوات الخمس الأخيرة حول أمريكا وأفغانستان والعراق وسقوط المنظومة الاشتراكية ومقدمات التفرد الأمريكى بالعالم وغيرها من الدراسات والأبحاث والتحقيقات تشكل مرتكزاً فكرياً وخاصة للأجيال الشابة فى أمتنا العربية لتتعرف حقيقتها وواقعها وماضيها ومستقبلها.

لتتعرف بحق على إنجازات واخفاقات ثورة الضباط الأحرار بمصر والحقبة الناصرية والتى استطاعت إعادة تجمع الشعوب العربية من جديد. لتتعرف أجيالنا على تاريخ هزيمة عام ١٩٦٧ وبعدها نشوة النصر فى ١٩٧٣.

والكثير والكثير فى الأبحاث والكتابات والتى بحق يجب أن تحفظ بالمكتبات وتدرّس بالمدارس والجامعات لتشكل وبحق مرجعاً تاريخياً فى وجهة نظر علمية وموضوعية وصادقة.

كل المحبة والاحترام لكم من فلسطين، نتمنى لأستاذنا الكبير دوام الصحة والتوفيق ولمجلتكم دوام الاستمرار والعطاء.

غسان طوباس

رام الله. الضفة الغربية

صيدلية طوباس

الشارع الرئيسى. فلسطين



مؤنس.. ونبيل

أرجو أن تسمحوا لى بإبداء إعجابى بموضوع «أبى طه حسين».. مؤنس طه حسين» فى عدد يناير الماضى، وذلك لندرة المادة المتوافرة بالنسبة لمؤنس طه حسين.

وبعد الإعجاب أستأذنكم بصفتى متابعاً لما يُنشر عن طه حسين فى إبداء هذا التوضيح..

فلعل من المناسب تذكير قارئ مجلتكم بالجهد الكبير الذى بذله الناقد نبيل فرج فى إقناع الدكتور الراحل مؤنس طه حسين بكتابة شهادته التى تضمنها كتاب «نهر العميد الفياض» الذى يحتوى على الشهادة الوحيدة التى كتبها مؤنس بخط يده وهى الشهادة التى اعتمد عليها المقال، لذلك لزم إسناد الفضل لأهله.

قــارئ

قـــــــراءة ..

إســـــــــرائـيــــل.. إلـــى أيــــن؟!

أن تكون «دبلوماسياً»، فهذا يعنى - بحكم المهنة - أن تتعلم ضبط مشاعرك، والكياسة فى التعبير عنها. أما أن تكون «فناناً»، فالأمر يقتضى أن تطلق العنان لمشاعرك، وإن انفلت التعبير عنها؛ صادقاً وصادماً.. وحقيقياً، وإن جلب المتاعب.. والمشاكل.

قبل أسبوعين، وفى عاصمة اسكندنافية باردة، كان الشرق الأوسط، وأزمته الساخنة المزمنة حاضراً. ليس فى مشاجرة تقليدية - ألفتها لنصف قرن زوايا المقاهى الأوروبية - بين عربى وإسرائيلى حول الحقوق التاريخية أو الوضع الراهن. بل هذه المرة، بين يهوديين «إسرائيليين» وفى مناسبة فكرية وفنية اكتظت بحضور وجهاء القوم، وانتهت بإخراج أو (بطرد) - كما حلا للصحف العربية أن تصف الموقف - السفير الإسرائيلى من القاعة على يد البوليس السويدى.

القصة كما روتها الصحف أن متحف التاريخ فى العاصمة استوكهولم افتتح قبل أيام معرضاً فنياً يحمل عنوان «بياض الثلج وجنون الحقيقة». وأن فناناً «إسرائيلياً» معروفاً شارك فى المعرض بعمل فنى عبارة عن بحيرة من لون أحمر يسبح فيها قارب أبيض يحمل شراعه صورة الاستشهادية الفلسطينية المحامية «هنادى جرادات». ويبدو أن السفير الإسرائيلى فى العاصمة السويدية، والذى كان ضمن حضور حفل الافتتاح، فَقَدَ صوابه عندما شاهد الصورة الصامتة «المبتسمة» فراح ينزع أسلاك الكهرباء، ويقذف بأحد المصابيح إلى الماء متسبباً فى ماس كهربائى أثار ذُعر الحاضرين. وإثر مشادة بين الدبلوماسى والفنان «الإسرائيليين»، خرج - أو أُخرِجَ - السفير، وقال الفنان للحضور: «إنما أردت أن أجعل الناس يفكرون ويتساءلون كيف يتصرف الإنسان الضعيف عندما يُسلب منه كل شيء».

لماذا يخرج الدبلوماسى عن مقتضيات الدبلوماسية فيتشاجر فى محفل عام، ويصل به الأمر إلى أن ينزع مقابس الكهرباء، ويحطم عملاً فنياً بقضيب حديدى؟! هل هى علامة على انفلات أعصاب بدت دلالاته واضحة فيما يراه البعض هيستيريا فى أقوال وأفعال ساسة إسرائيليين؟ هل هى هيستيريا «لحظة الخطر» التى كشفت عن مثيلتها وثائق كيسنجر فى كتابه الأخير عن أيام أكتوبر ١٩٧٣؟

رغم التردى البادى فى الموقف العربى، هل تواجه إسرائيل حقيقةً الآن السؤال الأهم: حول الوجود والمصير؟ وهل تعكس تلك المشاجرة (بين الفنان والدبلوماسى) أزمة حقيقية داخل المجتمع الإسرائيلى: بين ساسته ومثقفيه؟



صارت أصوات ترتفع بين اليهود أنفسهم تقارن ما بين «الآن»، وبين «ما كان». مؤكدة على أن ما كان ممكناً خلال العقد الأول من وجود إسرائيل، وهو الوقت الذى كان فيه مئات الآلاف من اليهود قابعين فى معسكرات النازحين الأوروبية. وكان بالإمكان وقتها الإقناع بتدعيم دولة المهاجرين الجديدة، لم يعد ممكناً الآن. فحتى لو ذهبت «تهديدات قريع» بدولة واحدة ثنائية القومية أدراج الريح، وحتى لو اعتُمدت سياسة الفصل العنصرى «الشارونية»، ومهما زاد ارتفاع «الجدار»، فستظل هناك أسباب ملحة لتحول إسرائيل فى نهاية الأمر إلى «دولة لكل مواطنيها» تتسم بالعلمانية وليس «دولة كل يهود» العالم: كما تعرفها قرارات الكنيست التى نفذتها سلسلة من القوانين القائمة على التفرقة.. فى حين أن ربع سكان إسرائيل فى الوقت الراهن من العرب.

ومشيراً إلى كتابى دافيد جروسمان: «الريح الصفراء»، و«الجلوس على السلك»، يندد آموس آلون فى «نيويورك ريفيو أوف بوكس» بازدياد الصياح الأصولى المنادى بدولة «يهودية» يهيمن عليها اليهود «مثلما كانت بولندا أو رومانيا ما قبل الحرب بولندية أو رومانية بطريقة لا تعرف الرحمة» ويرى أن «العمل فى سبيل رد الظلم عن الأقلية المضطهدة تدنى إلى مجرد تفرقة فجة ضد العرب الإسرائيليين بواسطة الإجراءات العقابية التشريعية والقضائية والإدارية والمتعلقة بالميزانية».

يتوازى مع تلك الكتابات التى بدأت تظهر بوضوح فى الصحف الإسرائيلية، بيان قياديى «الشين بيت». والذين نددوا فيه بسياسات إسرائيل العسكرية نحو الفلسطينيين معتبرين «اننا على عتبة كارثة» إذ أن قمع شعب بأكمله من شأنه أن يولد مزيداً من الروح النضالية. يتصل بهذا ازدياد حالات رفض الخدمة العسكرية فى المناطق المحتلة.

ورغم أنه لا يمكن المبالغة بالقول إننا بصدد مقدمات لحالة من العصيان. إلا أن حالة التخبط تبدو واضحة بعد أن بدا لكثيرين هناك أن الحلمين اللذين وجها الماضى. والتعبير لمئير شتيجلتس فى يديعوت أحرونوت: «أرض السلام الكاملة» و«سلام الشجعان»، قد تحطما. ففى الاستطلاعات نجد دائماً أن أكثر من ٥٠٪ يريدون السلام وعلى استعداد لتقبل المبادرة السعودية مثلاً. ولكن فى الوقت ذاته، نجد أن ٧٠٪ منهم سينتخبون شارون لأنهم متأكدون أن انتخابه سيضمن للمقترح السعودى مصيراً لا يختلف عن مصير وثائق ميتشيل وتينيت وأخيراً خريطة الطريق «التائهة».

هل نحن أمام «ظاهرة» تحول حقيقى فى الفكر اليهودى. أم ان الأمر لا يتعدى أن الخارج من الصف يبدو - بالضرورة - واضحاً ولافتاً. (ومن الحكمة ألا يصبح - أيضاً - مضللا؟).

يصبح للسؤال مكانه المهم إذا لاحظنا الهجمة الشرسة على اقتراح أحمد قريع «دولة واحدة» وإذا طالعنا ردود الفعـــل على مقالة لأكاديمى يهودى «تونى يوت» نشرتها Newyork Review of Books قبل أسابيع يطرح فيها الفكرة ذاتها معتبراً أنها «ربما كانت الحل الوحيد».

معظم الإسرائيليين ارتعبوا من بديل «الدولة العلمانية» والذى يعتبر بالنسبة لهم هزيمة حاسمة لفكرة الصهيونية ذاتها. معتبرين أن «من يمكنهم الرحيل وقتها سيرحلون.. ويجد الباقون أنفسهم أقلية مستضعفة فى دولة فلسطينية..».

اليهود الأمريكيون - أو على الأقل من يتحدث باسمهم - اتهموا يوت «اليهودى» بأنه ينتمى إلى «اليسار النازى»، وبكراهية اليهود، وبإنكار حق إسرائيل فى الوجود. واتهمه ديفيد فرام الكاتب السابق لخطب الرئيس بوش وصاحب مصطلح «محور الشر» بالدعوة إلى «ليبرالية الإبادة الجماعية».

ليست ردود الفعل على قريع ويوت فقط هى التى يمكن ملاحظتها، إذ أن الحقائق على الأرض تبقى أكثر دلالة. وربما تأثيراً. فالسلطة السياسية فى إسرائيل انتقلت فعلياً - وبغض النظر عن التهليل لمشاكل شارون القضائية - إلى المتعصبين الدينيين والأصوليين الإقليميين. ومخاطر «الترانسفير» بدت حقيقية بعدما انتقلت من الدراسات الأكاديمية إلى تصريحات علنية. ولا يستطيع مراقب منصف أن يتجاهل أن ثلث من استطلعت آراؤهم قبل حوالى العام أيدوا «ترحيل» المواطنين الإسرائيليين ذوى الأصول العربية من إسرائيل نفسها. وقبل الانتفاضة بوقت طويل كما لفت إلى ذلك يوت، كان أكثر من نصف السكان اليهود يرغبون فى منع «المواطنين» العرب فى إسرائيل من المشاركة السياسية فى الانتخابات العامة. بل إنه فى نوفمبر ٢٠٠١ سمعنا الجنرال شلومو جازيت يدافع علناً - فى مجتمع يتباهى بديمقراطيته - عن فكرة أنه «لابد من إخضاع الديمقراطية للديموجرافيا» تعليقاً على اقتراح عضو بالكنيست من حزب حيروت تقديم حوافز مالية «رشاوى» لعرب إسرائيل كى يغادروا البلاد.

رغم كل شيء. ورغم التناقض - الحقيقى أو ذلك البادى على السطح - تبقى حقيقة أن بعضنا لا يعرف كثيراً عما يموج لدى الجاليات اليهودية من تساؤلات عديدة عن الهوية والدولة، عن مكانة الدين فى المجتمع ومكانة الغير أو الآخر. فاليمين اليهودى يؤرقه أن تصبح إسرائيل - بحكم الزمن الذى هو يدور شئنا أم أبينا - دولة غير يهودية بأعداد «مواطنيها» العرب المتزايدة. وبعمالها المهاجرين من آسيا وأوروبا الشرقية. بل وبأولئك المهاجرين الروس الذين ادعوا يهوديتهم.

والتساؤل حول يهودية الدولة العبرية الذى بات ملحاً ومؤرقاً. يجر إلى تمزق آخر بين عنصرية العلمانيين، وأصولية المتدينين. فالأوائل يعلنون تفضيلهم للأوروبيين الذين يعتنقون اليهودية على اليهود الفارين من أفريقيا (راجع أدبيات حزب «شينوى») أما الأصوليون فلا يعترفون بيهودية من يعتنق اليهودية!! والذى يريد أن يعرف أكثر من التناقضات المتنامية فى المجتمع اليهودى أن يتصفح على الإنترنت مواقع مثل www.tikkum.com أو www. Forward.com أو يزور منتديات النقاش المفتوحة للإسرائيليين.



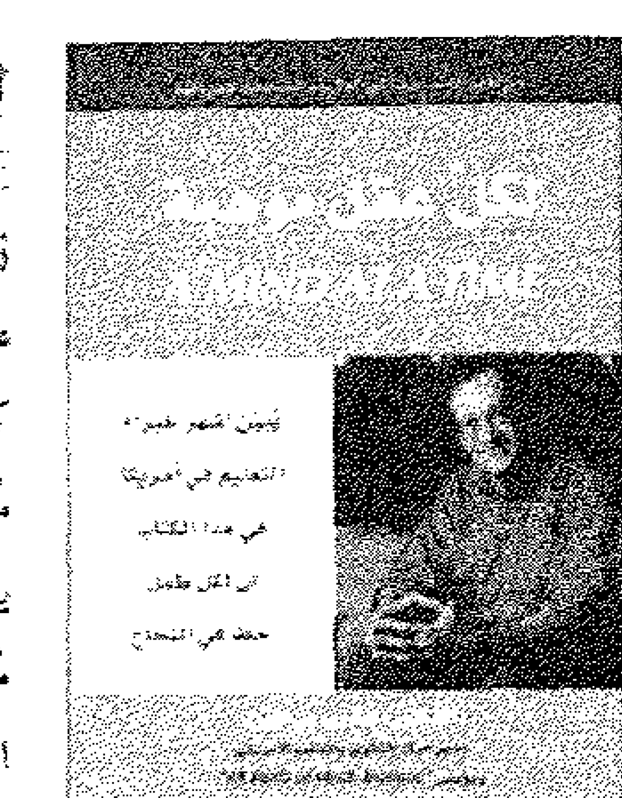
وبعـــد..

يصم البعض بيننا عاماً انقضى بأنه «عام النكبة العربية الثانية». واستحضاراً - ربما - لذكرى النكبة الأولى قبل نصف قرن؛ يقف الكثيرون - بين عامين - بعضهم يائس؛ أرهقته الخيبة بعد الخيبة. وبعضهم يتأهب لإقامة سرادق العزاء. وبعضهم - متواطئا ربما - يتفرغ لترويج مفاهيم «اللافائدة».

ربما كان كل هذا أو بعضه صحيحا.. لا ننكر. فـ «من لا يرى من الغربال..... » كما يقول المثل المصرى. ولكن، صحيح أيضاً أنه رغم الجدار.. والأباتشى.. والاغتيالات.. والتهديد بقصف إيران والسد العالى.. والمعلومات الغامضة حول الترسانة النووية، فالبادى أن الرياح العاتية التى هبت على منطقتنا، لن تُبقى ثابتاً. وإن استند على «الأساطير المؤسسة».. هل تذكرون جارودى؟!

والثابت، رغم هيستريا السفير الإسرائيلى فى السويد، أن شراع «هنادى جرادات» الأبيض السابح فى بحر من الدم سيصل حتماً - ومهما كان اتجاه الريح - إلى الشاطئ.

أيمـــن الصيـــاد



لكُل عقل موهبة

A MIND AT A TIME

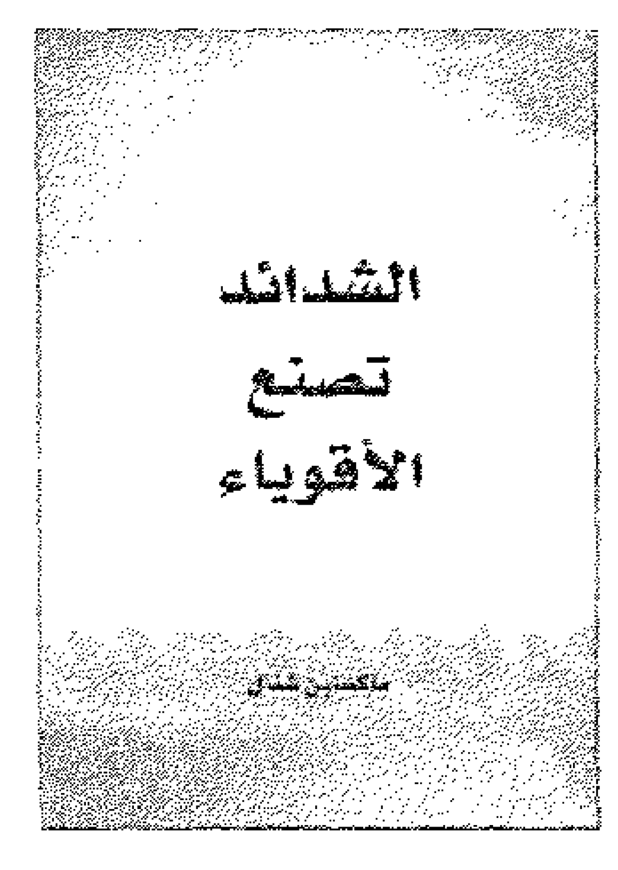
تأليف : ملِ لڤين

من أكثر الكتب مبيعاً في الولايات المتحدة.

كتاب تربوي للآباء والأمهات والمدرسين ولكل مُهتم بالتربية والتعليم.

يقول المؤلف إن «العقول في اختلافها تتعلّم بطرائق مُختلِفة». إنها مشكلة تواجه أطفالاً كثيرين، فمعظم المدارس ومناهج التعليم ما زالت تتشبّث بقالب واحد تَفترض فيه ملاءمة جميع إمكانات التعليم. وتأتي معاناة الأطفال من ذلك القالب الوحيد الذي لا تطابق أنماط تَعَلُّمهم معه. يُبيّن المؤلف لكل المهتمين في هذا الشأن كيف يَتعرّفون على نمط التعَلُّم الخاص بكل طفل، فيوضح لهم كيف يدعمون مكامن قوة كل طفل وكيف يتجنّبون مواقع ضعفهم. إن طرائق التعليم التي يقدمها تُفضي إلى إشباع حاجات الأطفال وتقودهم إلى الإبداع عِوضاً عن التثبيط والإحباط والفشل.

* ثمن النسخة (مجلد) $16.50 * ثمن النسخة (غلاف) $13.50



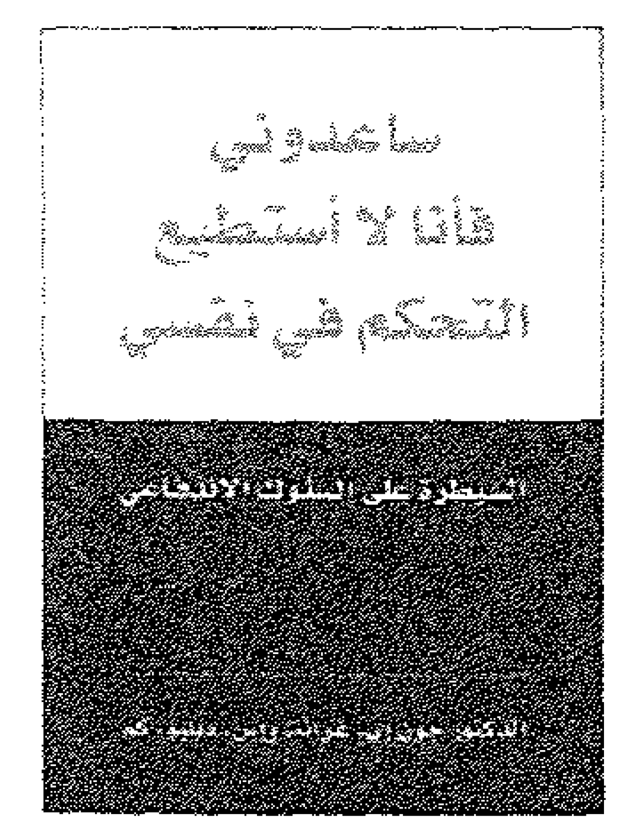
الشدائد تصنع الأقوياء

What Dosen't Kill You Makes You Stronger

تأليف : ماكساين شنال

كل الناس مُعرّضون للمِحَن والشدائد، وتختلف أنواع هذه المحن ودرجات شدتها وتتباين بين الناس. وتقدم المؤلفة في كتابها من خلال تجربة مضنية خاضتها أسرتها مجموعة قواعد ومبادئ وتمارين عملية تساعد الناس لدى عبورهم ممر المحن على اختلاف درجاتها، أو في تجنيبهم قسوة التجربة، حتى يخرجوا منها بقوة وبتجدد كامل. يقدم الكتاب مَعيناً غنياً بطرق التحرر من القلق واليأس، لا تقتصر على طرق الصمود في المحن فحسب، بل تتجاوزها إلى سبل اكتساب نوع جديد من القوة الوافية.

* ثمن النسخة بالغلاف $9



ساعدوني فأنا لا أستطيع التحكُّم في نَفْسي

السيطرة على السلوك الاندفاعي

Stop Me Because I Can't Stop Myself

تأليف: الدكتور جون إي. غرانت وإس. دبليو. كِمْ

تعريب الدكتور ياسر العيتي.

يعاني ملايين الناس من مشكلات لا يبوحون بها، كالرجال التواقين إلى القمار الذين يمضون الليالي في مرابع القمار ويغرقون في نكبات الديون.. والنساء اللواتي لا يستطعن كبح جماح رغباتهن في الشراء والتسوّق ويخفين الفواتير عن أزواجهن.. والمراهقات والمراهقين الذين يندفعون إلى السرقة حتى يُقبض عليهم في جرمهم بعد زمن، طال أم قصُر. ففي كل يوم يصارع ناسٌ رغبات جامحة لا يستطيعون مقاومتها فتودي بهم إلى الهلاك وتُدمّر حياتهم وأُسرَهُم ومِهَنهم. كلُّ أولئك يعانون بصمت ويخجلون من طلب المساعدة على محنتهم. إن أمراض السيطرة على الدوافع يصعبُ أن يميزها المصابون بها غالباً، وهي أمراض شائعة. إن 15٪ من سكان الولايات المتحدة (أي أكثر من 35 مليون إنسان تقريباً) يعانون من هذا الداء. يقدّم المؤلفان سبلاً رائدة وقوية للذين يعانون من هذه الأمراض تُمكّنُهم من الخلاص مما هم فيه.

المؤلفان: طبيبان يديران عيادة السيطرة على الدوافع في قسم الأمراض النفسية في جامعة منيسوتا الأمريكية University of Minnesota حيث يقومان بعمل رائد في مجالهما هذا.

* ثمن النسخة بالغلاف $9

سلسلة هارڤارد لأساسيات الأعمال

المصدر الذي يمكن أن يعتمد عليه المديرون المشغولون

إن هذه السلسلة مصممة لكي تزوّد بنصائح شاملة، وإرشاد شخصي، وخلفية من المعلومات، ودليل لمعظم المواضيع المتعلقة بممارسة العمل. هذه الإرشادات الدقيقة المأخوذة من المحتوى الغني لمنشورات كلية الأعمال في جامعة هارڤارد ومصادر أخرى، معمولةٌ بعناية لكي توفر مصدراً عملياً للقراء من جميع مستويات الخبرة. ولضمان النوعية والدقة، يخضع كل مجلد للمراجعة الفاحصة من قبل مشرف منهٍ يعمل في كلية للأعمال ذات مستوى عالمي. وسواء أكنت مديراً جديداً لك اهتمام في توسعة مهاراتك أو مديراً تنفيذياً صاحب تجربة، فإن هذه الكتب التي تعتمد على الحلول تُلبّي رغبتك بكل سهولة للحصول على أجوبة شافية في متناول يدك. صدر منها:



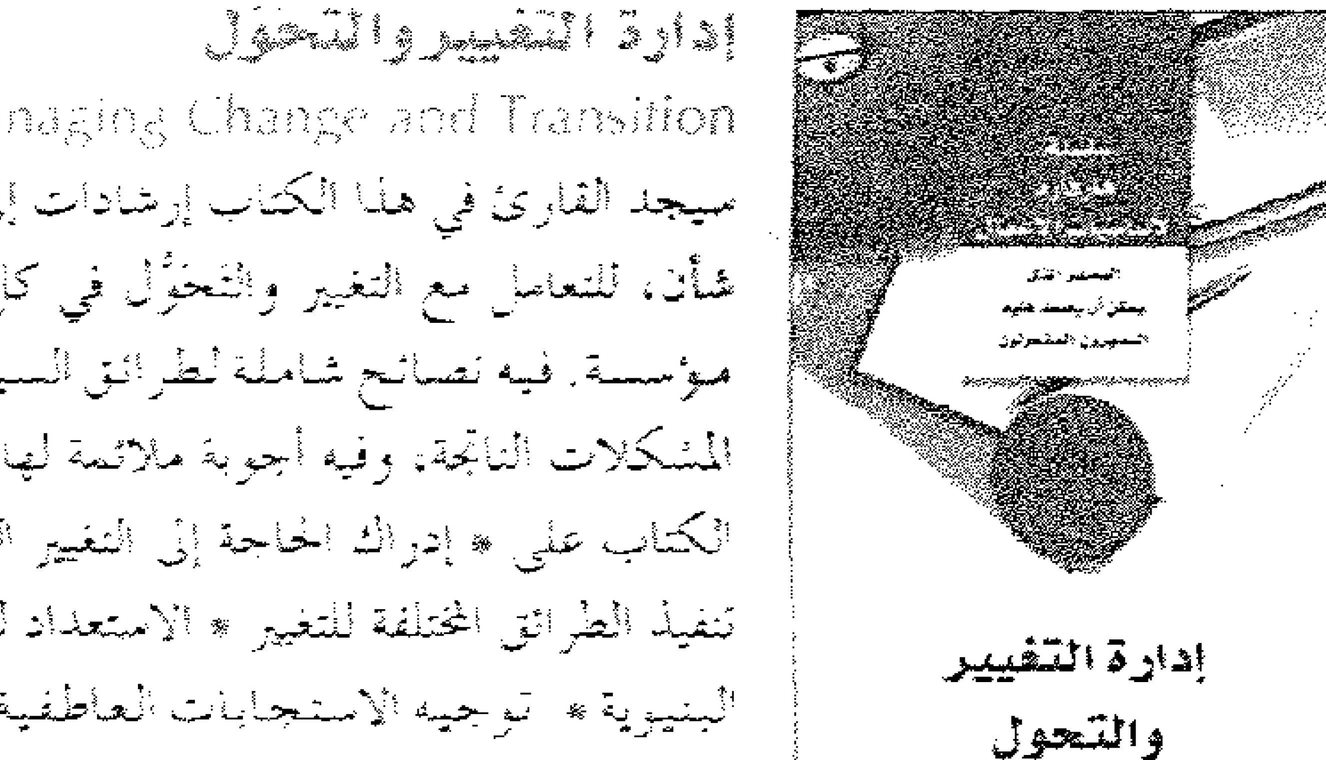
المفاهيم المالية الأساسية للمديرين

Finance For Manager

يُعدُّ حساب وتقييم الصحة المالية العامة للعمل جزءاً هاماً لأي موقع إداري. وهذا الكتاب سهْل الاستعمال وليس ذا طابع فنّي، ويزوّد القارئ بالمعارف المالية الأساسية، ويقدّم للمديرين نصائح ذكيّة يحتاجون إليها لزيادة تأثيرهم في التخطيط، ووضع الموازنات، والتوقعات. يشتمل الكتاب على * قراءة القوائم المالية وفك رموزها * تطبيق مفاهيم تحديد القيمة * تمويل العمليات والنمو * استخدام أدوات قيمة الوقت بالنسبة إلى المال * اتخاذ قرارات أفضل بصدد الاستثمارات الداخلية والخارجية. **مرشد السلسلة الذي أشرف على الكتاب هو** صامويل هيز، رئيس إنفستمنت بانكنغ إيمريتوس في كلية جامعة هارڤارد للأعمال.

* ثمن النسخة بالغلاف $10.30





إدارة التغيير والتحوّل

Managing Change and Transition

سيجد القارئ في هذا الكتاب إرشادات إلى كل ذي شأن، للتعامل مع التغيير والتحوّل في كل عمل أو مؤسسة. فيه نصائح شاملة لطرائق السيطرة على المشكلات الناتجة، وفيه أجوبة ملائمة لها. ويشتمل الكتاب على * إدراك الحاجة إلى التغيير التنظيمي * تنفيذ الطرائق المختلفة للتغيير * الاستعداد لتحولات البنيوية * توجيه الاستجابات العاطفية لتخفيف حجم المشكلات والمساعدة على التكيف معها * الحفاظ على المنافسة خلال فترة التغيير المطلوب. **مرشد السلسلة الذي أشرف على الكتاب هو** البرفسور مايك بير، أستاذ في إدارة الأعمال في كلية هارڤارد للأعمال.

* ثمن النسخة بالغلاف $7.75



شركة الحوار الثقافي ش.م.م

بيروت، ص.ب. 6750 - 13 لبنان

هاتف: 802444-1-961+ • فاكس: 790718-1-961+

E-mail: info@interculturalbooks.com • http://www.interculturalbooks.com

تُطلب كتب شركة الحوار الثقافي في جميع البلاد العربية من

دار الوراق للنشر والتوزيع - بيروت - لبنان

E-mail: warrak@interculturalbooks.com

كما تُطلب في الدول التالية من:

مصر : دار العلوم ـ القاهرة، هاتف : 5761400 **في المملكة العربية السعودية من:** دار الوراق ومن: مكتبة جرير في جميع فروعها. **وفي الكويت من:** مكتبة جرير ومن: الشركة المتحدة لتوزيع الصحف والمطبوعات. **وفي قطر من:** مكتبة جرير. **وفي البحرين من:** المكتبة الوطنية، المنامة **وفي أبو ظبي من:** مكتبة الجامعة ومكتبة جرير. **وفي لبنان من:** دار الفرات للنشر والتوزيع 1-961+ 750054. **وفي الأردن من:** الأهلية للنشر والتوزيع 4638688-6-962+. **وفي سورية:** من دار الثُّريّين، دمشق 2230914-11-963+. **وفي المغرب من:** المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء.

فقط مع البنك العربى .. **قروض ميسرة** تصل إلى

٢٥,٠٠٠ جنيه مصرى



** أحقية الحصول على القروض ترجع إلى سياسات وقرارات البنك العربى

RESALA









قرض السيارة الجديدة | قرض السيارة المستعملة | القرض النقدى | قرض موظفى البنوك | قرض الأطباء | برنامج جيت كاش





الحصول على خدمات
إلكترونية فريدة



إصدار بطاقة صراف آلى



البنك العربى

أكبر شبكة مصرفيّة عربيّة

إتصل الآن على ١٩١٠٠ أو ٢٣١٩٩٢٢
يومياً من ٩ صباحاً حتى ٩ مساءاً

www.arabbank.com